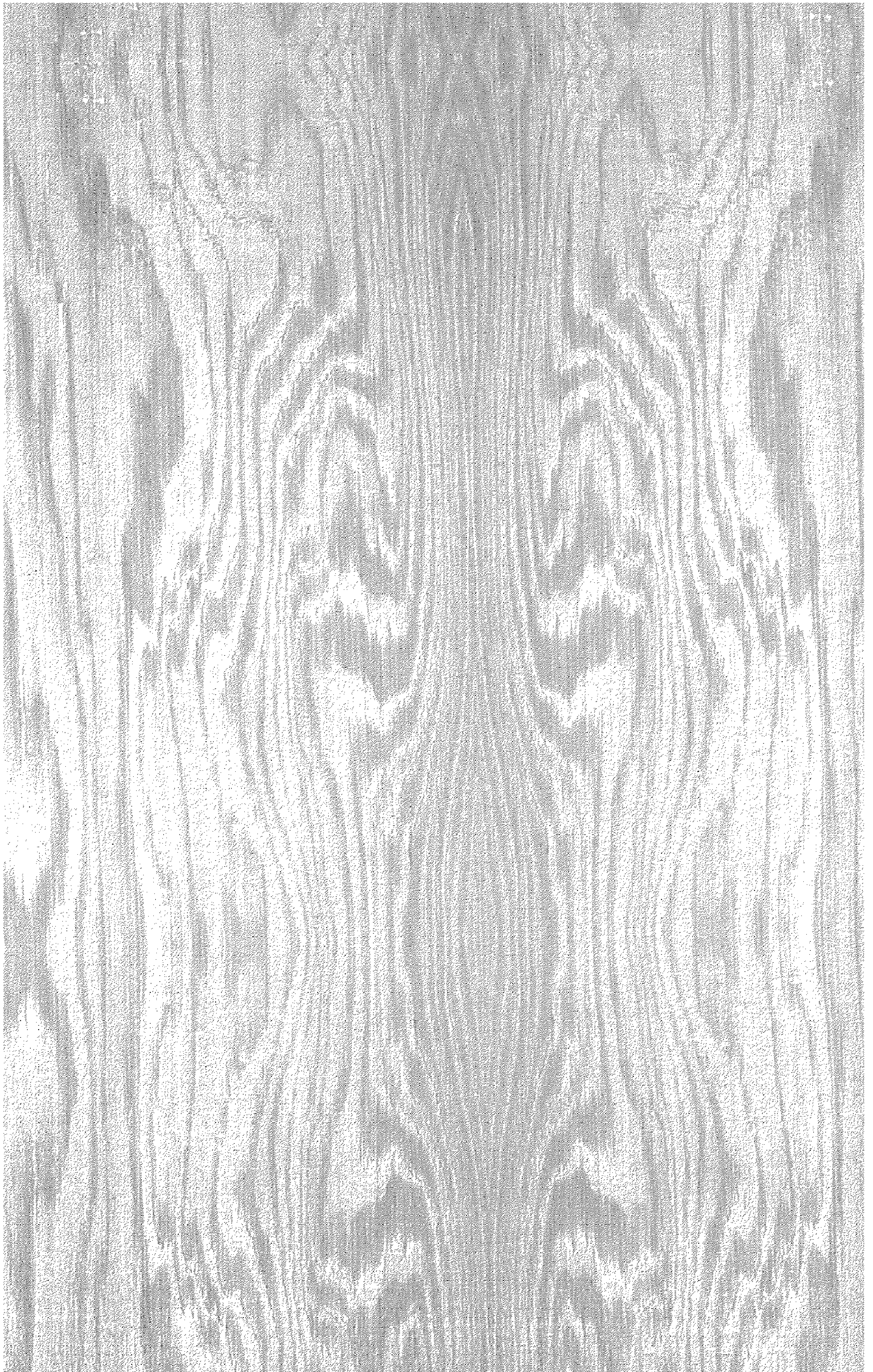
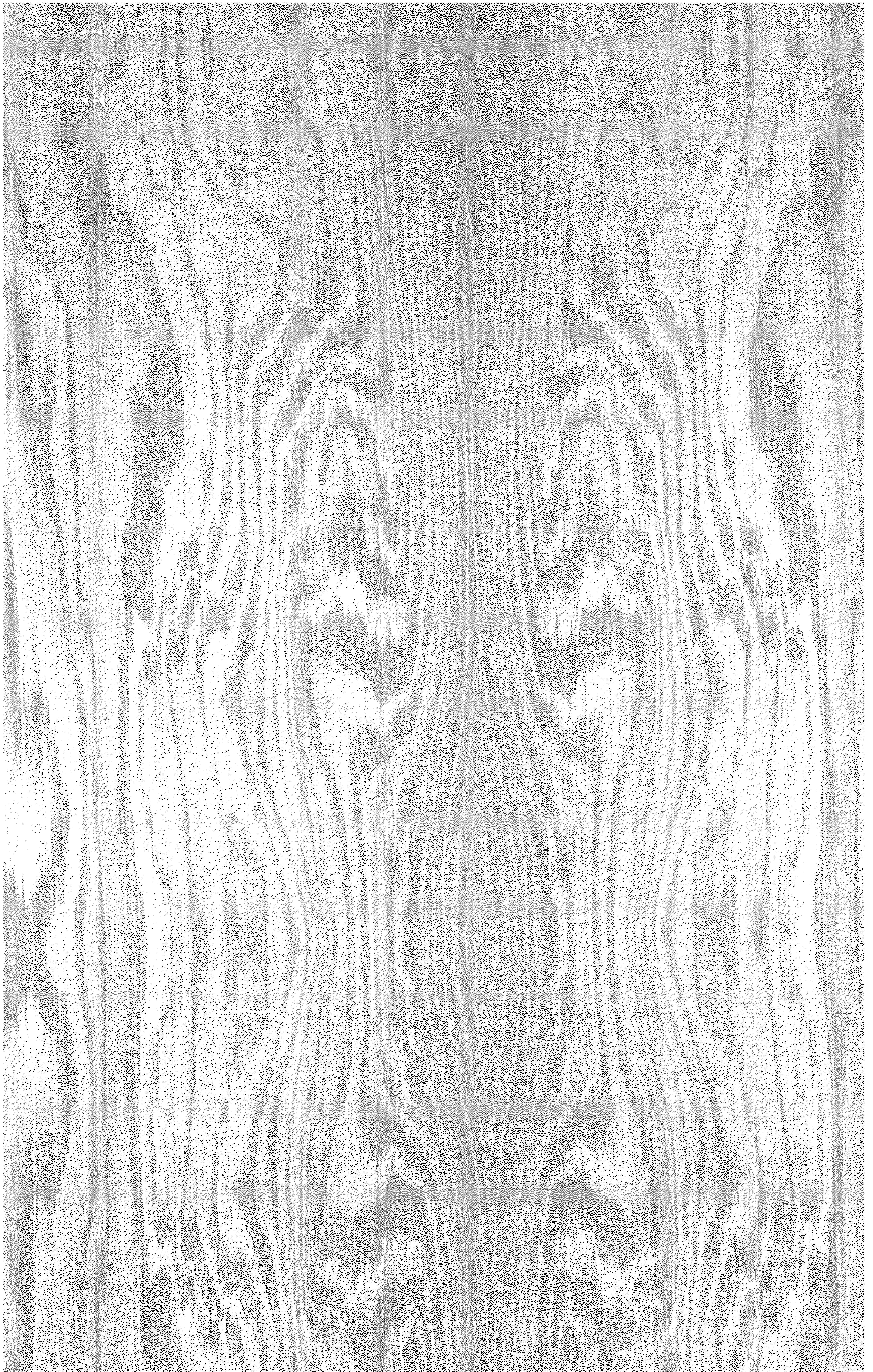








في صحف الأولين
وقطوف من السيرة المحمدية

إعداد

محاسن الاسكندراني

الجزء الثاني

رقم الإيداع
٢٠٠٦/٢٢٩٧٥
الترقيم الدولى I.S.B.N
977-17-4065-2

﴿ بــدء الجهـــاد ﴾

دخل الإســلام المدينة وأحـزاب الكفـر تطارده من كل نـاحـيـة ، فـأوى المسلمون إلى مـهـجـرهم كـمـا يـأوى الجندى إلى قلعتـه الشـامـخة .. فـأخذوا يستعدون حتى لا تقتحم عليهم من أقطارها .

وهم قد تعلموا من السنين الغبر التى مرت عليهم فى مكة أن الضعف مدرجة إلى الهوان مزلقة إلى الفتنة ، والمرء لا يُقدِّر العافية حق قدرها إلا بعـد الإبلال من المرض ، ولا يعـرف قـيـمـة الغنى إلا عند التـخلص من ذل الحاجة .

ومن أولى من المهاجرين والأنصار بالإفادة من عِبرَ الماضى ؟!
ذلك نبـيـهم تعـقبـه القـتلة ألف مـيل ليـغـتـالوه ، وذلك سواد المهـاجـرين نُهِبَ مـالهم ، وسُلبت دورهم وشُرِّدوا من البلد الحـرام ، إن حـالة الحـرب قـائمـة - يقينا - بين طغـاة مكة وبين المسلمين فى وطنهم الجديد .. ومن السفه تحميل المسلمين أوزار هذا الخصام .

على أن العــداوة للنبى ﷺ وصحـبـه تجاوزت قـريشـا إلى غـيـرهم من مـشـركى الجـزيرة الضـاله .. ولن تذهب الفـروض بنا بعـيـدا ، فـإن عـبـدة الأصنام من أهل المدينه نفسـهـا ، شرعـوا يجاهرون بخصـومـتـهم للإسلام ، وانضم إلى هؤلاء وأولئك اليـهـود - كـمـا شرحنا آنفاً - الذين أوجسـوا من إنتشار الإسلام ، واندحار الوثنية العربية أمامه .

فـمـا بُدُّ - إذا - من التـأهب لكل طارئ ، والتـربص بكل هاجم ، وتجهيز القوة التى تؤدب المجرمين يوم يتطاولون ، والقتـال الذى شرعه الإسلام ، وخاض معاركه الرسول ﷺ وصحابته ، هو أشرف أنواع الجهاد .

وبالإستدلال العلمى والإستقراء التاريخى فيما ذكرت الكتب[1] فى هذا الموضوع - أن الحروب التى اشتبك فيها الإسلام - على عهد رسول اللهﷺ وخلفائه - كانت فريضة لحماية الحق ، ورد المظالم ، وقمع العدوان ، وكسر الجبابرة .

أما تخرص المستشرقين والحقدة على الإسلام من أهل الأديان الأخرى ، والادعاء بأن المسلمين جنحوا إلى القوة حيث لا مبرر لها ، فذلك كله لغو طائش ، وهو جزء من الحملة المدبرة لمحو الإسلام من الأرض ، واستبقاء أهله عبيدا للصليبيه والصهيونية وما إليهما .

وما من أيام القتـال فيهن أوجب على المسلمين من أيام يهدد فيها الإسلام وآله بالفناء وتتألب عليه شتى القوى ، بل يصطلح ضده الخصوم الألداء !! محاولين سحقه إلى الأبد ...

قد وقع ذلك فى صدر الإسلام ، قبل الهجرة وبعدها ، ووقع أيضا فى هذه الأيام !! فسقطت أوطان الإسلام فى أيدى لصوص الأرض ، ثم رسمت أخبث السياسات للذهاب به رويداً رويداً فكيف تستغرب الدعوة إلى التسلح ، والإهابة بأهل النجدة أن يوطنوا أنفسهم على التضحية فى سبيل الله وكيف تستنكر صناعة الموت فى أمة يتواثب حولها الجزارون من كل فج؟!! .. كلا .. كلا . .

----

(١) كتاب (الإسلام والاستبداد السياسى) و (التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام) للإمام محمد الغزالى .

« ولا يحسبن الذين كفروا سبقوا ، إنهم لا يعجزون ، وأعدوالهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم ، وما تنفقوا من شئ فى سبيل الله يوف إليكم وأنتم لا تظلمون ، وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم وإن يريدوا أن يخدعوك فإن حسبك الله .. »[1].

﴿ التدريب على فنون الحرب ﴾

وتمشيا مع توجيه الوحى وسياسة الواقع وحفاظا على حق الله وحق الحياه .. دَرَّبَ النبى ﷺ رجاله على فنون الحرب ، واشترك معهم فى التمارين ، والمناورات ، والمعارك وَعَدَّ السعى فى هذه الميادين خطوات إلى أجَلِّ القُرَبِ ، وأقدس العبادات : لعله بذلك يفل شوكة الكفر ، ويكسر عن المسلمين أذاه .

« فقاتل فى سبيل الله لا تكلف إلا نفسك وحرض المؤمنين عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأسا وأشد تنكيلاً »[2].

عن عقبه بن عامر قال : سمعت رسول الله ﷺ وهو على المنبر يقول :

« وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ، ألا إن القوة الرمى .. ألا إن القوة الرمى »[3].

----

(١) سورة الأنفال : الآيات : ٥٩-٦٠-٦١-٦٢ .

(٢) سورة النساء الآيه ٨٤ .

(٣) حديث صحيح أخرجه مسلم (٥٢/٦) وابو داود (٣٩٤/١) ، والترمذى (١٢٢/٣) وابن ماجه (١٨٨/٢) وأحمد (١٥٧/٤) من حديث عتبه بن عامر .

والحديث ينوه بما لإصابة الأهداف من أثر حاسم في كسب المعارك والرمى أعم من أن يكون : بالسهام ، أو بالرصاص ، أو بالقنابل .

وعن فقيم اللخمى قال : قلت لعقبه بن عامر : تختلف بين هذين الغرضين - تتردد بينهما - وأنت شيخ كبير يشق عليك ؟

قال عقبة : لولا كلام سمعته من رسول الله ﷺ لم أعانه : قال : وما ذاك ؟

قال : سمعته يقول : من تعلم الرمى ثم تركه فليس منا[1] .

فانظر كيف يُبقى الشيوخ المسنون على دربتهم فى إصابه الهدف، ومهارة اليد ، ونشاط الحركة ؟ إن الإسلام يفترض المقدرة على القتال ، فيوجبها على الشباب والشيوخ جميعا . وعن أبى نجيح السلمى قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« من بلغ بسهم فهو له درجة فى الجنة »[2] فبلغت يومئذ عشرة أسهم وسمعته يقول :

« من رمى بسهم فى سبيل الله فهو عدل رقبة محررة » .

وعن عقبه بن عامر : سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« إن الله عز وجل ليدخل بالسهم الواحد ثلاثة نفر الجنة :

١ - صانعه يحتسب فى عمله الخير .

٢ - الرامى به .

٣ - ومنبله - الممد به - فارموا واركبوا ، وإن ترموا أحب إلى من أن تركبوا .

كل لهو باطل ، ليس من اللهو محمودا إلا ثلاثه :

١ - تأديب الرجل فرسه ٢ - وملاعبته أهله

٣ - ورميه بقوسه

----

(١) حديث صحيح اخرجه مسلم(٦/٥٢) .

(٢) حديث صحيح أخرجه أبو داود (١٦٥/٢) والنسائى (٥٩/٢) وأحمد (٣٨٤/٤).

فإنهن من الحق ، ومن ترك الرمى بعد ما علمه رغبة عنه ، فإنها نعمة تركها أو كفرها »[1].

وعن ابن عمر : « الخيل معقود فى نواصيها الخير الى يوم القيامة ، الأجر والغنيمة »[2] .

وهذا ترغيب من رسول الله ﷺ فى تعليم الفروسية ، وأبراز لون معين من ألوان القتال ، لا يحط من قيمة الألوان الأخرى ، أو يؤخر فى منزلتها . ألا ترى كيف حضَّ النبى ﷺ على تعلم القتال فى البحر فقال :

« غزوة فى البحر خير من عشر غزوات فى البر ، ومن أجاز البحر فكأنما أجاز الأودية كلها ، والمائد فيه - الذى يصيبه الدوار والقئ - كالمتشحط فى دمه »[3].

والدول تحتاج إلى الكتائب فى البر ، والأساطيل فى البحر والجو .

وكل سلاح عون لأخيه فى إدراك النصر ، وأسبق الجند إلى رضوان الله أعظمهم نيلا من العدو ، وأرعاهم لذمام أمته وشرف عقيدته ، سواء مشى، أم رمى ، أم أبحر ، أم طار .....

---

(١) فى سنده اضطراب كما قال الحافظة العراقى فى (تخريج الإحياء) (٦/٢٥٢) وبيانه أنه رواه عبد الرحمن بن يزيد بن جابر عن أبى سلام عن خالد عن زيد بن عقبة ، به أخرجه أبو دواد (١/٣٩٣)، ٣٩٤)

(٢) حديث صحيح مرفوع أخرجه البخارى (٦/ ٤١-٤٣) من حديث ابن عمر وعروة البارقى وليس فى حديث ابن عمر : « الأجر والغنيمة » فلو عزى الحديث لعروة كان أولى .

(٣) حديث صحيح أخرجه الحاكم (٢/١٤٣) من حديث عبد الله بن عمرو وقال : صحيح على شرط البخارى ووافقه الذهبى .

﴿ السرايا والغزوات ﴾

تنوية عن عدد الغزوات والسرايا:

كان عدد الغزوات التى خرج فيها رسول الله ﷺ بنفسه غازيا سبعا وعشرين، وقد قاتل بنفسه فى تسع منها هى : بدر ، وأحد ، وبنى المصطلق ، والخندق ، وقريظه ، وخيبر وفتح مكة ، وحنين ، والطائف .

ويلغ عدد سراياه وبعوثه سبعا وأربعين وقيل : بل نحوا من ستين .

لما استقر أمر المسلمين... بدأوا يرسلون سراياهم المسلحة تجوس خلال الصحراء المجاورة ، وتخترق طرق القوافل المارة بين مكة والشام ، وتستطلع أحوال القبائل الضاربة هنا وهناك .

أقام رسول الله ﷺ بقية شهر ربيع الأول الذى وصل فيه إلى المدينة .. ومضت الأيام والشهور بالأحداث التى ذكرناها .. شهر ربيع الآخر ، وجمادى الأولى ، وجمادى الآخره، ورجب وشعبان ... وفى شهر رمضان أى بعد حوالى ستة أشهر ابتدأ فى إرسال السرايا .

﴿ ١ - سريه حمزة رضى الله عنه إلى سيف البحر[1] ﴾

بعث رسول الله ﷺ حمزة بن عبد المطلب بن هاشم الى سيف البحر من ناحية العيص، فى ثلاثين راكبا من المهاجرين ليس فيهم من الأنصار أحد ، فلقى أبا جهل بن هشام بذلك الساحل في ثلثمائة راكب من أهل مكة ، فحجز بينهم مجدى بن عمرو الجهنى ، وكان موادعا للفريقين جميعا فانصرف بعض القوم عن بعض ، ولم يكن بينهم قتال .

---

(١) بعض الناس يقول : كانت راية حمزة أول راية عقدها رسول الله ﷺ، وبعضهم عن ابن اسحق يقول: كانت رايه عبيد بن الحارث أول راية عقدها رسول الله والظاهر أن بعثتى حمزه والحارث كانتا فى وقت واحد فشبه ذلك على الناس .

٢ - ﴿ سرية عبيدة بن الحارث ﴾

وفى شوال من السنة نفسها ، سار عبيدة بن الحارث فى ستين راكبا إلى وادى رابغ ، فالتقى بمائتى مشرك على رأسهم أبو سفيان وقد ترامى الفريقان بالنبل ولم يقع قتال ، إلا أن سعد بن أبى وقاص قد رمى يومئذ بسهم فكان أول سهم رمى فى الإسلام .

٣ - ﴿ سرية سعد بن أبى وقاص ﴾

وفى ذى القعدة من السنة نفسها خرج سعد بن أبى وقاص فى نحو عشرين رجلا يعترض عيرا لقريش ففاتته .

١ - ﴿ غزوة ودان أو الأبواء ﴾

وهى أول غزواته ﷺ ، خرج رسول الله ﷺ غازيا فى صفر من السنة الثانية واستعمل على المدينة « سعد بن عبادة » خرج يريد قريشا ، وبنى ضمرة ، وبنى بكر بن عبد مناة بن كنانه ، فوادعته فيها بنو ضمره ، وكان الذى وادعه منهم عليهم (مخشى بن عمرو الضمرى) وكان سيدهم فى زمانه ذلك، ثم رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة ولم يلق كيداً ، فأقام بها بقية صفر ، وصدرا من شهر ربيع الأول .

٢ - ﴿ غزوة بواط ﴾

وفى ربيع الأول من السنه الثانية غزا رسول الله ﷺ يريد قريشا واستعمل على المدينة « السائب بن عثمان بن مظعون » حتى بلغ بواط ، من ناحية رضوى ، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيدا ، فلبث بها بقية شهر ربيع الاخر وبعض جمادى الأولى .

٣ - غزوة العشيرة

وفي جمادى الأولى خرج رسول الله ﷺ غازياً قريشاً واستعمل على المدينة « أبا سلمة بن عبد الأسد » فسلك على نقب بني دينار ، ثم على فيفاء الخبار ... فنزل تحت شجرة ببطحاء ابن أزهر « يقال لها ذات الساق » فصلى عندها .. وصنع له عندها طعام ، فأكل منه وأكل الناس معه ، فموضع (أثافي البرمة) معلوم هنالك، واستقى له من ماء به يقال له : (المشترب) ، ثم ارتحل رسول الله ﷺ ، فترك الخلائق بيسار ، وسلك شعبة يقال لها شعبة عبدالله وذلك إسمها اليوم . ثم صب لليسار حتى هبط بليل فنزل بمجتمعه ومجتمع الضبوعة ، واستقى من بئر بالضبوعة ، ثم سلك الفرش - فرش ملل - حتى لقى الطريق بصخيرات اليمام ، ثم اعتدل به الطريق حتى نزل العشيرة من بطن ينبع ، فأقام بها جمادى الأولى ، وليالي من جمادى الآخرة ووادع فيها « بني مدلج » وحلفائهم من « بني ضمرة » ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيدا .

٤ - ﴿ غزوة سفوان وهي غزوة بدر الأولى ﴾

ولم يقم الرسول ﷺ بالمدينة - حين قدم من غزوة العشيرة - إلا ليالي قلائل لا تبلغ العشر حتى أغار (كرز بن جابر الفهري) على سرح المدينة ، فخرج رسول الله ﷺ في طلبه واستعمل على المدينة (زيد بن حارثه) حتى بلغ واديا يقال له : سفوان من ناحية بدر ، وفاته كرز بن جابر فلم يدركه (وهي غزوة بدر الأولى) ثم رجع رسول الله ﷺ إلى المدينة فأقام بها بقية جمادى الآخرة وجزء من رجب .

ولنتوقف هنا لحظات قبل الاسترسال في سرد باقي الغزوات والسرايا حتى نشير إلى الحكمة في توجيه هذه الغزوات وتلك السرايا :

والحكمة على ذلك النحو المتتابع تتلخص فى أمرين :

أولهما : إشعار مشركي يثرب ويهودها، وأعراب البادية الضاربين حولها بأن المسلمين أقوياء ، وأنهم تخلصوا من ضعفهم القديم ، ذلك الضعف الذى مكن قريشا فى مكة من مصادرة عقائدهم وحرياتهم، واغتصاب دورهم وأموالهم .. ومن حق المسلمين أن يعنوا بهذه المظاهرات العسكرية على ضآلة شأنها .

فإن المتربصين بالإسلام فى المدينة كُثرٌ .. ولن يصدهم عن النيل منه إلا الخوف وحده وهذا تفسير قوله تعالى : « **ترهبون به عدو الله وعدوكم وآخرين من دونهم لا تعلمونهم الله يعلمهم** »[1] والصنف الأخير هم المنافقون الذين يبغضون الإسلام وأهله ، ولا يمنعهم من إعلان السخط عليه إلا الجبن وسوء المغبة ، أما الأولون فهم المشركون ولصوص الصحراء وأشباههم ممن لا يبالون - لولا هذه السرايا - الهجوم على المدينة واستباحة حماها .

وقد كان من الجائز أن تتكرر حادثه (كرز بن جابر) السابقة ، ويتجرأ البدو على تهديد المدينة حيناً بعد حين .. غير أن هذه السرايا الزاحفة قتلت نيات الطمع ، وحفظت هيبة المسلمين .

وثانيهما : إنذار قريش عقبى طيشها .

فقد حاربت الإسلام ، ولا تزال تحاربه ، ونكلت بالمسلمين فى مكة ثم ظلت ماضية فى غيها لا تسمح لأحد من أهل مكة أن يدخل فى دين الله ، ولا تسمح لهذا الدين أن يجد قرارا فى بقعة أخرى من الأرض ، فأحب الرسول ﷺ أن يشعر حكام مكة بأن هذه الخطة الجائرة ستلحق بهم الأضرار

---

(١) سورة الأنفال : من الآيه : ٦٠

الفادحة.. وأنه قد مضى .. إلى غير عودة - ذلك العصر الذى كانوا يعتدون فيه على المؤمنين وهم بمأمن من القصاص .

والمستشرقون الأوربيون ينظرون إلى هذه السرايا كأنها ضرب من قطع الطريق .. وهذه النظره صورة للحقد الذى يعمى عن الحقائق، ويتيح للهوى أن يتكلم ويحكم كيف يشاء .

وقد ذكرنى هذا الاستشراق المغرض بما حكوه عند قمع الإنجليز لثورة الأهلين فى أفريقيا الوسطى - مستعمرة كينيا - وهم يطلبون الحرية لوطنهم ويحاولون إجلاء الأجانب عنه .. قال جندى انجليزى لآخر - يصف هؤلاء الأفريقيين - إنهم وحوش .. تصور أن أحدهم عضنى وأنا أقتله ؟!!!

إن هذه الأضحوكة صورة من تفكير المستشرقين فى إنصاف أهل مكة ، والنعى على الإسلام وأهله .

٤ - ﴿ سرية عبد الله بن جحش ونزول (يسألونك عن الشهر الحرام ﴾

وفى أواخر شهر رجب من السنة الثانية بعث رسول الله ﷺ « عبد الله بن جحش» فى رهط من المهاجرين حوالى ثمانية وليس فيهم أحد من الأنصار ، وكتب له كتابا ، وأمره ألا ينظر فيه إلا بعد مسيرة يومين ، فإذا نظر فيه ، ووعى ما كلفه الرسول ﷺ به ، مضى فى تنفيذه غير مستكره أحدا من أصحابه .

فسار عبد الله .. ثم قرأ الكتاب بعد يومين فإذا به : « إذا نظرت فى كتابى هذا فامض حتى تنزل (نخلة) بين مكة والطائف ، فترصد بها قريشا وتعلم لنا من أخبارهم » .

فقال عبد الله : سمعاً وطاعة ، ثم قال لأصحابه : قد أمرنى رسول ﷺ

أن أمضى إلى نخلة ، أرصد بها قريشا ، حتى آتيه منها بخير وقد نهانى أن أستكره أحداً منكم ، فمن كان يريد الشهادة ، ويرغب فيها فلينطلق معى ، ومن كره ذلك فليرجع ، فلم يتخلف منهم أحد ، غير أن البعير الذى كان يعتقبه (سعد بن أبى وقاص) و (عتبه بن غزوان) نَدَّ منهما ، فشغلا بطلبه ومضى عبد الله برفاقه حتى نزل أرض نخلة ، فمرت به عير لقريش تحمل زبيباً وأدماً وتجارة من قريش فيها (عمرو بن الحضرمى) و(عثمان بن عبد الله بن المغيرة) وأخوه (نوفل بن عبد الله) المخزوميان ، و(الحكم بن كيسان) مولى هشام بن المغيرة .

فلما رآهم القوم هابوهم ، وقد نزلوا قريبا منهم فأشرف لهم عكاشه بن محصن - أحد المرافقين لعبد الله بن جحش - وكان قد حلق رأسه ، فلما رأوه أمنوا .. وتشاور القوم فيهم .. وذلك فى آخر يوم من رجب فقال القوم : والله لئن تركتم القوم هذه الليله ليدخلن الحرم فليمتنعن منكم به ، ولئن قتلتموهم لتقتلنهم فى الشهر الحرام .. فتردد القوم ، وهابوا الإقدام ، ثم مالبثوا أن شجعوا أنفسهم عليهم ، وأجمعوا على قتل من قدروا عليه منهم،وأخذ ما معهم ...

فرمى (واقد بن عبد الله التميمى) عمرو بن الحضرمى بسهم فقتله ، واستأسر عثمان بن عبد الله والحكم بن كيسان، وأفلت القوم نوفل بن عبدالله ، فأعجزهم .

وأقبل عبد الله بن جحش وأصحابه بالعير والأسيرين حتى قدموا على رسول الله ﷺ فى المدينة .

فلما قدموا على رسول الله ﷺ قال : « ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام » ووقف التصرف فى العير والأسيرين .

فلما قال ذلك رسول الله ﷺ سقط فى أيدى القوم ، وظنوا أنهم قد هلكوا وعنفهم إخوانهم من المسلمين فيما صنعوا ، وقالت قريش : قد استحل

محمد وأصحابه الشهر الحرام ، وسفكوا فيه الدم ، وأخذوا فيه الأموال ، وأسروا فيه الرجال .

ووجد المشركون فيما حدث فرصة لاتهام المسلمين بأنهم قد أحلوا ما حرم الله .. وكثر فى ذلك القيل والقال حتى نزل الوحى حاسما هذه الأقاويل ، ومؤيدا مسلك عبد الله بن جحش تجاه المشركين :

« يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصدٌ عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ... »[1].

إن الضجة التى افتعلها المشركون لإثارة الريبة فى سيرة المقاتلين المسلمين لا مساغ لها ، فإن الحرمات المقدسه قد أُنتهكت كلها فى محاربة الإسلام ، واضطهاد أهله .. فما الذى أعاد لهذه الحرمات قد استها فجأة ، فأصبح انتهاكها مَعَرَّة وشناعة ؟!

ألم يكن المسلمون مقيمين فى البلد الحرام حين تقرر قتل نبيهم وسلب أموالهم ؟! لكن بعض الناس يرفع القوانين إلى السماء عندما تكون فى مصلحته .. فإذا رأى هذه المصلحة مهددة بما ينتقصها هَدَمَ القوانين والدساتير جميعا .

فالقانون المرعى - عنده فى الحقيقة - هو مقتضيات هذه المصلحة الخاصة فحسب .

ولقد أوضح الله عز وجل أن المشركين لن يحجزهم « شهر حرام » أو « بلد حرام » عن المضى فى خطتهم الأصلية .. وهى سحق المسلمين حتى لا تقوم لدينهم قائمة فقال : **« ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا »**[2] .

---

(١) سورة البقرة من الآيه ٢١٧ . (٢) سورة البقرة من الآيه ٢١٧ .

ثم حَذَّر المسلمين من الهزيمة أمام هذه القوى الباغية والتفريط فى الإيمان الذى شرفهم الله به .. وناط سعادتهم فى الدنيا والآخرة بالبقاء عليه فقال : « **ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم فى الدينا والآخره وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** »[1] .

وزكّى القرآن عمل عبد الله بن جحش وصحبه ، فقد نفذوا أوامر الرسول ﷺ بأمانة وشجاعة وتوغلوا فى أرض العدو مسافات شاسعة متعرضين للقتل فى سبيل الله ، متطوعين لذلك من غير مكره أو محرج .

والقرآن الذى نزل فى فعال هذه السرية ، لم يدع مجالاً للهوادة مع المشركين المعتدين مما كان له أثره البعيد لدى المسلمين وخصومهم . فبعد أن كان أغلب المكتتبين فى السرايا السابقة من المهاجرين أخذت البعوث الخارجة تتألف من المهاجرين والأنصار معاً .

وزاد الشعور بأن الكفاح المرتقب قد يطول مداه ، وتكثر تبعاته ، ولكنه كفاح مستحب مقرون بالخير العاجل والآجل .

وأدركت مكة أنها مؤاخذة بما جَدَّ أو يجدُّ من سيئاتها ، وأن تجارتها مع الشام أمست تحت رحمة المسلمين .

وهكذا اتسعت الهوة .. وزادت بين الفريقين الجفوة .

وكأن هذه الأحداث الشداد هى المقدمة لما أعده القدر بعد شهر واحد من وقوعها ، عندما جمع رجالات مكة .. وخيرة أهل المدينة على موعد غير منظور فى « بدر » .

----

(١) سورة البقرة من الآيه ٢١٧

﴿ تاريخ القبــلة ﴾

قال ابن اسحق :

ويقال : صرفت القبلة فى شعبان على رأس ثمانية عشر شهرا من مقدم الرسول ﷺ المدينة من المسجد الأقصى إلى الكعبة المشرفة .

★★★

٥ - ﴿ غزوة بدر الكبرى ﴾

ترامت الأنباء ليثرب أن قافلة ضخمة تهبط على مشارف الشام عائدة إلى مكة ، تحمل لأهلها الثروة الطائله ، ألف بعير موقرة بالأموال يقودها «أبو سفيان بن حرب» مع رجال لا يزيدون عن الثلاثين أو الأربعين .

إن الضربه التى. تنزل بأهل مكة - لوفقدوا هذه الثروة - موجعة حقا ، وفيها عوض كامل لما لحق بالمسلمين من خسائر فى أثناء هجرتهم الأخيرة ! لذلك قال الرسول ﷺ : « هذه عير قريش ، فيها أموالهم ، فأخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها »[١].

لم يعزم الرسول ﷺ على أحد بالخروج، ولم يستحث متخلفا، بل ترك الأمر للرغبة المطلقة، ثم سار - بعد - بمن أمكنه الخروج .

وكان الذين صحبوا الرسول ﷺ هذه المرة يحسبون أن مضيهم فى هذا الوجه لن يعدو ما ألفوا فى السرايا الماضية ، ولم يدر بخلد واحد منهم أنه مقبل على يوم من أخطر أيام الإسلام ، ولو علموا لا تخذوا أهبتهم كاملة ، ولما سمح لمسلم أن يبقى فى المدينة لحظة .

لذلك فترت الهمم عندما وردت أخبار أخرى بأن القافلة المطلوبة غيرت طريقها ، واستطاع قائدهاأبو سفيان أن ينجو من الخطر المحدق به ، بعد أن أرسل إلى أهل مكة يستنفرهم لحماية أموالهم ، ويستثير حميتهم للخروج فى تعبئة تَرُدُّ كل هجوم .

---

(١) حديث صحيح رواه ابن هشام (٢/٦١) عن ابن اسحق بسنده الصحيح عن ابن عباس

وغالب النبى ﷺ هذا الفتور العارض ، وحذّر صحابته من عقبى العود السريع إلى المدينة أن فاتهم مال مكة وخرج إليهم رجالها ، وأصرَّ على ضرورة تعقب المشركين كيف كانوا وذلك قوله تعالى : « **كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لكارهون يجادلونك فى الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون**»[1] .

والذين كرهوا لقاء قريش ما كانوا ليهابوا الموت ولكنهم لم يعرفوا الحكمة فى خوض معركة مباغته دون إتقان ما ينبغى لها من عدد وعدة ، بيد أن رسول الله ﷺ وزن الظروف الملابسة للأمر كله ، فوجد الإقدام خيراً من الإحجام ، ومن ثَمَّ قرر أن يمضى ، فإن الحكمة من توجيه هذه البعوث المسلحة تضيع سدى لو عاد على هذا النحو .

وقد إختفت - على عجل - مشاعر التردد ، وانطلق الجميع خفافا إلى غايتهم .

خرج رسول الله ﷺ فى ليال مضت من شهر رمضان فى أصحابه ، واستعمل (عمرو بن مكتوم - أخا بنى عامر بن لؤى) على الصلاة بالناس . ودفع اللواء إلى (مصعب بن عمير بن هاشم بن عبد مناف بن عبد الدار) وكان أبيض وكان أمام رسول الله ﷺ رايتان سوداوان إحداهما مع (على بن أبى طالب) يقال لها « العقاب » والأخرى مع بعض الأنصار (سعد بن معاذ) .

والمسير بازاء طريق القوافل إلى (بدر) ليس سفراً قاصداً أو نزهة لطيفة ، فالمسافة بين المدينة «وبدر » تربو على « ١٦٠ كيلو متر » ، ولم يكن مع الرسول وصحبه غير سبعين بعيرا يعتقبونها .

---

(١) سورة الأنفال آيه ٥ . ٦ .

روى أحمد عن[1] عبد الله ابن مسعودقال : كنا يوم بدر ، كل ثلاثه على بعير - أى يتعاقبون - وكان أبو لبابة وعلى بن أبى طالب زميلى رسول الله ﷺ ، قال : فكانت عُقبةُ رسول الله ﷺ ، فقالا له : نحن نمشى عنك - ليظل راكبا - فقال : « ما أنتما بأقوى منى على المشى ، ولا أنا بأغنى عن الأجر منكما ».

وبث المسلمون عيونهم يتعرفون أخبار قريش : أين القافلة وأين الرجال الذين قدموا لحمايتها ؟.....

حين أحس أبو سفيان الخطر على قافلته ، بعث « ضمضم بن عمرو الغفارى » إلى مكة يستصرخ أهلها حتى يسارعوا إلى إستنقاذ أموالهم .

واستطاع « ضمضم » هذا ازعاج البلد قاطبة ..

وقد رأت « عاتكه بنت عبد المطلب » عمة رسول الله ﷺ - قبل قدوم ضمضم مكة بثلاث ليال - رؤيا أفزعتها ، فبعثت إلى أخيها العباس بن عبد المطلب فقالت له :

يا أخى والله لقد رأيت الليلة رؤيا أفزعتنى ، وتخوفت أن يدخل على قومك منها شر أو مصيبة ، فاكتم عنى ما أحدثك به .

فقال لها : وما رأيت؟ قالت : رأيت راكبا أقبل على بعير له حتى وقف بالأبطح ثم صرخ بأعلى صوته : ألا انفروا يا لغدر لمصارعكم ، فى ثلاث .. فأرى الناس اجتمعوا إليه ، ثم دخل المسجد والناس يتبعونه ، فبينما هم حوله مثل[2] به بعيرة على ظهر الكعبة ، ثم صرخ بمثلها .. ألا

---

(١) فى المسند رقم (٣٩٠١، ٣٩٦٥) وسنده حسن واخرجه الحاكم (٣/ ٢٠) .

(٢) مَثَلَ - مُثْلا ومثله : مثل بالرجل . نَكَّلَ به ، مثل بالقتيل : جدعه وظهرت أثار فعله عليه تنكيلا (انظر قاموس المنجد) ماده (مثل) .

انفروا لمصارعكم ، في ثلاث ، ثم مثل به بعيره على رأس أبي قبيس، فصرخ بمثلها .. ثم أخذ صخرة فأرسلها ، فأقبلت تهوى ، حتى إذا كانت بأسفل الجبل ارفضت (تفتت) ، فما بقى بيت من بيوت مكة ولا دار إلا دخلتها منها فلقه . قال العباس : والله إن هذه لرؤيا .. وأنت فاكتميها ، ولا تذكريها لأحد .

ثم خرج العباس ، فلقى الوليد بن عتبة بن ربيعة ، وكان له صديقاً ، فذكرها له ، واستكتمه إياها ، فذكرها الوليد لأبيه عتبة .. ففشا الحديث فى مكة حتى تحدثت به قريش فى أنديتها .

قال العباس : فغدوت لأطوف بالبيت ، وأبو جهل بن هشام فى رهط من قريش قعود يتحدثون برؤيا (عاتكه) فلما رآنى أبو جهل قال : يا أبا الفضل إذا فرغت من طوافك فأقبل إلينا ، فلما فرغت أقبلت حتى جلست معهم .

فقال لى أبو جهل : يا بنى عبد المطلب متى حدثت فيكم هذه النبية ؟

قلت : وما ذاك ؟ قال : تلك الرؤيا التى رأت (عاتكه)

فقلت : وما رأت؟ قال : يا بنى عبد المطلب، أما رضيتم أن يتنبأ رجالكم حتى تتنبأ نساؤكم ؟! قد زعمت (عاتكة) فى رؤياها أنه قال : انفروا فى ثلاث فستتربص بكم هذه الثلاث ، فإن يك حقا ما تقول فسيكون، وإن تمض الثلاث ولم يكن من ذلك شئ ، نكتب عليكم كتابا أنكم أكذب أهل بيت فى العرب .

قال العباس : فوالله ما كان منى إليه كبير ، إلا أنى جحدت ذلك ، وأنكرت أن تكون رأت شيئا قال : ثم تفرقنا .

فغدوت فى اليوم الثالث من رؤيا عاتكه ، وأنا حديد مغضب ، أرى أنى قد فاتنى منه أمر أحب أن أدركه منه ، فدخلت المسجد فرأيته ، فوالله

إني لأمشي نحوه أتعرضه ، ليعود لبعض ما قال ، فأقع به - وكان رجلاً خفيفاً ، حديد الوجه ، حديد اللسان ، حديد النظر - إذ خرج نحو باب المسجد يشتد، فقلت في نفسي : ما له ؟ لعنه الله ، أكل هذا فرق مني أن أشاتمه! وإذا هو قد سمع مالم أسمع : صوت ضمضم بن عمرو الغفاري وهو يصرخ ببطن الوادي واقفا على بعيره ، قد جدع بعيره ، وحول رحله ، وشَقَّ قميصه، وهو يقول : يا معشر قريش ، اللطيمة[1] ... اللطيمة ... أموالكم مع أبي سفيان قد عرض لها محمد في أصحابه ، لا أرى أن تدركوها .. الغوث الغوث .. فشغلني عن أبي جهل وشغله عني ما جاء من الأمر .

فتجهز الناس جميعا ، فهم إما خارج ، وإما باعث مكانه رجلا ، وانطلق سواد مكة وهو يغلي ويقول : أيظن محمد وأصحابه أن تكون كعير ابن الحضرمي ؟ كلا والله ... !

وأوعبت[2] قريش يمتطون الصعب والذلول ، فكانوا تسعمائة وخمسين مقاتلا ، معهم مائتا فرس يقودونها ، ومعهم القيان يضربن بالدفوف ، ويغنين بهجاء المسلمين .

إلا أن أبا لهب بن عبد المطلب تخلف ، وبعث مكانه (العاصي بن هشام بن المغيره) وكان قد لاط[3] له بأربعة آلاف درهم كانت له عليه ، أفلس بها ، فاستأجره بها ، على أن يجزئ عنه ، بعثه فخرج عنه ، وتخلف أبو لهب .

---

(١) اللطيمه : الإبل تحمل البر والطيب

(٢)أوعبت : خرجوا كلهم .

(٣) لاط - يليط ليطا : بمعنى اعطاه ، أقرضه ، الحق به انظر المنجد مادة (ل ا ط) .

وولوا وجوههم إلى الشمال ، ليدركوا القافلة (قافلة أبى سفيان) المارة تجاه يثرب هابطة إليهم ، لكن أبا سفيان لم يستنم فى انتظار النجدة المقبلة ، بل بذل أقصى ما لديه من حذر ودهاء ، لمخاتلة المسلمين ، والإفلات من قبضتهم .. وقد كاد يسقط بالعير جمعاء فى أيديهم وهم يشتدون فى مسيرهم نحو « بدر » غير أن الحظ أسعفه .

روى أنه لقى (مجدى بن عمرو) ، فسأله : هل أحسست أحدا ؟ فقال : ما رأيت أحدا أنكره .. إلا أنى رأيت راكبين أناخا إلى هذا التل .. ثم استقيا فى شنٍّ لهما ثم انطلقا ، فأتى أبو سفيان مناخهما ، وتناول بعرات من فضلات الراحلتين ثم فَتَّها فإذا فيها النوى ، فقال : هذه والله علائف يثرب، وأدرك أن الرجلين من أصحاب محمد ، وأن جيشه هنا قريب ، فرجع إلى العير يضرب وجهها عن الطريق، شارداً نحو الساحل ، تاركاً « بدرا » إلى يساره .. فنجا .

ورأى أبو سفيان أنه أحرز القافلة فأرسل إلى قريش :

إنما خرجتم لتمنعوا عيركم ورجالكم وأموالكم ، وقد نجاها الله ..فارجعوا .. فقال أبو جهل : والله لا نرجع حتى نَرِدَ بدرا ، فنقيم فيه ثلاثاً، ننحر الجذور ، ونطعم الطعام ، ونسقى الخمر ، وتعزف علينا القيان ، وتسمع بنا العرب ، وبسيرنا وجمعنا ، فلا يزالون يهابوننا أبداً .

وهذا الذى عالن به أبو جهل، هو ما كان يحاذره الرسول ﷺ ، فإن تدعيم مكانة قريش وامتداد سطوتها فى هذه البقاع - بعد أن فعلت بالمسلمين ما فعلت - يعتبر كارثة للإسلام ، ووقفا لنفوذه ، وهل كانت السرايا تخرج من المدينة إلا لإعلاء كلمة الله ، وتوهين كلمة الشرك ، وإظهار عبدة الأصنام بمظهر الذى لا يملك نفعا ولا ضرا ؟

لذلك لم يلتفت الرسول ﷺ لفرار القافله ، التفاته لضرورة التجوال المسلح فى هذه الأنحاء ، إبرازا لهذه المعانى القوية ، وتمكيناً لصداها فى القلوب .

وسلك رسول الله ﷺ طريقه من المدينة إلى مكة ، على نقب المدينة ، ثم على العقيق ، ثم على ذى الحليفة ، ثم على أولات الجيش .

ولقوا رجلا من الأعراب ، فسألوه عن الناس ، فلم يجدوا عنده خبرا ، فقال له الناس :

سلم على الرسول ﷺ

قال الأعرابى : أو فيكم رسول الله ؟ قالوا : نعم . فسلم الأعرابى على الرسول ﷺ ثم قال : إن كنت رسول الله ، فأخبرنى عما فى بطن ناقتى هذه؟

قال سلمة بن سلامة بن وقش : لا تسأل رسول الله ﷺ ، وأقبل علىَّ فأنا أخبرك عن ذلك ، نزوت عليها ، ففى بطنها منك سخلة ، فقال رسول الله ﷺ : مَهِ ! أفحشت على الرجل ، ثم أعرض عن سلمة .

ونزل رسول الله ﷺ (سجسج)وهى بئر الروحاء ، ثم إرتحل منها ، حتى إذا كان بالمنصرف ، ترك طريق مكة بيسار وسلك ذات اليمين على النازية يريد « بدرا » ثم بعث (بسبس بن الجهنى) حليف بنى ساعده ، و(عدى بن أبى الزغباء الجهنى) حليف بنى النجار إلى بدر يتحسسان له الأخبار عن أبى سفيان بن حرب وغيره .

أما قريش فقد مضت فى مسيرها ، مستجيبة لرأى أبى جهل حتى نزلت بالعدوة القصوى من وادى بدر .

وكان المسلمون قد إنتهوا من رحيلهم المضنى إلى العدوة الدنيا .

وهكذا إقترب كلا الفرقين من الآخر .. وهو لا يدرى ما وراء هذا اللقاء الرهيب !! وهبط الليل .. فأرسل النبى ﷺ عليا والزبير وسعدا ، يتحسسون الأحوال ويلتمسون الأخبار ... فأصابوا غلامين لقريش كانا يمدانهم

بالماء ، فأتوا بهما وسألوهما - ورسول الله قائم يصلى - فقالا : نحن سقاة قريش بعثونا نسقيهم من الماء . فكره القوم هذا الخبر ، ورجوا أن يكونا لأبى سفيان - لا تزال فى نفوسهم بقايا أمل فى الاستيلاء على القافلة .. فضربوهما ضرباً موجعاً .. حتى اضطر الغلامان أن يقولا : نحن لأبى سفيان فتركوهما ، وركع رسول الله ، وسجد سجدتيه وسلم وقال : إذا صدقاكم ضربتموهما ، وإذا كذباكم تركتموهما صدقا والله إنهما لقريش ، ثم قال للغلامين : أخبرانى عن قريش

قالا : هم وراء هذا الكثيب الذى ترى بالعدوة القصوى

فقال لهما : كم القوم ؟ قالا : كثير قال : ما عدتهم ؟ قالا : لا ندرى .

قال : كم ينحرون كل يوم ؟ قالا : يوما تسعا .. ويوما عشرا

فقال رسول الله ﷺ : القوم ما بين التسعمائه إلى الألف

ثم قال لهما : فمن فيهم من أشراف قريش ؟

قالا : عتبه وشيبة ابنا ربيعة ، وأبو البخترى بن هشام ، وحكيم بن حزام ، ونوفل بن خويلد والحارث بن عامر ، وطعيمة بن عدى ، والنضر بن الحارث ، وزمعه بن الأسود ، وعمرو بن هشام ، وأميه بن خلف ... الخ .

فأقبل رسول الله ﷺ على الناس فقال :

« هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها ...»[1] .

وانكشف وجه الجد فى الأمر ... إن اللقاء المرتقب سوف يكون مر المذاق !! لقد أقبلت قريش تخب فى خيلائها !! تريد أن تعمل العمل الذى يرويه القصيد !! وتذرع المطايا به البطاح !! وتحسم به صراع خمسة عشر عاما مع الإسلام لتنفرد - بعدها - الوثنية بالحكم النافذ .

---

(١) أخرجه ابن هشام (٢/٦٥) عن ابن اسحق عن عروة بن الزبير وهذا اسناد صحيح ولكنه مرسل .

ونظر رسول الله ﷺ حوله ، فوجد أولئك المؤمنين بين مهاجر باع في سبيل الله نفسه وماله .. وأنصارى ربط مصيره وحاضره بهذا الدين الذى افتداه وآوى أصحابه .

فأحب أن يشعر القوم بحقيقة الموقف حتى يبصروا - على ضوئه - ما يفعلون ، إن المرء قد تفجؤه أحداث عابرة - وهو ماض فى طريقه - يحتاج فى مواجهتها لأن يستجمع مواهبه .. وأن يستحضر تجاربه .. وأن يقف أمامها حاد الانتباه مرهف الأعصاب ، وهذه الامتحانات المباغتة أدق فى الحكم على الناس ، وأدل على قيمهم من الامتحانات التى يعرفون ميعادها ، ويتقدمون إليها واثقين مستعدين .

والمسلمون الذين خرجوا لأمر يسير ما لبثوا أن ألفوا أنفسهم أمام إمتحان شاق تيقظت له مشاعرهم ، فشرعوا ، يقلبون - على عجل - تكاليفه ونتائجه ، وثار منطق اليقين القديم فأهاج القوم إلى الخطة الفذة التى لا محيص عنها لمؤمن .

استشار رسول الله ﷺ الناس وأخبرهم عن قريش فقام أبو بكر الصديق فقال وأحسن ، ثم قام عمر بن الخطاب فقال وأحسن ، ثم قام المقداد بن عمرو فقال : يا رسول الله إمض لما أراك الله فنحن معك ، والله لا نقول لك كما قالت بنو إسرائيل لموسى : « **فاذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون**»[1] ولكن إذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون ، فو الذى بعثك بالحق ، لو سرت بنا إلى برك الغماد لجالدنا معك من دونه حتى تبلغه.

فقال رسول الله ﷺ: أشيروا على أيها الناس - وإنما يريد الأنصار ، ذلك أنهم حين بايعوه فى العقبة قالوا : يا رسول الله إنا براءة من ذمامك

---

(١) سورة المائدة : من الآيه : ٢٤

حتى تصل إلى ديارنا ، فإذا وصلت إلينا ، فأنت فى ذمتنا ، نمنعك مما نمنع منه أبناءنا ونساءنا .. فكان رسول الله ﷺ يتخوف ألا تكون الأنصار ترى عليه نَصْرَهُ إلا ممن دهمه بالمدينة من عدوه ، وأن ليس عليهم أن يسير بهم إلى عدو خارج بلادهم .

فلما قال ذلك ، قال له سعد بن معاذ : والله لكأنك تريدنا يا رسول الله .

قال : أجل قال : قد آمنا بك وصدقناك .. وشهدنا أن ما جئت به هو الحق، وأعطيناك على ذلك عهودنا ومواثيقنا على السمع والطاعة ، فامض يا رسول الله لما أردت فنحن معك ، فو الذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا البحر فخضته لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد، وما نكره أن تلقى بنا عدونا غدا ، إنا لَصُبُرٌ فى الحرب .. صُدُقٌ عند اللقاء .. لعل الله يريك منا ما تَقَرُّ به عينك ، فَسِرْ بنا على بركة الله .

فَسُرَّ رسول الله ﷺ بقول سعد ونشطه ذلك ثم قال :

« سيروا وأبشروا فإن الله تعالى قد وعدنى إحدى الطائفتين ، والله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم »[1] .

تأهب المسلمون لخوض المعركة .. وعسكروا فى أدنى ماء من بدر .

فجاء الحباب بن المنذر إلى رسول الله ﷺ فقال : أرأيت هذا المنزل ...

أمنزلا أنزلكه الله ؟ ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه ؟ أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ قال : بل هو الرأى والحرب والمكيدة .

قال : يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل ، إمض بالناس حتى نأتى أدنى ماء من القوم فنعسكر فيه ، ثم نغور ما وراءه من الآبار ، ثم نبنى عليه حوضا فنملأه ماء ، ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون .

---

(١) رواه ابن هشام (٢/٦٣/٦٤) عن ابن اسحق .

فقال رسول الله ﷺ : لقد أشرت بالرأى ، ثم أمر بإنفاذه ، فلم يجيئ نصف الليل حتى تحولوا كما رأى الحباب ، وامتلكوا مواقع الماء[1] .

وقضى المسلمون ليلا هادئ الأنفاس، منير الآفاق ، غمرت الثقة قلوبهم ، وأخذوا من الراحة قسطهم .. وتساقط عليهم مطر خفيف رطّب حولهم الجو، وجعل نسائم الصباح تهب عليهم فتنعش صدورهم، وتجدد أملهم، وكان الرمل تحت أقدامهم دهساً فتلبّد وتماسك ، وجعل حركتهم عليه مُيَسَّرة « **إذ يُغَشِّيكم النعاس أمنة منه وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان ، وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام** »[2] .

وكان رسول الله ﷺ يتفقد الرجال ، وينظم الصفوف، ويسدى النصائح ويذكر بالله والدار الآخرة ، ثم يعود إلى عريش هيئ له ، فيستغرق فى الدعاء الخاشع، ويستغيث بأمداد الرحمن .....

ووقف أبو بكر إلى جوار رسول الله ﷺ، وهو يكثر الابتهال والتضرع ويقول فيما يدعو به : « اللهم إن تهلك هذه العصابه لا تعبد بعدها فى الأرض » .

وجعل يهتف بربه عز وجل ويقول : « اللهم إنجز لى ما وعدتنى ، اللهم نصرك ... » ويرفع يديه إلى السماء حتى سقط رداؤه عن منكبيه ، وجعل أبو بكر يلتزمه من ورائه ويسوى عليه رداءه ويقول :- مشفقا عليه من كثرة الابتهال - :

يا رسول الله بعض مناشدتك ربك ، فإنه سينجزلك ما وعدك[3] .

---

(١) رواه ابن هشام عن ابن اسحق (٦٦/٢) وقد وصله الحاكم (١٢٦/٣-١٢٧) من حديث الحباب .

(٢)سورة الأنفال آيه ١١ .

(٣) حديث صحيح أخرجه مسلم (١٥٦/٥/١٥٧) وأحمد (رقم ٢٠٨ ، ٢٢١) من حديث عمر بن الخطاب وبعضه فى البخارى (٢٣١/٨) من حديث ابن عباس .

﴿ بداية التلاحم ﴾

وتزاحف الجمعان .. وبدأ الهجوم من قِبَلِ المشركين ، إذ هجم الأسود بن عبد الأسد على الحوض الذى بناه المسلمون قائلا : أعاهد الله لأشر بن من حوضهم أو لأهدمنه ، أو لأموتن دونه فتصدى له حمزة بن عبد المطلب ، فضربه ضربة أطارت نصف ساقة ، ومع ذلك حبا إلى الحوض يبغى اقتحامه، وتبعه حمزة يقاتله حتى قتله فيه .

فبرز من المشركين عتبة وشيبة إبنا ربيعة ، والوليد بن عتبه ، فخرج للقائهم فتية من الأنصار فنادوا : يا محمد أخرج الينا أكفاءنا من قومنا .. وقيل إن الرسول ﷺ نفسه هو الذى إسترجع أولئك الأنصار رغبةً منه أن تكون عشيرته أول من يواجه العدو فى مثل هذا الموقف .

فقال : قم يا عبيدة بن الحارث .. قم يا حمزه .. قم يا على ، فبارز عبيدة عُتبة ، وبارز حمزه شيبة ، وبارز علىّ الوليد ، فأما حمزه فلم يمهل شيبة أن قتله .. وكذلك فعل علىّ مع خصمه ، وأما عبيدة وعتبة فقد جرح كلاهما الآخر .

فَكَرَّ حمزة وعلىّ بأسيافهما على عتبة فأجهزوا عليه ، واحتملا صاحبهما[1] عبيدة بن الحارث فجاءوا به إلى رسول الله ﷺ ، فأفرشه الرسول قدمه، فوضع خده على قدمه الشريفة وقال : يا رسول الله ... لو رآنى أبو طالب لعلم أنى أحق بقوله :

ونسلمه حق نُصَرَّعُ دونه ونذهل عن أبنائنا والحلائل

---

(١)روى القصه إلى هنا ابن هشام (٦٧/٢) عن ابن اسحق بدون اسناد ورواها داود (٤١٦/١) من حديث على بدون قصه الأسود واسناده صحيح .

ثم أسلم الروح .....[1] .

واستشاط الكفار غضبا للبداية السيئة التى صادفتهم ، فأمطروا المسلمين وابلا من سهامهم ثم حمى الوطيس وتهاوت السيوف ، وتصايح المسلمون أحد .. أحد ... وأمرهم الرسول ﷺ أن يكسروا هجمات المشركين، وهم مرابطون فى مواقعهم وقال : إن إكتنفكم القوم فانضحوهم عنكم بالنبل، ولا تحملوا عليهم حتى تؤذنوا[2] ..

فلما اتسع نطاق المعركة ، واقتربت من قمتها كان المسلمون قد استنفدوا جهد أعدائهم ، وألحقوا بهم خسائر جسيمة والنبى فى عريشه يدعو الله ويرقب بطولة رجاله وجلدهم .

قال ابن اسحق[3] : خفق النبى ﷺ وهو بالعريش ثم انتبه فقال :

« أبشر يا أبا بكر .. أتاك نصر الله !! ... هذا جبريل آخذ بعنان فرسه يقوده على ثنايا النقع » لقد إنعقد الغبار فوق رءوس المقاتلين ، وهم بين كرٍّ وفرٍّ .. جند الحق يستبسلون لنصرة الرحمن وجند الباطل قد مَلَكَهُمْ الغرور فأغراهم أن يغالبوا القدر .

---

(١) وهذا القدر أورده ابن كثير (٣/٣٧٤) وقال رواه الشافعى ولم يذكر عمن ورواه بنحوه الحاكم (٣/١٧٨) من حديث ابن شهاب مرسلا وليس فيه « ثم اسلم الروح » ويدل على ضعف هذه الزيادة أن الحاكم روى من حديث ابن عباس أن عبيده بن الحارث مات بالصفراء منصرفه من بدر ودفنه رسول الله ﷺ هناك وسنده حسن وصححه الحاكم ووافقه الذهبى .

(٢) رواه ابن اسحق (٦٨/٢) بدون سند وفى البخارى (٢٤٥/٧) عن ابى اسيد قال لنا رسول الله يوم بدر : إذا اكثبوكم فارموهم واستبقوا نبلكم .

(٣) فى المغازى وعند ابن هشام (٦٨/٢-٦٩) بدون سند لكن وصله الأموى من طريق ابن اسحق حدثنى الزهرى عن عبد الله بن ثعلبة بن صغير وهذا سند حسن .

فلا عجب إذا نزلت ملائكة الخير تنفث فى قلوب المسلمين روح اليقين .. وتحضهم على الثبات والإقدام .. خرج رسول الله ﷺ من مكانه إلى الناس فحرضهم قائلا :

« والذى نفس محمد بيده ، لا يقاتلهم اليوم رجل ، فيقتل صابراً محتسباً ، مقبلاً غير مدبر إلا أدخله الله الجنة » .

إن التأميل فى الآخره هو بضاعة الأنبياء ، وهل لأصحاب العقائد وفداة الحق من راحة إلا هناك ؟! وعمل هذا التحريض عمله فى القلوب المؤمنة .

روى أحمد[1] : أن المشركين لما دنوا ، قال رسول الله ﷺ لأصحابه :

« قوموا إلى جنة عرضها السموات والأرض » فقال عمير بن الحمام الأنصارى : يا رسول الله جنة عرضها السموات والأرض ؟ قال : نعم

قال : بَخٍ بَخٍ .

قال : رسول الله ﷺ : وما يحملك على قول : بخ بخ ؟

قال : لا والله يا رسول الله إلا رجاء أن أكون من أهلها ...

قال : فإنك من أهلها ... فأخرج تمرات من قرنه فجعل يأكل منهن ثم قال : لئن أنا حييت حتى آكل تمراتى هذه ، إنها حياة طويلة فرمى ما كان معه من التمر ثم قاتلهم وهو يقول :

ركضاً إلى الله بغير زاد — إلا التقى وعمل المعاد
والصبر فى الله على الجهاد — وكل زاد عرضة النفاد
غير التقى والبر والرشاد

----

(١) فى المسند (٣/١٣٦-١٣٧) بدون الأبيات وكذلك اخرجه مسلم (٦/٤٤-٤٥) والحاكم (٣/٤٢٦) مستدركا على مسلم أخرجوه كلهم عن أنس .

فما زال حتى قتل .

ووهت صفوف المشركين تحت مطارق هذا الإيمان الزاهد فى متاع الحياة الدنيا ..

وراءهم محمد ﷺ وقد نزل بنفسه إلى الميدان يقاتل أشد القتال .. ومعه أصحابه يشتدون نحو عدوهم لا يبالون شيئا ، فانكسرت قريش وأخذها الفزع ...

وصاح النبى عليه الصلاة والسلام وهو يرى كبرياء الكفر تمرغ فى التراب ..

« شاهت الوجوه »[1] « شاهت الوجوه »

فانهزمت قريش ....

وذلك قول الله فى كتابه : « **إذ يوحى ربك الى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقى فى قلوب الذين كفروا الرعب ، فاضربوا فوق الأعناق ، واضربوا منهم كل بنان ، ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ، ومن يشاقق الله ورسوله فإن الله شديد العقاب ذلكم فذوقوه وأن للكافرين عذاب النار** »[2] .

وحاول أبو جهل أن يوقف سيل الهزيمة النازل بقومه ، فأقبل يصرخ بهم، وغشاوة الغرور لا تزال ضاربة على عينية : واللات والعزى لا نرجع حتى نفرقهم فى الجبال ، خذوهم أخذا ...

وماذا تفعل صيحات الطيش بازاء الحقائق المكتسحه ؟؟!! لكن أبا جهل والحق يقال كان تمثالا للعناد إلى آخر رمق ، والطمس المنسوج على

---

(١) حديث حسن وهو من رواية عبد الله بن ثعلبه وله شاهد من حديث حكيم ابن حزام ، قال الهيثمى (٦/٨٤) رواه الطبرانى واسناده حسن .

(٢) سورة الأنفال آيه ١٢ . ١٣ . ١٤

بصيرته جزء من كيانه لا ينفك عنه أبدا ، لذلك أقبل يقاتل فى شراسه وغضب وهو يقول :

ماتنقم الحرب الشموس منى ؟ بازل عامين حديث سنى

لمثل هذا ولدتنى أمى

وأحاطت به فلول المشركين يقولون : أبا الحكم لا يخلص إليه ، فكان بينهم وسط غابة ملتفة ... ! بيد أن هذه الغابة لم تلبث أن تهاوت جذعاً جذعاً ، أمام حماس المؤمنين الذين اشتد بأسهم ، وأغرتهم بشائر الفوز ، وساد هتافهم الموقعة وهم يقولون : أحد أحد ...

قال عبد الرحمن بن عوف : إنى لفى الصف يوم بدر ، إذ التفت فاذا عن يمينى، وعن يسارى فتيان حديثا السن ، فكأنى لم آمن بمكانهما ، إذ قال لى أحدهما سراً من صاحبه :

يا عم أرنى أبا جهل فقلت : يا ابن أخى ما تصنع به ؟

قال: عاهدت الله إن رأيته أن أقتله أو أموت دونه .. وقال لى الآخر سرا من صاحبه مثله .

قال : عبد الرحمن : فما سرنى أننى بين رجلين مكانهما .

فأشرت لهما عليه ، فشدا عليه مثل الصقرين فضرباه حتى قتلاه ، وهما إبنا عفراء[1] !

ويظهر أنهما تركاه بين الحياة والموت ، وقد استشهد البطلان فى هذه الواقعة ووقف رسول الله ﷺ على مصرعهما يدعولهما ويذكر صنيعهما[2] .

----

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى (٢٤٦/٧) ومسلم (١٤٨/٥-١٤٩) وأحمد رقم (١٦٧٣) وهما إبنا عفراء هكذا فى رواية البخارى ، وعند الآخرين : الرجلان معاذ بن عمرو بن الجموح ، ومعاذ بن عفراء .

(٢) الجزم بهذا خطأ بين لأنه من رواية الواقدى بدون سند ، كما فى ابن كثير (٢٨٩/٣) وحتى لو ساق سنده وكان رجاله ثقاتا لا يصح ، ويدل على ضعف هذه الرواية أن معاذ بن عمرو مات فى زمن عثمان كما جزم به البخارى وغيره (راجع ابن هشام(٧٢/٢) .

موت أبى جهل : أما أبو جهل فقد سقط مكانه يلفظ أنفاسه ، وتفرق المشركون بعده بددا .

وتركوا سيقانهم للريح ، تبعثرهم فى فجاج الصحراء ، كما تبعثر كثيبا من الرمل المنهار

فلما فرغ رسول الله ﷺ من عدوه ، أمر بأبى جهل بن هشام أن يُلتمس فى القتلى .

قال ابن اسحق : فيما بلغنى أن رسول الله ﷺ قال : « انظروا إن خَفِىَ عليكم فى القتلى إلى أثر جرح فى ركبته ، فإنى ازدحمت يوما أنا وهو على مأدبة لعبد الله بن جدعان ، ونحن غلامان ، وكنت أشف منه بيسير ، فدفعته، فوقع على ركبتيه فجحش فى إحداهما جحشا لم يزل أثره به » قال عبد الله بن مسعود : فتلمست القتلى فوجدت أبا جهل فعرفته .

ولا يزال به رمق فجثمت على صدره أبغى الإجهاز عليه .. وتحرك أبو جهل يسأل : لمن الدائرة اليوم ؟ قال عبد الله :لله ولرسوله ، ثم استتلى عبد الله : هل أخزاك الله يا عدو الله ؟

قال : وبماذا أخزانى ؟ هل أعمد من رجل قتله قومه ؟ وتفرس فى عبد الله ثم قال له :

ألست رُوَيْعينا بمكة ؟ فجعل عبد الله يهوى عليه بسيفه حتى خمد[1] .

---

(١) رواه بنحوه ابن هشام (٢/٧٢) عن ابن اسحق بدون سند وبعضه فى المسند رقم (٤٢٤٦) والبيهقى (٩/٦٢) عن ابن مسعود بسند منقطع .

ولقى مثل هذا المصير الفاجع سبعون صنديدا من رءوس الكفر بمكة ، دارت عليهم كؤوس الردى فتجرعوها صاغرين ، وسقط فى الأسر سبعون كذلك .

وفرَّ بقية التسعمائة والخمسين يروون لمن خلفهم أن الظلم مرتعه وخيم ، وأن البطَرَيجرُّ فى أعقابه الخزى والعار ...

وفتح المسلمون عيونهم على بشاشة الفوز تضحك لهم خلال الأرض والسماء .

إن هذا الظفر المتاح رَدَّ عليهم الحياة والأمل والكرامة ، وخلصهم من أغلال ثقال :

« ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذله فاتقوا الله لعلكم تشكرون »[1].

وكانت عدة من استشهد منهم أربعة عشر رجلا ، إستأثرت بهم رحمة الله فذهبوا إلى عليين . ثبت عن أنس بن مالك أن حارثة بن سراقه ، قتل يوم بدر ، وكان فى النظارة ، أصابه سهم طائش فقتله ، فجاءت أمه فقالت : يا رسول الله أخبرنى عن حارثه ؟ فإن كان فى الجنة صبرت ، وإلا فليرين الله ما أصنع - تعنى من النياحة - وكانت لم تُحرَّم بعد فقال لها الرسول ﷺ : « ويحك أهبلت ؟ .. إنها جنان ثمان ، وإن ابنك أصاب الفردوس الأعلى... »[2] .

فإن كان هذا جزاء النظارة الذين اختطفتهم سهام طائشه .. فكيف بمن خاض إلى المنايا الغمرات الصعاب ؟؟

وكان أول من قدم مكة بمصاب قريش الحيسمان بن عبد الله الخزاعى ، فقالوا ما وراءك ؟ قال :

----

(١) سورة آل عمران الآيه ١٢٣ .

(٢) حديث صحيح أخرجه البخارى (٦/ ٢٠-٢١ ، ٧/ ٢٤٣)

قتل عتبة بن ربيعة ، وشيبة بن ربيعة ، وأبو الحكم بن هشام ، وأمية بن خلف ، وزمعة بن الأسود ونبيه ومنبه إبنا الحجاج ، وأبو البختري بن هشام ، فلما جعل يعدد أشراف قريش ، قال صفوان إبن أميه ، وهو قاعد في الحجر : والله إن يعقل هذا فاسألوه عني ، فقالوا : ما فعل صفوان بن أمية ؟

قال : هاهو جالس في الحجر ، وقد والله رأيت أباه وأخاه حين قتلا .

ويقول أبو رافع مولي رسول الله ﷺ : كنت غلاما للعباس بن عبد المطلب ، وكان الإسلام قد دخلنا أهل البيت ، فأسلم العباس ، وأسلمت أم الفضل ، وأسلمت ، وكان العباس يهاب قومه ، ويكره خلافهم ، وكان يكتم إسلامه ، وكان ذا مال كثير متفرق في قومه ، وكان أبو لهب قد تخلف عن بدر ، فبعث مكانه العاصي بن هشام بن المغيره[1] ، وكذلك كانوا صنعوا ، لم يتخلف رجل إلا بعث مكانه رجلا ، فلما جاءه الخبر عن مصاب أهل بدر من قريش . كبته الله وأخزاه ، ووجدنا في أنفسنا قوة وعزاً ، وكنت رجلا ضعيفا ، وكنت أعمل الأقداح ، أنحتها في حجرة زمزم ، فوالله إني لجالس فيها أنحت أقداحي ، وعندي أم الفضل جالسة ، وقد سرّنا ما جاءنا من الخبر ، إذ أقبل أبو لهب يجر رجليه بشر ، حتى جلس على طنب الحجرة ، فكان ظهره إلى ظهري .. فبينما هو جالس إذ قال الناس : هذا أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب قد قدم ، فقال له أبو لهب : هلم إليّ .. فعندك لعمري الخبر فجلس إليه والناس قيام عليه فقال : يا ابن أخي ، أخبرني كيف كان أمر الناس ؟ قال : والله ما هو إلا أن لقينا القوم ، فمنحناهم أكتافنا ، يقودوننا كيف شاءوا ، ويأسروننا كيف شاءوا ، وأيم الله مع ذلك مالمت الناس ! لقينا رجالا بيضا على خيل بلق ، بين السماء والأرض ، والله

---

(١) نوهنا عن هذا سابقا

ما تليق شيئا ، ولا يقوم لها شئ ، قال أبو رافع : فرفعت طنب الحجرة بيدى، ثم قلت : تلك والله الملائكة !! فرفع أبو لهب يده ، فضرب بها وجهى ضربه شديدة ، قال : فثاورته فاحتملنى ، فضرب بى الأرض ، ثم برك على يضربنى وكنت رجلا ضعيفا ، فقامت أم الفضل إلى عمود من عمد الحجرة ، فأخذته فضربته به ضربه شقت فى رأسه شجة منكرة » ، وقالت : إستضعفته أن غاب عنه سيده ، فقام موليا ذليلاً ، فوالله ما عاش إلا سبع ليال ، حتى رماه الله بالعدسه ، فقتلته .

★★★

﴿ عن نزول الملائكة ﴾

ويقول رجل من بنى غفار :

أقبلت أنا وابن عم لى ، حتى أصعدنا فى جبل يشرف على بدر ، ونحن مشركان ، ننتظر الوقعه على من تكون الدبرة ، فننتهب مع من ينتهب ، قال : فبينما نحن بالجبل .. إذ دنت منا سحابة فسمعنا فيها حمحمة الخيل ، فسمعت قائلاً يقول : « أقدم حيزوم » فأما ابن عمى فانكشف قناع قلبه فمات مكانه ، وأما أنا فكدت أهلك .. ثم تماسكت .

ولم تقاتل الملائكة فى يوم سوى بدر من الأيام ، وكانوا يكونون فيما سواه من الأيام عدداً ومدداً لا يضربون وكان شعار أصحاب رسول الله ﷺ يوم بدر « أحد أحد » .

★★★

وفى هذه المعركة إلتقى الآباء بالأبناء .. والإخوه بالإخوه .. خالفت بينهم المبادئ ، ففصلت بينهم السيوف . كان أبو بكر مع رسول الله ﷺ ، وكان إبنه عبد الرحمن يقاتله مع أبى جهل وكان عتبه بن ربيعه أول من بارز المسلمين ، وكان ولده أبو حذيفة من خيار أصحاب النبى ﷺ، فلما سحبت

جثه عتبه لترمى فى القليب ، نظر رسول الله ﷺ إلى أبى حذيفه فإذا هو كئيب قد تغير لونه ، فقال : « يا حذيفه لعلك قد دخلك من شأن أبيك شئ؟

فقال حذيفه : لا والله يا رسول الله .. ما شككت فى أبى ولا فى مصرعه ، ولكنى كنت أعرف من أبى رأياً وحلماً وفضلا ، فكنت أرجو أن يهديه ذلك إلى الإسلام !! فلما رأيت ما أصابه وذكرت ما مات عليه من الكفر بعد الذى كنت أرجو له ، أحزننى ذلك !!

فدعا له رسول الله بخير وقال له خيرا[1] .

وأمر رسول الله ﷺ بقتلى قريش ، فطرحوا فى القليب .. وروى أنه قال عندما رآهم :

« بئس عشيرة النبى كنتم لنبيكم ، كذبتمونى وصدقنى الناس ، وأخرجتمونى وآوانى الناس وقاتلتمونى ونصرنى الناس[2] »

فلما ووريت جثثهم وأهيل عليها التراب انصرف الناس وهم يشعرون أن أئمة الكفر قد استراح الدين والدنيا من شرورهم ، إلا أن النبى ﷺ إستعاد ماضية الطويل فى جهاد أولئك القوم !! كم عالج مغاليقهم ، وحاول هدايتهم؟ وكم ناشدهم الله وخوفهم عصيانه وتلا عليهم قرآنه ؟ وهم - على طول التذكير - يتبجحون ، وبالله وبآياته ورسوله يستهزئون . فخرج[3] النبى ﷺ فى جوف الليل حتى بلغ القليب المطوى على أهله وسمعه الصحابة يقول:

---

(١) حديث ضعيف رواه ابن هشام عن ابن اسحق بلاغا (٢/٧٥)

(٢) حديث ضعيف رواه ابن هشام(٢/٧٤) عن ابن اسحق قال : حدثنى بعض أهل العلم وهذا اسناد متصل وقد رواه أحمد (٦/ ١٧٠) عن طريق ابراهيم عن عائشه مرفوعا بلفظ (جزاكم الله شرا من قوم بنى ما كان أسوأ الطرد واشد التكذيب) ورجاله ثقات لكنه منقطع بين ابراهيم وهو النخعى وبين عائشه .

(٣) حديث صحيح أخرجه ابن اسحق (٢/٧٤) حدث به حميد الطويل عن أنس وقد أخرجه أحمد(٣/١٠٤-١٨٢) من طرق عن حميد به وقال الحافظ بن كثير (٣/٢٩٢) إنه على شرط الشيخين قلت : وقد وصله مسلم (٨/١٦٣)

« يا أهل القليب .. يا عتبة بن ربيعة .. يا شيبة بن ربيعة .. يا أمية بن خلف .. يا أبا جهل بن هشام هل وجدتم ما وعد ربكم حقا ؟ فإنى وجدت ما وعدنى ربى حقا ...

فقال المسلمون : يا رسول الله أتنادى قوماً جيفوا ؟!

قال : « ما أنتم بأسمع لما أقول منهم ، ولكنهم لا يستطيعون أن يجيبونى » .

كانت وقعه بدر فى صبيحة يوم الجمعة السابع عشر من رمضان لسنتين من الهجرة ، وقد أقام رسول الله ﷺ ببدر ثلاثا .. ثم قفل راجعاً إلى المدينة يسوق أمامه الأسرى والغنائم ، ورأى قبل دخولها أن يعجل البشرى إلى المسلمين المقيمين فيها لا يدرون مما حدث شيئا ، فأرسل عبد الله بن رواحة ، وزيد بن حارثة بشيرين يبشران الناس بالنصر العظيم .

قال أسامة بن زيد : فأتانا الخبر حين سوينا التراب على « رقية بنت رسول الله ﷺ » وكان زوجها عثمان بن عفان قد احتبس عندها يمرضها ، وضرب رسول الله ﷺ له بسهمه وأجره فى بدر [1].

﴿ ذكر الفتية الذين أنزل الله فيهم

« إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم ﴾

قال ابن اسحق : وكان الفتية الذين قتلوا ببدر فنزل فيهم من القرآن فيما ذكر لنا:-

« إن الذين توفاهم الملائكة ظالمى أنفسهم قالوا فيم كنتم قالوا كنا مستضعفين فى الأرض قالوا ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيرا »[2].

----

(١) حديث صحيح أخرجه البيهقى (١٧٤/٩) بسند صحيح عن أسامة

(٢) سورة النساء آيه ٩٧

فتية مسلمين : من بنى أسد بن عبد العزى بن قصى : الحارث بن زمعة بن الأسود بن عبد المطلب بن أسد ، ومن بنى مخزوم : أبو قيس بن الفاكه بن المغيره بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، وأبو قيس بن الوليد بن المغيرة بن عبد الله بن عمر بن مخزوم .

ومن بنى جمح : على بن أمية بن خلف بن وهب بن حذافة بن جمح .

ومن بنى سهم : العاص بن منبه بن الحجاج بن عامر بن حذيفه بن سعد بن سهم .

وذلك أنهم أسلموا ورسول الله ﷺ بمكة ، فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة حبسهم آباؤهم وعشائرهم بمكة وفتنوهم ، فافتتنوا ، ثم ساروا مع قومهم إلى بدر ، فأصيبوا به جميعا .

﴿ ذكر الفيئ ببدر والأسارى ﴾

أمر رسول الله ﷺ بما فى العسكر مما جمع الناس فجُمع ، فاختلف المسلمون فيه ، فقال من جمعه : هو لنا : .. وقال الذين كانوا يقاتلون العدو ويطلبونه : والله لولا نحن ما أصبتموه لنحن شغلنا عنكم القوم حتى أصبتم ما أصبتم ....

وقال الذين كانوا يحرسون رسول الله ﷺ مخافة أن يخالف إليه العدو : والله ما أنتم بأحق به منا ، لقد رأينا أن نقتل العدو إذ منحنا الله تعالى أكتافهم ، ولقد رأينا أن نأخذ المتاع حين لم يكن دونه من يمنعه ، ولكنا خفنا على رسول الله ﷺ كَرَّةَ العدو فقمنا دونه ، فما أنتم بأحق به منا ...

قال ابن اسحق : وحدثنى عبد الرحمن بن الحارث وغيره - من أصحابنا - عن سليمان بن موسى عن مكحول، عن أبى أمامه الباهلى - واسمه صدى

وذلك أن الخاصة من الرجال هم قدوة لغيرهم .. فإذا ساءت أخلاقهم للضوائق العارضة ، واضطرب مسلكهم ، فسيكون سواد الشعب إلى مزالق الفوضى أسرع ..

وقد رأينا الألمان فى الحرب العالمية الأولى ، والإنجليز فى الحرب العالمية الثانية شدد عليهم الحصار حتي هزلت الأجسام واصفرت الوجوه وما صابرت الجماهير هذه المجاعات إلا وراء قادتها الصابرين المتجملين .

ومما حاسب الله عليه المسلمين حساباً شديداً موقفهم بإزاء الأسرى ، فإن الرغبة فى استبقائهم للإنتفاع من ثرواتهم غلبت الآراء الأخرى بضرورة الاقتصاص من مآثمهم السابقة ، حتى يكونوا نكالاً لما بين أيديهم وما خلفهم وموعظة للمتقين ...

إستشار رسول الله ﷺ أبا بكر وعمر وعليا ، فقال أبو بكر :

يا رسول الله هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان ...وإنى أرى أن تأخذ منهم الفدية ، فيكون ما أخذناه قوة لنا على الكفار ، وعسى أن يهديهم الله فيكونوا لنا عضدا ......

فقال رسول الله ﷺ : ما ترى يا ابن الخطاب ؟

قال : قلت والله ما أرى ما رأى أبو بكر ، ولكن أرى أن تمكننى من فلان - قريب لعمر -فأضرب عنقه ، وتُمكِّن عليا من عقيل بن أبى طالب ، فيضرب عنقه، وتُمكِّن حمزة من فلان أخيه ، فيضرب عنقه حتى يعلم الله أنه ليست فى قلوبنا هوادة للمشركين، وهؤلاء صناديدهم وأئمتهم وقادتهم...

فهوى رسول الله ﷺ ما قال أبو بكر ولم يهو ما قال عمر : وأخذ منهم الفداء فلما كان من الغد قال عمر : فغدوت إلى النبى ﷺ وأبى بكر وهما يبكيان فقلت :

يا رسول الله ، أخبرنى ماذا يبكيك أنت وصاحبك ؟ فإن وجدت بكاءً بكيت، وإن لم أجد بكاءً تباكيت لبكائكما .

فقال رسول الله ﷺ : لَلذى عَرَض عَلَّى أصحابك من أخذهم الفداء قد عُرِضَ عليّ عذابكم أدنى من هذه الشجرة - لشجرة قريبة منهم - وأنزل الله تعالى : « **ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم** »[1] .

قال ابن اسحق :

حدثنى محمد ابو جعفر بن على بن الحسين قال : قال رسول الله ﷺ : « ونُصرت بالرعب ، وجُعلت الأرض لى مسجدا وطهورا وأعطيت جوامع الكلم وأُحلت لى المغانم لم تحلل لنبى قبلى وأعطيت الشفاعة ، خَمْسٌ لم يؤتهن بنى قبلى » (حديث صحيح واسناده معلق)

وقال ابن اسحق : فقال (**ما كان لنبى**) أى قبلك ، (**أن يكون له أسرى**) من عدوه (**حتى يثخن فى الأرض**) أى يثخن عدوه حتى ينفيه من الأرض

(**تريدون عرض الدنيا**) أى المتاع الفداء بأخذ الرجال

(**والله يريد الآخره**) أى : قتلهم لظهور الدين الذى تريدون إظهاره .. أى : والذى تدرك به الآخرة .

(**لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم**) أى : من الأسارى والمغانم .

(**عذاب عظيم**) أي : لولا أنه سبق منى أنى لا أعذب إلا بعد النهى، ولم يك نهاهم ، لعذبتكم فيما صنعتم ، ثم أحلها له ولهم رحمة منه، وعائدة من الرحمن الرحيم فقال :« **فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا واتقوا الله إن الله غفور رحيم** »[2].

---

(١) سورة الأنفال آيه ٦٧ . ٦٨) وهذا الحديث صحيح أخرجه مسلم (١٥٦/٥ -١٥٧) وأحمد رقم (٢٠٨-٢٢١) والبيهقى (٦٧/٩-٦٨) من حديث عمر .

(٢) سورة الأنفال آيه ٦٩

ثم قال تعالى : « **يا أيها النبى قل لمن فى أيديكم من الأسرى إن يَعلَم الله فى قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا مما أخذ منكم ويغفر لكم والله غفور رحيم** »[1].

وحضّ المسلمين على التواصل وجعل المهاجرين والأنصار أهل ولايته فى الدين دون من سواهم وجعل الكفار بعضهم أولياء بعض ثم قال : « **إلا تفعلوه تكن فتنه فى الأرض وفساد كبير** »[2] .أى أن لا يوال المؤمن المؤمن دون الكافر - وإن كان ذا رحم به - تكن فتنة فى الأرض أى شبهة فى الحق والباطل، وظهور الفساد فى الأرض بتولى المؤمن الكافر ، دون المؤمن.

﴿ شرح بعض الآيات التى نزلت فى سورة الأنفال ﴾

حدثنا عبد الله بن محمد قال : حدثنا عبد الله بن جعفر بن الورد قال : حدثنا أبو سعيد عبد الرحمن بن عبد الرحيم .

قال : حدثنا أبو محمد عبد الملك بن هشام قال : حدثنا زياد بن عبد الله البكائى عن محمد بن اسحق المطلبى .

قال : فلما إنقضى أمر بدر أنزل الله عز وجل فيه من القرآن (الأنفال) بأسرها . فكان مما نزل فى إختلافهم فى النفل حين اختلفوا فيه « **يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين** »[3].

----

(١) سورة الأنفال الآيه ٧٠

(٢) سورة الأنفال من الآيه ٧٣

(٣) الأنفال ١

ثم ذكر القوم ومسيرهم مع رسول الله ﷺ حين عرف القوم أن قريشا قد ساروا إليهم وإنما خرجوا يريدون العير طمعاً فى الغنيمة فقال : « **كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لكارهون يجادلونك فى الحق بعد ما تبين كأنما يساقون إلى الموت وهم ينظرون** »[1] .أى كراهية للقاء القوم ، وإنكاراً لمسير قريش حين ذكروا لهم : « **وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم وتودون أن غير ذات الشوكة تكون لكم** »[2] .

أى أن الغنيمة دون الحرب : « **ويريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين** » [3].

أى بالوقعه التى أوقع بصناديد قريش وقادتهم يوم بدر : « **إذ تستغيثون ربكم** »[4].

أى لدعائهم حين نظروا إلى كثرة عدوهم ، وقلة عددهم ، «**فاستجاب لكم**»[5] بدعاء رسول الله ﷺ ودعائكم .. « **أنى ممددكم بألف من الملائكة مردفين** » .. « **إذ يغشيكم النعاس آمنة منه** »[6] أى: أنزلت عليكم الأمنة حتى نمتم لا تخافون .. « **وينزل عليكم من السماء ماء** »[7] للمطر الذى أصابهم تلك الليلة ، فحبس المشركين أن يسبقوا إلى الماء ، وخلى سبيل المسلمين إليه .. «**ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام**»[8] أى ليذهب عنكم شك الشيطان لتخويفه إياهم عدوهم

---

(١) سورة الأنفال آيه ٥ ـ ٦
(٢) سورة الأنفال من الآيه ٧
(٣) الأنفال من الآيه ٧
(٤) الأنفال من الآيه ٩
(٥) الأنفال من الآيه ٩
(٦) الأنفال من الآيه ١١
(٧) الأنفال من الآيه ١١
(٨) الأنفال من الآيه ١١

ذلك هلاك لأماناتكم وخيانة لأنفسكم « **يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانا ويكفر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم والله ذو الفضل العظيم** »[1] أي فصلا بين الحق والباطل ليظهر الله به حقكم ، ويطفئ به باطل من خالفكم ، ثم ذكَّر رسول الله ﷺ بنعمته عليه حين مكر به القوم ليقتلوه أو يثبتوه أو يخرجوه « **ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين** »[2] أي : فمكرت بهم بكيدى المتين حتى خلصتك منهم ، ثم ذكر غرَّة قريش واستفتاحهم على أنفسهم إذ قالوا : «**اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك**»[3]أي : ما جاء به محمد «**فأمطر علينا حجارة من السماء** » كما أمطرتها على قوم لوط « **أو ائتنا بعذاب أليم** » أي : بعض ما عذبت به الأمم قبلنا ، وكانوا يقولون: إن الله لا يعذبنا ونحن نستغفره ، ولم تعذب أمة ونبيها معها حتى يخرجه عنها وذلك من قولهم ورسول الله بين أظهرهم فقال تعالى لنبيه ﷺ يذكر جهالتهم وغرتهم واستفتاحهم على أنفسهم حين نعى عليهم سوء أعمالهم : «**وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون** »[4]أي : لقولهم إنا نستغفر ومحمد بين أظهرنا.. ثم قال: « **ومالهم ألا يعذبهم الله** » وإن كنت بين أظهرهم وإن كانوا يستغفرون كما يقولون « **وهم يصدون عن المسجد الحرام** » أي : من آمن بالله وعبده أي أنت ومن اتبعك « **ما كانوا أولياؤه إن أولياؤه إلا المتقون** »[5] الذين يحرمون حرمته ويقيمون الصلاة عنده أي أنت ومن آمن بك « **ولكن اكثرهم لا يعلمون** » .. **وما كان صلاتهم عند البيت إلا مكاء وتصدية** »[6] .

----

(١) الأنفال ٢٩
(٢) الأنفال من الآيه ٣٠
(٣) الأنفال ٣٢
(٤) الأنفال ٣٣
(٥) الأنفال من الآيه ٣٤ .
(٦) الأنفال من الآية ٣٥ .

قال ابن هشام : المكاء الصفير . والتصدية : التصفيق ، وذلك ما لا يرضى الله عز وجل ولا يحبه ولا ما أفترض عليهم ولا ما أمرهم به .. «**فذوقوا العذاب بما كنتم تكفرون**»[1] أي : لما أوقع بهم يوم بدر من القتل . قال : « **إذ يريكهم الله فى منامك قليلا ولو اراكهم كثيرا لفشلتم ولتنازعتم فى الأمر ولكن الله سلم إنه عليم بذات الصدور** »[2] فكان ما أراه من ذلك نعمه من نعمه عليهم شجعهم بها على عدوهم وكَفَّ بها عنهم ما تخوف عليهم من ضعفهم لعلمه بما فيهم « **وإذ يريكموهم إذا التقيتم فى أعينكم قليلا ويقللكم فى أعينهم ليقضى الله أمرا كان مفعولا** »[3] أى : ليؤلف بينهم على الحرب للنقمة ممن أراد الانتقام منه ، والانعام على من أراد إتمام النعمة عليه .

ولنكتفى بهذا القدر من شرح بعض آيات سورة الأنفال وذلك لضيق المساحة

★★★

ولنعد بالحديث إلى موضوع أسرى بدر ...

إن الوقوع في الأسر لا يعنى صدور عفو عام عن الجرائم التى إقترفها الأسرى أيام حريتهم ، وهؤلاء الطغمة من كبراء مكة ، لهم ماض شنيع فى إيذاء رسول الله ﷺ ، وقد أبطرتهم منازلهم ، فساقوا عامة أهل مكة إلى حرب ، ما كان لها من داع ، فكيف يُتركون بعد أن استمكنت الأيدى من خناقهم ؟

أذلك لأن لهم ثروة يفتدون بها ؟ ... ما كان يليق أن ينظر المؤمنون إلى هذه الأعراض التافهة متناسين ما فرط من أولئك الكفار فى جنب الله .

إنهم مجرمو حرب - بالاصطلاح الحديث - لا أسرى حرب !! وقد ندد

----

(١) الأنفال آيه ٣٥ (٢) الأنفال ٤٣

(٣) الأنفال من الآيه ٤٤

القرآن بخيانتهم لقومهم بعد كفرهم بنعمة الله عليهم فقال : « **ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا ، وأحلوا قومهم دار البوار،جهنم يصلونها وبئس القرار**»[1] .

وهناك نصوص توصى برعاية الأسرى وإطعامهم ، وتشرع القوانين الرحيمة في معاملتهم ، وهذه تنطبق على جماهير الأسرى من الأتباع والعامة ... أما الذين تاجروا بالحروب ، لإشباع مطامعهم الخاصة ، فيجب استئصال شأفتهم ، وذلك هو الإثخان في الأرض .

إن الحياة كما تتقدم بالرجال الأخيار ، فإنها تتأخر بالعناصر الخبيثة .. وإذا كان من حق الشجرة لكى تنمو أن تُقَلَّم ، فمن حق الحياة ، لكى تَصْلُح أن تنقى من السفهاء والآثمين ، ولن يقوم عوض أبداً عن هذا الحق ، ولو كان القناطير المقنطرة من الذهب ، وقد أسمع الله نبيه هذا الدرس حتى إذا وعوه وتدبروه عفا عنهم ثم أباح لهم - من رحمته بهم - الانتفاع بما أخذوا من فداء فقال : « **فكلوا مما غنمتم حلالا طيبا واتقوا الله إن الله غفور رحيم**»[2] .

★ ★ ★

وناحت قريش على قتلاهم ثم قالوا : لا تفعلوا فيبلغ محمدا وأصحابه فيشمتوا فيكم ، والله ولا تبعثوا فى أسراكم حتى تستأنوا بهم لا يأرب عليكم محمد وأصحابه فى الفداء .

وكان الأسود بن عبد المطلب قد أصيب له ثلاثه من ولده : زمعة بن الأسود ، وعقيل بن الأسود والحارث، وكان يحب أن يبكى على بنيه ، فبينما هو كذلك إذ سمع نائحة من الليل ، فقال لغلام له وقد ذهب بصره :

---

(١) سورة إبراهيم الآيه : ٢٨ . ٢٩ (٢) سورة الأنفال آيه ٦٩

أنظر هل أحل النحب .. وهل بكت قريش على قتلاها ؟!!

لعلى أبكى على أبى حكيمة (يعنى زمعه) فإن جوفى قد إحترق ، فلما رجع إليه الغلام قال : إنما هى إمرأة تبكى على بعير لها أضلته .

وكان فى الأسارى (أبو وداعه بن ضبيرة السهمى) فقال رسول الله ﷺ: إن له بمكة إبنا كيساً تاجراً ذا مال ، وكأنكم به قد جاءكم فى طلب فداء أبيه .. فلما قالت قريش : لا تعجلوا بفداء أسراكم ، لا يأرب عليكم محمد وأصحابه ، قال المطلب بن أبى وداعه : صدقتم لا تعجلوا ، وانسل من الليل فقدم المدينة ، فأخذ أباه بأربعة آلاف درهم ، فانطلق به .

ثم بعثت قريش فى فداء الأسارى .. فقيل لأبى سفيان : افد عمرا إبنك.. قال : أيجمع عَلَيَّ دمي ومالي ! قتلوا حنظلة ، وأفدى عمرا ؟! دعوه فى أيديهم ، يمسكوه ما بدالهم .

فبينما هو كذلك ، محبوس بالمدينة عند رسول الله ﷺ ، إذ خرج (سعد بن النعمان بن أكال) معتمرا ، ومعه زوجة له ، وكان شيخاً مسلماً ، فى غنم له بالنقيع ، فخرج من هنا لك معتمراً ولم يظن أنه يحبس فى مكة، إنما جاء معتمراً ، وقد عهد قريشا لا يتعرضون لأحد جاء حاجاً أو معتمراً إلا بخير ، فعدا عليه أبو سفيان بن حرب بمكة فحبسه بإبنه عمرو .. ومشى بنو عمرو بن عوف إلى رسول الله ﷺ ، فأخبروه خبره ، وسألوه أن يعطيهم عمرو بن أبى سفيان فيفكوا به صاحبهم ، ففعل رسول الله ﷺ... فبعثوا به إلى أبى سفيان فخلى سبيل سعد .

﴿ فداء زينب بنت رسول الله ﷺ لأبى العاص ﴾

وقد كان فى الأسارى (أبو العاص بن الربيع بن عبد العزى بن عبد

شمس) ، ختن رسول الله ﷺ ، وزوج إبنته زينب ، وكان أبو العاص من رجال مكة المعدودين : مالاً ، وأمانة ، وتجارة وكان لهالة بنت خويلد ، وكانت السيدة خديجة زوجة الرسول ﷺ خالته ، فسألت خديجة رسول الله ﷺ أن يزوجه زينب ، وكان رسول الله ﷺ لا يخالفها .. وذلك قبل أن ينزل عليه الوحى ، فزوجه ، وكانت تعده بمنزلة ولدها ، فلما أكرم الله رسوله ﷺ بنبوته .. آمنت به خديجة وبناته فصدقنه ، وشهدن أن ما جاء به الحق ، ودِنَّ بدينه ، وثبت أبو العاص على شركه .. حتى هاجر رسول الله ﷺ، فلما سارت قريش إلى بدر سار فيهم أبو العاص بن الربيع ، فأصيب فى الأسارى يوم بدر ، فكان عند رسول الله ﷺ فلما بعث أهل مكة فى فداء أسراهم .. بعثت زينب فى فداء أبى العاص بمال وبعثت فيه بقلادة لها كانت خديجة أدخلتها بها على أبى العاص حين تزوجها فلما رآها رسول الله ﷺ رَقَّ لها رقة شديدة وقال :

إن رأيتم أن تطلقوا أسيرها وتردوا عليها مالها فافعلوا ، فقالوا : نعم يا رسول الله فأطلقوه وردوا عليها الذى لها .

وكان الإسلام قد فرق بين زينب بنت رسول الله ﷺ وبين أبى العاص ، وكان رسول الله ﷺ قد أخذ عليه أن يخلى سبيل زينب إليه ، فلما قدم أبو العاص مكة أمرها باللحوق بأبيها ، فخرجت تجهز ، فلما فرغت بنت رسول الله ﷺ من جهازها قدم لها (كنانة بن الربيع) أخو زوجها بعيرا فركبته وأخذ قوسه وكنانته ثم خرج بها نهارا يقود بها ، وهى فى هودج لها ، وتحدث بذلك رجال من قريش ، فخرجوا فى طلبها حتى أدركوها بذى طوى فكان أول من سبق إليها (هبار بن الأسود بن المطلب بن أسد بن عبد العزى) و (الفهرى) فروعها هبار بالرمح ، وهى فى هودجها - وكانت المرأة حاملا - فيما يزعمون - فلما ريعت طرحت ذا بطنها ، وبرك كنانة ، ونثر كنانته ثم قال : والله لا يدنو منى رجل إلا وضعت فيه سهما فرجع

الناس عنه ، وأتى أبو سفيان في جلة من قريش فقال : أيها الرجل ، كف عنا نبلك حتى نكلمك، فكف عنهم ، فأقبل أبو سفيان حتى وقف عليه فقال: إنك لم تصب .. خرجت بالمرأة على رءوس الناس علانية ، وقد عرفت مصيبتنا ونكبتنا ، وما دخل علينا من محمد ، فيظن الناس إذا خرجت بابنته إليه علانية على رءوس الناس من بين أظهرنا ، أن ذلك عن ذل أصابنا عن مصيبتنا التي كانت،، وأن ذلك منا ضعف ووهن ، ولعمرى مالنا بحبسها عن أبيها من حاجة .. وما لنا في ذلك من ثؤرة ، ولكن ارجع بالمرأة حتى إذا هدأت الأصوات وتحدث الناس أن قد رددناها ، فَسُلَّهَا سرا وألحقها بأبيها ، ففعل .. فأقامت ليالى حتى إذا هدأت الأصوات خرج بها ليلاً ، حتى أسلمها إلى زيد بن حارثه وصاحبه فقدما بها على رسول الله ﷺ.

قال ابن اسحق : وأقام أبو العاص بمكة وأقامت زينب عند رسول الله ﷺ حين فرق بينهما الإسلام ، حتى إذا كان قبيل الفتح ، خرج تاجراً إلى الشام، وكان رجلا مأمونا بمال له وأموال لرجال من قريش أبضعوها معه ، فلما فرغ من تجارته ، وأقبل قافلا لقيته سَرِيَّة لرسول الله ﷺ، فأصابوا ما معه، وأعجزهم هاربا ، فلما قدمت السرية بما أصابوا من ماله ، أقبل أبو العاص تحت جنح الليل حتى دخل على زينب بنت رسول الله ﷺ ، فاستجار بها فأجارته ، وجاء في طلب ماله .

فلما خرج رسول الله ﷺ إلى صلاة الصبح كما حدثنى (يزيد بن رومان) فكبَّر وكبَّر الناس معه .. صرخت زينب من صفة النساء :

أيها الناس إنى قد أجرت أبا العاص بن الربيع ...

قال : فلما سلم رسول الله ﷺ من الصلاة ، أقبل على الناس فقال :

أيها الناس .. هل سمعتم ما سمعت ؟ قالوا : نعم ...

قال : أما والذى نفس محمد بيده ، ما علمت بشئ من ذلك حتى سمعت ما سمعتم إنه يجير على المسلمين أدناهم ، ثم انصرف رسول الله ﷺ، فدخل على ابنته فقال : « أي بنية .. أكرمي مثواه ... ولا يخلصن إليك فإنك لا تحلين له » (حديث صحيح)

ثم إن الرسول ﷺ بعث إلى السرية الذين أصابوا مال أبى العاص فقال لهم :

إن هذا الرجل منا حيث قد علمتم ، وقد أصبتم له مالاً ، فإن تحسنوا ، وتردوا عليه الذى له ، فإنا نحب ذلك ، وإن أبيتم فهو فئ الله الذى أفاء عليكم ، فأنتم أحق به .

فقالوا : يا رسول الله ، بل نرده عليه .. فردوه عليه ، حتى إن الرجل ليأتي بالدلو ، ويأتى الرجل بالشنّة ، وبالأداوة ، حتى إن أحدهم ليأتى بالشظاظ ، حتى ردوا عليه ماله بأسره لا يفقد منه شيئا .. ثم احتمل إلى مكة ، فأدى إلى كل ذى مال من قريش ماله ، ومن كان أبضع معه ثم قال:

يا معشر قريش .. هل بقى لأحد منكم عندى مال لم يأخذه ؟ قالوا : لا .. فجزاك الله خيرا ، فقد وجدناك وفيا كريما .

قال : فأنا أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله .. والله ما منعنى من الإسلام عنده ، إلا تخوف أن تظنوا أنى إنما أردت أن آكل أموالكم ، فلما أداها الله إليكم وفرغت منها أسلمت .. ثم خرج حتى قدم على رسول الله ﷺ .

★ ★ ★

﴿ إسلام عمير بن وهب ﴾

جلس عمير بن وهب الجمحى يوما مع صفوان بن أمية بعد مصاب أهل بدر من قريش ، جلسا فى الحجر .. وكان عمير بن وهب شيطانا من شياطين قريش ، وممن كان يؤذى رسول الله ﷺ وأصحابه ويلقون منه عناءً وهو بمكة،

وكـان إبنه وهب بن عـمـيـر فى أسـارى بدر .. فـذكـرا أصـحـاب القليب ومصابهم، فقال صفوان : والله ليس فى العيش بعدهم خيرا .

قـال عـمـيـر : صـدقت والله ، أمـا والله لولا دين علىَّ ليس له عندى قضاء ، وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدى ، لركبت إلى محمد حتى أقتله، فإن لى قبلهم عِلةً ، ابنى أسير فى أيديهم .

فاغتنمها صفوان فرصة وقال : عَلَىَّ دَيْنَك ، أنا أقضيه عنك ، وعيالك مع عيالى أواسيهم ما بقوا ،لا يسعنى شئ ويعجز عنهم .

فقال له عمير : فاكتم شأنى وشأنك .

قال : أفعل

ثم أمر عـمـير بسيفه فشحذ له .. ثم انطلق حتى قدم المدينة ، فبينا عـمـر بن الخطاب فى نفـر من المسلمين يتـحـدثون عن بدر ، ويذكـرون مـا أكرمهم الله به ، ومـا أراهم من عدوهم ، إذ نظر عمـر ، فوجد عـمـيـر بن وهب على باب المسجد ينيخ راحلته ...متوشحـا السيف ... فـقـال : هذا الكلب عـدو الله عـمـيـر بن وهب والله مـا جاء إلا لشر ، وهو الذى حرَّش بيننا ، وحزرنا للقوم يوم بدر .

ثم دخل عـمـر على رسول الله ﷺ فـقـال : يا نبى الله ، هذا عـدو الله عمير بن وهب قد جاء متوشحا سيفه قال عليه الصلاة والسلام : فأدخله علىَّ .

فأقبل عمر حتى أخذ بحمالة سيفه فى عنقه ، فلببه بها ، وقال لرجال ممن كانوا معه من الأنصار :

أدخلوا على رسـول الله ﷺ ، فـاجلسـوا عنده ، واحذروا عليـه من هذا الخبيث فانه غير مأمون ، ثم دخل به على رسول الله ﷺ ، فلما رآه الرسول ﷺ وعمر آخذ بحمالة سيفه فى عنقه قال : أرسله يا عمر .. فدنا ثم قال : أنعموا صباحا وكانت تحية أهل الجاهلية بينهم .

فقال رسول الله ﷺ : قد أكرمنا الله بتحية خير من تحيتك يا عمير بالسلام تحية أهل الجنة ، فقال : أما والله يا محمد إن كنت بها لحديث عهد قال : فما جاء بك يا عمير ؟ قال : جئت لهذا الأسير الذى فى أيديكم ، فأحسنوا فيه . قال : فما بال السيف فى عنقك ؟ قال : قبحها الله من سيوف ، وهل أغنت عنا شيئا ؟ .

قال رسول الله ﷺ : أصدقنى ما الذى جئت له ؟

قال : ما جئت إلا لذلك .

قال رسول الله ﷺ : بل قعدت أنت وصفوان بن أمية فى الحجر ، فذكرتما أصحاب القليب من قريش ، ثم قلت : لولا دَيْن علىّ ، وعيال عندى لخرجت حتى أقتل محمدا فتحمل لك صفوان بدينك وعيالك على أن تقتلنى له ، والله حائلٌ بينك وبين هذا ..

قال عمير : أشهد أنك رسول الله ، قد كنا يا رسول الله نكذبك بما كنت تأتينا به من خبر السماء ، وما ينزل عليك من الوحى ، وهذا أمر لم يحضره إلا أنا وصفوان .. فو الله إنى لأعلم ما أتاك به إلا الله .. فالحمد لله الذى هدانى للإسلام ، وساقنى هذا المساق ثم شهد شهادة الحق .

فقال رسول الله ﷺ : فقِّهوا أخاكم فى الدين ، وأقرئوه القرآن ، واطلقوا له أسيره ففعلوا .. ثم قال : يا رسول الله ، إنى كنت جاهدا على إطفاء نور الله ، شديد الأذى لمن كان على دين الله عز وجل ، وأنا أحب أن تأذن لى ، فأقدم مكة ، فأدعوهم إلى الله تعالى ، وإلى رسول الله ﷺ ، وإلى الإسلام ، لعَلَّ الله يهديهم .. وإلا آذيتهم فى دينهم كما كنت أوذى أصحابك فى دينهم ، فأذن له رسول الله ﷺ ، فلحق بمكة وكان صفوان بن أمية حين خرج عمير بن وهب يقول :

أبشروا بوقعة تأتيكم الآن فى أيام تنسيكم وقعة بدر ، وكان صفوان يسأل عن الركبان حتى قدم راكب فأخبره عن إسلامه ، فحلف ألا يكلمه أبدا ، ولا ينفعه بنفع أبدا .

فلما قدم عمير مكة ، أقام بها يدعو إلى الإسلام ، ويؤذى من خالفه أذى شديدا ، فأسلم على يديه ناس كثير .

وعمير بن وهب هذا الذى رأى إبليس يوم بدر حين نكص على عقبيه .

قال ابن اسحق : وعمير بن وهب ، أو الحارث بن هشام قد ذكر لى أحدهما الذى رأى إبليس حين نكص على عقبيه يوم بدر ، فقال : أين ؟ (أى سراقه) ومثل عدو الله فذهب فأنزل الله تعالى فيه : « **وإذ زين لهم الشيطان أعمالهم وقال لا غالب لكم اليوم من الناس وإنى جار لكم** »[1] .

فذكر استدراج ابليس إياهم ، وتشبهه بسراقه بن مالك بن جعشم لهم حين ذكروا ما بينهم وبين بنى بكر بن عبد مناة بن كنانه فى الحرب التى كانت بينهم يقول الله تعالى :« **فلما تراءت الفئتان** »[2] ونظر عدو الله إلى جنود الله من الملائكة ، قد أيَّدَ الله بهم رسول الله ﷺ والمؤمنين على عدوهم : « **نكص على عقبيه وقال إنى برئ منكم إنى أرى ما لا ترون** »[3] .

وصدق عدو الله رأى مالم يروا وقال :

إنى برئ منكم : « **إنى أخاف الله والله شديد العقاب** »[4].

فذكر لى ، أنهم كانوا يرونه فى كل منزل فى صورة (سراقة) لا ينكرونه ، حتى إذا كان يوم بدر ، والتقى الجمعان ، نكص على عقبيه فأوردهم ثم أسلمهم .

★★★

---

(١) الأنفال من الآيه ٤٨
(٢) الأنفال من الآيه ٤٨
(٣) الأنفال من الآيه ٤٨
(٤) الأنفال من الآيه ٤٨

﴿ في أعقاب غزوة بدر ﴾

إندهشت العرب قاطبه للنصر الحاسم الذى ناله المسلمون فى بدر ، بل إن أهل مكة إستنكروا الخبر أول ما جاءهم ، وحسبوه هذيان مجنون ، فلما إستبان صدقه .. صعق نفر منهم فهلك لتوه ، وماج بعضهم فى بعض من هول المصاب لا يدرى ما يفعل . . . . .

وكما استبعد أهل مكة الهزيمة على أنفسهم حتى جُو بهوا بعارها ، استبعد مشركوا المدينة ويهودها ما قرع آذانهم من بشريات الفوز ، وذهب بعضهم إلى حد اتهام المسلمين بأن ما يذاع عن نصرهم محض إختلاق ... وظلوا يكابرون حتى رأوا الأسرى مقرنين فى الأصفاد ، فسقط فى أيديهم .. وقد اختلفت مسالك الأحزاب الكافرة بازاء المسلمين بعد هذا النصر الذى مَكّن للإسلام وأهله ، وجعل سلطانهم مهيبا فى المدينة وما حولها ، ومَدّ نفوذهم على طرق القوافل فى شمال الجزيرة ، فأصبح لا يمر بها أحد إلا بإذنهم .

فأما أهل مكة فقد إنطووا على أنفسهم يداوون جراحهم ، ويستعيدون قواهم ، ويستعدون لنيل ثأرهم .. ويعلنون أن يوم الانتقام قريب ، ولم تزدهم الهزيمة إلا كرها فى الإسلام ، ونقمة على محمد وصحبه .. فكان من ينشرح صدره للإسلام يختفى به ، أو يعيش ذليلا مستضعفا ، ذلك فى مكة حيث دولة الكفر .

ولا ننسى أن نذكر أن أبا سفيان حين رجع إلى مكة نذر ألا يمس رأسه ماء من جنابة حتى يغزو محمدا ﷺ .. فخرج فى مائتى راكب من قريش ليبر بيمينه .. وكانت غزوة السويق وسنتحدث عنها فى حينها .

٦ - ﴿ غزوة سليم بالكدر ﴾

وكان فراغ رسول الله ﷺ من بدر فى عقب شهر رمضان ، أو فى شوال فلما قدم إلى المدينة لم يقم بها إلا سبع ليال حتى غزا بنفسه يريد بنى سليم. قال ابن هشام : واستعمل على المدينة (سباع بن عرفطة الغفارى) أو (ابن مكتوم) .

وقال ابن اسحق : فبلغ رسول الله ﷺ ماء من مياههم يقال له (الكدر) فأقام عليه ثلاث ليال ، ثم رجع إلى المدينة ، ولم يلق كيدا ، فأقام بها بقية شوال وذا القعدة ، وأفدى فى إقامته تلك جل الأسارى من قريش .

٧ - ﴿ غزوة السويق ﴾

قرر أبو سفيان أن يفاجئ المدينة بغارة خاطفه يعود عقيبها ، وقد رد لقريش بعض سمعتها وألحق بالمسلمين ما يستطيع من خسائر ، وانتقم لنفسه ولولده حنظله .. فخرج فى مائتى راكب .. وكان هذا فى ذى الحجة - حتى وصل إلى مساكن (بنى النضير) فى جنح الليل بأطراف المدينة ، فأتى (حيى بن أخطب) فضرب عليه الباب ، فأبى أن يفتح له بابه وخافه ، فانصرف عنه إلى (سلام بن مشكم) وكان سيد بنى النضير فى زمانه ذلك، وصاحب كنزهم ، فاستأذن عليه ، فأذن له وأطعمه وسقاه ، وأعلمه من خبر الناس .. وتدارسا أجدى الطرق لإيذائهم ، والإفلات من قواهم ، فهجم برجاله على ناحية يقال لها : (العريض) وحرقوا أسواراً من نخيل بها ، ووجدوا رجلاً من الأنصار وحليفاً له فى حرث لهما فقتلوهما ، ثم انصرفوا راجعين .

وشعر المسلمون بما حدث ، فخرج رسول الله ﷺ فى طلبهم ، واستعمل على المدينة (بشير بن عبد المنذر) وهو (أبو لبابه) حتى بلغ (قرقرة الكدر) ، وأحس المشركون بالطلب فجدوا فى الهرب والمسلمون يقطعون الصحراء خلفهم راغبين فى اللحاق بهم ، فلما أحس أبو سفيان بالخطر أخذ يتخفف من الأزواد التى يحملها حتى تمكن من الفرار ، وعثر المسلمون فى طريق المطاردة على هذه المؤن ، وأكثرها من السويق[1] فسموا هذه المناوشة الطريفة « غزوة السويق» .

ولم تنل قريش من هذه الغارة الفاشلة شيئاً يرفع رأسها ، ففكرت أن تتجنب الصدام بالمسلمين حتى تحين الفرصة المواتية .. ولكن أنى لها ذلك وتجارتهم تمر فى الغدو والرواح بالمدينة ؟؟

٨ - ﴿ غزوة ذى أمر ﴾

فلما رجع رسول الله ﷺ أقام بالمدينة بقية ذى الحجة ، أو قريباً منها ، ثم غزا نجدا يريد غطفان ، وهى غزوة (ذى أمر) ، واستعمل على المدينة (عثمان بن عفان) فأقام بنجد صفراً كله أو قريبا من ذلك ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيداً ، فلبث بها شهر ربيع الأول كله أو إلا قليلاً منه .

٩ - ﴿ غزوة الفرع من بحران ﴾

ثم غزا رسول الله ﷺ يريد قريشا ، واستعمل على المدينة (ابن أم مكتوم) حتى بلغ بحران - معدنا بالحجاز من ناحية الفرع - فأقام بها شهر ربيع الآخر ، وجمادى الأولى ، ثم رجع إلى المدينة ولم يلق كيدا .

----

(١) السويق : الناعم من دقيق الحنطة والشعير جـ أسوقه - (انظر المنجد مادة سوق)

٥ - ﴿ سرية زيد بن حارثة إلى القردة من مياه نجد ﴾

لم تنل قريش - كما ذكرنا - من غزوة السويق الفاشلة شيئا يرفع رأسها ، ولذلك قال صفوان بن أمية لقريش : إن محمدا وصحبه عوروا علينا متجرنا ، فما ندرى كيف نصنع بأصحابه وهم لا يبرحون الساحل ؟ »

وأهل الساحل قد وادعوهم ، ودخل عامتهم معه ، فما ندرى أين نسلك ؟ وإن أقمنا فى دارنا هذه أكلنا رءوس أموالنا ، فلم يكن لها من بقاء .. وإنما حياتنا بمكة على التجارة إلى الشام فى الصيف وإلى الحبشة فى الشتاء .

فقال له الأسود : تنكب الطريق على الساحل .. وخذ طريق العراق ، ودلّه على (فرات بن حيان من بنى بكر بن وائل) ليكون رائدهم فى هذه الرحلة .

وخرجت عير قريش يقودها صفوان بن أمية ، آخذةً الطريق الجديدة ، إلا أن (نعيم بن مسعود) قدم المدينة يحمل أنباء هذه القافلة ، وخطة سيرها ، واجتمع فى مجلس به (سليط بن النعمان) فباح له بسرها .. فأسرع هذا إلى النبى ﷺ يروى القصة فبعث النبى ﷺ لوقته (زيد بن حارثه) فى مائة راكب يعترضون القافلة ، فلقيها زيد عند ماء يقال له (القَرْدَة) فاستولى عليها كلها : وكانت تحمل مقادير كبيرة من الفضة ، وفرّ المشركون مذعورين ، فلم يقع فى الأسر غير (فرات بن حيان) ، فلما جيئ به إلى المدينة دخل فى الإسلام . وقد حزنت مكة لهذه النكبة الجديدة ، وزادها ذلك إصرارا على المطالبة بثأرها والتهيؤ للقاء المسلمين فى تعبئة كاملة ، فكان ذلك وما سبقه من أحداث التمهيد القوى لمعركة أحد .

﴿ بدء الصراع بين اليهود والمسلمين ﴾

في أعقاب بدر تكلمنا سالفا عما حدث في مكة نتيجة غزوة بدر .. أما في المدينة حيث المسلمون كثرة مكينة ظاهرة ، فقد اتخذت العداوة للإسلام طريق الدس والنفاق والمخاتله .. فأسلم فريق من المشركين واليهود ظاهراً ، وقلوبهم تغلي حقداً وكفراً .. وعلى رأس هؤلاء (عبد الله بن أبي).

روى (أسامة بن زيد) قال : كان رسول الله ﷺ وأصحابه يعفون عن المشركين وأهل الكتاب - كما أمرهم الله تعالى - ويصبرون على الأذى : **« وَدَّ كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ما تبين لهم الحق فاعفوا واصفحوا حتى يأتي الله بأمره »** [1].

فكان النبي ﷺ يتأول في العفو ، ما أمره الله به - حتى أذن فيهم [2]- فلما غزا بدرا وقتل الله فيها من قتل من صناديد قريش ، وقفل الرسول ﷺ والمسلمون منصورون غانمون، معهم أساراهم ، قال (عبد الله بن أبي) ومن معه من المشركين عبدة الأصنام : هذا أمر قد توجه (يعني إستمر فلا مطمع في إزالته) ، فبايعوا رسول الله ﷺ على الإسلام فأسلموا، على أن هذا الخداع لاذبه فريق من الكفار في الوقت الذي عالن فيه فريق آخر من اليهود بسخطهم على محمد ﷺ .. وألمهمْ للهزيمة التي أصابت قريشا في بدر ، بل أن (الكعب بن الأشرف) - من رجالات يهود-

----

(١) من سورة البقرة من الآيه : ١٠٩

(٢) حديث صحيح رواه ابن حاتم في تفسيره ، واسناده صحيح كما قال الحافظ بن كثير في التفسير (١/١٥٣) .

أرسل القصائد فى رثاء قتلاهم ، والمطالبه بثأرهم .. وقد إتسعت الشُقةُ فى العداوة بين المسلمين واليهود إثر هذا الموقف النابى !

ثم حاول اليهود أن يحقروا من شأن النصر الذى حظى به الإسلام مما مَهَّدَ للأحداث العنيفة التى وقعت بعد ، ودفع اليهود ثمنها من دمهم أفراداً وجماعات ....

أما البدو الضاربون حول المدينة وعلى طرق القوافل فهم قوم هَمَل يعنى لا يهمهم شئ من قضايا الكفر والإيمان ، إنما يهمهم إكتساب القوت من أى وجه ، والحصول عليه ولو عن طريق السلب والنهب .. وتاريخهم الحديث مع قوافل الحجاج شاهد صدق على أنهم لا يرعون حُرمة ، ولا يخشون إلا القوة، ولولا بطش السعوديين بهم ما أمن طريق الحج قط .

وقد سبق لهم إستياق نعم المدينة ، وما ورثوه من جاهلية طامسه جعل قلوبهم مع مشركى الجزيرة ، وقد ذعروا لإنتصار المسلمين فى بدر ، وأخذت جموعهم تحتشد ، تبغى إنتهاز فرصة للإغارة على المدينة .. ولكن الرسول ﷺ نهض إلى جموعهم فشتتها ولم يلق فى إرهابهم متاعب ذات بال .

﴿ أمر بنى قينقاع ﴾

توقع المسلمون من اليهود عوناً لهم فى حرب الوثنية المخرفة ، وتدعيم عقيدة التوحيد ، ورجا المسلمون أن يصدق اليهود محمدا ﷺ .. وأن تكون صلتهم بالكتب القديمة وإلفهم لأحاديث المرسلين سبباً فى اقناع العرب الأميين بأن الرسالات حق ، والإيمان بها واجب .. وهذه المشاعر الحسنة تتمشى مع القرآن النازل يومئذٍ يؤسسها ويؤكدها « **ويقول الذين كفروا لست مرسلا قل كفى بالله شهيدا بينى وبينكم ومن عنده**

علم الكتاب »[1] .

« والذين آتيناهم الكتاب يفرحون بما أنزل إليك ومن الأحزاب من ينكر بعضه .. قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به إليه أدعو وإليه مآب »[2].

بيد أن اليهود كانوا عند أسوأ الظن .. فلم تمض أيام على الإنتهاء من معركة بدر .. وفى فرحة المسلمين بانتصارهم.. لم يستح اليهود أن يقولوا لرسول الله ﷺ :

« لا يَغُرَّنَّك أنك لقيت قوما لا علم لهم بالحرب ، فأصبت منهم فرصة .. أما والله لئن حار بناك لتعلمن أنا نحن الناس » !!

وقد نزل الوحى ينذر هؤلاء بسوء المنقلب :

« قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد قد كان لكم آيه فى فئتين التقتا ، فئة تقاتل فى سبيل الله وأخرى كافرة ، يرونهم مثليهم رأى العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن فى ذلك لعبرة لأولى الأبصار »[3].

والأيه الأخيرة تذكر بما وقع فى (بدر)

وأول من كشف عن ضغنه ، وهزأ بالإسلام وأهله (يهود بنى قينقاع) المقيمون داخل المدينة نفسها ، وكظم المسلمون غيظهم ، وانتظروا ما تتمخض عنه الليالى من مكر اليهود !

----

(١) سورة الرعد : الآيه : ٤٣ .

(٢) سورة الرعد : الآيه : ٣٦ .

(٣) سورة آل عمران : الآيتان : ١٢ ، ١٣

﴿ الشرارة التى تسببت فى قيام حرب بين المسلمين وبنى قينقاع ﴾

وسعى هؤلاء (بنو قينقاع) إلى حتفهم بظلفهم .. فقد حدث أن إمرأة عربية قدمت بحليها فى سوق بنى قينقاع ، فجلست إلى صائغ هناك، فاجتمع حولها نفر من اليهود يريدونها أن تكشف عن وجهها ، فأبت .. فعمد الصائغ إلى طرف ثوبها وهى غافله فعقده إلى ظهرها ، فلما قامت انكشفت سوءتها ، وضحك اليهود منها !! وصاحت المرأة وصرخت وبكت !! فوثب رجل من المسلمين على الصائغ فقتله ، فشدت اليهود على المسلم فقتلوه .... وهكذا طارت الشرارة ووقعت الحرب بين المسلمين وبنى قينقاع..!

وقد كان ذلك فى منتصف شوال فى السنة الثانية من الهجرة ، وقد كان ذلك الأمر فيما بين غزوات رسول الله ﷺ .

لجأ اليهود إلى حصونهم يقاتلون فيها ، ففرض الرسول ﷺ الحصار خمس عشرة ليلة ، لا يخرجون منها ولا يدخل أحد بطعام أو شراب حتى ضاقوا بحالهم ذرعا .. واضطروا إلى التسليم ، ورضوا بما يصنعه رسول الله ﷺ فى رقابهم ونسائهم وذرياتهم .. فلما أمكن الله منهم ، جاء عبد الله بن أبى فقال : يا محمد أحسن فى مواليّ - وكانوا حلفاء الخزرج - فأبطأ عليه رسول الله ﷺ ، فكرر ابن أبى مقالته : أحسن فى مواليّ ....

فأعرض عنه الرسول ﷺ ، فأدخل ابن أبى يده فى جيب درع رسول الله ﷺ فغضب رسول الله ﷺ ثم قال : ويحك .. أرسلنى ...

قال : لا والله لا أرسلك حتى تحسن فى موالى .. أربعمائة حاسر ، وثلاثمائة دارع . قد منعونى من الأحمر والأسود ، تحشدهم فى غداة واحدة،

إني والله امرؤ أخشى الدوائر ، عندئذ قال الرسول ﷺ : هم لك[1] !

كان جواب الرسول ﷺ لم يكن ليتوقعه أحد من المسلمين ، فما كان ليبلغ إلى ظنهم أن محمدا ﷺ سيبقى على رقاب هؤلاء الذين أساءوا إليه وإلى المسلمين .. ولكن ما لبثوا أن سُرِّيَ عنهم ، وتنفسوا الصعداء حين أعقب عفو النبى أمر منه لبنى قينقاع بمغادرة المدينة فى مدة أقصاها ثلاثة أيام ، على ألا يأخذوا معهم من أموالهم ومتاعهم إلا ما يسمح لهم بأخذه ووكَّل النبى ﷺ (عبادة بن الصامت) - الذى كان حليفا لبنى قينقاع ثم برئ من حلفهم - أن يكون مشرفا على ترحيلهم ، وتنفيذ أمره فيهم .

وأغرى بنو قينقاع ما رأوا من حلم محمد ﷺ معهم ، على أن يطلبوا من ابن الصامت أن يعمل على إمهالهم مهلة أخرى فوق ما أمهلهم النبى ﷺ ... ولكن عبادة رفض منهم كل التماس ، وكل ضراعة وهو يقول : لا نمهلكم فوق ما قرر النبي ساعة واحدة !

أما ابن أبى فقد أغراه أيضا ما رأى من حلم الرسول ﷺ فى أن تحدثه نفسه أن يقصد إليه ثانية يسأله أن يعفو عن بنى قينقاع بإبقائهم فى مقامهم ولكن أصحاب الرسول ﷺ - وقد عرفوا غرضه الذى أتى من أجله - دفعوه عن باب رسول الله ﷺ فدافعهم ، وتشاجر معهم فَشُجَّ رأسه ، فلما بلغ اليهود ما كان من ابن أبى وما أصابه قالوا :

والله لا نقيم فى بلد تُشَجُّ فيه يا ابن أبى : ولا نستطيع عنك دفاعا .

وعلى ذلك جَلوْا عن المدينة برفقة (عبادة بن الصامت) بنسائهم

---

(١) رواه ابن هشام (٢/١٢١) عن ابن اسحق : حدثنى عاصم بن عمر بن قتادة مرسلا .

وأولادهم ، وبما سُمح لهم بحـمله من أمـوالهم ومـتـاعـهـم ، ورحلوا إلى (أذرعـات) على حدود الشـام ، ولم يبقـوا هناك طويلا حتى هلك أكثرهم، وترك اليهود من ورائهم دورهم وحصونهم وسلاحهم وأدوات صياغتهم فكانت غنيمـة طيبة للمسلمين ، ودلّ جلاء اليهـود عن المدينة إطاعة لأمر المسلمين على مـا صـار للمسلمين من بأس ، ومـا أصبح لهم من قـوة ،،، فـخافـهم اليهـود المتاخمون للمدينة من بنى قريظه وبنى النضير ، وخشيتهم قبائل العرب المتناثرة بأرض الجزيرة .

أما كان خيراً لهم أن يؤدوا حقوق الجوار .. ويعرفوا قيم العهود ، ويبقوا فى المدينة آمنين ؟؟!!! لقد تعجلوا الشر فباءوا به ... وفى حوار عبد الله بن أبى مع الرسـول ﷺ نزل قـوله تعـالى : «**فـتـرى الذين فى قلوبهم مـرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتى بالفتح أوأمـر من عنده فيـصبحوا على مـا أسروا فى أنفسهم نادمين**» [1].

ويحسن أن نتأمل فى سيرة هؤلاء اليهود ، وسر نقمتهم الشديدة على الإسلام ونبيه ، وتحيزهم المعيب إلى الوثنية فى نضال الإسلام معها .

أصحيح كـان نزاع اليـهـودية والإسلام كان سيـاسيـا لا دينيـا ؟ .. وأن الانفراد بالسلطان فى الجزيرة العربية هو مبعث هذا الخصام الحاد ؟

إن التـغلغل فى فـهم العـواطف والمشـاعر الانسـانيـة يُفَسِّر كثـيرا من المواقف الغـامضـة .. لقـد رأينا المسلمين فى مكة يتحمسون للنصرانيـة فى صراعـهـا مع المجوسيـة ... ويحزنون لانكسـار الروم أمـام الفرس ، مع أن الإسـلام لم يكن اتصل بعـد بالنصـارى اتصـالا يبـرر هذا الحمـاس .. ولكنه الشعور الطبيعى الوحيد الذى ينتظر من الرجل المخلص لدينـه .. فالمسلمـون

----

(١) سورة المائدة الآيه : ٥٢ .

أصحاب كتاب يدعو إلى التوحيد والنصارى - وإن اضطرب فهمهم لمعنى التوحيد ، وشابوا الحق بالخرافة - فهم - على كل حال - أهل كتاب .. ويعتبرون أعلى مرتبه من عبدة النار .. فالرغبة فى انتصارهم على الوثنية الصريحة الشرك ضرب من الوفاء للإسلام نفسه ، ومن الاحترام للحقيقة التى معك أن تقترب مما يَقْرُبْ منها ، وأن تبتعد عن كل ما يبعد عنها وقد كان المشركون من أهل مكة منطقيين مع أنفسهم ، حين رحبوا بانتصار الفرس وَعَدُوهُ رمزا لغلبة الوثنية فى كافة صورها على أديان السماء جملة....

فما معنى أن يغضب اليهود الموحدون - كما يزعمون - من انتصار الإسلام على الشرك ؟!

وبما يفسرون حُنُوهم على القتلى عبدة الأصنام ؟! وسعيهم الحثيث لتغليب كفة الوثنية العربية على هذا الدين الجديد ؟؟!

إن التفسير الوحيد لهذا الموقف أن اليهود إنقطعت صلاتهم بمعنى الدين، وأن سلوكهم العام لا يرتبط بما لديهم من تراث سماوى ، وأنهم لا يكترثون بما يقترب من عقيدة التوحيد أو أحكام التوراة ، لأن هذه وتلك مؤخرة أمام شهواتهم الغالبة وأثرتهم اللازمة . ومن ثَمَّ شكك القرآن فى قيمة الإيمان الذى يدعيه القوم :

« وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقا لما معهم ، قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين، ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون »(١) .

----

(١) سورة البقرة الآيتان : ٩١ ، ٩٢

والظاهر أن طوائف اليهود التى عاشت بين العرب كانت عصابات مرتزقة اتخذت الدين عنوانا لمطامع اقتصادية بعيدة ، فلما تُوُهِّمَ أن هذه المطامع مهددة بالزوال ، ظهر الكفر المخبوء فإذا هو كفر بالله وسائر المرسلين .

ولم يعرف أولئك شرفا فى حرب الإسلام ، ولم يوقفهم حد أو عهد فى الكيد له ، فلم يكن بد من إجلائهم ، وتنظيف الأرض منهم .

وقد تعقب المسلمون كل غادر بعهده ، مُجاهر بحرب الله ورسوله ، مُؤيدَ لقريش ورأيها ، مُظهر للعطف والأسى على ما أصابها .. تَعَقَّبَ المسلمون هؤلاء الطُغام من زعماء يهود وسراتهم بالقتل والإرهاب .

ومن أولئك الذين نفذ فيهم العقاب العادل (كعب بن الأشرف) ، وكان كعب هذا حليفا لبنى قريظة إحدى قبائل اليهود ، وكانت أمه من يهود بنى النضير ، وكان من أشد اليهود عداوة للمسلمين ، ومن أكثرهم حقداً على الرسول ﷺ ، وكان يتيه بجماله وماله وبأسه وقوته ، وكان يقيم فى حصن له خارج المدينة ، كما كان يقيم غيره من يهود بنى قريظة وبنى النضير .

فإن كعبا هذا سافر من المدينة إلى مكة يواسى مشركيها المهزومين فى بدر ، ويُحَرِضّهم على إدراك ثأرهم من محمد ﷺ وصحابته ... وهو الذى سأله أبو سفيان :

أناشدك الله ، أديننا أحب إلى الله أم دين محمد وأصحابه ؟! وأينا أهدى فى رأيك وأقرب إلى الحق ؟ إنا نطعم الجزور الكوماء ، ونسقى اللبن على الماء ، ونطعم ما هبت الشمال

فقال كعب : أنتم أهدى منهم سبيلا .

فأنزل الله على رسوله ﷺ :[1] « **ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا** » .

٦ - ﴿ سرية محمد بن مسلمة لكعب بن الأشرف ﴾

وعاد كعب إلى المدينة سافر العداوة ، بعيد الجراءة ، حتى إنه صاغ قصائد فى بعض النساء المسلمات ... !! وليس بعد ذلك صبر !!

فأهدر المسلمون دمه ، وبعث إليه النبى من استنزله من حصنه ، ليلقى جزاءه الحق . فقصد إليه أحدهم وهو (سِلْكَانُ بن سلامة) ويعرف بأبى نائلة - وكان على معرفة به - فجلس معه يجاذبه الحديث إلى أن قال له : لقد جئتك فى حاجة أريد ذكرها لك ، فهل تكتم ما أقوله لك ؟

قال كعب : نعم أفعل ....

قال أبو نائلة : : كان قدوم هذا الرجل - يعنى محمداً - بلاءً علينا فقد عادتنا بسببه العرب ، ورمتنا عن قَوْسٍ واحدة ، واجتمعت جميعها ضدنا ، وقطعت عنا سُبُلَ العيش حتى ضاع العيال ، وجَهِدَت الأنفس ، وأصبحنا وقد جهدنا وجهد عيالنا .

فقال كعب وقد سَرَّهُ مقالة أبى نائلة :

أنا إبن الأشرف ، أما والله قد كنت أخبرك يا إبن سلامة أن الأمر سيصير إلى ما تقول !

فقال أبو نائلة : إنى قد أردت أن تبيعنى وتبيع أصحاباً لى على مِثْلِ رأيى طعاماً ، ونرهن لديك مقابل ذلك أسلحتنا ، فهل تقبل ؟

فقال كعب : نعم فإن فى قيمة السلاح ما يكفى بالوفاء

---

(١) سورة النساء الآيه : ٥١

وصنع (محمد بن مسلمة) زميل أبى نائلة ما صنع أبو نائلة .. أتى كعبا فقال له : إن هذا الرجل قد سألنا صدقة ...وإنه قد عنانا ، وإنى قد أتيتك أستسلفك ...

قال كعب : والله لتَمَلُّنَهُ .. ! قال : إنا قد اتبعناه فلا نحب أن ندعه حتى ننظر إلى أي شئ يصير شأنه ، وقد أردنا أن تسلفنا ..

ودار الحوار على نحو ما دار مع أبو نائلة .. ورضى كعب أخيراً أن يسلفهم نظير ارتهان أسلحتهم وإلى هذا قصدوا ، فإن كعباً لن ينكر السلاح معهم وهو الذى طلبه منهم .

وفى ليلة مقمرة إنطلقوا إلى حصنه ليتموا ما تواعدوا عليه .. وكان ابن الأشرف نائما بجوار عروس له زُفَّت إليه حديثا .. وسمع صوتا يناديه عرف فيه صوت أبى نائلة .. فنهض من فراشه ليخرج إليه ، فحاولت عروسه منعه من ذلك خوفا عليه ، ولكنه أصَرَّ على الخروج فلما خرج إليه رآه فى جماعة من أصحابه وقد حمل كل منهم سلاحه فلم يَرِبْهُ من أمرهم رَيْبٌ لما سبق أن اتفق عليه مع أبى نائلة ومحمد بن مسلمة من أن يأتوه بسلاحهم مقابل ما سوف يعطيهم مما هم فى حاجة إليه من طعام .

وعلى هذا سار معهم دون أن يتوجس منهم خيفة حينما دعاه أبو بنائلة للتمشى قليلا ليتحدثوا فيما بينهم من إتفاق .

وبينما هم فى سيرهم صار أبو نائلة يتخلل بيده شعر رأس إبن الأشرف - وكان مطيبا معطرا - ثم يخرج يده ويشمها وهو يقول معجباً : ما شممت طيباً أعطر من هذا قط ...!

وصار أبو نائلة يفعل هذا بين الفينة والفينة ، وقد إطمأن إليه كعب حتى وضع يديه فى شعره فى إحدى المرات وكأنه يفعل مثل ما كان يفعل ؛ فإذا به يأخذ بِفَوْدَىْ رأسه ، وإذا به يهيب بأصحابه أن اضربوا عدو الله

فتكاثر رفاق أبى نائلة على ابن الأشرف ، واختلفت عليه أسيافهم[1] وما زالوا يطعنونه ويضربونه بها حتى مات .. وقبل أن يلفظ أنفاسه صاح صيحة لم يبق معها حصن إلا أوقدت عليه النار إستجلاءً للخبر ، فلما طلع الصباح علمت يهود بمقتل جبارها .. فدب الرعب فى القلوب العتيدة، وأسرعت الأفاعى إلى جحورها تختبئ فيها . وبجلاء يهود بنى قينقاع، وبمقتل كعب بن الأشرف باتت اليهود وهي تخشى بأس المسلمين وتخاف عزيمتهم وقوتهم.

لقد أجدت العصا حين أعيت النصيحة وبطل المقال . ولزم اليهود حدودهم فلم يتجرأوا على المسلمين بِسَبٍّ ، وظهر كأنهم لن يمالئوا على الله ورسوله مشركاً بعد اليوم ...

وهكذا تفرغ الرسول ﷺ - إلى حين - لمواجهة الأعراب المشركين .

★★★

وهكذا كانت حياة محمد ﷺ فى هذه الفترة القصيرة منذ خرج من مكة إلى المدينة حياة كلها جهاد ونضال ... وحروب وغزوات ، وصبر على المكائد فى سبيل إعلاء كلمة الإسلام .

ولم تكن فترات المسالمة التى كانت تتخلل جهاد الرسول ﷺ ونضاله فى الحروب والغزوات يقضيها مستجماً هادئاً .. بل كان يجاهد جهاداً آخر فى توحيد صفوفه .. وكان يناضل نضالاً كبيراً فى تنقيتها وتصفيتها ... وكان يقوى بينه وبين أصفيائه ومستشاريه والمقربين منه بما يزيد فى رباط هذه الصداقة .. ويقوى من وشائج هذه القربى .

ومن بعض ما اتخذ النبى ﷺ فى سبيل تحقيق ذلك ما كان ينهج من طريق المصاهرة . كان النبى ﷺ قد عقد على عائشة بنت أبى بكر الصديق

---

(١) حديث صحيح رواه ابن هشام (٢/١٢٣-١٢٤) عن ابن اسحق

وهو بمكة ، وكانت لا تزال حَدَثَة صغيرة السن ، فلما استقر بالنبى ﷺ وبالمسلمين الأمر بالمدينة ، أتى أبو بكر إلى النبى ﷺ فقال له :

يا رسول الله ... ما يمنعك أن تبنى بأهلك ؟

أجاب النبى ﷺ : الصداق يا أبا بكر ...

فلما اجتمع للنبى ﷺ الصداق ، أرسل به إلى أبى بكر ، فطلب أبو بكر من زوجته (أم رومان) أن تُعِدُّ عائشة للذهاب بها إلى بيت رسول الله ﷺ فجاءت أم رومان عائشة وهى تلعب مع صويحبات لها فى مرجوحه قد شُدَّت بين نخلتين ، فنادت عليها ، فلما لَبَّت عائشه نداء أمها ، أخذتها هذه من يدها فغسلت لها وجهها ببعض الماء .. ومشطت لها شعرها ، ثم دخلت بها إلى نسوة من نساء الأنصار كن فى زيارة لها ، فأصلحن من شأنها .. ثم صحبتها أمها حتى أدخلتها على رسول الله ﷺ .

وكان النبى ﷺ قد تزوج (سودة بنت زمعة) وكانت قد آمنت برسول الله ﷺ ، واتبعت رسالته ، وقد مات عنها زوجها بعد أن عاد من هجرة الحبشة، وكان هذا الزواج قبل هجرة الرسول ﷺ ، وبعد موت خديجة وعمه أبى طالب بفترة .

ولقد جعل النبى ﷺ نفسه قُدْوة حسنة للمسلمين فى ألا يتركوا الأرامل اللواتى مات عنهن أزواجهن فى سبيل الجهاد ، وخَلَّفن لهن من الأولاد ما جعلهن يَنُؤْنَ بحملهن ، وصرن عُرضه للبؤس ، وهدفاً للفاقه ، فتزوج من (زينب بنت خزيمة) وكان قد مات عنها زوجها فى وقعة بدر ، وكانت تلقب بأم المساكين لبرها واحسانها .

وقد توفى (خنيس بن خذافة السهمى) زوج (حفصة ابنة عمر بن الخطاب) . . وهو رجل صالح ممن شهدوا بدراً ، فلما تأيمت منه . . أراد أبوها أن يتخير لها زوجاً . . .

قال عمر : فلقيت عثمان بن عفان ، فعرضت عليه حفصة . . فقلت له : إن شئت أنكحتك حفصة بنت عمر . فقال : سأنظر في أمري . فلبثت ليالي ثم لقيته ، فعرضت عليه فقال : قد بدا لي ألا أتزوج . . .

وكان عثمان بن عفان قد توفت عنه رقية بنت رسول الله ﷺ أثناء معركة بدر وحزن عليها حزناً شديداً ، ولما واساه النبي ﷺ فيها قال عثمان : يا رسول الله وهل دخل على أحدٍ ما دخل عليّ ؟! قُطِعَ الصهر الذي بيني وبينك !!

وكان النبي يُقَدِّر عثمان ويحبه ، ويعجب به ، حتى إنه كان يقول : عثمان من أشبه أصحابي بي خُلقاً . لذلك أسرع إلى تزويج (أم كلثوم) من عثمان فحلت محل أختها رقية . . ولما ذهب الرسول ﷺ ليزور إبنته بعد زواجها سألها :

كيف رأيت بعلك يا بنية ؟ كان جواب أم كلثوم : يا أبت خير بعل وأفضله .

(ولنكمل الحديث بالنسبة لحفصة بنت عمر بن الخطاب . . . فلما اعتذر عثمان عنها قال عمر : فلقيت أبا بكر فقلت له : إن شئت أنكحتك حفصة إبنة عمر . . . فصمت ولم يرجع إلى شيئاً . . فكنت عليه أوجد مني على عثمان . . .

فلبثت ليالي فخطبها مني رسول الله ﷺ فأنكحتها إياه . فلقيني أبو بكر فقال : لعلك وجدت عليّ حين عرضت على حفصة فلم أرجع إليك شيئا فقلت نعم . فقال : إنه لم يمنعني أن أرجع إليك فيما عرضت عليّ إلا أني كنت علمت أن رسول الله ﷺ قد ذكرها ، فلم أكن لأفشي سرَّ رسول الله ﷺ ، ولو تركها لقبلتها[1].

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخاري (٦/١٤٤-١٤٥) والنسائي (١/٧٥ - ٧٦ - ٧٧) من حديث عمر بن الخطاب .

واتجـاه الرسـول ﷺ إلى مـصـاهرة عـمـر بعـد مـصـاهرة أبى بكـر . ثم تزويجه إبنته فاطمة لعلى بن أبى طالب ، وتزويجه ابنته أم كلثوم لعثمان - بعد وفاة رقية - يشير إلى أن النبى ﷺ يبغى من وراء ذلك توثيق الصلات بالرجال الأربعة الذين عرف بلاؤهم وفداؤهم للإسلام . . فى الأزمات التى مرت به وشاء الله أن يجتازها بسلام .

★★★

١٠- ﴿ غزوة أحد ﴾

وكانت إقامة رسول الله ﷺ بعد قدومه من (بحران) جمادى الآخرة ، ورجباً ، وشعبان وشهر رمضان . . وغزته قريش غزوة أحد فى شوال سنة ثلاث من الهجرة .

لم يهدأ بال قريش منذ غشيها فى (بدر) ما غشيها . . وكان ماجَدَّ من الأحداث بَعْد لا يزيد أحقادها إلا ضراماً . . فلما استدارت السنة ، كانت مكة قد استكملت عدتها ، واجتمع إليها أحلافها من المشركين ، وانضم إليهم كل ناقم على الإسلام وأهله .

فخرج الجيش الثائر فى عدد يربو على ثلاثة آلاف رجل معهم مائتا فرس ، وثلاثة آلاف بعير . ورأى أبو سفيان قائده أن يستصحب النساء معه، حتى يكون ذلك أبلغ فى إستماتة الرجال دون أن تصاب حرماتهم وأعراضهم .

وخرج مسافع بن عبدمناف بن وهب بن حذافة بن جمح إلى بنى مالك بن كنانة يحرضهم ويدعوهم إلى حرب محمد ﷺ . ودعا (جبير بن مطعم) غلاماً له يقال له (وحشى) يقذف بحربة له قذف الحبشة قلما يخطئ بها .. فقال له : أخرج مع الناس ، فإن أنت قتلت حمزة عم محمد بعمى (طعيمة بن عدى) فأنت عتيق .

فخرجت قريش بحدها وجدها وحديدها، وأحابيشها ، ومن تابعها من بنى كنانة ، وأهل تهامة ، وخرجوا بنسائهم . . . فخرج أبو سفيان بن حرب وهو القائد بهند بنت عتبة . . وخرج عكرمة بن أبى جهل بأم حكيم بنت الحارث بن هشام بن المغيرة . . وخرج الحارث بن هشام بن المغيرة بفاطمة بنت الوليد بن المغيرة . . وخرج صفوان بن أمية ببرزة بنت مسعود بن عمرو إبن عمير الثقفية وهى أم عبدالله بن صفوان بن أمية . . وخرج عمرو بن العاص بريطة بنت منبه بن الحجاج وهى أم عبدالله بن عمرو . . وخرج أبو طلحة عبدالله بن عبد العزى بن عثمان بن عبدالدار بسلافة بنت سعد بن شهيد الأنصارية ، وهى أم بنى طلحة : مسافع والجلاس وكلاب - قُتلوا يومئذ هم وأبوهم -وخرجت خناس بنت مالك بن المضرب إحدى نساء بنى مالك بن حسل مع ابنها أبى عزيز بن عمير وهى أم مصعب بن عمير ، وخرجت عمرة بنت علقمة إحدى نساء بنى الحارث بن عبدمناة بن كنانة . وكانت هند بنت عتبة كلما مرت بوحشى أو مَرَّ بها قالت :

وَيْهًا أبا دسمة . ! إشف !! واستشف - وكان وحشى يكنى بأبى دسمة - وكانت هند بنت عتبة زوجة أبى سفيان قد وُتِرَتْ فى أبيها وأخيها وعمها وابنها فى غزوة بدر . . ونذرت ألا تقرب الدُّهن حتى تثأر لهم . . وقد كانت إتفقت مع وحشى هذا على مكافأة طيبة إن قتل فى أبيها وأخيها وعمها وابنها . . محمداً أو حمزة . . أو علياً ، فإنها لن تشفى غليلها بسواهم . . ووعدها وحشى أن يفعل .

وسار جيش أبى سفيان والنساء يضربن الدفوف ويَنُحْنَ على قتلى بدر، ويشجعن الرجال . . وكان يرافق الجيش (أبو عامر الأوسى) فى نفر من قومه الأوس - وكانوا قد خرجوا من المدينة إلى مكة مجانبين لرسول الله ﷺ حين وفد إليها - وأبو عامر هذا يَعِدُ جيش قريش بأنه إذا ما التقى بجيش محمد فلن يتخلف عنه من الأوس رجلان . . .

فلما وصلوا (الأبواء) وهو المكان الذى دفنت به آمنة أم الرسول ﷺ قالت هند للرجال : إنبشوا قبر أم محمد . ! فلو أسر منكم أحد فديتم كل أسير بجزء من أجزائها !!! - يا للوحشية - ولكن بعض الرجال اعترضوا وقالوا : لا تفعلوا شيئاً من هذا ، فلو فعلتم لنبش بنو بكر وخزاعة موتانا .

وسارت قريش حتى نزلت بالعقيق ، وهو وادٍ على بعد حوالى خمسة أميال من المدينة . وكان عمه العباس قد أرسل إلى محمد ﷺ كتاباً يخبره فيه بعزم قريش الخروج لحربه ووصف له ما أعدوا وجهزوا من عدة وعتاد .

وفى هذا الوقت . . كان وصول كتاب العباس والرسول ﷺ إذ ذاك بقباء ، فقرأه له (أبى بن كعب) ، فاستكتمه رسول الله ﷺ ما فيه ، وعاد إلى المدينة فقصد إلى (سعد بن الربيع) فى داره ، وأخبره بكتاب العباس، واستكتمه الخبر حتى يستشير أصحابه . واجتمع المسلمون حول الرسول ﷺ يتدبرون أمرهم :

أيخرجون لمقاتلة العدو فى العراء ؟ أم يستدرجونه إلى أزِقَّة المدينة . . حتى إذا دخلها قاتله الرجال فى الطرقات ، وقاتله النساء من فوق أسطح البيوت ؟؟

وكان رسول الله ﷺ يميل إلى الرأى الأخير ، وأيده فيه رجال من أولى النظر والرويّة .

وقال عبدالله بن أبى : هذا هو الرأى .

لكن الرجال الذين لم يشهدوا بدراً تحمسوا للخروج وقالوا :

كنا نتمنى هذا اليوم وندعو الله ، فقد ساقه إلينا وقرب المسير . وظاهرهم الشباب الطامح فى الاستشهاد . وبدا أن كثرة المسلمين تميل إلى البروز لملاقاة العدو . فدخل الرسول ﷺ بيته وخرج منه لابساً عدته ، متهيئاً للقتال .

وشعر القوم أنهم استكرهوا الرسول ﷺ على رأيهم ، وأظهروا الرغبة

فى النزول على رأيه . بيد أن الرسول ﷺ وجد غضاضة من الاضطراب بين شتى الآراء فقال : « ما ينبغى لنبى لبس لأمته أن يضعها حتى يحكم الله بينه وبين عدوه »[1].

وقال : « قد دعوتكم إلى هذا الحديث فأبيتم إلا الخروج ، فعليكم بتقوى الله والصبر عند البأس . وانظروا ما أمركم الله به فافعلوا »[2] .

إذ ذاك لم يجد الرسول ﷺ بُداً من أن ينزل على رأى أغلب القوم ، وأن يخرج وإياهم لمحاربة عدوهم خارج المدينة . . .

فقام فصلى بهم الجمعة وخطب فيهم وأمرهم بالجد والجهاد ، وأخبرهم أن لهم النصر ما صبروا .

ثم خرج فى ألف رجل وليس فيه من الخيول غير فرسين أحدهما لرسول الله ﷺ . وكان مع الجيش فتيان أحداث ، يريدون الإنضمام إلى صفوف المقاتلين لينالوا شرف الدفاع عن دين الله فلما استعرضهم رسول الله ﷺ لم يجز منهم غير إثنين : أحدهما أجاد الرماية ، والآخر أجاد المصارعة .

وخرج رسول الله ﷺ واستعمل بالمدينة (إبن أم مكتوم) على الصلاة.

وسار محمد ﷺ حتى نزل للمبيت فى مكان به مرتفعان يسميان بـ (الشيخين) . . وهناك أبصر كتيبة من المقاتلين لها ضوضاء وجلبة ، فسأل : ما هذه ؟

فقيل له : هؤلاء حلفاء عبدالله بن أبى . .

قال النبى ﷺ : لا يُستنصر بأهل الشرك على أهل الشرك مالم يُسلموا، فانصرف عسكر الكتيبة من اليهود والمنافقين عائدين من حيث أتوا.

---

(١) رواه ابن هشام (١٢٦/٢ - ١٢٨) عن ابن اسحق الزهرى وغيره مرسلا وقد وصله أحمد (٣٥١/٣) من طريق ابى الزبير عن جابر نحوه وسنده على شرط مسلم .

(٢) ذكره ابن كثير (١٢/٤-١٣) من رواية موسى بن عقبة معضلاً .

وقضى الجيش ليلته يطوف عليه لحراسته خمسون نفراً من عسكره .. فلما أصبح الصباح كان عبد الله بن أبى قد انسحب من الجيش ومعه نحو ثلاثمائة من مُدّعى الإسلام والمنافقين عائدين إلى المدينة فلحق بهم (عبد الله بن خزام) يراجعهم فيما فعلوا ، ويذكرهم بحلفهم ووعدهم للرسول فقال ابن أبى :

لقد عصانى وأطاع الغلمان ، ولو علمنا أنهم يقاتلون حقاً ما أسلمناهم وفيه نزلت الآية :

« وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان »[1] .

وسار النبى ﷺ ومعه نحو سبعمائة مقاتل من المؤمنين المخلصين نحو جيش عدو عدده ثلاثة آلاف رجل أكثرهم يطلب الثأر وجُلُّهم موتور .

عسكر المسلمون بالشعب من (أحد) فى عدوة الوادى جاعلين ظهرهم إلى الجبل .

ورسم النبى ﷺ الخطة لكسب المعركة ، فجاءت مُحْكَمة رائعة .. وَزّع الرماة على أماكنهم ، وأمّر عليهم (عبد الله بن جبير) - وكانوا خمسين رجلاً - وقال :

«إنضحوا الخيل عنا بالنبل لا يأتونا من خلفنا ، إن كانت الدائرة لنا أو علينا فالزموا أماكنكم لا نُؤتَيَنَّ من قبلكم »[2].

وفى رواية قال لهم : إحموا ظهورنا إن رأيتمونا نُقتل فلا تنصرونا ، وإن رأيتمونا نغنم فلا تشركونا واطمأن رسول الله ﷺ إلى أن فرقة الرماة قد

----

(١) سورة النساء الآيه ٥١ .

(٢) حديث صحيح أخرجه ابن هشام (٢/١٢٩) عن ابن اسحق بدون اسناد وله شواهد كثيرة منها عن البراء بن عازب أخرجه البخارى (٧/٢٨٠) وأبو داود (١/٤١٥).

أمَّنَتْ بهذه الأوامر المشددة مؤخرة جيشه ، فأقبل يتعهد مقدمته .

وأمر ألا ينشب قتال إلا بإذنه .

وظاهر هو نفسه بين درعين[1] ، وأخذ يتخير الرجال أولى النجدة والبأس ليكونوا طليعة المؤمنين حين يلتحم الجمعان .

إن عدد المسلمين على الربع من المشركين .. ولن يعوض هذا التفاوت إلا الأشخاص الذين يوزنون بالألوف وهم آحاد .

روى ثابت[2] عن النبى ﷺ أنه أمسك يوم أحد بسيف ثم قال : من يأخذ هذا السيف بحقه ؟

فأحجم القوم فقال أبو دجانة : وما حقه يا رسول الله ؟ قال : أن تضرب به حتى ينحنى .

قال أبو دجانه : أنا آخذه بحقه يا رسول الله .. فأخذه ففلق به هام المشركين.

قال ابن اسحق : كان أبو دجانه رجلاً شجاعاً يختال عند الحرب ،وكانت له عصابة حمراء إذا اعتصب بها عُلِمَ أنه سيقاتل حتى الموت ، فلما أخذ السيف من يد رسول الله ﷺ تعصب وخرج يقول :

أنا الذى عاهدنى خليلى ونحن بالسفح لدى النخيل
ألا أقوم الدهر فى الكيول أضرب بسيف الله والرسول

ويعنى بعدم قيامه فى الكيول، ألا يقاتل فى مؤخرة الصفوف ، بل يظل أبدا فى المقدمة .

وَصَفَّتْ قريش جيشها، وعلى ميمنته فرسان عليهم (خالد بن الوليد)

---

(١)حديث صحيح أخرجه الحاكم (٣/٢٥) وعن البيهقى (٩/٤٦) من حديث الزبير بن العوام

(٢) كذا وقع فى تاريخ ابن كثير (٤/١٥) معزوا لأحمد فنقله المؤلف كذلك وانما هو عن ثابت عن أنس كذلك اخرجه أحمد ومسلم (٧/١٥١)

وعلى ميسرته فرسان عليهم (عكرمة بن أبى جهل) . وأراد أبو سفيان قائد الجيش إثارة الحمية فى نفوس حملة لواء الجيش من بنى عبد الدار فقال لهم يحمسهم :

إنما يؤتى الناس من قبل راياتهم ، فإما أن تكفونا ، وإما تُخَلُّوا بيننا وبين اللواء .

فقال بنو عبد الدار وقد ثارت حماستهم : سترى إذا إلتقينا وإياهم كيف نصنع أما نساؤهم وفى مقدمتهن (هند بنت عتبه) فكن يرحن ويجئن بين الصفوف يحمسنهم ، ويُثِرْنَ نخوتهم ، وهن يضربن على الدفوف والطبول ، فَيُقْبِلْنَ داعيات رجال المقدمة إلى النضال بقولهن :

ويها بنى عبد الدار ! ويها حماة الأديار ! ضرباً بكل بتار !

ثم يرجعن منشدات :

نحن بنات طارق — نمشى على النمارق
إن تُقْبِلوا نُعانق — أو تُدبِروا نفارق
فراقَ غير وامقِ

وتقدم (أبو عامر الأوسى) من صفوف قريش فنادى على قومه الأوس من صفوف رسول الله ﷺ ، وهو يرجو انضمامهم إليه :

يا معشر الأوس أنا أبو عامر !

فأجابه الأوس المسلمون : لا أنعم الله بك عينا يا فاسق .

فقال : لقد أصاب القوم من بعدى شر .

ونادى أبو سفيان : يا معشر الأوس والخزرج خَلُّوا بيننا وبين بنى عمنا وننصرف عنكم ، فشتمه الأوس والخزرج أقبح الشتم ، ولعنوه أشد اللعن .. وترامى الفريقان بالأحجار حتى ولَّى أبو عامر وأتباعه مدبرين .. ثم تدانت

الفئتان .. وأذِنَ النبى ﷺ لرجاله أن يجالدوا العدو .. وبدأت مراحل القتال الأولى تثير الغرابة كأن ثلاثة آلاف مشرك يواجهون ثلاثين ألف مسلم .. لا بضع مئات قلائل !! وظهر المسلمون فى أعلى صور الشجاعة واليقين ...

خرج (حنظله بن أبى عامر) من بيته حين سمع هواتف الحرب ، وكان حديث عهد بعرس فانخلع من أحضان زوجتة ، وهرع إلى ساحة الوغى حتى لا يفوته الجهاد ، والتقى بأبى سفيان فلما استعلاه حنظله بن أبى عامر ، رآه (شداد بن الأسود) قد علا أبا سفيان فضربه شداد فقتله .. فقال رسول الله ﷺ : « إن صاحبكم (يعنى حنظله) لتُغَسِّلُهُ الملائكة » إن حادى التضحية كان أملك لنفسه ، وأملا لحسه من داعى اللذّه .. فاستشهد البطل وهو جُنُب !

ودخل المسلمون إلى قلب جيش المشركين ، فاندفع حمزة- أسد الإسلام- فصاح صيحة الحرب التى اتفق عليها المسلمون فى هذا اليوم :

أمت ... أمت !

وصال أبو دجانه وجال بسيف رسول الله ﷺ وعلى رأسه علم الموت فما مَرَّ على أحد من المشركين إلا جَدَّ لَهُ بسيفه ، وما اعترضه أحد منهم إلا قتله .. وكان أحد المشركين قد شغل نفسه بالإجهاز على جرحى المسلمين فى المعركة قال كعب بن مالك : وإذا برجل من المسلمين ينتظره وعليه لأمته ، فمضيت حتى كنت من ورائه ، ثم قمت أقدر المسلم والكافر ببصرى ، فإذا الكافر أفضلهما عدة وهيئة ، فلم أزل أنتظرهما حتى إلتقيا ، فضرب المسلم الكافر على حبل عاتقه ضربة بالسيف فبلغت وركه وتفرق فرقتين .. ثم كشف المسلم عن وجهه وقال :

كيف ترى يا كعب ؟ أنا أبو دجانه ...

وقاتل مصعب بن عمير دون رسول الله ﷺ حتى قتل ، وكان الذى قتله (ابن قمئة الليثى) وهو يظن أنه رسول الله ﷺ .. فرجع إلى قريش فقال : قتلت محمدا .. فلما قُتل مصعب بن عمير ، أعطى رسول الله ﷺ اللواء على بن أبى طالب وانطلق علىّ بن أبى طالب إلى قلب جيش المشركين ... ولما اشتد القتال جلس رسول الله ﷺ تحت راية الأنصار ، وأرسل إلى علىّ .. أن قدم الراية فتقدم علىّ فقال : أنا أبو القسم ، فناداه أبو سعد بن أبى طلحة - وهو صاحب لواء المشركين :

أن هل لك يا أبا القصم فى المبارزة من حاجة ؟ قال علىّ : نعم .. فبرزا بين الصفين فانقض عليه علىّ بسيفه فضربه فصرعه ، فحمل اللواء أخوه عثمان .. فحمل عليه حمزة بسيفه فضربه على يده التى تحمل اللواء .. فحمله بيده الأخرى ، فضربه عليها حمزة فقطعها .. فحمل اللواء أخوهما أبو سعيد .. فرماه سعد بن أبى وقاص فأصاب حنجرته فقتل ...

وهكذا ظل اللواء ينتقل بين يدى طلحة وإخوته حتى إنتهى إلى ولديه مسافع وجلاس فرماهما عاصم بن أبى الأقلح فقتلهما .. وكانت أمهما سلافة بين نساء جيش قريش فتلقت ولديها الواحد بعد الآخر ووسدتهما حجرها وهما يلفظان أنفاسهما الأخيرة .. وهى تسأل كلا منهما : يا ولدى من أصابك ؟ فيجيبها إبنها بين حشرجة الموت : سمعت رجلاً حين رمانى يقول: خذها وأنا ابن أبى الأقلح .. فنذرت سلافة إن أمكنها الله من رأس عاصم بن أبى الأقلح أن تشرب فيه الخمر .. وجعلت لمن يجيئها برأسه مائة من الإبل ...

وحمى وطيس القتال بين الفريقين ، وكانت فيه كفة المؤمنين الراجحة ، وكفة المشركين الخاسرة ، فكان أصحاب النبى ﷺ يجولون بأسيافهم فى المشركين فيصيبونهم .. ويصولون فيها بنبالهم فيجدلونهم .

وكان أسد الله حمزة لا يهز سيفاً يميناً إلا ليقتل .. ولا يلوح به يساراً إلا ليصرع وقاتل حمزة قتال الليوث المهتاجة .. وصمد لحملة اللواء من بنى عبد الدار حتى قتل أرطاة بن عبد شر حبيل بن هاشم بن عبد الدار ، وكان أحد النفر الذين يحملون اللواء ، ثم مر به سباع بن عبد العزى الغبشانى ، وكان يُكنى بأبى نيار .. فصاح به حمزة :

هلم إلىّ يا ابن مقطعة البظور .. وكانت أمه أم أنمار ختانه بمكة فلما التقيا ضربه حمزة وصرعه ...

وكان وحشي ينظر حمزة ويتبصره حتى رآه كأنه الجمل الأورق ، يَهُدُّ الناس بسيفه هداً .. ما يقوم له شئ ،، وتهيأ وحشى له يريده مستترا بشجرة أو بحجر حتى يدنو منه إذ تقدم سباع بن عبد العزى وانشغل حمزة بقتله وهو فى غفله عن وحشي .. وازن هذا حربته بيده كى يُحسن القاءها ويجيد رمايتها .. ثم دفعها عليه ، فوقعت فى ثنته (أحشائه) حتى خرجت من بين رجليه !!! والتفت إلى مصدر الطعنة فرأى حبشياً .. فخطا نحوه يريد أن يصرعه بسيفه !! ولكن واأسفاه فلقد خانت أسد الله وأسد الإسلام قواه فتعثر ثم سقط !!! سقط يجود بأنفاسه الطاهرة .. وظل عدو الله ينظر إلى حبيب الله حتى إذا ما فاضت روحه .. وسكنت إختلاجات جسده تقدم فنزع حربته ثم ولى إلى مؤخرة المعسكر ، فربض فيه إذ لم يكن بغيره حاجة إنما قتله ليعتق !!

ومع الخسارة الفادحة التى نالت المسلمين بقتل حمزة فإن جيشهم القليل ظل مسيطرا على الموقف كله .

وأصيب المشركون بهزيمة مريرة .. ونال أصحاب الرسول ﷺ نصراً لا شك فيه وكان لواء قريش قد صار إلى الأرض وديس بالأقدام بعد أن تداولته أيدى بنى عبد الدار يدا بعد يد فَفَنُوا جميعا دونه .. فتفرق الرجال من حوله ، وإختلط عليهم الأمر .. وأخذوا يفرون أمام سيوف المسلمين التى

كانت تطيح فيهم فتجتث رءوسهم وتحصد أرواحهم وولولت النساء اللاتى كن يشجعن الرجال ويحمسنهم ، وَوَلَّين إلى شعاب الجبل هاربات .

حينئذ علم المسلمون أن النصر حليفهم .. وأن يومهم هذا يوم بدر .. فانتشوا بنشوة الفرح واستخفهم السرور ...

قال ابن اسحق : ثم أنزل الله نصره ، وصدق وعده .. فحسوهم بالسيوف حتى كشفوهم عن المعسكر، وكانت الهزيمة لاشك فيها .

روى عبد الله بن الزبير عن أبيه قال : والله لقد رأيتنى أنظر إلى خدم - سوق - بنت عتبه وصواحبها مشمرات هوارب، مادون أخذهن قليل ولا كثير...

قد يجد المرء نفسه فى حفل يموج بالأنوار .. وتنتشر فى أجوائه الأشعه المبهرة .. ثم .. ثم يقع خلل مفاجئ يقطع التيار !! فإذا المصابيح تعتم ، ثم يسود المكان ظلام موحش سقيم .. !! إن هذا مَثَل للتحول المستنكر الذى قلب سير الحوادث فى معركة أحد .. ! لحظة يسيرة من لحظات الضعف الإنسانى ، عرضت لفريق من الجند فأوقعت الارتباك فى صفوف الجيش كله .. !! فضاعت فى ساعة نزق كل المكاسب التى أحرزتها الشجاعة النادرة ، والتضحية البالغة ..!

لقد علمت كيف شَدَّدَ الرسول ﷺ على الرماة أن يلزموا أماكنهم صيانة لمؤخرة المسلمين ، وأوصاهم ألا يبرحوا أبداً ولو رأوا الجيش تتخطفه الطير ! غير أن أثارة من حب الدنيا عصفت بهذه الوصاة فى ساعة غفله !!! فما إن رأى الرماة الهزيمة حلت بقريش والنساء يهمن فى الجبل يولولن .. والرجال يولون الأدبار .. والغنائم التى خلفها ثلاثة آلاف مشرك تزحم الوادى .. حتى غادروا مواقعهم هابطين إلى الميدان يبغون انتهاب أنصبتهم من الأسلاب والأموال ...!

وكان فرسان المشركين بقيادة (خالد بن الوليد) محصورين لا يجدون

ثغرة ينفذون منها إلى قلب المسلمين إلى أن حلت الهزيمة .. فلما رأى خالد أن مؤخرة المسلمين إنكشفت ولم يبق عليها حارس إغتنم الفرصة على عجل فاستدار بالخيل وأحدق بخصومه منحدرا عليهم من حيث لا يحتسبون ... !

ورأى الفارون من قريش بوادر هذا التغيير الطارئ .. فتراجعوا حتى إن إمراة تدعى (عمرة بنت علقمة الحارثية) هى التى رفعت لواء قريش من التراب بعد أن سقط وصرع حملته .. وثاب المشركون إلى رايتهم .. فأحيط بالصحابة من الأمام والخلف ... ووقعوا بين شقى الرحى !!!

ولحق بخالد بن الوليد عكرمة بن أبى جهل قائد فرسان الميسرة ، فلم يمض إلا قليل حتى كان أمير الرماة (عبد الله بن جبير) جثة ممثلا بها أشنع تمثيل .. وكان النفر القليل من حوله صرعى بنبال المشركين واندفع الفرسان بخيولهم إلى قلب جيش المقاتلين الذى كان اختلط حابله بنابله ، يفر منه المشركون ويغنم منه المسلمون .. فصاحوا منادين بشعار حربهم : يا للعزى .. يا لهبل ..

وصلصلت سيوف الفرسان فوق رءوس المسلمين اللاهين بما هم فيه !! فأخذتهم البغته وأذهلتهم المفاجأة .. فتركوا ما بين أيديهم ، وانتضْوا سيوفهم يدافعون بها عن أنفسهم .. ،يصدون بها تلك الجموع التى حاصرتهم .. ولكن هيهات هيهات ! لقد عاد الجيش الآفل إلى القتال بعد إذ قويت نفسه .. وانقض رجاله على رجال المسلمين يطوحون بهم يمينا وشمالا والمسلمون فى ربكه لا يعرفون معها صاحبهم من عدوهم فيضرب بعضهم بعضا .

على أن الرجال لا يصادون بسهولة إنهم شدهوا لما حدث !!! ولكنهم أخذوا يقاتلون بحرارة ، وإن كان هدفهم هذه المرة أن ينجوا فحسب ... أن يبصروا طريقاً يخلصهم من هذا المأزق العضوض ، واستشهد كثيرون وهم يحاولون شق طريقهم ، واستطاع المشركون أن يخلصوا قريبا من النبى

صلوات الله وسلامه عليه ..فرماه أحدهم بحجر كسر أنفه ورباعيته !! وشَجَّه فى وجهه فأثقله وتفجر منه الدم ودخلت حلقتان من المغفر الذى يستر به وجهه فى وجنته ..[1] !

وشاع أن محمدا قتل !! فتفرق المسلمون .. واتجه بعضهم إلى المدينة .. وانطلقت طائفة فوق الجبل.. واختلطت على الصحابة أحوالهم فما يدرون كيف يفعلون !!!

وفعلت هذه الكلمة فى نفوس كل من الفريقين فعل السحر فانخذل لها أكثر المسلمين ، وضعفت معنويتهم .. وفرح لها المشركون ، وقويت روحهم .. ثم لم تلبث جموع المحاربين أن تبعثرت وتخلخلت ، فمن المسلمين من اعتزل القتال ، ومنهم من دعا إلى وقفه .. ولكن منهم من كانوا لايزالون أقوياء الإيمان فواصلوا القتال وهم يقولون للمنخذلين منهم : إن كان رسول الله قد قتل فما تصنعون بالحياة بعده ؟ قاتلوا وموتوا على ما مات عليه ... !! أو يقولون : لقد بلغ محمد رسالة ربه ، فقاتلوا عن دينكم ، فإن الله حى لا يموت ...

إلا أن النبى ﷺ جعل يصيح بالمؤمنين : إلىَّ عباد الله .. إلىَّ عباد الله .... فاجتمع إليه نحو ثلاثين رجلا ، غير أن المشركين بصروا بهم فهاجموهم .. وقف طلحة بن عبيد الله وسهل بن حنيف إلى جوار رسول الله ﷺ ، فأصيب طلحة بسهم فى يده فَشلّها فأقبل أبى بن خلف الجمحى على النبى ﷺ ، وكان قد حلف أن يقتله ، وأيقن أن الفرصة سانحة فجاء يقول : يا كذاب .. أين تفر ؟ وحمل على رسول الله ﷺ بسيفه .

---

(١) رواه ابن جرير فى تاريخه عن السدى مرسلا كما فى (البداية) (٢٣/٤) وكسر رباعيته ﷺ وشج رأسه ثابت فى مسلم (١٧٩،٥) من حديث أنس ورواه البخارى (٢٩٢/٧) وكان الذى أصابه عتبه بن أبى وقاص .

فقال النبي ﷺ : بل أنا قاتله إن شاء الله .. وطعنه في جيب درعه طعنة وقع منها يخور خوار الثور ، فلم يلبث يوما أو بعض يوم حتى مات[1] .

ومضى النبي ﷺ يدعو المسلمين إليه واستطاع - بالرجال القلائل الذين معه - أن يصعد فوق الجبل فانحازت إليه الطائفة التي اعتصمت بالصخرة وقت الفرار ، وكان أبو عامر الأوسي قد حفر حفراً كالخنادق بأسفل الجبل كي يقع فيها المسلمون .. فَزَلَقَتْ رجل النبي ﷺ - وهو يصعد إلى الجبل - في إحداها فأسرع إليه عليّ وطلحة بن عبيد الله فأخذا بيده ورفعاه، ثم واصلوا جميعا صعودهم متسلقين أُحداً .

وعلى مرتفع من الجبل تَتَرَّسَ أصحاب النبي ﷺ دونه ، والتفوا حوله يحمونه بأجسادهم ومَصَّ مالك بن سنان ، أبو أبي سعيد الخدري ، الدم عن وجه رسول الله ﷺ ، ثم ازدرده ، فقال رسول الله ﷺ : من مَسَّ دمي دمه لم تصبه النار .

وأقبلت نساء المسلمين وكن قد خرجن يحملن سِقَاءَ الماء للمحاربين ، وفي مقدمتهن فاطمة بنت رسول الله ﷺ التي أقبلت على أبيها تبكي ، وتمسح له الدم عن وجهه، وتضمد له جراحه . ولم تتوان قريش من جانبها في مهاجمة الرسول ومن إنحاز إليه من صحابته بغية الإجهاز عليه وعليهم ومرت ساعة عصيبة من أحرج الساعات في تاريخ الدنيا !!!! وفرسان المشركين ورماتهم يحملون - بعناد والحاح - لتحقيق أمنيتهم ، فقتل بين يدي النبي خلق كثير وهم ينافحون دونه . . جالدهم طلحة حتى أجهضهم عنه .. ثم سقط بين حي وميت ! وتَرَّسَ عليه أبو دجانه بظهره فكان النبل يقع فيه وهو لا يتحرك !

---

(١) هو من حديث السدي المتقدم وقال ابن كثير إنه غريب وله شاهد من رواية أبي الأسود عن عروة بن الزبير

ورمى سعد بن أبى وقاص دون رسول الله ﷺ وقال سعد : فلقد رأيته يناولنى النبل وهو يقول : إرم فداك أبى وأمى ، حتى إنه ليناولنى السهم ماله نصل فيقول : إرم به ، ثم إن رسول الله ﷺ رمى عن قوسه حتى إندقّت سيتها، فأخذها قتادة بن النعمان فكانت عنده ، وأصيبت يومئذ عين قتادة بن النعمان ، حتى وقعت على وجنته ، فردها رسول الله ﷺ بيده فكانت أحسن عينيه وأحدّهما .

فلما انتهى رسول الله ﷺ إلى فم الشعب ، خرج على بن أبى طالب حتى ملأ درقته ماء من المهراس ، فجاء به إلى رسول الله ﷺ ليشرب منه، فوجد له ريحاً فعافه ، فلم يشرب منه ، وغسل عن وجهه الدم ، وصَبَّ على رأسه وهو يقول : إشتد غضب الله على من دَمِيَ وجه نبيه ، وكان سعد بن أبى وقاص يقول : والله ما حرصت على قتل رجل قط كحرصى على قتل عتبه بن أبى وقاص ، وإن كان ما علمت لسيئ الخلق مُبْغَضاً فى قومه ،. ولقد كفانى منه قول رسول الله ﷺ : اشتد غضب الله على من دَمِيَ وجه رسوله .

فبينا رسول الله ﷺ بالشعب ، معه أولئك النفر من أصحابه ، إذ علت عالية من قريش الجبل ، فقال رسول الله ﷺ : اللهم إنه لا ينبغى لهم أن يعلونا ، فقاتل عمر بن الخطاب ورهط معه من المهاجرين ، حتى أهبطوهم من الجبل ، ونهض رسول الله ﷺ إلي صخرة من الجبل ليعلوها .. وقد كان بدن رسول الله ظاهرا بين درعين ، فلما ذهب لينهض لم يستطع فجلس تحته طلحة بن عبيد الله - وكله جروح - فنهض به حتى استوى عليها فقال ﷺ: أوجب طلحة ، حين صنع برسول الله ما صنع .

روى مسلم : أن رسول الله ﷺ أفرد يوم (أحد) فى سبعة من الأنصار ورجلين من قريش ، فلما أرهقه المشركون قال : من يردهم عنى وله الجنة ؟ فتقدم رجل من الأنصار فقاتل حتى قتل ، ثم أرهقوه فقال : من يردهم عنى وله الجنة ؟ فلم يزل كذلك حتى قتل السبعة فقال رسول الله ﷺ « ما أنصفنا أصحابنا - يعنى من فروا وتركوه - وتركت هذه الاستماتة أثرها .. ففترت حدة قريش فى محاولة قتل النبى ﷺ .. وثاب إليه أصحابه من كل ناحية .. وأخذوا يلمون شملهم ويزيلون شعثهم .

إن الإفلات من عواقب هذا الإنكسار الشنيع عمل لا يقل - فى خطره- عن الإنتصار الأول وقد إتجه عزم الرسول ﷺ إلى بذل كل جهد ممكن فى سبيل مقاومة قريش حتى لا تظفر بشئ ما غنيمة باردة . بل حتى تثقل بها مغارمها فلا تطمع فى مزيد من إيذاء المسلمين . فكان ينثل السهام من كنانته ويعطيها سعد بن أبى وقاص ويقول : إرم فداك أبى وأمى[1] .

وكان أبو طلحة الأنصارى رامياً ماهراً فى إصابة الهدف قاتل دون رسول الله ﷺ ، فكان إذا رمى رفع رسول الله ﷺ بصره ينظر أين يقع سهمه ، ويرفع أبو طلحة صدره قائلا :

هكذا يأبى أنت وأمى ، لا يصيبك سهم ، نحرى دون نحرك [2]ويقول : إنى جلد يا رسول الله فوجهنى فى حوائجك ، ومرنى بما شئت !!

وقد نجح الرماة حول رسول الله ﷺ فى صد المشركين الذين حاولوا الصعود إلى الجبل وبذلك أمكن المسلمين الشاردين أن يلحقوا بالنبى ومن

----

(١) رواه البخارى (٢٨٧/٧) من حديث سعد

(٢) رواه البخارى (٢٨٩/٧- ٢٩٠) من حديث أنس وكذلك أخرجه أحمد (١٠٥٣، ٢٦٥، ٢٨٦) وعنده فى رواية قول أبى طلحة : « إنى جلد »

معه ، إلا أنهم جاءوا وكأنما خرجوا من عماية حتى إن بعضهمَ - من فرط الغيظ والذهول - قاتل أمامه لا يدرى من يقاتل ، فقاتل اليمان والد الصحابى المعروف حذيفه وصرخ حذيفه : أبى .. أبى دون جدوى .. !

وكان ممن قتل يوم أحد (مخيرق) قال : لما كان يوم أُحد قال : يا معشر يهود .. والله لقد علمتم أن نصر محمد عليكم لحق . قالوا : إن اليوم يوم السبت ، قال : لا سبت لكم فأخذ سيفه وعدته، وقال إن أُصِبْتُ فمالي لمحمد يصنع فيه ما يشاء ، ثم غدا إلى رسول الله ﷺ فقاتل معه حتى قُتل ، فقال رسول الله ﷺ : « مخيرق خير يهود » .

وكان عمرو بن الجموح رجلا أعرج شديد العرج ، وكان له بنون أربعة مثل الأسد يشهدون مع رسول الله ﷺ المشاهد . فلما كان يوم أحد أرادوا حبسه، وقالوا له : إن الله عز وجل قد عذرك فأتى رسول الله ﷺ فقال : إن بنى يريدون أن يحبسونى عن هذا الوجه ، والخروج معك فيه فوالله إنى لأرجو أن أطأ بعرجتى هذه الجنة . فقال رسول الله ﷺ أما أنت فقد عذرك الله، فلا جهاد عليك ، وقال لبنيه : ما عليكم ألا تمنعوه ، لعلَّ الله أن يرزقه الشهادة ، فخرج معه ، فقتل يوم أُحد .

أما وحشى قاتل حمزة بن عبد المطلب ، فقد ذهب يطالب بمكافأته .. فأتى هند فأخبرها خبره وقال لها : ماذا لى وقد قتلت حمزة ؟!

قالت : لك حُلِيِّى .. دلنى على مكانه ... فصحبها وحشى إلى حيث جثة حمزة ! فما تمالكت حقدها ومرارة نفسها فَأَكَبَّتْ عليه تَبْقرُ بطنه وتخرج كبده تنهشه بأسنانها تشفيا وانتقاما !! إلا أنها لم تستطع أن تستسيغه فلفظته وخلعت حليها فأعطتها وحشيا .. ثم أقبلت ومعها نساء قريش يُجَدِّعْنَ أنوف قتلى المسلمين وآذانهم وينظمن منها أساور وقلائد يتحلين بها .

ولما تجمعت فلول المسلمين بعد هذا الكر والفر كان الإعياء قد نال منها

أى منال لولا أن قذف الله فى قلوبهم السكينة ، وأعاد إليها - بعد هذا الزلزال - الأمل والثقة فسكنوا حول رسول الله ﷺ يرقبون ما يَجدُّ.

وداعب الكرى أجفان البعض من طول التعب والسهر .، فإذا أغفى وسقط من يده السيف عاودته اليقظة فتأهب للعراك من جديد .. وهذا من نعمة الله على القوم : « **ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاسا يغشى طائفة منكم** »[1] .

ولم تكن قريش أقل من المسلمين معاناة لأهوال ذلك اليوم العصيب فقد تعبت جد التعب فى الجولة الأولى ، فلما أديل لها وطمعت أن تجعل المعركة حاسمة قاسمة وجدت المسلمين أصلب عوداً ، دون إفنائهم صعاب لا تستطيع إحتمالها ، فاكتفت مما ظفرت بالإياب .

وظن المسلمون - لأول وهلة - أن قريشا تنسحب لتهاجم المدينة نفسها، فقال النبى ﷺ لعلى بن أبى طالب : أخرج فى آثار القوم ، فانظر ماذا يصنعون فإن هم جنبوا الخيل وامتطوا الإبل فإنهم يريدون مكة ، وإن ركبوا الخيل وساقوا الإبل فهم يريدون المدينة ، فو الذى نفسى بيده لئن أرادوها لأسيرنَّ إليهم ثم لأُناجزنَّهم فيها .

قال على : فخرجت فى آثارهم فرأيتهم جنبوا الخيل وامتطوا الإبل واتجهوا إلى مكة .

قال ابن اسحق : ثم إن أبا سفيان حين أراد الإنصراف أشرف على الجبل ثم صرخ بأعلى صوته :

أنعْمت .. إن الحرب سجال ، يوم بيوم بدر .. أُعْلُ هبل !!

فقال رسول الله ﷺ لعمر : قم يا عمر فأجبه فقل : الله أعلى وأجل .. لاسواء قتلانا فى الجنة وقتلاكم فى النار .

فقال أبو سفيان : هلمَّ إلى يا عمر

---

(١) سورة آل عمران من الآيه ١٥٤

فقال رسول الله ﷺ لعمر : إئته فانظر ما شأنه . فجاءه

فقال أبو سفيان له : أنشدك الله ياعمر أقتلنا محمدا ؟

فقال عمر : اللهم لا .. وأنه ليسمع كلامك الآن . قال : أنت عندى أصدق من ابن قميئة - وهو الذى زعم أنه قتل النبى ..

ثم نادى أبو سفيان : إنه قد كان فى قتلاكم مُثْلة ، والله ما رضيتُ ولا سخطتُ وما نهيتُ ولا أمرتُ[1] ولما إنصرف أبو سفيان نادى :

إن موعدكم بدر العام المقبل ...

فقال رسول الله ﷺ لرجل من أصحابه : قل نعم هو بيننا وبينك موعد[2] .

﴿ شهداء أحد ﴾

أخذت قريش طريقها إلى مكة وقد إستخفها النصر الذى أحرزته ، إنها طارت به على عَجَل ، كأنها غير واثقه مما نالت بعد الهزيمة التى حاقت بها أول القتال ...

وأقبل المسلمون يتحسسون مصابهم فى الرجال ، ويجهزون القتلى لمضاجعهم التى يبرزون منها للقاء الله يوم يُنفخ فى الصور .

روى ابن اسحق[3] : أن رسول الله ﷺ قال :

مَنْ رجل ينظر ما فعل سعد بن الربيع ؟ أفى الأحياء هو أم فى الأموات ؟

---

(١) حديث صحيح أخرجه أحمد والحاكم وصححه من حديث ابن عباس واسناده حسن كما تقدم فى أول معركة أحد .

(٢) لم أجده الآن غير عند ابن اسحق

(٣) أخرجه من طريق محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى صعصصة المازنى مصرحا بسماعه منه مرفوعا به كما فى سيرة ابن هشام (٢/ ١٤٠-١٤١) وهذا اسناد معضل وقد رواه الحاكم (٣/ ٢٠١) من طريق محمد بن اسحق أن عبد الله بن عبد الرحمن بن أبى صعصصة حدثه عن أبيه أن رسول الله قال : فذكره

فقال رجل من الأنصار : أنا ... فنظر فوجده جريحا في القتلى وبه رمق فقال له : إن رسول الله ﷺ أمرني أن أنظر ، أفي الأحياء أنت أم في الأموات ؟ فقال : أنا في الأموات فأبلغ رسول الله ﷺ سلامي وقل له : إن « سعد بن الربيع » يقول لك : جزاك الله عنا خير ما جزى نبياً عن أمته ، وأبلغ قومك عني السلام ، وقل لهم : إن سعد بن الربيع يقول لكم : إنه لا عذر لكم عند الله إن خُلِصَ إلى نبيكم وفيكم عين تطرف ..

قال : ثم لم أبرح حتى مات ، وجئت النبي عليه الصلاة والسلام فأخبرته خبره ، وأمر النبي ﷺ بدفن الشهداء حيث قتلوا ، ورفض أن ينقلوا إلى مقابر أسرهم .

وخرج رسول الله ﷺ يلتمس حمزه بن المطلب ، فوجده ببطن الوادي قد بقر بطنه عن كبده ، ومُثِّل به فجدع أنفه وأذناه ! فقال رسول الله ﷺ حين رأى ما رأى :

« لولا أن تحزن صفية ، ويكون سُنَّة من بعدي لتركته حتى يكون في بطون السباع وحواصل الطير ولئن أظهرني الله على قريش في موطن من المواطن لأمثلَنَّ بثلاثين رجلا منهم [1] »

فلما رأى المسلمون حزن رسول الله ﷺ وغيظه على من فعل بعمه ما فعل قالوا :

والله لئن أظفرنا الله بهم يوما من الدهر لنُمَثِّلن بهم مُثْلَة لم يمثلها أحد من العرب ...!

ولما وقف رسول الله ﷺ على حمزة قال :

لن أصاب بمثلك أبدا !! ما وقفت موقفا قط أغيظ إلى من هذا !! ثم

----

(١) حديث صحيح واسناده معضل

قال : جاءنى جبريل فأخبرنى أن حمزه بن عبد المطلب مكتوب فى أهل السموات السبع : « حمزة بن عبد المطلب أسد الله وأسد رسوله » .

ثم أمر رسول الله ﷺ بحمزة فسجى ببرده ، ثم صلى عليه فكبر سبع تكبيرات ، ثم أتى بالقتلى فيوضعون إلى حمزة ، فصلى عليهم وعليه معهم .. حتى صلى عليه اثنتين وسبعين صلاة .

وأقبلت صفية بنت عبد المطلب لتنظر إليه وكان أخاها لأبيها وأمها فقال الرسول ﷺ لإبنها الزبير بن العوام :

ألقها فارجعها ، لا ترى ما بأخيها ..

فقال لها : يا أمة إن رسول الله ﷺ يأمرك أن ترجعى .

قالت : ولم ؟ وقد بلغنى أن قد مُثِّل بأخى ، وذلك فى الله فما أرضانا بما كان من ذلك ! لأحتسبن ولأصبرن إن شاء الله ، فلما جاء الزبير إلى رسول الله ﷺ فأخبره بذلك ، قال : خَلِّ سبيلها ، فأتته فنظرت إليه ... فصلت عليه ، واسترجعت .. واستغفرت له ثم أمر به رسول الله ﷺ فدفن .

ثم قال رسول الله ﷺ يومئذٍ حين أمر بدفن القتلى : انظروا إلى عمرو بن الجموح ، وعبد الله بن عمرو بن حرام فإنهما كانا متصافيين فى الدنيا فاجعلوهما فى قبر واحد .

قال جابر بن عبد الله : لما كان يوم أحد جاءت عمتى بأبى لتدفنه فى مقابرنا فنادى منادى رسول الله ﷺ : رُدّوا القتلى إلى مضاجعهم[1] .

وكان رسول الله ﷺ يجمع بين الرجلين من قتلى أحد فى ثوب واحد ثم يقول :

أيهم أكثر أخذاً للقرآن ؟ فإذا أشير إلى أحدهما قدمه فى اللحد وقال: أنا شهيد على هؤلاء ، وأمر بدفنهم بدمائهم ولم يغسلهم[2] .

---

(١)حديث صحيح أخرجه أبو دواد (٢/٦٣) والنسائى (١/٢٨٤) بسند صحيح عن جابر

(٢) حديث صحيح أخرجه البخارى (٣/١٦٣-١٦٥ . ١٦٩ . ٧/٣٠٠) والنسائى (١/٢٧٧) والترمذى (٢/١٤٨) .

ولما انصرف عنهم قال : « أنا شهيد على هؤلاء أنه مامن جريح يجرح في سبيل الله إلا والله يبعثه يوم القيامة يدمى جرحه اللون لون الدم والريح ريح المسك .. انظروا أكثر هؤلاء جمعاً للقرآن فاجعلوه أمام أصحابه في القبر » وكانوا يدفنون الاثنين والثلاثة في قبر واحد[1].

وكان جميع من استشهد مع رسول الله ﷺ من المهاجرين والأنصار خمسة وسبعين رجلا .

وقال ابن اسحق : وجميع من قتل الله تبارك وتعالى يوم أُحد من المشركين اثنان وعشرون رجلا .

ثم انصرف النبى ﷺ راجعا إلى المدينة فلقيته(حِمْنَة بنت جحش) فلما لقيت الناس نعى اليها أخوها (عبد الله بن جحش) فاسترجعت واستغفرت له ، ثم نعى إليها خالها حمزة بن عبدالمطلب فاسترجعت واستغفرت له ، ثم نعى إليها زوجها مصعب بن عمير ، فصاحت وولولت !! فقال رسول الله ﷺ .

إن زوج المرأة منها بمكان ! لما رأى من تثبتها عند أخيها وخالها ، وصياحها على زوجها .

قال ابن اسحق : ومَرَّ رسول الله ﷺ بدار من دور الأنصار من بنى عبد الأشهل وظفر ، فسمع البكاء والنواح على قتلاهم ، فذرفت عينا رسول الله ﷺ فبكى .. ثم قال :

« لكن حمزة لا بواكى له » .. فلما رجع سعد بن معاذ وأسيد بن حضير إلى دار بنى عبد الأشهل أَمَرَا نساءهم أن يتحزمن ثم يذهبن فيبكين على عم رسول الله ﷺ (حديث صحيح)

ولما سمع رسول الله ﷺ بكاءهن على حمزة خرج عليهن ، وهُنَّ على باب مسجده يبكين عليه فقال : إرجعن يرحمكن الله ، فقد آسيتن بأنفسكن!

---

(١) اسناده صحيح عن ابن اسحق عن محمد بن مسلم الزهرى عن عبد الله بن ثعلبه بن صعير العذرى وهذا سند صحيح، وابن صعير صحابى صغير فهو مرسل صحابى وهو حجه.

ومر رسول الله ﷺ بامرأة من بني دينار ، وقد أصيب زوجها وأخوها وأبوها مع رسول الله ﷺ بأحد ، فلما نعوا لها قالت :

فما فعل رسول الله ﷺ ؟

قالوا : خيراً يا أم فلان .. هو بحمد الله كما تحبين ...

قالت : أرونيه حتى أنظر إليه ، فأشير لها عليه .. حتى إذا رأته قالت:

كل مصيبة بعدك جلل (تريد صغيرة)

فلما انتهى رسول الله ﷺ إلى أهله ناول سيفه ابنته فاطمة وقال :

إغسلي عن هذا دمه يا بنية ، فو الله لقد صدقني اليوم ، وناولها علي بن أبي طالب سيفه وقال : وهذا أيضا فاغسلي عنه دمه ، فو الله لقد صدقني اليوم .

فقال رسول الله ﷺ : لئن كنت صدقت القتال ، لقد صدق معك سهيل بن حنيف وأبو دجانه .

إن معركة أحد تركت آثارا غائرة في نفس محمد ﷺ ظلت تلازمه إلى آخر عهده بالدنيا .

في هذا الجبل الداكن الجاثم حول يثرب أودع محمد ﷺ أعز الناس عليه وأقربهم إلى قلبه !! فالصفوة النقية التي حملت أعباء الدعوة وعادت - في سبيل الله - الأقربين والأبعدين واغتربت بعقائدها قبل الهجرة وبعدها ، وأنفقت وقاتلت ، وصبرت وصابرت .. هذه الصفوة إختط لها القدر مثواها الأخير في هذا الجبل الأشم فتوسدت ثراه راضية مرضية .. وكان رسول الله ﷺ يتذكر سير أولئك الأبطال ومصائرهم ويقول : «أحد جبل يحبنا ونحبه»[1] ولما حانت ساعه وفاته جعل آخر عهده بذكريات البطوله أن يزور قتلى أحد ، وأن يدعو الله لهم وأن يعظ الناس بهم .

---

(١) حديث صحيح اخرجه البخاري (٣٠٢/٧) ومسلم (١٢٤/٤) وغيرهما من حديث أنس وغيره .

﴿ عبر المحنة ﴾

يقول الإمام الغزالى :

موقعة أحد فياضه بالعظات الغوالى ، والدروس القيمة ، وقد نزلت فى أدوارها وحوادثها ونتائجها آيات طوال ،وكان لها فى نفس رسول الله ﷺ أثر عميق ظل يذكره إلى قبيل وفاته .

كانت إمتحانا ثقيل الوطأة ، مَحَّضَ السرائر، ومَزَّق النقاب عن مخبوئها، فامتاز النفاق عن الإيمان ، بل تميزت مراتب الإيمان نفسه.. فَعُرِف الذين ركلوا الدنيا بنعالهم فلم يعرجوا على مطمع من مطامعها .. والذين مالوا إليها بعض الميل، فنشأ عن أطماعهم التافهة ما ينشأ عن الشرر المستصغر من حرائق مروعة .

بدأت المعركة بانسحاب ابن أبى وهو عمل ينطوى على استهانة بمستقبل الاسلام وغدر به فى أحرج الظروف .. وتلك أبرز خسائس النفاق . والدعوات - ابان إنتصارها وامتدادها - تغرى الكثير بالانضواء تحت لوائها ، فيختلط المغرض بالمخلص، والأصيل بالدخيل وهذا الإختلاط مضر أكبر الضرر بسير الرسالات الكبيرة وإنتاجها .

ومن مصلحتها الأولى أن تصاب برجَّات عنيفه تعزل خبيثها عنها ، وقد إقتضت حكمة الله أن يقع هذا التمحيص فى « أحد » .

« ما كان الله ليذر المؤمنين على ما أنتم عليه حتى يميز الخبيث من الطيب وما كان الله ليطلعكم على الغيب »[1] .

فالجبن والنكوص هما اللذان كشفا عن طوية المنافقين ، فافتضحوا أمام أنفسهم وأمام الناس قبل أن تعلن عن نفاقهم السماء .

----

(١) آل عمران من الآيه ١٧٩

فإذا تجاوزت السفوح التي يدب عليها أولئك المنافقون ، وثبت إلى درجة شامخة للإيمان البعيد الغور ، النقى العنصر يتمثل فى مرحلة الهجوم المظفر الذى ابتدأ به القتال - بالرغم من التفاوت الرهيب فى عدد وعتاد القوتين - ثم فى مرحلة الدفاع النبيل الهائل الذى حمل المسلمون عبئه ، عندما ارتدت الكرة للمشركين ، ورجحت كفتهم .

إن الرجال الذين يكتبون التاريخ بدمائهم ، ويوجهون زمامه بعزائمهم هم الذين صَلَوا هذه الحرب وحفظوا بها مصير الإسلام فى الأرض .

روى أن « خيثمة » قتل إبنه فى معركة « بدر » فجاء إلى الرسول ﷺ يقول لقد أخطأتنى وقعة بدر ، وكنت والله عليها حريصا حتى ساهمت ابنى فى الخروج فخرج - فى القرعة - سهمه ، فرزق الشهادة ، وقد رأيت ابنى البارحة فى النوم فى أحسن صوره يسرح فى ثمار الجنة وأنهارها يقول : الحق بنا ترافقنا فى الجنة .. فقد وجدت ما وعدنى ربى حقا . ثم قال : وقد أصبحت يا رسول الله مشتاقا إلى مرافقته .. وقد كبرت سنى .، وَرَقَّ عظمى .. وأحببت لقاء ربى .. فادع الله يا رسول الله أن يرزقنى الشهادة ومرافقة ابنى خيثمة فى الجنة . فدعا رسول الله ﷺ له فقتل بـ « أحد » شهيدا[1] . وقصة « عمرو بن الجموح » الشديد العرج « وقد تحدثنا عنها سالفا » .

وقال « نعيم بن مالك »[2] : يا نبى الله لا تحرمنا من الجنة - وذلك قبل نشوب الحرب - والذى نفسى بيده لأدخلنها .. فقال له رسول الله ﷺ : بِمَ ؟

---

(١) لم أقف عليه على سند

(٢) الصواب : النعمان بن مالك وفى ترجمته أورد هذا الحديث (الحافظ فى « الاصابة » من طريق السدى فهو مرسل .

قال : بأني أحب الله ورسوله .. ولا أفرُّ يوم الزحف ، فقال رسول الله ﷺ : صدقت واستشهد يومئذٍ ..

وقال عبد الله بن جحش في ذلك اليوم : اللهم إني أقسم عليك أن ألقى العدو غدا فيقتلوني ثم يبقروا بطني .. ويجدعوا أنفي وأذني ثم تسألني : فيم ذلك ؟ فأقول : فيك[1] ...

هذه صور للرجولة الفارعة التي إصطدم بها الكفر أول المعركة وآخرها فماد أمامها ، واضطربت من تحت أقدامه الأرض .. فما ربح شيئا في بداية القتال ، ولا انتفع بما ربح آخره .

وهذا اللون من البطولة مدفون تحت جدران التاريخ الإسلامي القائم إلى اليوم .. وما يقوم للإسلام صرح، ولا ينكف عنه طغيان إلا بهذه القوى المذخوره المضغوطة في أفئدة الصديقين والشهداء .. مَنْ سرُّ هذا الإلهام ؟ مَنْ مَشْرِقُ هذا الضياء ؟ مَنْ مَبْعَث هذا الإقتدار ؟؟؟ .. إنه محمد ... محمد رسول الله ﷺ .. إنه هو الذي ربى ذلكم الجيل الفذ .. ومن قلبه الكبير أترعت هذه القلوب تفانيا في الله ، وإيثارا لما عنده .. صلى الله عليك وسلم يا رسول الله .

وقد أصيب هذا النبي الجليل في « أحد » أُصيب في بدنه إذ دخلت حلقات المغفر في وجهه ، فأكبَّ عليه أبو عبيدة يعالج إنتراعها بفمه ، فما خلصت من لحمه حتى سقطت معها ثنيتاه[2] ونزف الدم بغزارة من جراحته ، كلما سكب عليها الماء إزداد دفقاً !! فما استمسك حتى أحرقت قطعة من

---

(١) أخرج هذا الأثر الحاكم (٣/١٩٩ - ٢٠٠) من طريق سعيد بن المسيب قال : قال عبد الله بن جحش .. وقال صحيح على شرط الشيخين لولا ارسال فيه ووافقه الذهبي .

(٢) ذكره ابن هشام (٢/١٣٥-١٣٦) من طريق ابن اسحق بن يحيى بن طلحة عن عيسى بن طلحة عن عائشة عن أبي بكر وقد وصله الطيالس (٢/٩٩) وكذلك وصله الحاكم (٣/٢٦-٢٧).

حصير فألصقت به[1] .

وكُسرت كذلك رباعيته ! وكسرت البيضة على رأسه !!! ومع ذلك فقد ظَلَّ متقد الذهن ، يوجه أصحابه إلى الخير حتى انتهت المعركة .

ثم أصيب فى أهله ، فقتل « حمزة » بحربة انغرزت فى أحشائه .. وجاءت هند إمراة أبى سفيان ، فاستخرجت كبده من بطنه ولاكتها بفمها ثم لفظتها لانفجار المرارة !

وقد كان رسول الله ﷺ يُعزُّ حمزة ويحبه أشد الحب ، فلما رأى شناعة المُثله فى جسمه تألم أشد الألم وقال : لن أصاب بمثلك أبداً .. ما وقفت قط موقفا أغيظ إلى من هذا[2] بيد أن التسليم لله لم يلبث أن مسح الأحزان العارضة .

وعاد رسول الله ﷺ يتفقد أصحابه ويخفف ما نزل بهم ... ويسكب من إيمانه على نفوسهم ما يملؤها عزاءً ورضا عن الله واستكانة لقضائه .

روى الإمام أحمد[3] : لما كان يوم « أحد » وانكفأ المشركون قال رسول الله ﷺ : استووا حتى أثنى على ربى عز وجل ...

فصاروا خلفه صفوفا فقال :

اللهم لك الحمد كله — اللهم لا قابض لما بسطت
ولا باسط لما قبضت — ولا هادى لمن أضللت
ولا مضل لمن هديت — ولا معطى لما منعت
ولا مانع لما أعطيت — ولا مقرب لما باعدت

----

(١) حديث صحيح أخرجة البخارى (٧/٢٩٨) ومسلم (٥/١٧٨) وغيرهما من حديث سهيل بن سعد .

(٢) هو من حديث سهل بن سعد المتقدم أنفا .

(٣) فى المسند (٣/٤٢٤) والحاكم أيضا (١/٥٠٧ ، ٣/٢٣ . ٢٤) وقال الحاكم صحيح على شرط الشيخين .

ولا مبعد لما قربت   اللهم أبسط علينا من بركاتك ورحمتك وفضلك ورزقك ....

اللهم إنى أسألك النعيم المقيم الذى لا يحول ولا يزول ...

اللهم إنى أسألك العون يوم العيلة ، والأمن يوم الخوف

اللهم إنى عائذ بك من شر ما أعطيتنا ، وشر ما منعتنا ..

اللهم حبب إلينا الإيمان وزينه فى قلوبنا ، وكره إلينا الكفر والفسوق والعصيان ، واجعلنا من الراشدين ..

اللهم توفنا مسلمين .. وأحينا مسلمين ...والحقنا بالصالحين غير خزايا ولا مفتونين ...

اللهم قاتل الكفرة الذين يكذبون رسلك ، ويصدون عن سبيلك ، واجعل عليهم رجزك وعذابك ...

اللهم قاتل الكفرة الذين أوتو الكتاب ... إله الحق

﴿ تعقيب القرآن الكريم على ما أصاب المسلمين يوم أحد ﴾

ترفق القرآن الكريم وهو يعقب على ما أصاب المسلمين فى « أحد » على عكس ما نزل فى « بدر » من آيات . ولا غرو فحساب المنتصر على أخطائه أشد من حساب المنكسر ! فى المرة الأولى قال :

« تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم، لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم »[1].

أما فى « أحد » فقال :

« منكم من يريد الدنيا و منكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين »[2].

---

(١) الأنفال من الآيه ٦٧ والآيه ٦٨   (٢) آل عمران من الآيه ١٥٢

حَسْبُ المخططين ما لحقهم من أوضار الهزيمة ، وفى القصاص العاجل درس يُذكِّر المخطئ بسوء ما وقع فيه ، وقد اتجهت الآيات إلى مزج العتاب الرقيق بالدرس النافع ، وتطمين المؤمنين ، حتى لا يتحول انكسارهم فى الميدان إلى قنوط يَفِلُّ قواهم ، وحسرة تَشِلُّ إنتاجهم .

« قد خلت من قبلكم سنن فسيروا فى الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين[1] . هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين[2] ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين »[3] .

ثم مضى الوحى يعلم المسلمين ما جهلوا من سنن الدين والحياه ، أو يُذكِّرهم بما نسوا من ذلك ، فَبَيَّن أن المؤمن - مهما عَظُمَتْ بالله صلته - لا ينبغى أن يَغْتَرَّ به ، أو يحسب الدنيا دانت له ، أو يظن قوانينها الثابته طوع يديه كلا . . كلا .. فالحذر البالغ ، والعمل الدائم هما عدتا المسلم لبلوغ أهدافه المرسومة .. ويوم يحسب المسلم أن الأيام كلها كتبت له .. وأن شيئاً منها لن يكون عليه .. وأن أمجاد الدارين تنال دون بذل التكاليف الباهظة ...فقد سار فى طريق الفشل الذريع ..!

« إن يمسسكم قرح فقد مس القوم قرح مثله وتلك الأيام ندا ولها بين الناس »[4].

« أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين »[5] .

(١ ، ٢ ، ٣) آل عمران من الآيه ١٣٧حتى ١٣٩ .

(٤) آل عمران من آيه ١٤٠ .

(٥) آل عمران آيه ١٤٢ .

وأولوا الألباب يستحيون أن يطلبوا السلعة الغالية بالثمن التافه وهم يُبدون استعدادهم للتضحية بأنفسهم لقاء ما ينشدون ، بيد أن الإستعداد أيام الأمن يجب ألا يزول أيام الروع .

إن الإنسان - فى عافيته - قد يتصور الأمور سهلة مبسطة ، وقد يتأدى به ذلك إلى المجاذفة والخداع .

فليحذر المؤمن هذا الموقف ، وليستمع إلى تأنيب الله لمن تمنوا الموت ثم حادوا عنه لما جاء :

« ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون »(١) .

ثم عاتب الله عز وجل من أسقط فى أيديهم وانكسرت همتهم لما أشيع أن الرسول ﷺ مات .. ما كذلك يسلك أصحاب العقائد .. إنهم أتباع مبادئ ، لا أتباع أشخاص .

ولو افترض أن الرسول ﷺ قتل وهو ينافح عن دين الله ، فحق على أصحابه أن يثبتوا فى مستنقع الموت ، وأن يَرِدُوا المصير نفسه الذى ورده قائدهم لا أن ينهاروا ويتخاذلوا ... !

إن عمل محمد ﷺ ينحصر فى إضاءة الجوانب المعتمة من فكر الإنسان وضميره ، فإذا أدى رسالته ومضى ، فهل يسوغ للمستنير أن يعود إلى ظلماته فلا يخرج منها ، لقد جمع محمد ﷺ الناس حوله على أنه عبد الله ورسوله ، والذين ارتبطوا به عرفوه إماما لهم فى الحق ، وَصلَةً لهم بالله فإذا مات عبد الله ، ظلت الصله االكبرى بالحى الذى لا يموت باقية نامية

« وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل إنقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين »(٢) .

----

(١) آل عمران من ١٤٣ .   (٢) آل عمران ١٤٤ .

وقد استطرد النظم الكريم يبصر المؤمنين بمواطن العبره فيما نالهم ، ويعلمهم كيف يتقون في المستقبل هذه المآزق ، وينتهز هذه الكبوة العارضة .. ليعزل عن جماعة المسلمين من خالطوهم علي دَخَل وعاشروهم علي نفاق .

ولئن أفادت وقعة (بدر) فى خذل الكافرين ، فإن وقعة (أُحد) أفادت مثلها في فضح المنافقين .. وَرُبَّ ضارة نافعة .. وربما صحَّت الأجسام بالعلل .....!

ولعل ما ترتب علي عصيان الأوامر في هذه الموقعة ، درس عميق يتعلم منه المسلمون قيمة الطاعة . فالجماعة التى لا يحكمها أمر واحد ، أو التى تغلب على أفرادها وطوائفها النزعات الفردية النافرة لا تنجح فى صدام بل لا تشرف نفسها فى حرب أو سلام .

والأمم كلها - مؤمنها وكافرها- تعرف هذه الحقيقة ، ولذلك قامت الجندية علي الطاعة التامة وعندما تشتبك أمة في حرب تجعل أحزابها جبهة واحدة .. وأهواءها رغبة واحدة ، وتخمد كل تمرد أو شذوذ ينجم فى صفوفها.

وإحسان الجندية كإحسان القيادة :

فكما أن إصدار الأوامر يحتاج إلي حكمة ، فإن انفاذها يحتاج إلي كبح وكبت ، ولكن عقبى الطاعة فى هذه الشئون ، تعود على الجماعة بالخير الجزيل .

وأسرع الناس إلى الشغب والتمرد ، من أُقصوا عن الرئاسة وهم إليها طامحون....

وكان عبد الله بن أبى مثلا لهذه الفئة التي تضحى بمستقبل الأمة فى سبيل أطماعها الخاصه ..أما الرماة الذين عصوا الأوامر بلزوم أماكنهم مهما

كانت أطوار المعركة .. فقد مرت بهم فترة ضعف وذهول تيقظت - خلالها - بقية في أنفسهم من حب الدنيا .. والإقبال على عرضها الزائل ! فكان إثر ذلك ما كان !!

ولذلك لما دُهِشَ المسلمون للكارثة التي قلبت عليهم الأمور ، بَيَّن الله لهم أنهم هم مصدرها ، فما أخلفهم موعدا ، ولا ظلمهم حقا « **أَوَلَمَّا أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شئ قدير** »[1] .

إن الإسلام يشترط لكمال العمل وقبوله :

١ - الإيمان ٢ - الاحتساب ٣ - والتجرد .

حدثنا عبد الله بن محمد قال : حدثنا عبد الله بن جعفر قال : حدثنا أبو سعيد عبد الرحيم بن عبد الله بن عبد الرحيم البرقي قال : حدثنا أبو محمد عبد الملك بن هشام قال :

فكان مما أنزل الله تبارك وتعالى في يوم « أحد » من القرآن ستون آية من آل عمران فيها صفة ما كان في يومهم هذا ، ومعاتبة من عاتب منهم .

على أن المسلمين دفنوا موجدتهم في أفئدتهم ، ولم يستسلموا لأحزان المصاب الذى حَلّ بهم ... وكان تكاثر خصومهم حولهم سبباً في أن يقاوموا عوامل الخور ، وأن يُبدوا للناس بقية من قوة تَرُدُّ عنهم كيد المتربصين ، وقد كانت الهزيمة في « أُحد » فرصة إنتهزها المنافقون واليهود ، وكل ذى غمر على محمد ﷺ ودينه وأصحابه ففارت المدينه كالمرجل المتقد ، وكشف عن عداوته من كان قَبلاً يواريها ، وتحدث الكافرون بالإسلام عن خذلان السماء للنبى المرسل من عند الله .

----

(١) آل عمران آيه ١٦٥

فرأى النبيﷺ أن يعيد تنظيم رجاله على عَجَل وأن يتحامل الجريح مع السليم على تكوين جيش جديد يخرج فى أعقاب قريش ليطاردها ، ويمنع ما قد يَجِدُ من تكرار عدوانها .

كانت معركة « أحد » فى السبت لخمسة عشر من شوال ، وكان خروج هذا الجيش لستة عشر منه يعنى ثانى يوم « أحد » .

﴿ ١١ - غزوة حمراء الأسد ﴾

خرج رسول الله ﷺ من المدينة حتى إنتهى إلى « حمراء الأسد » وهى من المدينة على بعد ثمانية أميال وكان خروجه يوم الأحد ستة عشر من شوال، واستعمل على المدينة : ابن أم مكتوم ، واقترب هو وجيشه من جيش أبى سفيان .. وكان رجال قريش - بعد أن ضمهم الفضاء الرحب - قد عادوا إلى التفكير فيما حدث .. وأخذوا يتلاومون .. يقول بعضهم لبعض : لَمْ تصنعوا شيئا .. أصبتم شوكة القوم ، ثم تركتموهم ولم تبتروهم ، وقد بقيت منهم رءوس يجتمعون لكم .

إلا أن هذا التفكير تزلزل إثر ما عرفت قريش أن المسلمين عبأوا قواهم وخرجوا فى إثرهم يستأنفون القتال ، وحار المشركون فى أمرهم ، أيعودون لحرب لا يأمنون مغبتها ؟ وربما أفقدتهم ثمار النصر الذى أحرزوه ؟ أم يمضون - لتوهم - إلى مكة ؟ وفى هذه الحال يتحسن مركز المسلمين ، وتخفُّ مرارة الهزيمة التى لحقتهم .

وقد رأى أبو سفيان أن يغنم الأوبة الرابحة ، وأن يبعث إلى المسلمين من يقذف الرعب في قلوبهم ويخبرهم أن قريشا عادت لاستئصال شأفتهم بعد أن تبين لها خطؤها في تركهم .

وعسكر المسلمون بـ (حمراء الأسد) ثم جاءهم دسيس أبى سفيان يغريهم بالعودة إلى يثرب نجاة بأنفسهم من كرةٍ المشركين عليهم ، وهم لا يقدرون على ملاقاتهم .

بيد أن المسلمين قبلوا التحدى وظلوا فى معسكرهم يوقدون النار طيلة ثلاث ليال الأثنين والثلاثاء والأربعاء فى انتظار قريش ، التى ترجح لديها أن النجاة بنفسها أولى ، فعادت إلى مكة .. وعاد المسلمون إلى المدينة ليدخلوها مرة أخرى أرفع رءوسا وأعز جانبا ، وفى هذه المظاهرة الناجحة ، وفيمن اشتركوا فيها على ألم الجراح ، وإرهاق التعب ، وفى ثباتهم على التثبيط ، وإطمئنانهم إلى جانب الله نزلت الآيات الكريمة :

« الذين استجابوا لله والرسول من بعد ما أصابهم القرح للذين أحسنوا منهم واتقوا أجر عظيم الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم ، فزادهم إيمانا وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل .. فانقلبوا بنعمة من الله وفضل لم يمسسهم سوء واتبعوا رضوان الله والله ذو فضل عظيم »[1].

﴿ بعد أحـد ﴾

إنتقض على الإسلام كثير ممن هادنه أو داهنه .

وبرغم مظهر البأس الذى أبداه المسلمون فى مطاردة المشركين حتى (حمراء الأسد) فإن هزيمة أحد كانت أبعد غوراً مما يظنون ، لقد تجرأت عليهم أعراب البادية ، وفتحت لهم أبواب الأمل فى الإغارة على المدينة وانتهاب خيرها ...

كما أن يهود عالنوا بسخريتهم ، وتركوا وساوس الغش تلح عليهم ، وتكدر سيرتهم مع المسلمين

----

(١) آل عمران : الآيات ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤

ومن أصعب الأمور قياد الأمم عقب الهزائم الكبيرة ، وقيام الدعوات بعد الانكسارات الخطيرة وإن كان الرجال يستسهلون الصعب ، ويصابرون الأيام حتى يجتازوا الأزمات .

وقد جاءت السنة الرابعة للهجرة ، والمسلمون لم يداووا جراحاتهم فى « أحد » إلا أن الأحداث لا تنتظر ، فقد أخذ البدو يتحركون نحو المدينة يحسبون أن ما فيها أصبح غنيمة باردة وأول من تهيأ لغزو المدينة (بنو أسد) فسارع رسول الله ﷺ إلى بعث (أبى سلمة)على رأس مائة وخمسين رجلاً، ليبغت القوم فى ديارهم قبل أن يقوموا[1] بغارتهم .

٧ -﴿ بعثة أبي سلمة ﴾

أبو سلمة يُعَدُّ من خيرة القادة الذين صحبوا رسول الله ﷺ ، وسبقوا إلى الإيمان به والجهاد معه ، وسار أبو سلمة ورجاله بعد أن زودهم النبى ﷺ بنصائحه ، وأوصاهم بتقوى الله حتى إنتهوا إلى « قَطَنٍ» وأحست جموع بنى أسد بقدوم المسلمين قبل أن تتخذ أهبتها لقتالهم ، فتفرقت هاربة تاركة وراءها غنيمة لا بأس بها من الإبل والغنم فاستولى عليها جيش المسلمين ، وأُسَرَ ثلاثة من الموالى كانوا يرعونها ، وقد عاد أبو سلمة من هذه البعثة مجهودا ، إذ نَغَرَ عليه جرحه الذى أصابه فى « أحد » فلم يلبث حتى مات.

٨ - ﴿ بعث عبد الله بن أُنَيْس إلى خالد بن سفيان ﴾

وكذلك علم رسول الله ﷺ أن « خالد بن سفيان بن نُبَيْح الهُذَلىّ » يجمع الجموع بـ « نخله » ليغزوه بها ، فأرسل إليه عبد الله بن أنيس يتجسس له حقيقة الخبر فأتى عبد الله إلى خالد وهو فى منزل مع نساء له، فسأل خالد : من الرجل؟ فأجاب عبد الله: أنا رجل من العرب سمع بك،

----

(١) ذكر هذه السرية ابن كثير فى (البدايه) (٤/٦١/٦٢) من طريق الواقدى .

وبجمعك لمحمد فجاءك لذلك ، فلم ينكر الرجل أنه يجمع الجموع لذلك ، فلما تأكد لدى عبد الله صحة ما جاء من أجله تَحَيَّن فرصة انفرد فيها بالرجل فحمل عليه بالسيف فقتله[1] ، وعاد إلى المدينة تاركا نساء خالد منكبات عليه يبكينه ، وتفرقت جموع هذيل إلى حين .. وإن كان قد أصبح لديها سبب تفكر فيه ويُبَرِّرُ مقاتلة محمد .. ذلك السبب هو الانتقام لمقتل زعيمها خالد والثأر له .

وهكذا كان محمد ﷺ مبادراً إلي قتال كل من تحدثهم أنفسهم بالنيل من المسلمين، أو الاستخفاف بشأنهم .. وفي هذه الآونه أتى نفر من قبيلة تجاور هذيلاً وقالوا لمحمد ﷺ : يا محمد : إن فينا إسلاما ، فابعث معنا نفراً من أصحابك يفقهوننا في الدين ، ويقرئوننا القرآن ، ويعلموننا شرائع الإسلام ، وكان محمد ﷺ يبعث إلى القبائل التى فيها ميل إلى الإسلام من أصحابه من يعلم مسلميها آيات الله ويفقههم فى دينهم ويعرفهم شرائعه .

٩ - ﴿ بعثة مرثد بن أبى مرثد الغنوى وقصة الرجيع ﴾

روى محمد بن اسحق المطلبى قال : حدثنى عاصم بن عمر بن قتادة قال: قدم على رسول الله ﷺ بعد « أحد » رهط من عضل والقارة .

قال ابن هشام : عضل والقارة : من الهَوْن بن خزيمة بن مدركة .

جاء هذا الرهط وطلب من رسول الله ﷺ - ما ذكرناه آنفا - فبعث النبى ﷺ معهم ستة من أصحابه وهم :

----

(١) رواه أبو داود (٢/١٩٦) والبيهقى (٣/٢٥٦) واحمد (٣/٤٩٦) من طريق عبد الله بن أنيس عن أبيه وقال الحافظ ابن كثير فى تفسيره (١/٢٩٥) « اسناده جيد » وقال الحافظ بن حجر فى « الفتح » (٢/ ٣٥٠) اسناده حسن .

أسماء النفر الذين أرسلهم النبى ﷺ مع القوم :

١ - مرثد بن أبى مرثد الغنوى حليف حمزة بن عبد المطلب .

٢ - خالد بن البُكير الليثى حليف بنى عدى بن كعب .

٣ - عاصم بن ثابت بن أبى الأقلح أخو بنى عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس .

٤ - خبيب بن عدى أخو بنى جَحْجَبَى بن كُلْفَة بن عمرو بن عوف .

٥ - زيد بن الدثنة بن معاوية أخو بنى بياضه بن عمرو بن زريق (بن عبد حارثه بن مالك بن غضب بن جشم بن الخزرج)

٦ - وعبد الله بن طارق حليف بنى ظفر (بن الخزرج بن عمرو بن مالك بن الأوس) وأمَّر رسول الله ﷺ على القوم « مرثد بن أبى مرثد الغنوى » فخرج مع القوم حتى إذا كانوا على الرجيع (ماء لهذيل بناحية الحجاز) (بين عسفان ومكة) إذ بهم يشعرون بأن أصحابهم غدروا بهم .! وإذا بهم يستصرخون ويستنصرون برجال (هزيل) على جماعة المسلمين الستة !! .. وبُغتَ رجال محمد ولكنهم ما لبثوا أن أدركوا غدر مرافقيهم بهم ، وعرفوا أنهم ما استدرجوهم وأتوا بهم إلا لتنتقم هذيل منهم لمقتل زعيمها (خالد بن سفيان بن نبيح) ففزع الدعاة إلى سيوفهم يخرجونها من أغمادها يدفعون بها عن أنفسهم شر هذا الغدر الذى غَشَّاهم وأحاط بهم .. وماذا يجدى قتال نفر يُعَدُّون على الأصابع لنحو مائة من الرماة وراءهم قومهم يشدون أزرهم؟! ولكنهم سمعوا رجال هذيل يقولون لهم : إنا والله ما نريد قتالكم ، ولكنا نريد أن نصيب بكم شيئا من أهل مكة ولكم عهد الله وميثاقه ألا نقتلكم .

ووجد أصحاب محمد ﷺ ما يعرضه عليهم القوم من عهد هو شر من قتالهم لهم فأجابوهم : والله إنا لا نقبل من مشرك عهداً ولا عقداً .

وعلى ذلك إنتضى المسلمون السيوف يقاتلون بها المشركين الغادرين رغم قلة عددهم وكثرة عدد أعدائهم ، وكانت النتيجة الحتمية لذلك أن تغلبت الكثرة على القلةً فقتل من المسلمين ثلاثة هم : مرثد بن أبي مرثد ، وخالد بن البُكَيْر ، وعاصم بن ثابت بن أبي الأقلح ، وأسر الثلاثه الباقون وهم : خبيب بن عدى ، وزيد بن الدثنه وعبد الله بن طارق ، وكان عاصم بن ثابت قد قتل فى وقعة « أحد » مسافعاً وطلحة ولدى سلافه بنت سعد، فنذرت أمهما - على ما نذكر - أن من يأتيها برأس عاصم تشرب فى قحفته الخمر تعطيه مائة من الإبل ، فلما قَتَلَ مشركو هذيل عاصماً - وكانوا قد علموا بنذر سلافه - طمعوا فى أن تكون المائة من الإبل من نصيبهم .. فساروا إلى جثة عاصم ليجتثوا رأسه ، فإذا بها وقد حام عليها جيش من الزنابير حالت كثرته دونهم ودون الإقتراب منها ، فقالوا : فلندعه حتى يمسى المساء وتذهب الزنابير .. فلما أمسى المساء وذهبوا إلى حيث جثة عاصم لم يجدوا لجثة عاصم أثراً فقد إجترفها سيل وذهب بها إلى حيث لم يعرفوا لها مقراً . وهكذا خيب الله رجاءهم ، ومنع قحفة رأس عاصم من أن تُوَفِّى سلافة بنذرها ، وتشرب فيها خمرا وقد كان عاصم قد أعطى الله عهدا أن لا يمسه مشرك ، ولا يمس مشركا أبدا فى حياته ، فمنعه الله بعد وفاته كما امتنع منه فى حياته .

(إسناده مرسل وصح بمعناه)

وسارت هذيل بالثلاثة الذين أسرتهم إلى مكة لتبيعهم إلى أهلها ، وقد قيدت الأسرى بأوتار أقواسهم ، فلما كانوا بوادى الظهران قرب مكة إستطاع عبد الله بن طارق أن ينزع يديه من الوثاق، وأن يتناول سيفه ليقاتل به ، ولكن القوم تكاثروا عليه يرجمونه بالحجارة حتى قتلوه ، فقبره رحمه الله بالظهران .

وساروا بالأسيرين الباقيين حتى أتوا مكة ، فباعوهما فيها ، فاشترى (صفوانِ بن أميه) (زيدا بن الدِثُنَّه) ليقتله بأبيه (أمية بن خلف) واشترى (حجير ين أبى إهاب) (خبيبا) ليُقتل فى قريب له.

ودفع صفوان بن أمية بزيد بن الدِثُنَة إلى مولى له يُدعى نِسْطَاسَ ليقتله ، فخرج به إلى التنعيم - وهو مكان على بعد فرسخين من مكة - فلما هم بقتله ، وقد إجتمع من حوله نفر كبير من أهل مكة ، فيهم أبو سفيان بن حرب ، تقدم أبو سفيان من زيد يقول : أَنْشُدُكَ الله يا زيد ، أتحب أن محمداً عندنا الآن فى مكانك نضرب عنقه ، وأنت فى أهلك ؟

قال زيد : والله ما أحب أن محمداً الآن فى مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأنا جالس فى أهلى ! إذ ذاك لم يسع أبا سفيان إلا أن يقول متعجبا : ما رأيت من الناس أحداً يحبه أصحابه ما يحب أصحاب محمد محمداً !!! وَقَتل نسطاس زيداً ، فمات شهيد أمانته لدينه ، ووفائه لنبيه ...

أما خُبيب فقد حُبس حتى إذا خرجوا به من محبسه إلى التنعيم ليصلبوه ويقتلوه، قال لهم :

إن رأيتم أن تدعونى حتى أركع ركعتين فافعلوا .

فقالوا له : دونك وما أردت ، فركع خبيب ركعتين أتمهما وأحسنهما، ثم أقبل على القوم يقول : أما والله لولا أن تظنوا أنى إنما طولت جزعا من القتل لا ستكثرت من الصلاة .

ولما رُفع خبيب إلى الخشبة التى صلب عليها وأُوثق بها رفع عينيه إلى السماء يقول : اللهم إنا ما قصَّرنا فى تبليغ رسالة رسولك ، فبلغْه ما يُصنع بنا !! اللهم إنى لا أجد هاهنا أحدا يُبَلّغ رسولك عنى السلام ، فَبَلّغه عنى

السلام ....!!

ثم نظر خبيب إلى الجمع الذى إلتف من حوله ينتظر مقتله وقال : اللهم أحْصِهِمْ عددا ، واقتلهم بَدَداً ولا تغادر منهم أحداً .. !! [1]فهو يدعو عليهم أن يقتلوا جميعا متفرقين .

حينئذٍ أخذت القوم رجفة شديدة إستلقوا على أثرها بجنوبهم إلى الأرض خوفا من أن تصيبهم لعنة خبيب التى إستمطرها عليهم بشرِّها .

ثم ما لبث القوم أن قتلوا خبيبا ، فلحق بزيد وبأصحابه الشهداء .

حزن المسلمون لفقدانهم عاصما وصحبه ، ولمصرع أسيريهم على هذا النحو الفاجع !! فقد خسروا فريقا من الدعاة الأكفاء الشجعان يحتاج إليهم الإسلام فى هذه الفترة من تاريخه ! ثم إن إصطياد الرجال بهذه الطريقة زاد المسلمين توجساً وقلقا .. إذ أن ذلك المسلك دَلَّ على مبلغ طماعية العرب فى أهل الإيمان وإستهتارهم بأرواحهم وجرأتهم على النيل منهم دون تخوف أو محاذرة قصاص .

مع أن هذه الواقعه توجب على المسلمين أن يتبصروا قبل بعث أى وفد لنشر الإسلام بين القبائل البعيدة ، والمجاهل المريبة ، إلا أن ضرورة بَثِّ الدعوة -مهما فدحت الخسائر - جعلت النبى ﷺ ينظر إلى هذه التضحيات على أنها أمر لابد منه .. كالتاجر الذى يتحمل المغارم الثقيلة حينا من الدهر ، لأن الإنسحاب من السوق - بُغْيَةَ تجنبها - قضاء عليه فهو يبقى متجملا حتى تهب الريح من جديد ، رُخَاءً تعوِّض ما فقد ..

---

(١) رواه ابن هشام (٢/١٦٧-١٦٩) عن ابن اسحق حدثنى عاصم بن عمر بن قتادة مرسلا وهذا سند صحيح لولا الإرسال ، لكن رواه البخارى فى صحيحه (٧/٣٠٣-٣٠٨) وأحمد (٢/١٩٤ ، ٣١٠) موصولا من حديث أبى هريرة نحوه .

وذاك سرُّ استجابة الرسول ﷺ (لأبى براء عامر بن مالك) الملقب بـ (مُلاعِبْ الأسِنَّه) حين عرض عليه أن يرسل وفدا من الدعاة ينشرون الإسلام بين قبائل نجد .

١٠ - « سرية بئر معونة »

قال ابن اسحق : فأقام رسول الله ﷺ بقية شوال ، وذا القعدة ، وذا الحجة والمحرم، ثم بعث رسول الله ﷺ أصحاب بئر معونة فى صفر على رأس أربعة أشهر من « أحد » .

أتى (أبو براء عامر بن مالك) إلى رسول الله ﷺ ، وهو رجل من أهل نجد مسموع الكلمة فى قومه ، فعرض النبى ﷺ ، عليه الإسلام فلم يسلم ، ولم يظهر كراهية للإسلام وقال : يا محمد؛ لو بعثت رجالا من أصحابك إلى أهل نجد فدعوهم إلى أمرك ، رجوت أن يستجيبوا لك .

قال رسول الله ﷺ : إنى أخشى عليهم أهل نجد

قال أبو براء : أنا لهم جار ، فابعثهم يدعون الناس إلى أمرك ، ولما كان أبو براء رجلا ذا مكانة فى قومه ، يأمن على نفسه من أجاره وشمله بحمايته ، فقد وافق النبى ﷺ على إرسال نفر من أصحابه لذلك الغرض ، وتخير لذلك جماعة كبيرة من خيار المسلمين حافظى القرآن ، يبلغ عدد أفرادها أربعين رجلا ، عليهم (المنذر بن عمرو) وفيهم (عامر بن فهيره) مولى أبى بكر ، وغادرت هذه الجماعة المدينة ووجهتها نجد حتى إذا كانت على (بئر معونة) وتقع بين أرض بنى عامر وَحرَّة بنى سليم ، حَطَّت رحالها

وأرسلت من هناك بأحد رجالها وهو (حرام بن ملحان) إلى (عامر بن الطفيل) يحمل إليه كتابا من رسول الله ﷺ فلما أتاه لم ينظر فى كتابه . ولم يمهل حامله ، بل أشار إلى رجل من أتباعه أن يغتال حامل الرسالة فما شعر (حرام) إلا وَطَعْنَة نجلاء تخترق ظهره وتنفذ من صدره وكأن هذه الشهادة المفاجئه لاقت رجلاً يتمناها من قديم ، فقد صاح (حرام) على أثر ذلك : فُزْتُ ورب الكعبة ...!

واستصرخ بنى عامر لقتال أصحاب الرسول .. وأبى بنو عامر قتال أصحاب محمد ﷺ وقالوا : نحن لا ننقض عهد أبى براء ، ولا نغدر بمن أجارهم . عندئذ إستعان إبن الطفيل على المسلمين بقبائل من (بنى سليم) فخرجوا إليهم وأحاطوا بهم على بئر معونة يحاربونهم ويقاتلونهم شر قتال،وكانت مفاجأة سيئة للمسلمين لم يكونوا ليتوقعوها ، ولكنهم أسرعوا إلى سيوفهم فشرعوها بأيديهم يدفعون بها عن أنفسهم ويقتلون من مهاجميهم من استطاعوا إلى قتله سبيلا . ومضى عامر فى غشمه ، فاستصرخ أعوانه ليواصلوا العدوان على سائر القوم ، فانضمت إليهم قبائل « رِعْل » و « ذكوان » و « القارة » فهجم بهم عامر على القُرَّاء ..! ودافعوا هؤلاء عن أنفسهم دون جدوى ، إذ إستطاع الأعراب الهمج أن يغشوهم فى رحالهم وأن يستأصلوهم عن آخرهم ...! وكان فى سرح القراء إثنان لم يشهدا هذه المأساة منهم « عمرو بن أمية الضمرى » ولم يعرفا النبأ المحزن إلا من أفواج الطير المتوحشة، تنطلق نحو المعسكر محومة حول الجثث الملقاه على الرمل الأعفر، طاعمة مما تستطيع إختطافه بأظافرها ومناقرها .. قالا : والله إن لهذه الطير لشأنا ، فأقبلا لينظرا .. فإذا القوم مضرجون فى دمائهم ، وإذا الخيل التى أصابتهم واقفة ، قال زميل عمرو له : ماذا ترى؟ قال عمرو : أرى أن نلحق برسول الله ﷺ نقص عليه الخبر ..! ولكن زميله

كره هذا الرأى وكان له بين من استشهدوا صديق حميم يدعى « المنذر » لذلك أجاب عمرو بن أمية قائلا :

ما كنت لأرغب بنفسى عن موطن قتل فيه المنذر .. وما كنت لأبقى حتى أقُصَّ خبره على الرجال ، وهجم على الأعراب يقاتلهم حتى قُتل ، وأُخذ عمرو أسيرا ، فأعتقه عامر بن الطفيل كبير الغادرين عن رَقَبَه زعم أنها على أمِّه .

ورجع عمرو إلى المدينة حاملا معه أنباء المصاب الفادح !! مصرع أربعين من أفاضل المسلمين ، تذكر نكبتهم الكبيرة بنكبة « أحد » إلا أن هؤلاء ذهبوا فى قتال واضح ، وأولئك ذهبوا فى غدرة شائنة.!!

إن هذه النازله ملأت قلوب المسلمين غيظا ، وهم لم يضيقوا بخسائرهم فحسب ، بل الذى أحرج مشاعرهم فى هذه الحادثة أنها كشفت عما تخبئه الوثنية فى ضميرها من غِلٍّ كامن على الإسلام وأهله .. غل عصف بكل مبادئ الشرف والوفاء وأباح لكل قادر أن يلحق الأذى بالمؤمنين متى شاء وكيف شاء ..!

وفى طريق عمرو إلى المدينة سكن إلى ظل يستريح فيه من عناء سيره.. وإذا به يقبل عليه رجلان يبغيان الراحة مثله ، فسألهما عمرو : من أنتما؟ قالا : من بنى عامر .. فأمهلهما عمرو حتى ناما ، ثم قام إليهما فقتلهما وهو يحسب أنه قد نال بهما بعض الثأر من مقتل أصحابه الأبرياء ولكنه حين عاد إلى المدينة ، وقَصَّ على النبى خبر هذين الرجلين فيما حمل إليه من أخبار ، قال له النبى ﷺ آسفا : يا عمرو بئس ما صنعت !! قتلت رجلين كان لهما منى أمان وجوار ، فوجب علىّ ديتُّهما ..

وذلك أن هذين الرجلين كانا من قوم بني عامر ، وكان معهما كتاب من رسول الله ﷺ فيه عهد منه ، وفيه عقد جوار .

وحزن النبى ﷺ على ما أصاب أصحابه حزناً عميقاً بالغاً وقال :

هذا عمل أبى براء ، لقد كنت لهذا كارها متخوفا ..!

وقد بلغ من حزن النبى ﷺ أنه ظل شهرا يدعو الله بعد صلاة الفجر أن ينتقم لأصحابه ممن قتلهم .

وكان حزن أبى براء كذلك شديدا جدا لما نال أصحاب محمد ﷺ على يد عامر بن الطفيل ، بعد أن أمَّنهم هو وأجارهم .

وأنشد (حسان بن ثابت) شاعر المسلمين الأول الأشعار الحارة فى رثاء القتلى ، وفى تحريض أولاد أبى براء على الإنتقام لهم ، فسار (ربيعه بن عامر) من أبناء أبى براء إلى ابن الطفيل وطعنه برمحه ، وكان ابن الطفيل راكبا فرسه ، فلم تُصب منه الطعنة مقتلا ، ولكنها أصابت فخذه فسقط عن فرسه إلى الأرض وهو يقول : هذا عمل أبى براء ، إن مت فدمى لعمى فلا يُتْبَعنَّ به ، وإن عشت فسأرى رأيى فما أتى إلىّ .

وكان لحادثتى (يوم الرجيع) و (بئر معونة) أثر بالغ فى معنوية المسلمين تجاه أعدائهم من المنافقين واليهود وسائر قبائل العرب المناوئة لهم.

إن نجاح الإسلام فى ترسيخ أقدامه بالجزيرة أحفظ قلوبا كثيرة ، ولا ريب أن تأميل المسلمين فى المستقبل ، وارتقابهم المزيد من الفتح والإنتشار بالرغم من كل ما كانوا يلاقونه من الخيانات والحقد والكره .. وصمودهم وصبرهم وقوة تحملهم إزاء كل هذا زاد ضغن الضاغنين .. حتى كان الناقمون والمتربصون يصفون المسلمين بالغرور :

« إذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض غرّ هؤلاء دينهم ، ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم »[1] .

غير أن هذه الكراهية إختفت أمداً بعد انتصار « بدر » بل لعل هذا النصر أغرى جمهوراً من الضعاف والمترددين بالانضواء تحت علم الدين الجديد ، فلما انقلبت الليالى ، بالمسلمين ، ولحقتهم الهزائم ، إنفجر الحقد المكبوت ، ونهض خصوم الإسلام يناوشونه فى كل مكان .!

وقد ذكرنا أن النبى ﷺ أدرك هذه الحال بعد (أحد) .. فبذل جهده ليستعيد هيبة المسلمين ، ويوطد ما اضطرب من مكانتهم ، ولذلك اشتد الصراع بين الجانبين ، المشركون يظنون الفرصه سانحة لإتباع (أحد) بمثلها أو أشد ، والمسلمون يرون محوها إلى الأبد . على أن الخسائر تلا حقت بالمسلمين فى (الرجيع) و (بئر معونة) كما مر بك .. ودخل الإيمان فى محنة بعد أخرى ، ومع هذه البأساء لم يفقد الرجال الواثقون صلتهم بربهم، وإطمئنانهم إلى غدهم، وشرعوا يضربون الضربة بمثلها ، فلما تحرك اليهود فى هذه الآونة العصيبة ليغتالوا رسول الله ﷺ لم يتوان فى إنزال العقوبة الرادعة بهم .

★★★

﴿ غدر بنى النضير ﴾

وتفصيل ذاك الغدر أن النبى ﷺ ذهب إلى منازل (بنى النضير) ليستعين بهم فى دية القتيلين اللذين قتلهما (عمرو بن أمية) للجوار الذى كان رسول الله ﷺ عقدلهما ، وكان بين بنى النضير وبنى عامر عقد

---

(١) سورة الأنفال : أية ٤٩ .

وحلف، فلما أتاهم الرسول ﷺ يستعينهم في دية ذينك القتيلين قالوا له : نعم ، يا أبا القاسم نعينك على ما أحببت ، مما استعنت بنا عليه ، فجلس رسول الله ﷺ جنب جدار من بيوتهم ينتظر وفاءهم بما وعدوا .

لكن اليهود خلا بعضهم إلى بعض ثم قالوا : إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه - خلوٌ بال وإطمئنان نفس - فَمَنْ رجل يعلو هذا البيت، فيلقى عليه صخرة ويريحنا منه ؟

وحين أوشك اليهود على إنفاذ مكيدتهم .. ألهم الله رسوله ﷺ الخطر المدبَّر له ، فنهض - عَجِلاً - من جوار البيت الذى كان يجلس بجانبه ، وقفل راجعاً إلى المدينة . وشعر أصحاب النبى ﷺ بمغيبه ، فقاموا فى طلبه، فإذا رجل مقبل من المدينة يخبرهم أنه رآه يدخلها، فأسرعوا يلحقون به ، فلما إنتهوا إليه أخبرهم بما كَادَتْ له يهود، وقد عرف - بعد - أن (عمرو بن جحاش) هو الذى أراد قتل النبى ﷺ بإلقاء الصخرة عليه ، ولم ينج الشقي من عواقب جرمه ولا نجا قومه فإن رسول الله ﷺ ما لبث أن استدعى (محمد بن سلمة) وقال له : إذهب إلى بنى النضير ، فَمُرْهُم أن يخرجوا من المدينة ولا يساكنوني بها ، وقد أجلتهم
عشرا فمن وجدت بعد ذلك ضربت عنقه[1] فبهذا الغدر الشنيع من جانب يهود بني النضير نُقضَ العهد الذى كان بينهم وبين النبى ﷺ ، وحَقَّ للنبى ﷺ أن يتخذ أى قرار يشاء ، وأى خطة يريد .

وأخذ أكثر اليهود فى التجهيز للرحيل فراراً بأرواحهم وأموالهم ، ولكن رأس المنافقين (عبد الله بن أبى) أرسل الى اليهود يقول : لا تخرجوا ، بل أقيموا فى دياركم وأموالكم ، وتحصنوا بحصونكم فإن معى ألفين من قومي ومن العرب يدخلون معكم ، ويحاربون دونكم ....!!

---

(١) رواه بنحوه ابن سعيد فى « الطبقات الكبرى » فى غزوة بنى النضير بدون اسناد ، لكن روى البيهقى كما فى تفسير ابن كثير (٣٣٣/٤) بسنده عن محمد بن سلمة .

وعلى هذا أرسل كبير بنى النضير (حُيَىُّ بن أخطب) إلى محمد ﷺ يقول له : إنا لن نخرج من ديارنا وأموالنا فاصنع ما بدالك .. ثم احتموا بحصونهم واستعدوا للقتال .

﴿١٢ - غزوة بنى النضير﴾

أمر رسول الله ﷺ بالتهيؤ لحربهم والسير إليهم، واستعمل على المدينة (ابن أم مكتوم) ثم سار بالناس حتى نزل بهم ، وذلك فى شهر ربيع الأول، وفرض الحصار على مساكن بنى النضير وأمر بتقطيع نخيلهم[1] وحرقها .. ثم جد الجد ورأى اليهود الموت .. ووقع الرعب فى قلوب أعوانهم ، فلم يحاول أحد أن يسوق لهم خيرا أو يدفع عنهم شرا ، مع أن اشتباك المسلمين بخصومهم فى هذه الفترة المحرجة من تاريخهم ، لم يكن مأمون العواقب ، وقد رأيت تكالب العرب عليهم ، وفتكهم الشنيع ببعوثهم .. ثم إن يهود بنى النضير كانوا على درجة من القوة ، تجعل استسلامهم بعيد الإحتمال ، وتجعل فرض القتال محفوفا بالمكاره .

إلا أن الحال التى جدَّت بعد مأساة (بئر معونة) وما قبلها زادت حساسية المسلمين بجرائم الاغتيال والغدر التى أخذوا يتعرضون لها جماعات وأفرادا.. وضاعفت نقمتهم على مقترفيها .. ومن ثَمَّ قرروا أن يقاتلوا بنى النضير بعد أن هَمُّوا بقتل رسول الله ﷺ .. مهما تكن النتائج !! وقد جاءت النتيجة - بفضل الله وعونه ورحمته - فى مصلحتهم بأسرع مما يتصورون...

---

(١) هذا الأمر صحيح أخرجه الشيخان وغيرهما من حديث ابن عمر .

فلمـا قطعت نخيلهم وحرقت .. عندئذ شَقَّ على اليـهود ذهاب أمـوالهم التى يدافعون عنها ونادوا :

يا محمد قد كنت تنهى عن الفساد ، وتعيبه على من صنعه .. فما بال قطع النخل وتحريقها! .. وإنتظروا ماوعدهم به (عبد الله بن أبى) من نجدة .. ولكن إنتظارهم ضاع سدى ، ولم يمدهم بنو أعمامهم بسلاح ، ولا برجال، فَدَبَّ فى نفوسهم اليأس ، وقذف الله فى قلوبهم الرعب .

وأرسلوا إلى محمد ﷺ : أنا رضينا الخروج فأمِّنا على أرواحنا وأموالنا.

فأرسل إليهم : لن أقبل هذا منكم اليوم .. ولكن أخرجوا ، ولكل ثلاثة منكم حمولة بعير الإ السلاح وارتضى اليهود الخروج بما اشترط عليهم النبى ﷺ به، بعد أن ضيعوا - بعصيانهم أوامر الرسول وباتباعهم وعود (ابن أبى) الخادعة - أكثر أموالهم .

وهكذا خرج بنو النضير من المدينة وساروا إلى خيبر ، فنزل أكثرهم بها، وسار بعضهم إلى الشام ونزل على حدودها ، وترك اليهود من ورائهم مغانم كثيرة كان أكثرها السلاح ، وأنفعها ما خلَّفوا من مزارع وأراض .

وجمع الرسول ﷺ الأنصار من الأوس والخزرج ، وبعد أن أثنى على ما فعلوا مع إخوانهم المسلمين من المهاجرين ، وحمد لهم ما قدموا لهم من أموالهم ومساكنهم قال لهم :

إن أحببتم قَسَمْتُ بينكم وبين المهاجرين ما أفاء الله علىَّ من بنى النضير ، وإن أحببتم أعطيتهم وخرجوا من دوركم .

فكان جواب (سعد بن عبادة) عن الخزرج و(سعد بن معاذ) عن الأوس : يا رسول الله بل تُقْسِمُهُ للمهاجرين ، ويكونون فى دورنا كما كانوا ونادت الأنصار جميعا رضينا وسلمنا يا رسول الله ، فكان جواب الرسول ﷺ : اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار .

وقسّم الرسول ﷺ ما أفاء الله عليه من أرض على المهاجرين دون الأنصار ، إلا اثنين من الأنصار فقيرين ومحتاجين ، فأعطى كلا منهما ما أعطى الفرد من المهاجرين ، وكان إثنان من يهود بنى النضير قد أسلما فبقيا فى ديارهما وأموالهما .

وبهذا صار للمهاجرين مال وديار عوضتهم بعض العوض عما تركوا بمكة ، وأغنتهم عن أن يكونوا عالة على إخوانهم الأنصار وكان كاتب سر النبى ﷺ من اليهود فلما كانت وقعة بنى النضير هذه أمر النبى (زيد بن ثابت) بتعلم العبرية والسريانية من هذا الكاتب وبذلك أمن النبى ﷺ على مكاتباته ومراسلاته من أن يحدث بها تحريف أو تغيير .

وفى هذه المعركة نزلت سورة الحشر بأكملها ، فوصف طرد اليهود فى صدرها بقوله :

« هو الذى أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف فى قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدى المؤمنين فاعتبروا يا أولى الأبصار »[1].

ثم فضح القرآن مسلك منافقى المدينة الذين حاولوا إعانة يهود فى

---

(١) سورة الحشر آيه ٢

غدرها وحربها .. وحرضوها على مقاتلة المسلمين بما وعدوها من أمداد وعتاد فقال :

«ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون»[1] .

« لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم لَيُوَلُّنَّ الأدبار ثم لا ينصرون » .

وبهذا النصر الذى أحرزه المسلمون دون تضحيات . توطد سلطانهم فى المدينة ، وتخاذل المنافقون عن الجهرة بكيدهم وأمكن رسول الله ﷺ أن يتفرغ لقمع الأعراب الذين آذوا المسلمين بعد « أحد » وتواثبوا على بعوث الدعاة يقتلون رجالها فى نذالة وكفران .

ومرت على المسلمين بعد ذلك فترة راحة وسكون ، وقد أعادت لهم حادثة بنى النضير ما فقدوا من مكانة وهيبة عند المنافقين .

وفى هذه الفترة السالفه وبين هذه الأحداث والحوادث ، كان أمر الله بتحريم شرب الخمور وفى هذه الفتره أيضا كان زواج النبى ﷺ من (أم سلمة) أرملة (أبى سلمة) ابن عبد الأسد الذى أرسله النبى ﷺ لحرب بنى أسد فلما عاد لم يعش بعد ذلك طويلا إذ كان قد أصيب فى (أحد) بجرح بالغ ظل يعالجه حتى التأم ، فلما خرج لحرب بنى أسد عاد الجرح

----

(١) سورة الحشر آيه ١١ـ ١٢

فدمي ونغر عليه حتى مات[1] . وترك أبو سلمة من ورائه زوجته وقد تخطت سن الشباب وعددا كبيرا من الأطفال الصغار ، فلما مرت بضعة شهور ، تقدم النبى ﷺ من أم سلمة يطلب يدها ، فاعتذرت لكبر سنها وكثرة أولادها ، ولكن النبى ﷺ ما زال بها حتى قبلت ، فتزوجها ورعى عيالها .

وبذلك كان النبى يضرب للمسلمين الأمثال فى ألا يتركوا نساء المجاهدين وأطفالهم عرضه للبؤس والحاجة . كما ضرب للمسلمين مثلا آخر بزواجه من إبنة عمته « زينب بنت جحش» وكان قد زوجها لمولاه ، وولده بالتبنى (زيد بن حارثه) ليستن بذلك سُنّة منع فوارق الطبقات بين الأشراف والموالى ، ولكن زينب لم تستطع معاشرة زيد كزوجة مطيعة ، ففارقها زيد وأراد النبى الزواج بها ليستن للمسلمين سُنّة أخرى وهى زواج المتبنى من زوج متبناه وزوج المدعى من زوج من ادعاه - وهذا بعد تحريم التبنى - ولكن ظل محمد متردداً فى هذا الأمر يخشى الإقدام عليه ، حتى أمره الله به فأقدم عليه وتزوج من زينب ، ولهذا كانت زينب بنت جحش تتيه على زوجات النبى ﷺ بقولها : لقد زوجكن أهلوكن، أما أنا فقد زوجنى الله ، وكان أمر الله لمحمد ﷺ فى زواج زينب :

« فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكيلا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا وكان أمر الله مفعولا »[2].

----

(١) سبق أن نوهنا عن ذلك فى حينها .

(٢) سورة الأحزاب من آيه ٣٧ .

وعودة إلى هؤلاء الأعراب الغادرين الذين آذوا المسلمين وتواثبوا على بعوث الدعاة . وتأديبا لأولئك الشرذمة من الأعراب ، خرج النبى ﷺ ، يجوس فيافى نجد ، ويطلب ثأر أصحابه الذين قتلوا فى (الرجيع) و (بئر معونه) ويُلقى بذور الخوف فى أفئدة أولئك البدو القساة حتى لا يعاودوا مناكرهم التى ارتكبوها مع المسلمين .

وقام النبى ﷺ - تحقيقا لهذا الغرض - بغزوات شتى ، أرهبت القبائل المغيرة .. وخلطت بمشاعرها الرعب .. فأضحى الأعراب الذين مردوا على النهب والسطو لا يسمعون بمقدم المسلمين إلا حذروا وتمنعوا فى رءوس الجبال، بعد ما قطعوا الطريق على الدعوة ردحاً من الزمن .. وفى مقدمة هؤلاء (بنو لحيان) و (بنو محارب) و (بنو ثعلبة) من غطفان .

١٣-﴿ غزوة ذات الرقاع ﴾
فى سنة أربع

وبعد غزوة بنى النضير ، أقام رسول الله ﷺ بالمدينة شهر ربيع الآخر ، وبعض جمادى ، ثم غزا نجدا يريد (بنى محارب) و (بنى ثعلبة) من غطفان واستعمل على المدينة (أباذر الغفارى) حتى نزل (نخلا) (نخل موضع بنجد) وهى غزوة (ذات الرقاع) وانما قيل لها ذات الرقاع لأنهم رقعوا فيها راياتهم[١] . فلقى بها جمعا عظيما من غطفان ، فتقارب الناس ...ولم يكن بينهم حرب وقد خاف الناس بعضهم بعضا ، حتى صلى رسول الله ﷺ بالناس صلاة الخوف ثم انصرف بالناس[٢] .

---

(١) هذا ما قاله ابن هشام ويقال : ذات الرقاع شجرة بذلك الموضع يقال لها ذات الرقاع

(٢) حديث صحيح عن ابن اسحق فى سيرة ابن هشام

ولما قدم رسول الله ﷺ من غزوة (ذات الرقاع) أقام بقية جمادى الأولى وجمادى الآخرة ورجبا ، ثم خرج فى شعبان إلى بدر لميعاد أبى سفيان عدوهم الأكبر .. فقد استدار العام ، وحضر الموعد المضروب مع قريش وحق لمحمد ﷺ وصحبه أن يخرجوا ليواجهوا أبا سفيان وقومه ، وأن يديروا رحى الحرب كَرَّةً أخرى حتى يستقر الأمر لأحد الفريقين وأجدرهما بالبقاء .

﴿ ١٤ - غزوة بدر الآخرة ﴾

لم ينشط أبو سفيان للوفاء بالميعاد الذى ضربه عند منصرفه من « أحد » بل خرج من مكة متثاقلاً يفكر فى عقبى القتال مع المسلمين وهو - بعد - لم يتخذ لهذا القتال أهبته التى يَودُّها .. إن قومه هزموا فى (بدر) على كثرة عددهم ووفرة عدتهم ... واستخلصوا النصر فى (أحد) بعد جهد فاشل .. ولولا الخطأ الذى وقع فيه جيش التوحيد ، ماظفرت قريش بهذه الغزوة ، لذلك ما كاد أبو سفيان يقترب من الظهران حتى بداله فى الرجوع.. فصاح بقومه :

يا معشر قريش إنه لا يصلحكم إلا عام خصيب ترعون فيه الشجر وتشربون فيه اللبن وإن عامكم هذا عام جدب ، وإنى راجع فارجعوا ...

وهكذا أنسحبت قريش من المعركة المنتظرة ، أما المسلمون فإنهم نفروا لملاقاة المشركين على استعداد وحماسه حتى وصلوا إلى بدر فعسكروا حوله.. يعلنون وفاءهم بكلمتهم وتأهبهم للحرب الموعودة ، وظلوا ثمانية أيام يرتقبون مقدم أهل مكة ، ويمسحون عن سمعتهم آخر ما تركت هزيمة (أحد) من غبار .. وكان ذلك فى شعبان من السنه الرابعة للهجرة .

﴿١٥ - غزوة دومة الجندل﴾

وانتـقل زمـام المفـاجـأة إلى أيدى المسلمين بعـد أن نكصت قـريش عن مواجهتهم ، فالتفتوا إلى الشمال ، بعد أن توطدت مهابتهم فى الجنوب .
وشمـال الجـزيرة يجـاور سلطان الروم القـديم ، والعـرب الضـاربون هناك لا يخشون بأس أحد بعد القيصر ، وقيصر نفسه لا يتوقع أن تنبت فى الجزيرة قوة تناوئه أو تتجاهله .

قـال ابن اسحق : إنصرف رسـول الله ﷺ إلى المدينة فأقام بها أشـهرا حتى مضى ذو الحجة وهى سنة أربع من مقدم الرسول ﷺ المدينة ، ثم غـزا فى شـهر ربيع الأول من السنة الخامسـة « دومـة الجندل » واستـعـمل على المدينة (سباع بن عرفطة الغفارى) فقد جاءت إلى المدينة أخبار أن القبائل حول (دومة الجندل) قريبا من الشام تقطع الطريق هناك وتنهب ما يمر بها وقد بلغ الطيش حدا فكرت معه أن تهاجم المدينة ، وأن جمعاً كبيراً احتشد بها للإندفاع فى هذه الغارة . فخرج رسول الله ﷺ فى ألف من المسلمين ، يكمن بهم نهارا ويسير ليلا حتى يفاجئ أعداءه وهم غارّون . والمسافه بين يثرب (ودومـة الجندل) خمس عشـرة ليلة ، قطعـها المسلمـون بمعونة دليل ماهر ، فلما بلغـوا مضارب خصومهم إجتـاحوها مـباغتين .. فَفَرَّت الجمـوع المتأهبة للسطو ، وأصاب المسلمون سوائمهم ورعاءهم وكانت لبنى تميم .

أما أهل الدومـة ففروا فى كل وجـه ، فلما نزل المسلمون بساحتـهم لم يجدوا أحداً ، وأقام الرسول ﷺ عدة أيام يبعث السرايا ، ويبث رجاله هنا وهناك . فلم يثبت للقائهم هارب ، وعاد المسلمون إلى المدينة .

★★★

﴿١٦ - غزوة الأحزاب﴾

ثم كانت غزوة الأحزاب (الخندق) فى شوال سنة خمس .

وكان من حديث الخندق أن نفراً من اليهود منهم : سلام بن الحقيق النضرى ، وحيى بن أخطب النضرى ، وكنانة بن أبى الحقيق النضرى وهوذة بن قيس الوائلى ، وأبو عمار الوائلى ، فى نفر من بنى النضير ، ونفر من بنى وائل ، وهم الذين حزّبوا الأحزاب على رسول الله ﷺ .

أيقنت تلك الطوائف أنها لن تستطيع مغالبة الإسلام إذا حاربته كل طائفة مفردة ، وأنها ربما تبلغ أملها إذا رمت الإسلام كتلة واحدة ، وكان زعماء يهود فى جزيرة العرب أبصر من غيرهم بهذه الحقيقة ، فأجمعوا أمرهم على تأليب العرب ضد الإسلام وحشدهم فى جيش كثيف ينازل محمداً ﷺ وصحبه فى معركة حاسمة . وذهب هؤلاء النفر إلى قريش يستنفرونهم لحرب رسول الله ﷺ وقالوا : إنا سنكون معكم عليه حتى نستأصله وقريش قد أخفت عدتها عاماً ، وهى لابد خارجة لقتال المسلمين إنقاذا لسمعتها وبراً بكلمتها ..

وها هم أولاء رجالات يهود يحالفونهم على ما يبغون ، فلا مكان لتوجس أو إخلاف . والغريب أن أحبار التوارة أكدوا لعبدة الأوثان فى مكة أن قتال محمد حق ، واستئصاله أرضى لله ؛ لأن دين قريش أفضل من دينه وتقاليد الجاهلية أفضل من تعاليم القرآن !!! وسُرّت قريش بما سمعت وزادها إصراراً على العدوان ، فواعدت اليهود أن تكون معها فى الزحف على المدينة .

وترك زعماء يهود قريشاً إلى أعراب (غطفان) فعقدوا معهم حلفاً مشابها لما تم مع أهل مكة .

ودخل فى هذا الحلف عدد من القبائل الناقمة على الدين الجديد .

وبذلك نجح ساسة اليهود وقادتهم فى تأليب أحزاب الكفر على النبى ﷺ ودعوته ...

فخرجت قريش وقائدها (أبو سفيان بن حرب) وخرجت غطفان وقائدها (عيينة بن حصن بن حذيفة بن بدر) فى بنى فزارة ، و (الحارث بن أبى حارثة المرى) فى بنى مُرَّة ، (مُسَعَّر بن رخيلة) فيمن تابعه من قوم أشجع .

وعرف المسلمون مبلغ الخطر المحدق بهم ، فرسموا - على عجل - الخطة التى يدفعون بها عن دعوتهم ودولتهم ... وكانت خطة فريدة لم تسمع بها العرب - قبلاً - بمثلها ، وهم الذين لا يعرفون إلا قتال الميادين المكشوفة ... أما هذه المرة فإن المسلمين حفروا خندقاً عميقاً يحيط بالمدينة من ناحية السهل ويفصل بين المغيرين والمدافعين .

وأقبلت الأحزاب فى جمع غفير لا قبل للمسلمين بردِّه .. قريش فى عشرة آلاف من رجالها ومن تبعهم من « كنانة » و « تهامة » و «غطفان» فى طليعة قبائل نجد .

وبرز المسلمون بعدما جعلوا نساءهم وذراريهم فوق الآطام الحصينة من يثرب . ثم انتشروا على حدود مدينتهم مسندين ظهورهم إلى جَبَيْلِ (سَلْع) ومرابطين على شاطىء الخندق الذى احتفروه بعد جهود مضنية ، وقد بلغت عدتهم فى هذه المعركة نحو ثلاثة آلاف مقاتل .

علم رسول الله ﷺ أن الإلتحام مع هذه الجيوش الضخمة فى ساحة ممهدة ليس طريق النصر .. فماذا عسى أن تفعل قلة مؤمنة مكافحة مع هذا السيل الدافق ؟؟!! لذلك لجأ إلى هذه المكيدة التى أشار بها (سلمان الفارسى) وهى حفر خندق حول المدينة ليقيها هجوم الأعداء كما يفعل أكاسرة فارس ، فأعجب محمد ﷺ بهذا الرأى وأمر أن يُنَفَّذ من فوره .

وتقدم رجاله لإحكامها وإنجازها ، وسرعان ما أحضرت المساحى والفئوس

والمعاول والمكاتل .. وشَرعَ فى حفر الخندق كما حدده النبى ﷺ وقسمُ العمل بين أصحابه ووكُل كل جماعة بجانب منه وجعل محمد ﷺ يحفر بيده ويحمل الأتربه على عاتقه إلى (جُبَيْل سَلْع) مع الرجال ويعودون منه بالأحجار فى مكاتلهم فَيُترِّسُونَ بها أمام الخندق لإستعمالها فى رمى الأعداء عند الحاجة ، وتأسّى به الرجال الكبار ممن لم يألفوا هذا العمل قط . . فشهدت يثرب منظرا عجيبا .. وجوها ناصعة تتألف منها فرق شتى تضرب بالفئوس وتحمل المكاتل ، وتتعرى من لباسها وزينتها لتلبس حُلَلاً من نَسْج الغبار المتراكم والعرق واللغوب !! ...

قال البراء بن عازب :

كان رسول الله ﷺ ينقل التراب يوم الخندق حتى أغبر بطنه وهو يقول :

والله لولا الله ما اهتدينا ولا تصدقنا ولا صلينا
فأنزلن سكينة علينا وثبت الأقدام إن لاقينا
إن الألى قد بغوا علينا إذا أرادوا فتنة أبينا[1]

وهذا الغناء من شعر « عبد الله بن رواحه » كان المشتغلون فى الخندق يزيحون التعب عن أعصابهم بالاستماع إلى نغمه ، وترديد الكلمات الأخيره من مقاطعه .. وكان رسول الله ﷺ يمد صوته معهم فيقول : لا قينا ... أبينا[2]، مما يعيد إلى أذهاننا صور (الفَعَلَة) الذين يحفرون الترع بالريف ، أو يبنون القصور بالمدن .

إن الدفاع عن الإسلام ومخافة الفتنة لو انتصر المشركون ، جعلت رسول الله ﷺ وصحابته يعالجون هذا العمل الثقيل ، ونفوسهم راضية مغتبطة ، مع ما يلقون فيه من عناء وصعوبة .. ولا تحسبن عمل الرسول ﷺ بنفسه فى تعميق الخندق ، وقذف أتربته من قبيل التمثيل الذى يحسنه بعض

----

(١) حديث صحيح أخرجه الشيخان فى صحيحيهما .

(٢) حديث صحيح وهو روايه للبخارى عن البراء بن عازب .

الزعماء فى عصرنا .. كلا .. كلا .. إن الرجولة الكادحة الجادة فى أنبل صورها كانت تقتبس من مسلك الرسول ﷺ فى هذه المعركة . يقول البراء : لقد وارى عنى التراب جلدة بطنه وكان كثير الشعر[1] أجل إنه استغرق فى العمل مع أصحابه .. فالرجولة الصادقة لا تعرف التمثيل ...

وكان الفصل شتاءً ، والجو بارداً ، وهناك أزمة فى الأقوات تعانيها المدينة التى توشك أن تتعرض لحصار عنيف ، وليس هناك أقتل لروح المقاومة من اليأس !!

فلو تعرض المحصور لسوراته المقبضه ، فمزالق الإستسلام الذليل أمامه تَنْجَرُّ به إلى الحضيض لذلك إجتهد النبى ﷺ فى تدعيم القوى المعنوية لرجاله ، حتى يوقنوا بأن الضائقة التى تواجههم سحابة صيف سرعان ما تنقشع بفضل الله وعونه ، ثم يستأنف الإسلام مسيره بعد ، فيدخل الناس فيه أفواجا ، وتندك أمامه معاقل الظلم ، فلا يصدر عنها كيد ، ولا تخشى منها فتنة .

ومن إحكام السياسة أن يقارن هذا الأمل الواسع مراحل الجهد المضنى . قال عمرو بن عوف[2] : كنت أنا وسلمان الفارسى وحذيفه والنعمان بن مقرن، وستة من الأنصار فى أربعين ذراعا من الأرض التى كلفوا بحفرها فحفرنا حتى وصلنا إلى صخرة بيضاء صلبة كسرت حديدنا وشقَّت علينا ، فذهب سلمان إلى رسول الله ﷺ يخبره عن هذه الصخرة التى اعترضت

---

(١)حديث صحيح اخرجه البخارى (٣٢٢/٧)

(٢) قصه الصخرة ثبتت فى صحيح البخارى (٣١٧/٧) من حديث البراء مختصرا ، وهى عند أحمد (٣٠٣/٤) من حديثه مطولا واسناده حسن كما قال الحافظ فى (الفتح) (٣١٧/٧) .

عملهم ، وأعجزت معاولهم ، فجاء النبى ﷺ وأخذ المعول من سلمان ثم ضرب الصخرة ضربه صدعتها ، وتطاير منها شرر أضاء خلل هذا الجو الداكن ، وكَبَّر رسول الله ﷺ تكبير فتح ، وكَبَّر المسلمون ، ثم ضربها الثانية فكذلك ، ثم الثالثه فكذلك .

تفتت الصخرة تحت ضربات الرجل الأيدّ الجلد الموصول بالسماء الراسخ على الأرض ، ونظر النبى ﷺ إلى صحبه وقد أشرق على نفسه الكبيرة شعاع من الثقة الغامرة والأمل الحلو ، فقال - يحدث صحبه عن السنا المنقدح بين حديد المعول وحدة الصخر - : « لقد أضاء لى فى الأولى قصور الحيرة ومدائن كسرى كأنها أنياب الكلاب .. وأخبرنى جبريل أن أمتى ظاهرة عليها .. وفى الثانية أضاء القصور الحمر من أرض الروم كأنها أنياب الكلاب وأخبرنى جبريل أن أمتى ظاهرة عليها .. وأضاء لى فى الثالثة قصور صنعاء كأنها أنياب الكلاب وأخبرنى جبريل أن أمتى ظاهرة عليها فأبشروا .. » فاستبشر المسلمون وقالوا الحمد لله موعود صادق[1] .

ولم تمض بضعة أيام حتى كان الخندق قد تم اعداده لحماية المدينة من نواحيها غير المحصنة وحتى كانت مُحَصنَاتَهُا قد تلاحمت وتَتَرَّست بالبنيان .

وخرج المقاتلون إلى حيث أمر النبى ﷺ أن يقيم عسكره بين جُبَيْلِ سَلْعٍ المتاخم للمدينة وبين الخندق الذى يبعد عنه بنحو فرسخين ، وخرج مع المقاتلين فتيان المدينة الأحداث ، يبغون القتال مع آبائهم وإخوانهم ، تدفعهم إلى ذلك حَمِيَّةُ الدفاع عن دينهم ووطنهم ، فاستعرضهم النبى ﷺ بساحة عسكره ، فأجاز منهم من جاوز الخمس عشرة ، وَرَدَّ منهم من لم يتجاوزها .

---

(١) رواه ابن جرير بهذا السياق فى تاريخه من طريق كثير بن عبد الله بن عمرو بن عوف المزنى عن أبيه عن جده وقال الحافظ ابن كثير فى تاريخه (٤/ ١٠٠) حديث غريب وقصة الصخرة ثبتت فى صحيح البخارى كما ذكرنا فيما تقدم .

ولم يلبث جيش المشركين أن بدت طلائعه بالقرب من المدينة ، وكان أبو سفيان يأمل أن يجد محمدا ﷺ بجوار (أحد) فلما لم يجده سار بجيشه نحو المدينة ، فعسكر بالقرب منها وعسكرت غطفان ومن تبعها من أهل نجد بجوار أحد .

وخرجت طلائع جيش المشركين تستطلع أخبار محمد ﷺ، وبوغتت بما لم تكن تتوقع ، وبما لم يكن ليخطر لها على بال !! أهذا خندق يُسَوِّر المدينة..؟ أهذا حائل يحول بين المدينة وبين الجيوش التى جمعت له لكى تَنْقَضَّ على محمد ؟! .. وعادت الطلائع تحمل إلى بقية الرجال الخبر المشئوم ! وأُسْقِطَ فى يد المشركين وقالوا :

والله إن هذه المكيدة ما كانت العرب تكيدها .

وعلم المسلمون المقاتلون بوصول جيش الأعداء ، فرابطوا بمعسكرهم .. ونزل محمد ﷺ بخيمته الحمراء التى ضربت له فى سفح (جبيل سلع) وجعل من جيشه - البالغ ثلاثة آلاف مقاتل - فئات منها من يطوف بالخندق ، ومنها من يقوم بحراسة نُقَطِهِ وأجزائه الضعيفة ، وظَلَّ الباقون بمعسكرهم يواجهون الخندق بِقِسِيِّهِم .

فلما إنسابت الأحزاب حول المدينة ، وضيَّقوا عليها الخناق، لم تَطِرْ نفوس المسلمين شعاعا بل جابهوا الحاضر المر وهم موطدوا الأمل فى غد كريم :

« ولما رأى المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانا وتسليما » (١).

----

(١) سورة الأحزاب آيه ٢٢

أما الواهنون والمرتابون ومرضى القلوب فقد تندروا بأحاديث الفتح وظنوها أماني المغرورين ، وقالوا عن رسول الله ﷺ :

يخبركم أنه يبصر من يثرب قصور الحيرة ، ومدائن كسرى وأنتم تحفرون الخندق لا تستطيعون أن تبرزوا ... !

وفيهم قال الله تعالى : « **وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا** »[1] .

إن معركة الأحزاب لم تكن معركة خسائر ، بل معركة أعصاب .. فقتلى الفريقين من المؤمنين والكفارُ يعدون على الأصابع .. ومع تلك الحقيقة، فهي من أحسم المعارك في تاريخ الإسلام ، إذ أن مصير هذه الرسالة العظمى كان فيها أشبه بمصير رجل يمشي على حافة قمة سامقة أو حبل ممدود ، فلو إختلٌ توازنه لحظة وفقد السيطرة على موقفه ، لهوى من مرتفعه إلى واد سحيق . ممزق الأعضاء ، ممزع الأشلاء ، ولقد أمسى المسلمون وأصبحوا فاذا هم كالجزيرة المنقطعة وسط طوفان يتهددها بالغرق ليلا أو نهارا . وبين الحين والحين يتطلع المدافعون : هل اقتحمت خطوطهم في ناحية ما من منطقة الدفاع ؟! وكان المشركون يدورون حول المدينة غضاباً يتحسسون نقطة ضعيفه أو ثغرة لينحدروا منها فينفسوا عن حنقهم المكتوم ، ويُقَطِّعوا أوصال هذا الدين الثائر .

وأتت قريش تحاول إجتياز الخندق وقابلها المسلمون بسيل من نبالهم فتراجعت.. وظل الجيشان يتراشقان بالنبال حتى المساء ثم تحاجزا .

وفي اليوم التالي عاود رجال قريش محاولتهم لاجتياز الخندق ، فكان نصيبهم ما كان في اليوم الأول وهم مغيظون حانقون ، وقد تيقن لديهم أن

----

(١) سورة الأحزاب آيه ١٢

جهودهم فى هذا السبيل تضيع هباءً .. وزاد فى غيظهم وحنقهم شدة عصف الريح ، وشدة قرص البرد لأجسامهم ، فقد كان يهزها ويكاد يجمد الدم فى عروقها ، وعرف المسلمون ما يتربص بهم وراء هذا الحصار ، فقرروا أن يرابطوا فى أماكنهم ينضحون بالنبل كل مقترب ، ويتحملون لأواء هذه الحراسة وهم كما وصف الله تعالى : « **إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا** »[1] « **هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا** »[2] .

وكَرِهَ فوارس من قريش أن يقفوا حول المدينة على هذا النحو . فإن فرض الحصار وترقب نتائجه ليس من شيمهم ، فخرج (عمرو بن عبد ود) و (عكرمة بن أبى جهل) و (ضرار بن الخطاب) وأقبلوا تعنق بهم خيلهم حتى وقفوا على حافة الخندق ، ثم تيمموا مكاناً ضيقاً من الخندق وضربوا خيلهم فاقتحمته .. وأحس المسلمون الخطر المرتقب ، فأسرع فرسانهم يَسُدُّون هذه الثغرة يقودهم (على بن أبى طالب) وقال على لعمرو بن عبد ود ، وهو فارس شجاع معلم :

يا عمرو إنك عاهدت الله لا يدعوك رجل من قريش إلى إحدى خلتين إلا أخذتها منه .. قال : أجل ، فقال له على : فإنى أدعوك إلى الله وإلى رسوله وإلى الإسلام، قال عمرو :

لا حاجة لى بذلك ، قال على : فإنى أدعوك للنزال ، فأجاب عمرو : ولم يا ابن أخى ؟ فوالله ما أحب أن أقتلك - إستصغاراً لشأنه - قال على: لكنى والله أحب أن أقتلك ، فحمى عمرو ، واقتحم عن فرسه فعقره وضرب وجهه، ثم أقبل على علىّ ، فتنازلا وتجاولا ، فقتله على ، وخرجت خيل

----

(١) سورة الأحزاب الأيه ١٠ (٢) سورة الأحزاب آيه ١١

المشركين من الخندق منهزمة حتى اقتحمته هاربة .....

وكان الأولاد في البيوت يرقبون جهاد المدافعين وحركاتهم السريعة لصد العدوان في مظانه فعن (عبد الله بن الزبير) جعلت يوم الخندق مع النساء والأولاد الأطفال في الأطم ، ومعي (عمر بن أبي سلمة) فجعل يطأطئ لي فأصعد على ظهره فأنظر ، قال : فنظرت إلى أبي وهو يحمل مرة هنا ومرة هاهنا .، فما يرتفع له شئ إلا أتاه .. فلما أمسى وجاءنا إلى الأطم قلت : يا أبت ، رأيتك اليوم وما تصنع ، قال : رأيتني يا بني ؟! قلت: نعم قال الزبير مدللا ولده : فدى لك أبي وأمي .

وفي هذه الآونة العصيبة جاءت الأخبار أن بني قريظة نقضوا معاهدتهم مع رسول الله ﷺ ، وانضموا إلى كتائب الأحزاب التي تحدق بالمدينة ..! وذلك أن (حيي بن أخطب)[1] لما وجد رجال جيش قريش إبتدأوا يتذمرون ويتساءلون كيف يغزون محمدا ؟؟ فخشي (حيي بن أخطب) عاقبه التذمر وخاف أن تذهب جهوده في تأليب العرب ضد محمد وتضيع سدى إن لم يتدارك الأمر بحيلة تُثَبِّت رجال الجيش ، فجاء إلى أبي سفيان وقال له : إن قومي قريظه معكم وهم أهل سطوة واسعة .

فقال أبو سفيان : إذن إذهب إليهم.. وأشر عليهم أن ينقضوا العهد الذي بينهم وبين محمد . وسارع حُيّي بن أخطب إلى حصون يهود بني قريظة ليحاول الاحتيال عليهم في نقض العهد الذي بينهم وبين محمد ﷺ، وأحس (كعب بن أسد) كبير بني قريظة ، وهو صاحب حلفهم مع محمد بمجيئ حيي

---

(١) حيي بن أخطب كان احد النفر الذين حرضوا قريشا وسائر العرب على حرب محمد والإسلام .

إليـه ، فـأغلق دونه بـاب حصنه ، ورفض مـقابلتـه ، وقـد فطن إلى مـا جاء حيى من أجله .. ولكن حُيّا ناداه من خلف الحصن وناشده أن يفتح له وقال :

إنك مـا أغلقت بابك دونى إلا خـوفـا على جشـيـشـتك[1] أن آكل مـعك منها .. فَأحْفَظَ هذا القول كعبا ، ففـتح له ،فقال حيى : ويحك يا كعب !! جئتك بِعزِّ الدهر . وببحرٍ طام ؛ جئتك بقريش وغطفان على قادتها وسادتها .. وقـد عـاهدونى وعـاقـدونى على ألا يبـرجـوا حتى نستـأصل مـحـمـدا ومن معه، فقال كعب : جئتنى والله بِذُلِّ الدهر .. إنى قد عاهدت محمدا فلست بناقض ما بينى وبينه ، فلم أر منه إلا وفاءً وصدقا .

ولكن حُيَيّاً لم ييأس . . فـمازال بكعب يذكره بيهوديته ، ويعرفه أن ذل اليـهـود وسيـادتهم بيـديه فـمـا عليـه إلا أن ينقض عـهـده لمحـمـد ، ويُخَلّى بينه وبين جـيش الأحزاب ، فـينسلُوا إليـه إنسـلال السـيـل فـيـقـضـوا عليـه وعلى أتباعه لساعته ، وبذلك يخلى وجه جزيرة العرب لدين اليهود .

ووجد هذا الـكلام صَدَىً فى نفس كـعب ، ووجد له وجـيـبا فى قـلبه . . ولكنه ظل مـتـردداً فى الغـدر بمحـمـد ﷺ . . متـخـوفـاً من نقض عـهـده معـه خشـيـة أن تُخذل قـريش وغطفـان فتـعـودا أدراجهـمـا ، وتتـركـاه وحده لمواجهة محـمـد ، فـيـصـيـبـه مـا أصـاب (بنى قـينقـاع) و (بنى النضـيـر) ولـكنه لم يلبث أن زال عنه كل تردد ، ونقض عـهـده مع مـحـمـد ﷺ ، بعـد أن أعطاه حُيىَ عـهداً وموثقاً بأن يدخل معه حصنه ، فيشاركه ، ما يصيبه إذا ما هزم جيش الأحزاب .

---

(١) جشيشه : طعام يصنع من البر .

وغادر حُييَ كعباً يحمل البشرى السارة إلى جيش الأحزاب ، وقد أيقن أن هزيمة محمد قد باتت في متناول يده ، لا يحول بينها وبينه إلا ريثما تُعدُّ قريظة نفسها .

ووصل خبر نقض قريظة لعهدها ، وانضمامها إلى الأحزاب ، إلى محمد ﷺ وصحبه فكان وقعه شديداً عليهم ، لما فيه من خطر كبير على جيشهم ومدينتهم ، فبنقض قريظة عهدها لهم ، سينقطع عنهم طريق الميرة ، وبانضمامها إلى الأحزاب سيكون طريق الأعداء إليهم سهلاً ميسوراً . وأرسل محمد ﷺ من يتعرف له صحة هذا النبأ ، فجاءه الرسول بما يؤيده .. لما رأى من حركة اليهود ، واستعدادهم في حصونهم . . حينئذٍ أرسل محمد ﷺ (سعد بن عبادة) سيد الخزرج و (سعد بن معاذ) سيد الأوس - وكان حليف قريظة - إلى (كعب بن أسد) سيد بني قريظة ، ليتأكد منه النبأ ؛ وطلب منهما : إن كان النبأ صحيحا أَسَرَّاهُ إليه ، كيلا يَفُتُّ في عضد المسلمين ، وإن كان كذبا جهرا به .

ووجد رسولا محمد ﷺ من بني قريظة شَرَّ حال ، وعَرَفاَ فيهم الخيانة والغدر ، وسمعا من رئيسهم كعب شر كلام ... بل نال من محمد ﷺ فقال : مَنْ رسول الله ؟! لا عهد بيننا وبين محمد ولا عقد !! . وحاول سعد بن معاذ أن يذكرهم بعقدهم . . فتصامُّوا عنه ، فلما خوفهم عقبى الغدر ، وذكر لهم مصير بني النضير قالوا له : أكلت أير أبيك !! وكاد الفريقان يتشاحنان ويتشاجران لولا أن دعا (سعد بن معاذ) رفيقه إلى الإنصراف وهو يقول : لقد أصبح ما بيننا وبينهم أَبْلَغَ من هذا . . !

وعاد الرسولان بالنبأ إلى رسول الله ﷺ ، فَأسراه إليه ، ولكن الخبر لم يلبث أن ذاع بين المقاتلين . . وانتشر بين أهل المدينة ، فانتاب الجميع الفزع، وعرفوا أن خندقهم لن يُغنيهم شيئاً بعد إذ حالفت قريظة الأحزاب ،

وأصبحت تُعدُّ طرقاتها وتفتح حصونها لدخول الأعداء .

ووجم المسلمون حين عادت رسلهم ، وربت مشاعر الكره فى صدورهم لأولئك اليهود ، حتى لأصبحوا أشْوَةً أمام أعينهم من عُبّاد الأصنام . . ووعوا أتم الوعى أن بنى إسرائيل أقدموا على قرارهم هذا ، وهم يعلمون معناه وعقباه . . يعلمون أنه محاولة متعمدة للإجهاز على هذه الأمة ودينها!! وتسليمها إلى من يقتل رجالها ويسترق نساءها ويبيع ذراريها فى الأسواق ! وفكر الرسول ﷺ فى حيلة يخفف بها ضغط الأحزاب على المسلمين . فأرسل رسولاً إلى غطفان يُمَنيِّها ثلث ثمار المدينة إن هى تركت الحرب وارتحلت ، ومالت غطفان لهذا الرأى ، وأرسلت رسلها - فى سِرٍّ من أبى سفيان - إلى محمد ﷺ ليعاقدوه على أن يكون لهم نصف ثمار المدينة، ولكن سعد بن معاذ قال لمحمد ﷺ عندما بعث إليه وإلى سعد بن عبادة ليستشيرهما :

يا رسول الله أهذا أمر أمرك الله به ، لابد لنا من العمل به ؛ أم أمْرٌ لك فيه هوى ؟ أم أمر ما فعلته إلا من أجلنا ؟! فلما أجاب محمد ﷺ : إنما أفعله من أجلكم ، لأخفف عنكم ضغط تجمع العرب . قال سعد : لقد أعزنا الله بك ، فليس لهم عندنا إلا السيف . وعادت رسل غطفان دون أن يبرم بينهم وبين رسول الله ﷺ شئ . وكان (نُعَيْم بن مسعود) من غطفان قد أسلم قلبه دون أن يظهر لقبيلته شيئاً من إسلامه ، فجاء إلى محمد ﷺ خفية منهم ومن أبى سفيان ، فأظهر له إسلامه ، وعرض عليه نفسه وقال : يا رسول الله لم يعلم أحد بإسلامى ، فمرنى بما تريد . .

فقال رسول الله ﷺ : يا نُعَيْم ؛ إنما أنت رجل واحد . . فَخَذِّل عنا ما استطعت وقل ما بدا لك ، فأنت فى حلٍّ .

وانصرف نُعيْم يتدبر فى حيلة يخادع بها جيوش الأحزاب ، ويَدُسُّ

بالوقيعة بينها .

وكانت جيوش الأحزاب قد دبَّ فيها النشاط ، فلم يقيموا وزنا للخندق الذى يفصل بينهم وبين المسلمين بعد إذ حالفتهم قريظة ، وبات الطريق أمامهم سهلا !! بل قَسَّمت الجيوش نفسها إلى ثلاث كتائب ، وحاصرت الخندق من جميع جهاته ، حتى تضيق على المسلمين وتسد فى وجوههم كل السبل . فحاصروهم قريبا من عشرين ليلة . . ! فلما اشتد البلاء . . نافق ناس كثير . . وتكلموا بكلام قبيح . . !

ورأى رسول الله ﷺ ما بالناس من البلاء والكرب ! فجعل يبشرهم ويقول:

« والذى نفسى بيده ليفرجن عنكم ما ترون من الشدَّة . وإنى لأرجو أن أطوف بالبيت العتيق آمنا وأن يدفع الله لى مفاتيح الكعبة . . وليهلكنَّ الله كسرى وقيصر ، ولتنفقن كنوزهما فى سبيل الله[1] .

ووقع ثقل المقاومة على أصحاب الإيمان الراسخ والنجدة الرائعة . . كان عليهم أن يَكْبِتُوا مظاهر القلق التى انبعثت وتكاثرت فى النفوس الخوارة الهلوع . . وأن يشيعوا موجة من الإقدام والشجاعة تغلب أو توقف نزعات الجبن والتردد التى بدت هنا وهنالك . . وطبائع النفوس تتفاوت تفاوتا كبيراً لدى الأزمات العضوض . منها الهش الذى سرعان ما يذوب ويحمله التيار معه كما تحمل المياه الغثاء والأوحال . . ومنها الصلب ، الذى تمر به العواصف المجتاحة ، فتنكسر حدتها على متنه وتتحول رغوة خفيفة وزبدا . . أجل من الناس من يهجم على الشدائد ليأخذها قبل أن تأخذه . . ومنهم من إذا مَسَّهُ الفزع طاش لبه ، فولى الأدبار ، وكلما هاجه طلب الحياة وحب البقاء أوغل فى الفرار .

---

(١) لم أجده الآن .

وقد نعى القرآن الكريم على هذا الصنف الجزوع موقفه فى معركة الأحزاب فقال :

« قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل . وإذا لا تمتعون إلا قليلا ، قل من ذا الذى يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة . ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيراً »[1] .

واشتد القلق بالمسلمين . . وباتوا يخشون الغدر الذى يأتيهم عن طريق اليهود أكثر مما يجيئهم عن طريق الخندق ، حتى أمر رسول الله ﷺ بكتائب من المقاتلين لتخرج ليلاً ، فتظل تتجول بين منازل المدينة وآكامها حتى الصباح ، خوفا من أن يبلغ غدر اليهود وخيانتهم وخستهم أن ينالوا النساء والأطفال العُزّل فى منازلهم وديارهم بشر .

وكان اليهود بعد أن غدروا غدرتهم قد أصبحوا يلتمسون أخبار المسلمين حتى يعرفوا من أين يأتونهم ومن أى طريق يكون هجومهم . . فخرج فى سبيل ذلك نفر منهم ، ولكن المسلمين فطنوا إليهم فقاتلوهم وطاردوهم .

ومر يهودى يوماً بحصن لـ (حسان بن ثابت) الشاعر وجعل يُطيفُ به. وكان حسان بالحصن مع جماعة من النساء والأطفال ، من بينهم عمة النبى ﷺ صفية بنت عبدالمطلب فقالت لحسان فزعة : يا حسان ؛ إن هذا اليهودى يُطيف بالحصن كما ترى ، وإنى والله ما آمنه أن يدل علينا مَنْ وراءنا من اليهود ، ورسول الله وأصحابه فى شاغل عنا ، فانزل إليه فاقتله. فقال حسان – وكان يُعرف بالجبن – : يغفر الله لك يا بنت عبدالمطلب !! .

---

(١) الأحزاب آية : ١٦ ، ١٧ .

والله لقد عرفت ما أنا بصاحب هذا !! فلم تجد صفية بداً من أن تأخذ عموداً من حديد وتنزل من الحصن ، فتضرب به اليهودى حتى قُتل . فلما رجعت قالت لحسان : يا حسان ، إنزل فاسلبه ، فإنه لم يمنعنى من سلبه إلا أنه رجل ؛ قال : مالى بسلبه من حاجة يا بنت عبدالمطلب . وهكذا ظل أهل المدينة فى خوفهم هذا من غدر اليهود وفزعهم من خيانتهم مما جعل بعض المقاتلين يلتمسون من النبى العودة إلى ديارهم لحماية نسائهم وأطفالهم .

ومرت على المسلمين ليال ليلاء لم يسكن فيها للنساء فى منازلهن جنب ، ولم يغمض فيها للأطفال جفن . . فكيف يا ترى كان حال الرجال الذين يصدون الهجوم ويقاومون الحصار ويواجهون الموت من الأمام حيث جيوش الأحزاب ، ومن الخلف حيث خيانة اليهود وخستهم . . . !!

وكان النبى ﷺ فى هذه الآونة الدقيقة من حصار اليهود والمشركين للمسلمين متجها بروحه وقلبه إلى الله يطلب منه العون ، ويستلهمه الصبر على ضيق الحصار ، ويسأله النصر لينصر الإسلام .

وفى هذه اللحظات الحاسمة التى أطبق فيها الموت على المدينة ، حيث إحتمى المسلمون بها ووقف العدو يترصد فيها غفلة منهم لينقض بجموعه عليهم ، ويتحين ثغرة ضعيفة من الخندق فيجتازها إليهم . . ظل النبى ﷺ قائما على إحدى الثغرات يباشر حراستها بنفسه ، ويدافع عنها بقوسه ، لا يكاد ينصرف عنها قليلا لبعض حاجة بعد أن يُحِلَّ مَحلَّه من يقوم بحراستها حتى يسرع إليها ثانياً من جديد ضارباً بذلك روحاً سامية عالية لأصحابه ، الذين اقتدوا به واستماتوا فى الدفاع عن المدينة ، حائلين بتراصِّهم وتكاتفهم دون إعطاء عدوهم فرصة للوثوب عليهم .

واتصل الليل بالنهار والمسلمون قائمون حيث هم لا يستطيعون - رغم تعبهم وجهدهم وجوعهم - أن ينحرف أحدهم عن موقعه لِماَ كان من تجمهر رماة الأحزاب بحافة الخندق يرمونهم بسهامهم ليفسحوا لفرسانهم ثغرات يثبون منها إلى المسلمين .

وقُتل من تبادل النبال وتراشق السهام عدد من المسلمين ، وعدد من المشركين . وكان ممن أصيب من المسلمين (سعد بن معاذ) أصيب بسهم فى ذراعه قطع منها عرقاً فجعل دمه ينزف . . ويظهر أن جراحة (سعد) كانت شديدة . وليس سعد بالرجل الذى يهاب المنايا . . ولكنه عميق الرغبة فى متابعة الجهاد حتى يستقر أمر الإسلام وتنكس راية خصومه ، فدعا الله قائلاً :

« اللهم إن كنت أبقيت من حرب قريش شيئا ، فأبقنى لها ، فإنه لا قوم أحبَّ إلى أن أجاهدهم من قوم آذوا رسولك وكذبوه وأخرجوه ، وإن كنت وضعت الحرب بيننا وبينهم فاجعلها لى شهادة ولا تمتنى حتى تقرُّ عينى من بنى قريظة » .

ودعوة (سعد) الأخيرة تصور مبلغ ما انطوت عليه قلوب المسلمين من غيظ لخيانة يهود وتمزيقها المعاهدة القائمة . . فلولا خيانتهم ولولا غدرهم ما اشتد أزر الأحزاب ووقفوا هذا الموقف من المسلمين يضيقون حصارهم ويستنفذون جهدهم حتى يحين ميعاد الهجوم .

ومسلك بنى إسرائيل بإزاء المعاهدات التى أمضوها - قديما وحديثا - يجعلنا نجزم بأن القوم لا يدعون خستهم أبداً ، وأنهم يرعون المواثيق ما بقيت هذه المواثيق متمشية مع أطماعهم ومكاسبهم وشهواتهم ، فإذا كانت دون ذلك نبذوها نبذ النواة . ولو تركت الحمير نهيقها ، والأفاعى لدغها ، ترك اليهود نقضهم للعهود وليست أحداث اليوم والأمس بالنسبة للفلسطينيين والعرب ببعيد . وقد نَبَّه القرآن الكريم إلى هذه الخصلة

الشنعاء فى بنى اسرائيل . . وأشار إلى أنها أحالتهم حيوانا لا أناسىّ ، فقال :

« إن شرَّ الدواب عند الله الذين كفروا فهم لا يؤمنون . الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم فى كل مرة وهم لا يتقون »[1] .

ونقل (سعد) إلى خيمة بالمسجد لتقوم على تمريضه إحدى المؤمنات الماهرات .

وجاء المسلمون إلى رسول الله يسألونه : هل من شئ نقوله فقد بلغت القلوب الحناجر ؟!

قال الرسول ﷺ « نعم . . اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا »[2] .

وعن عبدالله بن أوفى : دعا رسول ﷺ على الأحزاب فقال :

« اللهم مُنَزِّل الكتاب ، سريع الحساب : إهزم الأحزاب ، اللهم اهزمهم وانصرنا عليهم »[3] والله سبحانه وتعالى لا يقبل الدعاء من متواكل كسول . . ولا يستمع لشئ إستماعه لهتاف مجتهد : أن يبارك له سعيه ، أو دعاء صابر أن يُجَمِّل له العاقبة .

وقد أفرغ المسلمون جهدهم فى الدفاع عن رسالتهم ومدينتهم حتى لم يبق فى طوق البشر مُدَّخَرٌ فبقى أن تتدخل العناية الإلهية العليا لتقمع صَعَرَ الظالم ، وتقيم جانب المظلوم .

ومن ثَمَّ أخذ سير المعركة يتطور على نحو لا يدرك الناس كنهه .

«وما يعلم جنود ربك إلا هو وما هى إلا ذكرى للبشر»[4] .

---

(١) سورة الأنفال : ٥٥ ، ٥٦ .

(٢) حديث حسن أخرجه أحمد (٣/٣) وابن أبى حاتم فى تفسيره من حديث أبى سعيد الخدرى .

(٣) صحيح أخرجه البخارى ومسلم فى صحيحيهما .

(٤) سورة المدثر من الآية : ٣١ .

ضاق الأعراب النازلون بالعراء ذرعاً لهذا المقام الغريب لقد خيموا حول أطراف يثرب أياماً لاتؤذن بدايتها بانتهاء . . لم يجيئوا ليستنفدوا أقواتهم أمام خندق صعب الإجتياز . . وجبال رابط المسلمون أمامها واستقتلوا دون أن يقترب أحد منها .

ثم الجو اغبرَّت أرجاؤه ، وترادفت أنواؤه ، وهبت الرياح نكباء موحشة الصفير تكاد في هبوبها تطوى الخيام المبعثرة وتطير بها فى الآفاق . . والصلة بين أولئك الحلفاء لا تغرى بدوام الشقة . . إن غطفان وقبائل نجد أقبلت يحدوها السلب والنهب . . بدليل أنها قبلت العودة من حيث أتت عندما أغريت ببعض ثمار المدينة . . لولا أن المسلمين كَبُرَ عليهم أن يطعموهم منها رهبا !! .

وماذا صنعت قريظة ؟ نقضت الموثق ، ونكصت عن الهجوم منتظرة من العرب أن يقوموا به .

وتلفَّت أبو سفيان يمنة ويسرة يتطلب عونا على ما يبغى فلا يرى مأمنا، مما أوقع الوهن فى قلبه ، وفى صفوف قريش معه ..

وكان رسول الله ﷺ يعرف هذا التصدع الخفى فى صفوف الأحزاب ، فاجتهد أن يبرزه ويوسع شقته ، ويستغله لجانبه فحين جاءه (نعيم بن مسعود) وانصرف بعد أن أعطاه النبى تفويضا فى أن يعمل ما يراه ويستصوبه فى تخذيل اليهود والمشركين .. فإن الحرب خدعة .. فخرج نعيم حتى أتى (بنى قريظة) - وكان لهم نديا فى الجاهلية - فقال : يا بنى قريظة قد عرفتم وُدِّى لكم وخاصة ما بينى وبينكم ..

قالوا : صدقت لست عندنا بمتهم ..

فقال لهم : إن قريشا وغطفان ليسوا كأنتم .. البلد بلدكم فيه أموالكم وأولادكم ونساؤكم لا تقدرون على أن تحولوا منه إلى غيره ، وإن قريشاً وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه ، وقد ظاهرتموهم عليه ، وبلدهم

ونساؤهم بغيره ، فليسوا كأنتم ، فإن رأوا نُهْزَةً أصابوها ، وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم ، ولا طاقة لكم به إن خلا بكم ، فلا تقاتلوا مع القوم حتى تأخذوا منهم رهناً من أشرافهم يكونون بأيديكم ، ثقة لكم على أن تقاتلوا معهم محمداً حتى تناجزوه .

فقالوا له : لقد أشرت بالرأى .

وانصرف نعيم من لدن بنى قريظة بعد أن أوصاهم بكتمان أمره ، فوعدوه بذلك ، وتوجه نعيم إلى أبى سفيان ومن معه من رجال قريش ، فقال لهم : يا معشر قريش ؛ قد عرفتم ودى إياكم . وقد بلغنى أمرٌ رأيت حقاً على أن أبلغكموه لتأخذوا حذركم منه .

قالوا : وما هو ؟!

قال : بلغنى أن بنى قريظة قد ندموا على نقض عهدهم لمحمد وأرسلوا إليه يسألونه أن يرضى عنهم على أن يقدموا إليه نظير ذلك عدداً من أشراف قريش وغطفان ليقتلهم ، فإن بعثت قريظة إليكم تطلب رُهُناً من رجالكم ، فلا ترسلوا إليها بأحد منكم .

وغادر نعيم قريشاً مشكوراً من رجالها ، وتوجه إلى غطفان وأعلمهم بمثل ما أعلم به قريشاً . وترك كلام نعيم فى قريش وغطفان أثراً عميقاً ، .

فلما كانت ليلة السبت من شوال - وكان من صنع الله لرسوله أن أرسل أبو سفيان ورءوس غطفان إلى بنى قريظة (عكرمة بن أبى جهل) فى نفر من قريش وغطفان

فقالوا لهم : إنا لسنا بدار مقام ، قد هلك الخُفُّ والحافر ، فاغدوا للقتال حتى نناجز محمداً ونفرغ مما بيننا وبينه . فأرسلوا إليهم : إن اليوم يوم السبت ، وهو يوم لا نعمل فيه شيئاً ، وقد كان أحدث فيه بعضنا حدثاً

فأصابه ما لم يخف عليكم ، ولسنا مع ذلك بالذين نقاتل معكم محمداً حتى تعطونا رهناً من رجالكم ، يكونون بأيدينا حتى نناجز محمداً ، فإنا نخشى - إن ضَرَّسَتْكُم الحرب وإشتد عليكم القتال - أن تنشمروا إلى بلادكم وتتركونا والرجل في بلدنا ، ولا طاقة لنا بذلك منه .

فلما رجعت إليهم الرسل بما قالت بنو قريظة ، قالت قريش وغطفان : والله إن الذى حدثكم (نعيم بن مسعود) لَحقٌ فأرسلوا إلى بنى قريظة : إنا والله لا ندفع إليكم رجلاً واحداً من رجالنا ، فإن كنتم تريدون القتال ، فاخرجوا فقاتلوا ، فقالت بنو قريظة - حين إنتهت الرسل إليهم بهذا- : إن الذى ذكر لكم (نعيم) لحق ، ما يريد القوم إلا أن يقاتلوا ، فإن رأوا فرصة إنتهزوها ، وإن كان غير ذلك انشمروا إلى بلادهم[1] .

وهكذا أفلح المسلمون فى فصم عُرا التحالف بين الأحزاب المجتمعه عليهم .

فما مضت أسابيع ثلاثة على ذلك الحصار المضروب حتى دَبَّ القنوط فى صفوف المهاجمين ، على حين بقيت جبهة المدافعين سليمة لم تثلم ....

وفى ليلة شاتية ، لفحت سبراتها الوجوه والجلود ، وأقعدت الرجال فى أماكنهم ينشدون الدفء ، ويفرون من القر المتاسقط على الصخور والرمال ، إتجهت نيات القوم إلى إتخاذ قرار حاسم فى هذا القتال الفاشل !

---

(١) ذكر هذه القصة ابن اسحق بدون إسناد ، وعنه ابن هشام (١٩٣/٢-١٩٤) لكن قوله ﷺ الحرب خدعة صحيح متواتر عنه ﷺ . رواه الشيخان من حديث جابر وأبى هريرة وغيرهما (أنظر (الجامع الصغير) مع شرحه « فيض القدير » للمناوى

وكأنما كان زئير الرياح الهوج سوطاً يلهب المهاجمين حتى لا يتوانوا فى الخلاص من هذا الموقف ، ونظر رسول الله ﷺ من وراء أسوار المدينة ، وحوله أصحابه جاثمون فى مكامنهم يرمقون الأفق بحذر ، ويرقبون الغيب بأمل والظلام البارد الثقيل يرين على كل شئ فى الصحراء المترامية ....

قال حذيفة بن اليمان : رأيتنا ليلة الأحزاب ونحن صافون قعود ، وأبو سفيان ومن معه فوقنا (أمامنا) وقريظة أسفل منا (وراءنا) نخافهم على ذرارينا ، وما أتت علينا ليلة قط أشد ظلمة ولا أشد ريحا منها ، تَطِنُّ فى رياحها أصوات أمثال الصواعق ، وما يستطيع أحدنا أن يرى إصبعه من قتامها السائد، ولم يكن عَلَىَّ جنةٌ (ساتر) من العدو ولا من البرد إلا مرط لا مرأتى لا يجاوز ركبتى ، فأتانى الرسول ﷺ وأنا جاث على الأرض فقال : من هذا ؟ فقلت : حذيفة

فقال : حذيفة ؟ فتقاصرت فى موضعى وأنا أقول : بلى يا رسول الله - كراهية أن أقوم - فندبنى لما يريد وقال : إنه كائن فى القوم خبر فائتنى به. فخرجت وأنا أشد الناس فزعا وأشدهم قرا، فدعا لى بخير ، فمضيت لشأنى كأنما أمشى فى حمام - إنها حرارة الإيمان وحماسة الطاعة - جعلت الرجل يغلب بعاطفته المتقدة قسوة الجو ... !

قال حذيفة : وأوصانى الرسول ﷺ حين وليت ألا أحدث فى القوم حدثا حتى آتيه .. فلما دنوت من معسكر القوم نظرت ضوء نار لهم توقد ، وإذا رجل أدهم ضخم يَمُدُّ يديه إلى النار مستدفئا ويمسح خاصرته ، ويقول : الرحيل .. الرحيل - وهو يرتعد - ولم أكن أعرف أبا سفيان قبل ذلك ، فوضعت سهما فى كبد قوسى وأردت أن أرميه ، ثم تذكرت وصاة الرسول ﷺ فأمسكت ، ولو رميته لأصبتة ...

وأحسست عصف الريح فى جنبات المعسكر لا تُقِرُّ قدرا ولا ناراً ولابناء وأسرع المشركون إلى مضاربهم وخيامهم يحتمون فيها من هول العاصفة

وشدتها .. ولكن العاصفة لم ترحمهم ، فمازالت تشتد وتقسو ويعلو زئيرها مكتسحة رمال الصحراء قاذفة بحصبائها حتى اقتلعت أوتاد خيامهم ، وقلبت قدورهم وبعثرت متاعهم وصار يتحسس بعضه بعضا من شدة طمس الرمال لعيونهم .. وتعالت أصواتهم مختلطة بصوت الرعود وأزيز الرياح تصيح : النجاة .. النجاة ..!

وأتى صوت أبى سفيان يقول : يا معشر قريش إنكم والله ما أصبحتم بدار مُقام لقد هلكت الإبل والأنعام وأخلفتنا بنو قريظة ، وبلغنا منهم مانكره .. ولقينا من الريح ما ترون ، فارتحلوا، فإنى مرتحل ، ثم قام إلى جمله وهو معقول فجلس عليه ثم ضربه، فوثب به على ثلاث .. فوالله ما أطلق عقاله إلا وهو قائم[1] .

ورجع حذيفة إلى النبى ﷺ يقص عليه ما رأى ......

وطلع النهار .. وأشرقت الأرض بنور ربها .. وانقشعت الغُمّة .. فإذا ظاهر المدينة خلاء .. ارتحلت الأحزاب فى ظلام الليل كالخفافيش تجر وراءها أذيال الخيبة والفشل وانفك الحصار .. وعاد الأمن ، ونجح الإيمان فى المحنة .. وهتف رسول الله ﷺ .. لا إله إلا الله وحده .. صدق وعده .. ونصر عبده .. وأعز جنده .. وهزم الأحزاب وحده فلا شيء بعده[2] ..

---

(١) هذه القصه صحيحة وسياقها مركب من ثلاث روايات : الأولى عند الحاكم والبيهقى فى (الدلائل) من طريق عبد العزيز بن أخى حذيفة عن حذيفة ، وقد ذكر لفظه ابن كثير فى التاريخ(٤/١١٤-١١٥) والثانية عند ابن هشام فى السيرة (٢/١٩٤) عن ابن اسحق، والثالثه أخرجها مسلم(٥/١٧٧-١٧٨) من طريق ابراهيم التيمى عن أبيه حذيفة، ولها طريق رابع أخرجها الحاكم فى (المستدرك) (٣/٣١) من طريق بلال العبسى عن حذيفه .

(٢) أخرجه البخارى فى غزوة الخندق من صحيحه (٧/٣٢٦) من حديث أبى هريرة أن رسول الله ﷺ كان يقول : فذكره . وهذا مطلق ليس فيه ذكر الخندق والله أعلم .

رجعت الطمأنينة إلى النفوس ، وظهرت خيبة الأحزاب ، بعد ما أقبلت من كل فج لتجتاح يثرب وظهرت صلابة المسلمين وصمودها فى مواجهة الأزمات المرهقة . لذلك قال رسول الله ﷺ - بعد هذه النتيجة الباهرة : الآن نغزوهم ولا يغزوننا[1] « **وَرَدَّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قوياً عزيزاً** »[2] .

﴿١٧ - غزوة بنى قريظة﴾

إنفضت حشود الأحزاب حول المدينة ، وعادت المطى بها من حيث أتت تذرع رحاب الصحراء وليس تحمل معها إلا الخيبة والفشل .. وبقى يهود بنى قريظة وحدهم ، أو بقوا ومعهم غدرتهم التى فضحت طواياهم ، فأصبحوا وأمسوا أشبه بالمجرم الذى ثبتت إدانته فهو يرقب - بوجه كالح - قصاص العدالة منه .

وكانت مشاعر التغيظ فى أفئدة المسلمين نحو أولئك اليهود قد بلغت ذروتها .. إنهم هم الذين إستخرجوا العرب إستخراجا ، واستقدموهم إلى دار الهجرة ليجتاحوها من أقطارها ويستأصلوا المسلمين فيها .. إن جراحات المسلمين لطردهم من ديارهم ومطاردتهم فى عقيدتهم واستباحة أموالهم ودمائهم لكل ناهب ومغتال لم تندمل بعد .. بل لن تندمل أبداً ، فكيف ساغ لأولئك الخونة من بنى إسرائيل أن يرسموا بأنفسهم الخطة لإهلاك الإسلام وأبنائه على هذا النحو الذليل !؟

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى (٧/٣٢٥) من حديث سلمان بن صرد رضى الله عنه .
(٢) سورة الأحزاب آية ٢٥ .

ثم ما الذى يجعل بنى قريظة خاصة - وهم لم يروا فى جوار محمد ﷺ إلا البر والوفاء - يستديرون بأسلحتهم منضمين إلى أعداء الإسلام كى يشركوهم فى قتل المسلمين وسلبهم ؟! وها قد دخل فى حصونهم (حيى بن أخطب) رأس العصابة التى طافت مكة وتجد تحرض الأحزاب على الله ورسوله ، وتزعم أن الوثنية أفضل من التوحيد ...

لذلك ، ما إن وثق المسلمون من منصرف الأحزاب عن المدينة فى صباح اليوم التالى ، انصرف الرسول ﷺ عن الخندق راجعا إلى المدينة والمسلمون ، ووضعوا السلاح .

فلما كان الظهر .. أتى جبريل رسول الله ﷺ معتجرا بعمامة من استبرق على بغلة عليها رحالة ، عليها قطيفة من ديباج فقال: أو قد وضعت السلاح يا رسول الله ؟

قال : نعم ، فقال جبريل : فما وضعت الملائكة السلاح بعد ، وما رجعت الآن إلا من طلب القوم ، إن الله عز وجل يأمرك يا محمد بالمسير إلى بنى قريظة ، فإنى عامد إليهم فمزلزل بهم .

فأمر رسول الله ﷺ مؤذنا ، فأذن فى الناس : من كان سامعا مطيعا فلا يصلين العصر إلا ببنى قريظة [1] ، والآذان للقتال فى هذه الضحوة المشرقة بالظفر والنجاة قرع مسامع المسلمين ندياً جلياً ، فهم فى غمرة من الشعور بتأييد الله وملائكته لهم ، أين هم اليوم مما كانوا عليه بالأمس القريب ؟؟! إنهم مدينون بحياتهم وكرامتهم للعناية العليا وحدها .

---

(١) حديث صحيح أخرجه ابن هشام (٢/١٩٤-١٩٥) عن ابن اسحق وقد أخرجه البخارى (٧/٣٢٧) ومسلم (٥/١٦٢) وغيرهما من حديث ابن عمر دون قوله من كان سامعا مطيعا) .

أما خصومهم ، فإن قوى الكون المسخَّر بإذن الله هي التى فَضَّت جموعهم ، وفلّت حدودهم ، فلا غرو إذا قال رسول الله ﷺ للمؤمنين - محدثا عن الروح الأمين - : ما وضعت الملائكة السلاح بعد .. إن الله يأمرك بالسير إلى بنى قريظة فإنى عامد إليهم فمزلزل بهم .

وقد صدع الرسول ﷺ بالأمر وشدد على المسلمين أن يسارعوا فى إنفاذه .

روى البيهقى أن رسول الله ﷺ قال لأصحابه :

عزمت عليكم أن لا تصلوا العصر حتى تأتوا بنى قريظة ، فغربت الشمس قبل أن يأتوهم فقالت طائفة من المسلمين : إن رسول الله ﷺ لم يرد أن تدعوا الصلاة فصلوا ، وقالت طائفة أخرى : والله إنا لفى عزيمة رسول الله، وما علينا من إثم . فصلّت طائفة إيمانا واحتساباً وتركت طائفة إيماناً واحتساباً ، ولم يعنف رسول الله واحدا من الفريقين [1].

وذلك يمثل احترام الإسلام لاختلاف وجهات النظر ما دامت عن إجتهاد برئ سليم .. والناس غالبا أحد رجلين ، رجل يقف عند حدود النصوص الظاهرة لا يعدوها ، ورجل يتبين حكمتها ويستكشف غايتها ، ثم يتصرف فى نطاق ما وعى من حكمتها وغايتها ، ولو خالف الظاهر القريب وكلا الفريقين يشفع له إيمانه واحتسابه سواء أصاب الحق أو نَدَّ عنه .

---

(١) حديث صحيح رواه البيهقى فى (دلائل النبوه) من حديث عبيد الله بن كعب وحديث عائشه وأخرجه عنها الحاكم (٣/٣٤-٣٥) وصححه على شرط الشيخين ووافقه الذهبى

ومن العلماء من أهدر الوقت المعين للصلاة بعذر القتال ، وذلك مذهب البخارى وغيره وهذا - عند بعض العلماء [1]- أدنى إلى الصواب ، فإن ترتيب الواجبات المنوطة بأعناق العباد من أهم ما يحدد رسالة المسلم فى الحياة بل إنه لا يفهم دينه فهماً صحيحاً إلا إذا فقه هذا الترتيب المطلوب .

إن الإسلام تعاليم وأعمال شتى فيها الفرائض وفيها النوافل ، ولابد أن نعلم أن الله لا يقبل نافلة حتى تؤدي الفريضه ، فالرجل يستكثر من أعمال التطوع فى الوقت الذى يهمل فيه فرائض لازمة رجل ضال . والفرائض المطلوبة لحفظ الإيمان كالأغذية المطلوبة لحفظ الجسم .

وكما أن الجسم لا يقوم بالمواد النشوية وحدها أو الزلالية وحدها .. بل لابد من استكمال جُمَل منوعه من الغذاء ، وإلا تعرض الجسم لعلل قد تنهكه أو تقتله .

فكذلك الدين إنه لا قيام له فى كيان الفرد ، أو فى صفوف الجماعة إلا بجملة من الفرائض الملونة ، تصون حياته وتضمن عافيتة ونماءه ، وعلى المسلم أن يُقَسِّم وقته ، وأن ينظمه على هذه الفرائض المطلوبة ، فلا يشغله واجب عن واجب وبالأحرى لا تشغله نافلة عن واجب .

وقد رأى رسول الله ﷺ أن مباغتة بنى قريظة قبل أن يستكملوا عدتهم ويقووا حصونهم هو الواجب الأول فى تلك الساعة فلا ينبغى أن ينشغل المسلم عنه ولو بالصلاة .

---

(١) رأى للإمام الغزالى عن كتابه فقه السيرة

فحدود وقت الصلاة تذوب أمام ضرورات القتال، وتستطيع على ضوء هذا الإرشاد النبوى أن تحكم على مسالك المسلمين اليوم ، إن المدرس الذى ينشغل عن تعليم تلامذته ، والتاجر الذى ينشغل عن تثمير ثروته ، والموظف الذى ينشغل عن أداء عمله ، لا يقبل الله من أحدهم عذراً أبداً فى تضييع هذه الفرائض ، ولو كان أحدهم قد عاقه عن واجبه أنه صلى مائة ركعة أو قرأ ألف آية ، أو عَدَّ أسماء الله الحسنى سبعين ألف مرة ذلك أنه إنشغال عن الفرائض المطلوبة بنوافل لم تُطلب، وتعطيل لأمة يستحيل أن تنهض إلا إذا أجهدت نفسها فى محاربة جهلها وفقرها وفوضاها... ! والجهاد العام فريضة لا يغض من قدرها شئ ، ولا تزاحمها على وقتها عبادة كما رأيت .

★★★

قَدَّم رسول الله ﷺ على بن أبى طالب براية المسلمين إلى حصون بنى قريظة واستعمل على المدينة (إبن أم مكتوم) فسار على بن أبى طالب بالراية وتقاطر المسلمون خفافا - رغم تعبهم - إلى بنى قريظة ، فقد استخفهم الفرح ، ونَشَّطَهم السرور ، إذ آن لهم أن ينالوا من بنى قريظة بما كانت تودُّ أن تنالهم به على يد الأحزاب ...

وسار علىّ حتى إذا دنا من الحصون سمع منها مقالة قبيحة لرسول الله ﷺ ، فقد نظروا إلى المسلمين المحتشدين حول حصونهم ثم سَبُّوا رسول الله ﷺ ونساءه سباً قبيحاً، فرأى علىّ أن يصرف النبى ﷺ بعيدا عن أولئك السفهاء ، فاعترض طريقه وهو مقبل قائلاً : يا رسول الله لا عليك أن تدنو من هؤلاء الأخابث فقال :

لم ؟ أظنك سمعت لى منهم أذى ؟ قال : نعم يا رسول الله ، قال : لو

رأوني لم يقولوا من ذلك شيئا . فلما دنا من حصونهم قال : يا إخوان القردة، هل أخزاكم الله وأنزل بكم نقمته ؟[1] قالوا يا أبا القاسم ، ما كنت جهولا .

هذه خلال اليهود يُسَفهون إذا أمنوا ، ويقتلون إذا قدروا ، ويُذَكِّرون الناس بالمثل العليا إذا وَجَلوا ، ليستفيدوا منها وحدهم لا لشئ آخر .

أما العهود فهي آخر شئ في الحياه يقفون عنده ، على أن سفاهتهم لم تغنهم ، فقد أحكم المسلمون الحصار عليهم ، وأمسكوا بخناقهم ، فاستيقن القوم أن الاستسلام لا محيص عنه ،وامتلات قلوبهم باليأس والفزع ..

وكان رسول الله ﷺ قد مَرَّ قبل أن يصل إلى بني قريظة بنفر من أصحابه بـ (الصورين)[2] فسألهم : هل مر بكم أحد ؟ قالوا : يا رسول الله.. قد مر بنا (دحية بن خليفة الكلبي) على بغلة بيضاء عليها رحاله، عليها قطيفه ديباج .

فقال رسول الله ﷺ : ذلك جبريل ، بعث إلى بني قريظة يزلزل بهم حصونهم، ويقذف الرعب في قلوبهم .

وقد كان (حيي بن أخطب) دخل مع بني قريظة في حصنهم حين رجعت عنهم قريش وغطفان، وفاءً لكعب بن أسد بما كان عاهده عليه .

فلما أيقنوا بأن رسول الله ﷺ غير منصرف عنهم حتى يناجزهم، قال كعب بن أسد سيد بني قريظة :

----

(١) ضعيف أخرجه ابن اسحق عن الزهري مرسلا وعنه ابن هشام (٢/١٩٤-١٩٥) ورواه الحاكم (٣/٣٤-٣٥) من حديث ابن عمر ، واسناده ضعيف .

(٢) موضع قرب المدينة

يا معشر يهود قد نزل بكم من الأمر ما ترون ، وإنى عارض عليكم خلالاً ثلاثاً ، فخذوا أيها شئتم قالوا : وما هى ؟! قال نتابع هذا الرجل ونصدقه ، فو الله لقد تبين لكم أنه لنبى مرسل ،وأنه الذى تجدونه فى كتابكم فتأمنون على دمائكم وأموالكم ونسائكم وأبنائكم .

قالوا : لا نفارق حكم التوراة أبداً ، ولا نستبدل به غيره .

قال : فإذا أبيتم عَلَىَّ ، فهلم فلنقتل أبناءنا ونساءنا ، ثم نخرج إلى محمد وأصحابه رجالاً مصلتين السيوف لم نترك وراءنا ثقلا حتى يحكم الله بيننا وبين محمد وأصحابه ، فإن نهلك نهلك ولم نترك وراءنا نسلا نخشى عليه ، وإن نظهر ، فلعمرى لنجدن النساء والأبناء .

قالوا : نقتل هؤلاء المساكين ؟! فما خير العيش بعدهم ؟؟!!

قال : فإن أبيتم على هذه فإن الليلة ليلة السبت ، وإنه عسى أن يكون محمد وأصحابه قد أمنونا فيها .. فانزلوا لعلنا نصيب منهم غرةً ..

قالوا : نفسد سبتنا علينا ، ونحدث فيه مالم يحدث من كان قبلنا !؟

قال : ما بات رجل منكم منذ ولدته أمه ليله واحدة من الدهر حازما ...!

وحاول بنو قريظة أن يظفروا بصلح كالذى ناله إخوانهم بنو النضير من قبل ... بيد أن المسلمين أبوا عليهم إلا أن يسلموا دون قيد أو شرط ، فإن ما أسلف هؤلاء من جرم بَيِّن وغدر شائن ، أحْفَظَ عليهم الصدور ، فلم يبق فيها مكان لسماح ، وتَمَحَّض الموقف للعدل المجرد يَقرُّ الأمور فى نصابها كيف شاء .

واستقدم اليهود - وهم محصورون - (أبا لبابه بن عبد المنذر)[1] يستشيرونه فأرسله رسول الله ﷺ إليهم ، فلما رأوه قام إليه الرجال ، وجهش اليه النساء والصبيان يبكون فى وجهه، فَرَقَّ لهم .. وقالوا له : يا

---

(١) أبو لبابة أخو عمرو بن عوف وكانا حلفاء الأوس وقد أرسله رسول الله ﷺ إليهم بناء على طلب منهم ليستشيروه .

أبا لبابة ! أترى أن ننزل على حكم محمد ؟!

قال : نعم ، وأشار إلى حَلْقه ، كأنه ينبههم إلى أنه الذبح .. ثم أدرك لفوره أنه خان رسول الله ، قال أبو لبابة : فو الله ، مازالت قدماى من مكانهما حتى عرفت أني خنت الله ورسوله ثم انطلق أبو لبابة على وجهه هائما ، ولم يأت رسول الله ﷺ . حتى أتى مسجد المدينة ، فربط نفسه على سارية فيه[1] ، وحلف لا يُفك منها حتى يتوب الله عليه مما صنع ، وعاهد الله ألا يطأ بنى قريظة أبداً .

فلما بلغ رسول الله ﷺ خبره ، وكان قد استبطأه قال :

أما إنه لو جاءنى لاستغفرت له . فأما إذ فعل ما فعل ، فما أنا بالذى أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه ، ثم إن توبة أبى لبابة نزلت على رسول الله ﷺ من السحر وهو فى بيت (أم سلمة) فقالت أم سلمة : سمعت رسول الله ﷺ من السحر وهو يضحك، فقلت : مم تضحك يا رسول الله أضحك الله سنك ؟

قال : تيب على أبى لبابة ، قالت : قلت : أفلا أبشره يا رسول الله؟ قال : بلى ، إن شئت فقامت على باب حجرتها - وذلك قبل أن يضرب عليهن الحجاب - فقالت : يا أبا لبابه ، أبشر فقد تاب الله عليك ،، فثار الناس ليطلقوه فقال : لا والله حتى يكون رسول الله ﷺ هو الذى يطلقنى بيده .

فلما مَرَّ عليه رسول الله ﷺ خارجا إلى صلاة الصبح أطلقه .

وقد قبل الله منه ندمه ونزلت فيه الآية : « **وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم** »[2] .

---

(١) هذه السارية مازالت موجودة بمسجد رسول الله ﷺ وعليها اسم (أبى لبابة) .

(٢) سورة التوبة آية ١٠٢ .

وقد أقام أبو لبابه بالجذع ست ليال ، تأتية إمرأته فى كل وقت صلاة، فتحله للصلاة ثم يعود فيربط نفسه بالسارية .

ثم إن (ثعلبة بن سعية) و (أسيد بن سعية) و (أسد بن عبيد) وهم نفر من (بنى هدل) ليسوا من بنى قريظة ولا من بنى النضير ، هم بنو عم القوم ، أسلموا تلك الليلة التى نزلت فيها بنو قريظة على حكم الرسول ﷺ .

واستمر الحصار خمسا عشرين ليلة ، سمح المسلمون فى أثنائها لليهود الذين رفضوا الغدر بالرسول ﷺ أيام الأحزاب أن يخرجوا ، فجزوهم عن وفائهم خيرا ، وخلوا سبيلهم، ينطلقون حيث يبغون .

ثم قرروا أن يهجموا على الحصون المغلقة ويقتحموها عنوة .
فصاح على : يا كتيبة الإيمان - ومعه الزبير بن العوام - والله لأذوقن ما ذاق حمزة أو لأفتحن حصنهم ، فقال بنو قريظة : يا محمد ننزل على حكم (سعد بن معاذ) فاستنزلوا من حصنهم ..... وسيقوا إلى محبسهم ، ثم جئ بسعد بن معاذ ليقضى فى حلفائه بما يرى ...

وكان (سعد) سيد الأوس وهم حلفاء قريظة فى الجاهلية ، وقد توقع يهود أن هذه الصله تنفعهم، وتوقع الأوس أيضا من رجلهم أن يتساهل مع أصدقائهم الأقدمين .
فلما استقدمه الرسول ﷺ ليصدر حكمه ، جاء من الخيمة التى يُمَرَّضَ فيها إثر إصابته بسهام الأحزاب .. أتوه أهله وحملوه على حمار ، قد وطئوا له بوسادة من أدم وكان رجلاً جسيماً جميلاً واكتنفه قومه يقولون له : يا أبا

عمرو أحسن فى مواليك.. لكن سعدا لم ينس - فى ضجيج الرجاء المُوَجَّه إليه - أن الإسلام وأبناءه .. والمدينة وثمارها وحرثها ونسلها.. وحرماتها ، لم تنج من وطأة الأحزاب الهاجمين إلا بأعجوبة خارقة ، وأن بنى قريظة هؤلاء ومن آووهم .. كانوا المحرضين ، والشركاء المقبوحين فى هذه الحرب التى أعلنت لاستئصال التوحيد الحق واجتياح أهله .

ولم ينس سعد كيف نقضت قريظة عهدها ، واستقبلته بالألفاظ البذيئة عندما ذهب يناشدها الوفاء !! ألم يقل لهم يومئذٍ : أخشى عليكم مثل يوم بنى النضير أو أَمَرَّ منه ؟ فكان ردهم عليه : أكلت أير أبيك ...!

لذلك ما لبث سعد أن صاح بقومه - وقد أكثروا عليه الرجاء - قد آن لسعد ألا تأخذه فى الله لومة لائم ...

وحكم (سعد بن معاذ) : ١ - أن يقتل الرجال ٢ - وتسبى الذرارى والنساء ٣ - وتقسم الأموال .

وأَقَرَّ الرسول ﷺ هذا القضاء الحازم قائلا لسعد : «لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات »[١] .

وكان محبسهم ليلة أستنزلوا من حصونهم فى دار (بنت الحارث) إمرأة من بنى النجار . ثم خرج رسول الله ﷺ إلى سوق المدينة - التى هى سوقها اليوم - فحفرت فيها الخنادق لتنفيذ الحكم .. وسيق إليها اليهود أرسالا - طائفة بعد أخرى - ليدفعوا ثمن خيانتهم وغدرهم .. وضربت أعناقهم فى

----

(١) حديث صحيح اخرجه ابن اسحق وعنه ابن هشام (١٩٧/٢) عن علقمة بن وقاص الليثى مرسلا لكن أخرجه الشيخان فى صحيحيهما عن أبي سعيد الخدرى دون قوله: (من فوق سبع سموات) .

تلك الخنادق ، وفيهم عدو الله (حيى بن أخطب) و (كعب بن أسد) رأس القوم ، وهم ستمائة أو سبعمائة ، والمكثر لهم يقول : كانوا بين الثمانمائة والتسعمائة وقد قالوا لكعب بن أسد ، وهم يُذْهَبُ بهم إلى رسول الله ﷺ أرسالا : يا كعب ، ما تراه يُصنع بنا ؟ قال : فى كل موطن لا تعقلون ؟ ألا ترون الداعى لا ينزع ، وأنه من ذهب به منكم لا يرجع ؟! هو - والله - القتل .. ! أجل هو القتل .... !

وأتى بـ (حُيىّ بن أخطب) وعليه حُلّة له من الوشى قد شقَّها عليه من كل ناحية قدر أنملة لئلا يُسلبها - مجموعة يداه إلى عنقه بحبل - فلما نظر إلى رسول الله ﷺ قال :

أما والله مالُمتُ نفسى فى عداوتك، ولكنه من يخذل الله يخذل ... ثم أقبل على الناس ، فقال : أيها الناس إنه لا بأس بأمر الله ، كتاب وقدر، وملحمة كتبها الله على بنى اسرائيل ، ثم أنزلوه الخندق وضربوا عنقه..

وإنما تقع تبعات هذا الحكم على من تعرض له بسوء صنيعه ، وبما أسلف من نيّات خبيثة لم يسعفها الحظ فتتحقق .. ولو قد تحققت لكان ألوف المسلمين هلكى تحت أقدام الأحزاب المنسابة من كل ناحية يحرضهم ويؤازرهم أولئك اليهود وعلى رأسهم رأس الأفعى (حُيىّ بن أخطب) وربما كانت مغامرات نفر من طُلاّب الزعامة سببا فى هذه الكارثة التى حلت ببنى قريظة ولو أن (حيى بن أخطب) وأضرابه سكنوا فى جوار الإسلام وعاشوا على ما أوتوا من مغانم ، ما تعرضوا ولا تعرض قومهم لهذا القصاص الخطير ! ! لكن الشعوب تدفع من دمها ثمناً فادحاً لأخطاء قادتها ...! إن موقف اليهود من الإسلام بالأمس هو نفس موقفهم من المسلمين اليوم .. فألوف من إخواننا ذبحهم اليهود فى صمت وهم يحتلون فلسطين !!!

والغريب أن اليهود تركوا من نَصَبَ لهم المجازر فى أقطار أوربا ، وجبنوا عن مواجهتهم بشر .. واستضعفوا المسلمين الذين لم يسيئوا إليهم من أربعة عشر قرنا !، فنكلوا بهم على النحو المخزى الفاضح الذى لا يزال قائما فى فسلطين تشهده وتؤيده وتسانده دول الغرب ...!

وينعى القرآن الكريم على أولئك القادة الذين يضيعون شعوبهم بأطماعهم : « **ألم تر إلى الذين بدلوا نعمة الله كفرا وأحلوا قومهم دار البوار جهنم يصلونها وبئس القرار** »[1].

ولن تعدم المبادئ الباطلة ، والنحل الهازلة أتباعا يفتدونها بالأرواح والأموال .. غير أن شيئا من هذا لا يجعل الباطل حقاً ولا الجور عدلاً ...!
وكان فتح قريظة فى ذى القعدة وصدر ذى الحجة .

★★★

«آيات نزلت فى طرد الأحزاب ودحر قريظة»

قال ابن اسحق :
وأنزل الله سبحانه وتعالى فى أمر الخندق وأمر بنى قريظة من القرآن القصة فى سورة الأحزاب ويذكر فيها ما نزل من البلاء ، ونعمته عليهم ، وكفايته إياهم حين فَرَّجَ الله ذلك عنهم بعد مقالة من قال من أهل النفاق :

----

(١) سورة إبراهيم : ٢٨ . ٢٩

« يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرا »[1] .

والجنود : قريش ، وغطفان ، وبنو قريظة، وكانت الجنود التى أرسل الله عليهم مع الريح : الملائكة يقول الله تعالى : **« إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا »**[2] .

فالذين جاءوهم من فوقهم : بنو قريظة ، والذين جاءوا من أسفل منهم: قريش وغطفان ، ويقول الله تعالى : **« هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدا وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غرورا »**[3].

لقول (معتب بن قشير) إذ يقول ما قال : **« وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبى يقولون إن بيوتنا عورة وما هى بعورة إن يريدون إلا فرارا »**[4].

لقول (أوسى بن قيظى) ومن كان على مثل رأيه من قومه (**ولو دخلت عليهم من اقطارها**) أى المدينة (**ثم سئلوا الفتنة**) (أى الرجوع إلى الشرك) (**لأتوها وما تلبثوا بها إلا يسيرا**) (**ولقد كانوا عاهدوا الله من قبل لا يولون الأدبار وكان عهد الله مسئولا** » [5].

----

(١) سورة الأحزاب ٩
(٢) الأحزاب ١٠
(٣) الأحزاب ١١ . ١٢
(٤) الأحزاب ١٣
(٥) الأحزاب ١٤ . ١٥

فهم بنو حارثة وهم الذين هموا أن يفشلوا يوم أحد مع بنى سلمة حين هَمَّتا بالفشل يوم أُحد ثم عاهدوا الله أن لا يعودوا لمثلها أبداً ، فذكر لهم الله الذى أعطوا من أنفسهم ، ثم قال تعالى : (**قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذا لا تمتعون إلا قليلا قل من ذا الذى يعصمكم من الله أن أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا قد يعلم الله المعوقين منكم** (أى أهل النفاق) (**والقائلين لإخوانهم هلم إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلا**) أى إلا دفعا وتعذيرا (**أشحه عليكم**) أي : للضغن الذى فى أنفسهم (**فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذى يغشى عليه من الموت**) أى: إعظاما وفرقا منه (**فإذا ذهب الخوف سلقوكم بالسنة حداد**) أى فى القول بمالا تحبون لأنهم لا يرجون آخرة ولا تحملهم خشية فهم يهابون الموت هيبة من لا يرجو ما بعده ...

(**ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيرا**) أى : قريش وغطفان ومن حالفوهم (**وكفى الله المؤمنين القتال وكان الله قويا عزيزا** » (**وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب**) أى : بنى قريظة (**من صياصيهم**(*) **وقذف فى قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا**) أي : قتل الرجال وسبى الذرارى والنساء « **وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضا لم تطئوها** » أى : خيبر « **وكان الله على كل شئ قديرا** »(٢).

----

(١) سورة الأحزاب آيات ١٦ . ١٧ . ١٨ . ١٩

(٢) الأحزاب آيه ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ .

(*) الصياصى : الحصون والآطام التى كانوا فيها .

﴿ وفاة سعد بن معاذ ﴾

فقد المسلمون فى هذا الصراع - مع المشركين أولا ، ومع أهل الكتاب ثانيا - عدداً يسيراً من رجالهم منهم « سعد بن معاذ » أجاب الله دعوته فمات شهيدا من جراحته التى أصابته يوم الأحزاب وبعد أن شفى الله غيظه من يهود بنى قريظة .. وبعد أن تبين فشل قريش فى هجومها على المدينة وانقلابها لِتُغْزَى فى عُقر دارها ، لا لِيَغْزُوَ الآخرين .

قال ابن اسحق : حدثنى معاذ بن رفاعة الزرقى قال :

حدثنى من شئت من رجال قومى أن جبريل عليه السلام أتى رسول الله ﷺ - حين قُبِضَ سعد بن معاذ - من جوف الليل معتجراً بعمامة من استبرق فقال : يا محمد من هذا الميت الذى فتحت له أبواب السماء واهتزله العرش ؟

قال : فقام رسول الله ﷺ سريعا يجر ثوبه إلى (سعد بن معاذ) فوجده قد مات .... (حديث صحيح وإسناده فيه جهالة شيوخ بن رفاعة)

قال ابن اسحق : وحدثنى عبد الله بن أبى بكر ، عن عمرة بنت عبد الرحمن قالت :

أقبلت عائشة ، ومعها أسيد بن حضير فلقيه موت إمرأة له ، فحزن عليها بعض الحزن فقالت له عائشه : يغفر الله لك يا أبا يحيى ، أتحزن على إمرأة وقد أصبت بابن عمك وقد اهتز له العرش ؟» (اسناده صحيح)

قال ابن اسحق : وحدثنى من لا أتهم عن الحسن البصرى قال : كان سعد رجلاً بادناً ، فلما حمله الناس وجدوا له خفَّة ، فقال رجل من المنافقين : والله إن كان لبادنا ، وما حملنا من جنازة أخف منه، فبلغ ذلك رسول الله ﷺ فقال :

(إن له حملة غيركم ، والذى نفسى بيده لقد استبشرت الملائكة بروح سعد، واهتز له العرش)[1] .

----

(١) حديث صحيح واسناده ضعيف

قال ابن اسحق : وحدثنى معاذ بن رفاعة عن محمود بن عبد الرحمن بن عمرو بن الجموح ، عن جابر بن عبد الله قال : لما دفن سعد ، ونحن مع رسول الله ﷺ ، سَبَّحَ رسول الله ﷺ فسبح الناس معه ، ثم كَبَّر فكبر الناس معه فقالوا : يا رسول الله مم سَبَّحت ؟ قال : لقد تضايق على هذا العبد الصالح قبره حتى فرجه الله عنه » (حديث صحيح واسناده ضعيف)

قال ابن هشام : ومجاز هذا الحديث قول عائشه رضى الله عنها :

قال رسول الله ﷺ : « إن للقبر لضمة لو كان أحد منها ناجياً لكان سعد بن معاذ) (حديث صحيح) .

قال ابن اسحق : ولسعد يقول رجل من الأنصار :

وما اهتز عرش الله من موت هالك سمعنا به إلا لسعد بن أبى عمرو

★★★

ولم تنته الخصومة بين المسلمين واليهود بانهزام بنى قريظة وانكسار شوكتها .. فإن بعض مؤلبى الأحزاب على الإسلام فَرَّ إلى خيبر لائذا بحصونها مستظهرا بإخوانه فيها مثل :

(أبى رافع بن أبى الحقيق) وهو شريك (حيى بن أخطب) فى التطواف بالقبائل يستجلبها إلى يثرب بُغْيَةَ الإتيان على الإسلام وأهله ، وليس يؤمن لليهود شر ما بقيت لهم قدرة على فعله وقد صَوَّر حديث الرسول ﷺ نقمة اليهود على الإسلام بقوله : « ما خلا يهودى بمسلم إلا هَمَّ بقتله[1] » ولا نعرف لهذه النقمة الدفينة علّة إلا انحراف أصحابها عن الجادة، ومن حق المسلمين أن يحذروها ، وأن لا يدعو لها بقية تنمو على الزمن .

★★★

---

(١) حديث أخرجه الخطيب فى « تاريخ بغداد » (٣١٦/٨) وقال حديث غريب جداً .

١١ - ﴿سرية عبد الله بن عتيك إلى خيبر ومقتل سلام بن أبي الحقيق وهو أبي رافع﴾

خرج من المدينة خمسة من الخزرج ذاهبين إلى خيبر وهم : عبد الله بن عتيك ومسعود بن سنان وعبدالله بن أنيس ، وأبو قتادة الحارث بن ربعي، وخزاعي بن أسود حليف لهم من أسلم ، بغيتهم القضاء على أبي رافع ، والقاء الذعر في قلوب شيعته ، وقد أمّر عليهم رسول الله ﷺ (عبد الله بن عتيك) ونهاهم عنْ أن يقتلوا وليداً أو امرأة .

فخرجوا حتى أتوا دار ابن أبي حقيق ليلا ، قال عبد الله بن عتيك لصحبه - عندما دنوا من الحصن - : أمكثوا أنتم حتى أنطلق أنا فأنظر .. قال : فاحْتَلْتُ لأدخل الحصن .. فإذا الخدم فقدوا حماراً لهم .. فخرجوا بقبس يطلبونه .. فخشيت أن أعرف .. فغطيت رأسي وجلست كأني أقضي حاجة .. فقال البواب - بعد ما استرجعوا حاجتهم - من أراد أن يدخل، فليدخل قبل أن أغلقه ، فدخلت فاختبأت في مربط الدواب عند باب الحصن .

وتعشى أبو رافع وصحبه ، وأخذوا يسمرون حتى ذهبت ساعة من الليل .. ثم انصرف عنه جلساؤه قافلين إلى بيوتهم .. وهدأت الأصوات فما أسمع حركة .

وخرجت وأنا أعرف أين وضع البواب مفاتيح الحصن ، فأخذتها وفتحت الباب ، حتى إذا أحس بي القوم انطلقت على مهل ، ثم عمدت إلى أبواب غرفهم فغلقتها من ظاهر ، ثم صعدت إلى أبي رافع - حيث يبيت في العلالي - فإذا البيت مظلم قد أطفئ سراجه ، فلم أدر أين الرجل ؟ فقلت يا أبا رافع .. قال : من هذا ؟ فعمدت نحو الصوت فضربته ، فصاح .. ولم تغن شيئا ...

وجئت كأنى أغيثه فقلت : مالك يا أبا رافع ؟ .. وغيرت صوتى .. قال: لأمك الويل دخل علىّ رجل فضربنى بالسيف فعمدت إليه فضربته ثانية .. فصاح .. فقام أهله فأسرعت مرة أخرى إليه وهو مستلق على ظهره، فأجهزت عليه .. ثم خرجت دهشاً أجرى حتى أتيت السلم أريد أن انزل .. فسقطت منه فانخلعت رجلى ، فعصبتها ، وأتيت أصحابى أحجل .

وعاد القوم إلى المدينة يبشرون من وراءهم أنهم أزاحوا من طريق الدعوة عقبة كأداء .

★★★

١٨ - ﴿ غزوة بنى لحيان﴾

ثم أقام رسول الله ﷺ بالمدينة ذا الحجة والمحرم وصفراً وشهرى ربيع ، وخرج فى جمادى الأولى على رأس ستة أشهر من فتح قريظة ، إلى (بنى لحيان) يطلب بأصحاب (الرجيع)(خبيب بن عدى) وأصحابه ، فإن رسول الله ﷺ ، لم ينس أصحابه الذين أرسل بهم إلى بعض القبائل ليعلموهم آيات القرآن ، ويفقهوهم فى الدين ، فغدروا بهم وقتلوهم .. وعلى هذا أول ما فكر رسول الله ﷺ بعد انتصاره على قريش ، وقضائه على بنى قريظة إلا أن يخرج إلى بنى لحيان لينتقم منهم لأصحاب يوم الرجيع .

وخرج النبى ﷺ من المدينة واستعمل عليها (ابن أم مكتوم) - فيما قال ابن هشام - وأظهر أنه يريد الشام ليصيب من القوم على غِرَّه .

فسلك على (غراب) جبل بناحية المدينة على طريقه إلى الشام ، ثم على (مخيض) ، ثم على (البتراء) ثم على (صفق) ذات اليسار ، فخرج على (بين) ثم على (صخيرات اليمام) ثم استقام به الطريق على (المحجة) من طريق مكة ، فَأغذَّ السير سريعا حتى نزل إلى بلد يقال له : (ساية) ولكنه وجد منازلهم ساكنة لا حركة فيها خالية من الناس ، وليس

بها شئ يذكر من المتاع ، وأدرك النبى ﷺ أن القوم أحسوا به فى إنحداره إليهم ، وأن عيونا لهم قد رأته فى اتجاهه نحوهم ، فتفرقوا بين شعاب الصخور ، وأخذوا متاعهم ، واعتصموا منه برءوس الجبال فلما نزلها رسول الله ﷺ ، وأخطأه من غرتهم ما أراد قال : لو أنا هبطنا (عسفان) لرأى أهل مكة أنا قد جئنا مكة ، فخرج فى مائتى راكب من أصحابه حتى نزل (عسفان) ثم بعث فارسين من أصحابه حتى بلغا (كراع الغميم) ، ثم كرَّ، وراح رسول الله ﷺ قافلا وهو يقول حين وجه راجعا : آيبون تائبون إن شاء الله، لربنا حامدون أعوذ بالله من وعثاء السفر ، وكآبة المنقلب ، وسوء المنظر فى المال والأهل والولد .

١٩ - ﴿ غزوة ذى قرد ﴾

ثم قدم رسول الله ﷺ المدينة فلم يقم بها إلا ليال قلائل حتى أغار (عُيَيْنَة بن حصن بن حذيفه بن بدر الفزارى) فى خيل من (غطفان) ووجد المغيرون أمامهم بالمكان الذى أغاروا عليه إبلاً ترعى لرسول الله يحرسها رجل وإمرأته ، فما كان منهم إلا أن انقضوا على الرجل فقتلوه ، ثم حملوا المرأة وساقوا الإبل ، وولوا مسرعين ، وقد حسبوا أنهم ظفرا بما ظفروا به دون أن تراهم عين ...ولكنهم كانوا مخطئين ...! ففى تلك اللحظة كان يمر بالقرب من هذا المكان (سلمة بن عمرو بن الأكوع الأسلمى) وقد توشح قوسه ونبله ، وغدا يريد الغابة يتبعه غلام يقود فرساً له ..

فوقع نظره على المغيرين وهم يولون بالمرأة والإبل مدبرين .. فصاح بأعلى صوته :

واصبحاه .. ! واصبحاه ...!

ثم اشتد خلف الهاربين يبغى اللحاق بهم ، وما هى إلا لحظات حتى كان

سلمة فى أعقاب القوم يشدُّ عليهم قَوْسه ويرميهم بِنَبْلِه وبلغ محمدا ﷺ صياح ابن الأكوع فنادى بالمدينة : الفزع ..! الفزع ...!
عندئذٍ ترامى إلى محمد ﷺ فرسان المدينة يتسابقون ، فأمرهم بالخروج فى أثر المغيرين ، وأسرع النبى ﷺ بالخروج في جيش من المسلمين فلحق بفرسانهم الذين كانوا قد استطاعوا أن يستخلصوا من المغيرين شَطْر الإبل ، وعلى ناقة منها المرأة المسلمة التى اختطفها المغتصبون وفرَّ المغيرون فاحتموا بقومهم غطفان بعد أن استطاع المسلمون أن يصيبوا من بعضهم مقتلا .

وقال سلمة بن الأكوع للنبى ﷺ : يا رسول الله ، لو أذنت لى فى مائة رجل لقمت بالهجوم بهم على هؤلاء القوم .
ولكن النبى ﷺ لم يأذن له فى ذلك ، وقد عرف ألا فائدة والمغيرون قد لحقوا بقومهم غطفان .

وعاد النبى ﷺ إلى المدينة .. وأتت المرأة حارسة الإبل التى نجت من أيدى المغتصبين إلى رسول الله ﷺ تقول :
يا رسول الله ، إنى قد نذرت لله أن أنحر الناقة إن أنجانى الله عليها .
فتبسم رسول الله ﷺ وقال : « بئس ما جزيتها أن حملك الله عليها ، ونجاك بها ثم تنحرينها .. إنه لا نذر فى معصية الله ، ولا فيما لا تملكين، إنما هى ناقه من إبلى فارجعى لأهلك على بركة الله . (حديث صحيح واسناده ضعيف)

★★★

﴿ مناوأة المنافقين فى المدينة لرسول الله ﷺ ﴾

عندما كان الإسلام دعوة تغالب النظام السائد ، كانت مخاصمته تتخذ طريق الجهرة والتهجم دون مبالاة .

فلما استقر له الأمر ، وتوفرت لأبنائه أسباب القوة ، سلكت عداوته المسارب التى تسلكها الغرائز المكبوتة، فأمسى الكيد له يقوم على المكر والدّس إلى جانب الوسائل الأخرى التى يعالن بها الأقوياء . وإئتمار الضعفاء فى جنح الظلام لا يقل خطورة عن نكاية الأقوياء فى ميادين الصدام ، بل إن المرء قد يألم لإشاعة مُلَفَّقه أكثر مما يألم لطعنه مواجهة .

وفى الحروب الفاجرة تستخدم جميع الوسائل التى تصيب العدو ، وإن كان بعضها يستحى من استخدامه الرجل الشريف .

وقد لجأ المنافقون فى المدينة إلى مناوأة النبى ﷺ ودعوته ، بأسلوب تظهر فيه خِسّة النفس الإنسانية عندما يستبد بها الحقد ، ويغلب عليها الضعف .. أسلوب اللمز والتعريض حينا .. والإفك والإفتراء حينا آخر ...!

وكلما توطدت سلطة المسلمين ، ورسخت مكانتهم ، إزداد خصومهم المنافقون ضغناً عليهم وتربصاً بهم ، وقد حاولوا تأييد اليهود عندما تأذنهم الرسول ﷺ بالجلاء .. فلما لم يوقف انتشار الإسلام شئ ، ولم تهده هزيمة .. وأخذت القبائل العادية تختفى واحدة تلو الأخرى .. إلتحق أولئك المنافقون بصفوف المسلمين ، ولم تنكشف نياتهم السوء إلا على فلتات الألسنة ، ومزالق الطباع ، فكانت سيرتهم تلك مثار فتن شداد تَأذّى منها رسول الله ﷺ والمؤمنون شيئا غير قليل وظهر ذلك جليا فى (غزوة بنى المصطلق) .

٢٠ - ﴿ غزوة بنى المصطلق ﴾

قال ابن اسحق : أقام رسول الله ﷺ بالمدينة بعض جمادى الآخره ورجبا، ثم غزا (بنى المصطلق) من خزاعة فى شعبان سنة ست ، واستعمل على المدينة (أباذر الغفارى) .

بلغ النبى ﷺ أن بنى المصطلق - وهم قوم من خزاعة - يجمعون جموعا من العرب ليغزوه بها ، وعلى رأس هذه الجموع (الحارث بن أبى ضرار) سيد بنى المصطلق ، فلم يتوان النبى ﷺ فى الخروج إليهم لغزوهم فى منازلهم فى عدد كبير من المسلمين ، ولما كانت منازل بنى المصطلق غير بعيدة الشُقّه عن المدينه فقد رغب (عبد الله بن أبى) فى الخروج مع النبى ﷺ فى هذه الغزوة ، وتبعه فى ذلك عدد من المنافقين يحدوهم إلى ذلك طلب المغنم السهل اليسير .

وكان من عادة الرسول ﷺ إذا خرج فى غزوة من غزواته أن يقترع بين زوجاته فأيتهن طلع سهمها صحبها معه فى خروجه ، واقترع النبى ﷺ كعادته بين نسائه فكان من نصيب عائشه الخروج معه .

وباغتت جموع محمد ﷺ جموع (بنى المصطلق) على حين غِرّة ، قبل أن تتم استعدادها وتأخذ أهبتها : فتفرقت جموع العرب عن بنى المصطلق هاربةً تاركةً إياها هدفاً سهلاً للمسلمين .

والتقى الجمعان بالقرب من ماء لبنى المصطلق اسمه (المُرَيْسَيع) فلم يدم القتال بينهما طويلا .. فسرعان ما هُزم بنو المصطلق .. ووقعت إبلهم وما شيتهم وأبناؤهم ونساؤهم غنيمة فى أيدى المسلمين .

وفرح المسلمون بما أنعم الله عليهم ، وحطوا بجوار (المُرَيْسَيع) يستقون ويستريحون .

وورد فيمن ورد أجير لعمر بن الخطاب يقود له فرسه ويدعى (جهجاه بن مسعود) وعلى الماء تزاحم جهجاه مع رجل من رجال الخزرج ، فتشاحنا وتقاتلا ، فصاح الخزرجي :

يا معشر الأنصار ...! وصاح جهجاه : يا معشر المهاجرين ...!

فمشى إلى المتشاحنين نفر من كلا الفريقين ، ففضوا ما بينهما من نزاع ، ووصل هذا الخبر إلى (عبد الله بن أبى) وهو جالس فى نفر من أتباعه المنافقين فغضب وقال :

لقد كاثرنا هؤلاء المهاجرون في بلادنا .. والله ما عدنا وإياهم إلا كما قال الأول : سَمِّن كلبك يأكلك .. ! أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجن الأعزُّ منها الأذل .

ثم قال لمن يجالسه من قومه : هذا ما فعلتم بأنفسكم أحللتموهم بلادكم ، وقاسمتموهم أموالكم أما والله لو أمسكتم عنهم ما بأيديكم لتحولوا إلى غير داركم .

وسمع مقالة ابن أبى هذه (زيد بن أرقم) وكان غلاما حدثا إلا أنه كان مؤمناً صادق الإيمان ... فسار إلى النبى ﷺ ، فأخبره بما يدعو إليه ابن أبى من فتنة ، وبما يضمر للنبى ﷺ وللمسلمين من شر ، وكان عنده عمر بن الخطاب فقال :

مُرْ (عباد بن بشر) فليقتله !

فقال رسول الله ﷺ : فكيف يا عمر إذا تحدث الناس أن محمداً يقتل أصحابه ؟ لا .. ولكن أذِّن بالرحيل ...

وذلك فى ساعة لم يكن رسول الله ﷺ يرتحل فيها ، فارتحل الناس ، وقد مشى عبد الله بن أبى بن سلول إلى رسول الله ﷺ ، حين بلغه أن زيد بن أرقم قد بَلَّغه ما سمع منه ، فحلف بالله ما قلت ما قال ، ولا تكلمت به - وكان فى قومه شريفاً عظيماً - فقال من حضر رسول الله ﷺ من الأنصار من أصحابه :

يا رسول الله ، عسى أن يكون الغلام قد أوهم فى حديثه ، ولم يحفظ ما قال الرجل - حدبا على ابن أبى ودفعا عنه - [1] .

ولقى (أسيد بن حضير) رسول الله ﷺ، فحياه بتحية النبوة وسلم عليه ثم قال :

يا نبى الله ، والله لقد رحت فى ساعة منكرة ، ما كنت تروح فى مثلها .

فقال له : أوَمَا بلغك ما قال صاحبكم ؟ قال : وأى صاحب يا رسول الله ؟

قال : عبد الله بن أبى قال : وما قال ؟

قال : زعم إن رجع إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل

قال : فأنت يا رسول الله تخرجه منها إن شئت ، هو والله الذليل وأنت العزيز ، ثم قال : يا رسول الله ، إرفق به ، فوالله لقد جاءنا الله بك ، وإن قومة لينَظِّمون له الخرز ليتوجوه فإنه ليرى أنك قد استلبته ملكا ..

ثم مشى رسول الله ﷺ بالناس يومهم ذلك حتى أمسى ، وليلتهم حتى أصبح ، وصَدْر يومهم ذلك حتى آذتهم الشمس ثم نزل بالناس فلم يلبثوا أن وجدوا مس الأرض فوقعوا نياما . وإنما فعل ذلك رسول الله ﷺ ، ليشغل الناس عن الحديث الذى كان بالأمس، من حديث عبد الله بن أبى .. ثم واصلوا المسير نحو المدينة .. وبينما زيد بن أرقم يسير بالقرب من النبى ﷺ ، مَدَّ الرسول ﷺ يده فأمسك بأذن زيد يشدها مداعباً وهو يقول :

« وعت أذنك يا غلام ! وصدق الله حديثك » ثم التفت لمن حوله قائلاً:

« هذا هو الذى أوفى الله بأذنه »[2] وذلك أن الله كان قد أنزل على نبيه من الآيات ما أثبت غدر ابن أبى وخيانته وسوء نيته ، وأوضح

---

(١) عن ابن اسحق عن عاصم بن عمرو بن قتادة وعبد الله بن ابى بكر ومحمد بن يحيى بن حيان اسناده مرسل وصح مختصرا .

(٢) حديث صحيح تام مرسل عن ابن اسحق الذى ذكرته آنفا .

صدق زيد بن أرقم ووفائه وإخلاصه .

ونزلت سورة المنافقين ، وفيها تصديق ما روى زيد بن أرقم :

« **يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون**»[1].

ثم إن (عبد الله بن عبد الله بن أبى) أتى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، إنه قد بلغنى أنك تريد قتل عبد الله بن أبى فيما بلغك عنه ، فإن كنت لابد فاعلاً ، فَمُرْنِي به ، فأنا أحمل إليك رأسه ، فوالله لقد علمت الخزرج ما كان لها من رجل أبر بوالده منى، وإنى أخشى أن تأمر به غيرى فيقتله ، فلا تدعنى نفسى أنظر إلى قاتل عبد الله بن أبى يمشى فى الناس فأقتله ، فأقتل رجلا مؤمنا بكافر فأدخل النار .

فقال رسول الله ﷺ : « بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقى معنا » وجعل بعد ذلك إذا أحدث حدثا ، كان قومه هم الذين يعاتبونه ويأخذونه ويعنفونه ، فقال رسول الله ﷺ لعمر بن الخطاب ، حين بلغه ذلك من شأنهم: كيف ترى يا عمر ؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لى لأرعدت له آنف ، لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته . قال عمر : قد والله علمت لأمر رسول الله ﷺ أعظم بركة من أمرى .

---

(١) سورة المنافقون آية ٨ .

﴿ إسلام الحارث بن ضرار
وزواج النبى من جويرية بنت الحارث ﴾

وكان رسول الله ﷺ ، قد أصاب من بنى المصطلق سبيا كثيرا وكان فيمن أصيب يومئذ من السبايا (جويرية بنت الحارث بن أبى ضرار) .

قال ابن اسحق : وحدثنى محمد بن الزبير ، عن عروة بن الزبير ، عن عائشه رضى الله عنها قالت : لما قسم رسول الله ﷺ سبايا بنى المصطلق ، وقعت (جورية بنت الحارث) فى السهم لـ (ثابت بن قيس بن الشماس) أو لإبن عم له ، فكاتبته على نفسها ، وكانت إمرأة حلوة ملاحة لا يراها أحد إلا أخذت بنفسه ، فأتت رسول الله ﷺ تستعينه فى كتابتها فدخلت عليه فقالت : يا رسول الله أنا جويرية بنت الحارث بن أبى ضرار سيد قومه، وقد أصابنى من البلاء مالم يخف عليك فوقعت فى السهم لثابت بن قيس بن الشماس، أو لابن عم له ، فكاتبته على نفسى ، فجئتك أستعينك على كتابتى .

قال : « فهل لك فى خير من ذلك ؟ »

قالت : وما هو يا رسول الله ؟

قال : « أقضى عنك كتابتك وأتزوجك»

قالت : نعم يا رسول الله

وهكذا أسلمت جويرية وارتفع بها النبى ﷺ من مصاف السبايا إلى مصاف أمهات المؤمنين ، وعلم المسلمون بما حبا الله به جويرية بزواجها من الرسول ﷺ ، فأطلقوا ما بأيديهم من أسرى ، وهكذا كان زواج النبى من جويرية سببا فى جلب خير كبير لقومها .

وقد كان أبوها الحارث قد أقبل على المدينة لفداء إبنته قبل هذا فلما

كان بالعقيق نظر إلى الإبل التى جاء بها للفداء ، فرغب فى بعيرين منها ، فغيبهما فى شعب من شعاب العقيق ، ثم أتى إلى النبى ﷺ وقال : يا محمد .. أصبتم ابنتى ، وهذا فداؤها ، فقال رسول الله ﷺ : فأين البعيران اللذان غيبتهما بالعقيق فى شعب كذا وكذا ؟

فقال الحارث : أشهد ألا إله إلا الله وأنك محمد رسول الله ، فو الله ما اطلع على ذلك إلا الله.. فأسلم الحارث وأسلم معه إبنان له وناس كثير من قومه ، وأرسل إلى البعيرين فجاء بهما فدفع الإبل إلى النبى ﷺ .

وظل ركب المسلمين يسير سريعاً نحو المدينة ، وقد بلغ من رجاله التعب والنصب حتى كانت الليلة الأخيرة فى رحلتهم ، والسابقة لدخولهم المدينة .

وأمرهم النبى ﷺ بالنزول ، ومن شدة التعب ما كادت جنوب الركب تمس الأرض حتى راحوا فى سبات عميق ، وظلوا نياما حتى نادى منادى محمد ﷺ بالرحيل .

فى هذه اللحظة ، كانت عائشه زوجة الرسول ﷺ ، قد غادرت معسكر المسلمين لبعض شأنها .. وكان فى عنقها عقد من الحب المجزَّع تعتز به ، فلما عادت إلى المعسكر، والناس تستعد للرحيل ، تفقدت العقد فلم تجده ، فأدركت أنه انسلَّ منها فى المكان الذى كانت ذهبت تقضى حاجتها فيه فرجعت تبحث عنه حتى وجدته ولكنها حينما عادت إلى المعسكر ، لم تجد للعسكر أثرا ، فقد نشط أهله إلى شد رحالهم وغادروه مسرعين .. ووقفت عائشه حيرى .. لا تدرى ماذا تفعل ؟! وقد خَلَّفَها القوم وحيدة فى فسَاحِ الصحراء ، وهم يحسبونها بلا شك فى هودجها فوق بعيرها الذى يصحب ركبهم ، ويسير بين رواحلهم .

وكان هذا حقا ما يحسبه المرتحلون . فقد كان من عادة الرجال القائمين على أمر هودج زوجة الرسول ﷺ وبعيرها ، أن يأتوا بالهودج فيضعوه أمام خيمة عائشة فتخرج هى فتجلس فيه ، حتى يأتى الرجال ويرفعوه فوق البعير

يقودونه إلى حيث يسيرون .

وحصل فى هذه المرة أن جاء الرجال فرفعوا الهودج فوق البعير دون أن يفطنوا إلى أن أم المؤمنين عائشة ليست فيه لنحافتها وصغرها وخفة وزنها ، ثم قوضوا الخيام ، وأسرعوا بالمسير .

وأدركت عائشه ببديهتها ما قد حصل فأيقنت أن القوم إذا افتقدوها فوق بعيرها ولم يجدوها فسوف يعودون أدراجهم للبحث عنها ، وبهذا الخاطر شاع الإطمئنان فى نفس عائشة ، فتدثرت بثوبها وجلست فى مكانها تنتظر عودة الباحثين عنها .

وشاءت الصدف أن يكون من المتخلفين عن المعسكر أيضا (صفوان بن المُعَطَّل السُّلَمِىّ) وبينما هو على بعيره يَهُمُّ أن يحث السير للحاق بأصحابه، إذا به يبصر عائشه فوق رمال الصحراء ، وكان صفوان يرى عائشه قبل الحجاب ، فبهت ودهش ، وما ملك إلا أن إسترجع يقول : إنا الله وإنا إليه راجعون .. ما خَلَّفكَ يرحمك الله ؟

وقدم صفوان بعيره لعائشة قائلا لها : إركبى ، ثم استأخر عنها حتى ركبت فتقدم وأخذ بِمْقَود بعيره .. وسار به يحث الخطا يبغى اللحاق بأصحابه المؤمنين . ولكن النبى ﷺ وأصحابه كانوا من السرعة بحيث لم يستطع صفوان وبعيره اللحاق بهم وعلى ذلك دخل المسلمون المدينة ، وفى أعقابهم دخل صفوان يقود بعيره وعليه تركب زوجةِ النبى ﷺ . وعلم أهل المدينة ما كان من تَخَلُّف عائشه . وقَصَّت عائشة على النبى ﷺ ما كان من سبب تخلفها .

﴿ حديث الإفك ﴾

وفي هذا الوقت الذى قَدَّر محمد ﷺ فيه أنه قد فرغ من ذيول غزوة بنى المصطلق ، وقضى على فتنة إبن أبى .. كانت هناك فى أرجاء المدينة تسرى شرارة إشاعة دنيئة ، وكان يُهمس فى مجالسها بحديث ، وكانت تنتقل بين هنا وهناك أقوالٌ وأراجيف فحواها ما كان من تَخَلُّف عائشه عن معسكر المسلمين ، وعودتها منفردة مع صفوان بن المُعَطَّل وزاد بعض الوشاة فصرحوا وأفصحوا عن عائشة وصفوان بقول السوء ..!

واجتهد خصوم الله ورسوله أن ينقلوا شروره فى كل مكان قاصدين - من وراء هذا الأسلوب الجديد فى حرب الإسلام - أن يدمروا على الرسول ﷺ بيتـه .. ! وأن يسقطوا مكانة أقرب الناس لديه .. وأن يدعوا جمهور المسلمين - بذلك - يضطرب فى عَمَاية من الأسى والغم ! وللوصول إلى هذه الغايه ، إستباح إبن أبى لنفسه أن يرمى بالفحشاء سيدة لم تجاوز مرحلة الطفولة البريئة ، لا تعرف الشر ، ولا تهم بمنكر .. ولا تحسن الحياة إلا فى فلك النبوة العالى ، وهى التى تربت فى حجر صديق وأعدت لصحبة نبى فى الدنيا والآخرة .

وتلقف العامة هذا الحديث الغريب وهم فى غمرة الدهشة، لا يدرون مبلغ الخطر الكامن فى قبوله ونقله .! واختفى عبد الله بن أبى كالعقرب الخائنة وقبع هذا المنافق فى جنح الظلام وشرع يلسع الغافلين وينفث سمومه بين الناس ...!

وكان ممن صرح وأفصح بهذا (حَمْنَه بنت جحش) أخت زينب بنت جحش زوجة الرسول ﷺ و(حسان بن ثابت) الشاعر و(مُسطح بن أثاثه) من أقرباء أبى بكر الصديق .

وإليك سرداً لهذا الحديث المفتعل على لسان السيدة التى تعرضت له وبُرِّئت منه :

قالت عائشه بعد ما سردت وقائع ما حدث فى المعسكر حتى وصلت إلى المدينة : قال أهل الإفك ما قالوا ، وارتعج العسكر ، ووالله ما أعلم بشئ مما يتقولونه ، ولم ألبث - بعد قدومنا إلى المدينة - أن اشتكيت شكوى شديدة (مرضت) وليس يبلغنى من ذلك شئ ، وقد إنتهى الحديث إلى رسول الله ﷺ وإلى أبوى وهم لا يذكرون لى منه كثيرا ولا قليلا ، إلا أنى قد أنكرت من رسول الله ﷺ بعض لطفه بى فى شكواى هذه ، فأنكرت ذلك منه ، كان إذا دخل علىّ وعندى أمى تمرضنى قال : كيف تيكم ؟ .. لا يزيد على ذلك .. حتى وجدت فى نفسى - غضبت - فقلت : يا رسول الله - حين رأيت ما رأيت من جفائه لى - : لو أذنت لى فانتقلت إلى أمى ؟

قال : لا عليك ، قالت : فانقلبت إلى أمى ، ولا علم لى بشئ مما كان ؛ حتى نُقِهْتُ من وجعى بعد بضع وعشرين ليلة ، وكنا قوما عربا ، ولا نتخذ فى بيوتنا هذه (الكُنف) التى تتخذها الأعاجم ، نعافها ، ونكرهها .. إنما كنا نخرج فى فسح المدينة ، وكانت النساء يخرجن كل ليلة فى حوائجهن فخرجت ليلة لبعض حاجتى ومعى (أم مُسطح) فوالله إنها لتمشى معى إذ عثرت فى مرطها فقالت : تَعِسَ مُسطح . قلت : بئس ..- لعمر الله - ما قلت لرجل من المهاجرين شهد بدرا

قالت : أوَ ما بلغك الخبر يا بنت أبى بكر ؟

قلت : وما الخبر ؟

فأخبرتنى بالذى كان من أهل الإفك....!

قلت : أوقد كان هذا ؟؟!!

قالت : نعم والله لقد كان !!

قالت عائشه : فوالله ما قدرت على أن أقضى حاجتى ورجعت ، فوالله

مازلت أبكى حتى ظننت أن البكاء سيصدع كبدى ، قلت لأمى : يغفر الله لك .. تحدث الناس بما تحدثوا ولا تذكرين لى من ذلك شيئا !! قالت : أى بنية ، خففى عنك فو الله لقلما كانت إمرأة حسناء عند رجل يحبها ، ولها ضرائر ، إلا كثرن وكثر الناس عليها .

قالت : وقد قام رسول الله ﷺ فى الناس يخطبهم - ولا أعلم بذلك - فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : « أيها الناس ، ما بال رجال يؤذوننى فى أهلى ويقولون عليهم غيز الحق !! والله ما علمت عليهم إلا خيراً . ويقولون ذلك لرجل والله ما علمت منه إلا خيراً ، ولا يدخل بيتا من بيوتى إلا وهو معى قالت : وكان كبر ذلك عند « عبد الله بن أبى بن سلول » فى رجال من الخزرج . مع الذى قال « مسطح » و « حَمْنَه بنت جحش » وذلك أن أختها زينب بنت جحش كانت عند رسول الله ﷺ ولم تكن إمرأة من نسائه تناصبنى فى المنزلة عنده غيرها . فأما زينب فعصمها الله بدينها فلم تقل إلا خيرا وأما (حَمْنَه) فأشاعت من ذلك ما أشاعت تضادنى لأختها فشقيت بذلك .

فلما قال رسول الله ﷺ تلك المقالة قال أسيد بن حضير :

يا رسول الله إن يكونوا من الأوس نكفكهم ، وإن يكونوا من إخواننا الخزرج فمرنا أمرك ، فو الله إنهم لأهل أن تضرب أعناقهم ، فلما قام «سعد بن عبادة» - وكان قبل ذلك يرى رجلاً صالحاً - فقال : كذبت لعمر الله ، ما تضرب أعناقهم .. إنك ما قلت هذه المقالة ، إلا وقد عرفت أنهم من الخزرج ، ولو كانوا من قومك ما قلت هذا .

فقال أسيد : كذبت لعمر الله ، ولكنك منافق تجادل عن المنافقين ..

وتثاور الناس ، حتى كاد يكون بين هذين الحيين من الأوس والخزرج شر عظيم .

ونزل رسول الله ﷺ ، فدخل علىّ ، ودعا (على بن أبى طالب)

و(أسامة بن زيد) فاستشارهما .. فأما أسامة فأثنى عليَّ خيراً ثم قال : يا رسول الله أهلك وما نعلم منهم إلا خيراً ، ولا تعلم منهم إلا خيراً ، وهذا الكذب والباطل .

وأما عليّ فقال : يا رسول الله ؛ إن النساء لكثير ، وإنك لقادر على أن تستخلف غيرها .. وَسلْ الجارية فإنها ستصدقك ..

فدعا رسول الله ﷺ « بريرة » ليسألها . وقام إليها عليّ بن أبى طالب فضربها ضرباً شديداً وهو يقول : أصدقى رسول الله ﷺ قالت عائشة: قالت بريرة : والله ما أعلم إلا خيراً .. وما كنت أعيب على عائشة شيئاً إلا أنى كنت أعجن العجين فآمرها أن تحفظه ، فتنام عنه فتأتى الشاة فتأكله .. قالت : ثم دخل عَلَيَّ رسول الله ﷺ وعندى أبواى وإمرأة من الأنصار وأنا أبكى وهى تبكى . فجلس فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

يا عائشة إنه قد كان ما بلغك من قول الناس ، فاتقى الله .. فإن كنت قد قارفت سوءاً مما يقول الناس ... فتوبى إلى الله ، فإن الله يقبل التوبة عن عباده ..

قالت : : فوالله إن هو إلا أن قال لى ذلك حتى قَلَصَ دمعى حتى ما أحس منه شيئاً ، وانتظرت أبوى أن يجيبا عنى فلم يتكلما ... !

قالت عائشة : وأيم الله لأنا كنت أحقر فى نفسى وأصغر شأناً من أن ينزل الله فيّ قرآنا يقرأ به فى المساجد ويصلى به ، ولكنى قد كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ فى نومه شيئاً يكذب الله به عنى ، لما يعلم من براءتى ، أو يخبر عنى خَبراً ، فأما قرآن ينزل فيَّ ، فوالله ، لنفسى كانت أحقر عندى من ذلك . قالت : فلما لم أر أبوى لا يتكلمان قلت لهما : ألا تجيبان رسول الله ﷺ ؟!

فقالا : والله لا ندرى بماذا نجيبه ..

قالت : فوالله ما أعلم أهل بيت دخل عليهم ما دخل على آل أبى بكر

فى تلك الأيام !!!

قالت : فلما استعجما عَلَىَّ إستعبرت فبكيت ثم قلت : والله لا أتوب إلى الله مما ذكرت أبداً ، والله إنى لأعلم لئن أقررت بما يقول الناس والله يعلم أنى منه بريئة - لأقولن ما لم يكن .. ولئن أنكرت ما يقولون لا تصدقوننى ... !

قالت : ثم التمست اسم يقعوب فما أذكره فقلت : أقول ما قال أبو يوسف : « **فصبر جميل والله المستعان على ماتصفون** »[1] .

ثم قالت : فوالله ما برح رسول الله ﷺ مجلسه حتى تغشاه من الله ما كان يتغشاه ، فَسُجِّىَ بثوبه ، ووضعت وسادة تحت رأسه ، فأما أنا حين رأيت من ذلك ما رأيت ، فوالله ما فزعت وما باليت ، وقد عرفت أنى بريئة وأن الله غير ظالمى . وأما أبواى فوالذى نفس عائشة بيده ما سرِّىَ عن رسول الله حتى ظننت لتخرجن أنفسهما فرقاً أن يأتى من الله تحقيق ما قال الناس .. ثم سرى عن رسول الله ﷺ فجلس ... وإنه لينحدر من وجهه مثل الجمان فى يوم شات ، فجعل يمسح العرق عن وجهه ويقول : أبشرى يا عائشة .. فقد أنزل الله براءتك .. فقلت : الحمد لله .. ثم خرج إلى الناس فخطبهم وتلا عليهم ما أنزل الله عليه من قرآن فى ذلك : « **إن الذين جاءوا بالإفك عُصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم لكل إمرىء منهم ما اكتسب من الإثم والذى تولى كِبْرَهُ منهم له عذاب عظيم** »[2] .

ثم أمر بمسطح بن أثاثة وحسان بن ثابت ، وحَمنة بنت جحش - وكانوا منه أفصح بالفاحشة - وأقيم عليهم حد الجلد بما أمر الله رسوله به ، وكان أمر الله للرسول فى ذلك : « **والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا**

---

(١) سورة يوسف من الآية ١٨ . (٢) سورة النور آية ١١ .

بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً وأولئك هم الفاسقون »[1] .

والغريب أن الحد أقيم على من ثبتت عليهم تهمة القذف ، أما « عبد الله بن أبى » مُدَبِّرُ الحملة وجرثومتها الخَفِيَّة ، فإنه كان أحذر من أن يقع تحت طائلة العقاب .. لقد أوقع غيره ثم أفلت بنفسه[2] .

★ ★ ★

﴿ ٢١ - أمر الحديبية ﴾

قال ابن إسحق : ثم أقام رسول الله ﷺ بالمدينة شهر رمضان وشوالاً ، وخرج فى ذى القعدة معتمراً لا يريد حرباً.

قال ابن هشام : واستعمل على المدينة « نُمَيْلة بن عبد الله الليثى »

« وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون »[3] .

كان الله سبحانه وتعالى يُطلع نبيه ﷺ على مقدار غضبه على المشركين الذين يصدون المسلمين المتقين عن زيارة المسجد الحرام ويمنعونهم من الحج إليه ؛ وكان يبين له ما أعده لهم من عذاب ، وما فرضه عليهم من عقاب ، جزاءً ما كانوا يعملون من صد المسلمين عن سبيل الله .

---

(١) سورة النور آية ٤ .

(٢) هذه القصة صحيحة رواها بهذا السياق ابن اسحق بأسانيد صحيحة عن عائشة ، ومن طريقه أخرجها ابن هشام فى السيرة (٢/ ٢٢٠ - ٢٢٢) وهى عند البخارى (٣٤٧/٧ - ٣٥٠) ومسلم (١١٣/٨-١١٧) بنحو ما هنا .

(٣) الأنفال آية ٣٤ .

ومـرت على المسلمين ست سنوات منذ خـروجـهم من مكة إلى المدينة مهاجرين ، وكانت فى خلالها روحهم تهفو إلى زيارة كعبتهم التى أبعدوا عنها ، ونفوسهم تحن إلى مجاورة بيت الله الحرام الذى كان مباحاً لسائر قبائل العرب ، وقد حرّمته قريش على المسلمين ومنعتهم من زيارته .

وذات صباح خرج النبى ﷺ إلى المسلمين فى المسجد يقول :

« لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين »[1] .

يا لشدة فرح المسلمين ... ! ويا لعظم سرورهم .. بهذا الخبر السار الذى أنبأهم به الرسول ﷺ ، وعرف المسلمون أن النبى ﷺ قد أُلْهِمَ فى نومه برؤيا صادقة ، فتحت أمامهم أبواب الأمل الذى كانوا يتمنونه ويحنون إليه . وعرفوا أن الله قد أذن لهم فى دخول مكة ، وشاعت إرادته زيارتهم البيت العتيق .

ولكن كيف يدخلون مكة ؟ ! وكيف يزورون البيت الحرام ، وقريش على ما هى عليه من عداوتهم ، والتربص بهم ؟؟ !! أتحاربهم ويحاربونها ، أم تُخَلِّيَ بينهم وبين ما يريدون ؟؟ !

وأذّن مؤذن محمد ﷺ فى الناس بالعمرة فى شهر ذى القعدة ، فانتشر المسلمون بالمدينة يعدون العُدَّة للسفر .. ويجمعون الأغنام التى سوف يذبحونها تكريما لبيت الله .

ونادى محمد ﷺ فى قبائل العرب بالخروج معه إلى العمرة فلبى نداءه بعض ، وأبطأ عليه بعض آخر ، وتخلّف عنه كثيرون وهم يعتذرون عن ذلك بقولهم : شغلتنا أموالنا وأهلونا . ثم يقول بعضهم لبعض : إن المسلمين لمغرورون ، لن ينقلب محمد ومن معه إلى أهليهم أبداً .

فالأعراب المنتشرون حول يثرب ، ومن على شاكلتهم من المنافقين .. عرفوا أن أهل مكة سوف يقاتلون محمداً عليه الصلاة والسلام أَمَرَّ قتال ،

---

(١) سورة الفتح من الآية ٢٧ .

وأنه إذا أبى إلا زيارة البيت - كما أعلن - فلن تدعه قريش حتى تُهلكه أو تهلك هي دون إبلاغـه مأربه .. فـهي عـمـرة مـحفـوفـة بالأخطار في نظرهم والفرار منها أجدى .

ولـو فُرض أن النبي ﷺ نجح في مقصده هذا ، فالاعتذار إليه بعد عودته سهل .

« سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضراً أو أراد بكم نفعاً بل كان الله بما تعملون خبيراً »[1] « بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً وزين ذلك في قلوبكم وظننتم ظن السَوْء وكنتم قوماً بورا »[2] .

وخـرج المؤمنون الواثقـون مع رسـول الله ﷺ وعـددهم قـريب من ألف وأربعمائة يتقدمهم النبي صلوات الله وسلامه عليه على ناقة له اسمها (القصوى) وتصحبه من أزواجه (أم سلمة) يسوقون للهدى من الأغنام والنياق سبعين رأساً وليس معهم من السلاح إلا السيوف في غُمُودها . . وساروا ملبين يطوون الطريق إلى البيت العتيق .

فلما بلغوا (عُسْفَان) على مرحلتين من مكة ، نصبوا خيامهم .. وقيدوا دوابهم .. وأوقدوا نيرانهم لتهيئة الطعام . وبلغ قريشاً خروج محمد وأصحابه معتمرين ، وحارت قريش في أمرها ... أمحمد يأتي إليها يريد دخول مكة عليها بعد ما كان بينها وبينه من قتال وحروب ؟!

----

(١) سورة الفتح اية ١١

(٢) سورة الفتح آية ١٢ .

وأعدت قريش جيشاً من فرسانها أُمّرتْ عليه (خالد بن الوليد) و(عكرمة بن أبى جهل) فخرجا به إلى (ذى طوىً)فكمنوا هناك فى إنتظار قدوم المسلمين .

ولم يدر المسلمون ما أعدته قريش لإستقبالهم .. فبينما هم بمنزلهم بعسفان إذ بفارس قد أقبل عليهم عرفوا فيه « بِشْر بن سفيان » من بنى خزاعة ، فأقبلوا عليه يسألونه أخباره عن قريش لعلمهم أن أكثر بنى خزاعة فى جانبهم يَصْدُقُونَهمُ القول ، ويبغون لهم الخير ، فتقدم (بشر) من الرسول ﷺ يقول : إن قريشاً علمت بمسيرك ، فهاجت خواطرهم ، واشتد حماسهم ، فسيرتْ إليكم قوة من الفرسان المحاربين ، وهم ينتظرونكم بالقرب من مكة لينقضوا عليكم من مكامنهم ، ويأخذونكم على غِرَّة ، وبدأ شبح الحرب أمام الأعين يملأ هذه البقاع المحرمة بالدماء والأشلاء والمسلمون لم يجيئوا لهذا .. وما كان لأهل مكة أن يلجئوهم إليه . فقال رسول الله ﷺ : يا ويح قريش .. لقد أكلتهم الحرب .. ماذا عليهم لو خلُّوا بينى وبين سائر العرب، فإن هم أصابونى كان ذلك الذى أرادوا .. وإن أظهرنى الله عليهم دخلوا فى الإسلام وافرين ، وإن لم يفعلوا قاتلوا وبهم قوة ، فما تظن قريش ؟ فوالله لا أزال أجاهد على الذى بعثنى الله به حتى يظهره الله أو تنفرد هذه السالفة (يعنى إلى الموت)[1].

---

(١) حديث صحيح اخرجه ابن اسحق بسند صحيح عن (مسور بن مخرمة) و (مروان بن الحكم) ومن طريقه أخرجه أحمد (٣٢٣/٤-٣٢٦) وابن هشام (٢٢٦/٢) وهو قطعة من حديث طويل فى صلح الحديبية وقد أخرجه البخارى (٣٥١/٥-٣٧١) وأحمد (٣٢٨/٤-٣٣١) من طريق أخرى عنهما بطوله ، لكن عند البخارى وكذا أحمد أن هذا القول صار من الرسول بعد قصة الناقة الآتية عند مجيىء بديل بن ورقاء إلى الرسول وابلاغه أنه لم يأت لحرب وهذا أصح قطعا من رواية ابن اسحق .

ثم وجه حديثه إلى أصحابه :

يا قوم لقد خرجت قريش لمناجزتكم ، فإن نحن تابعنا المسير فى هذا الطريق وقع الصدام بيننا وبينهم ، وكان مالا نريده من سفك الدماء ، فمن منكم يخرج بنا إلى طريق غير طريقهم[1] ؟ فتقدم رجل من قبيلة (أسلم) وكان خبيراً بمسالك الصحراء .

وقال : أنا يا رسول الله

قال محمد ﷺ إذن تقدم فى طليعة القافلة ونحن من ورائك .

وأخذ الرجل بزمام ناقة الرسول ﷺ ، يسلك بها مسلكاً وعراً بين شعاب الجبال والقوم من خلفه ، حتى أفضى بهم إلى أرض سهلة منبسطة ، ثم إتجه بهم يميناً فساروا فى طريق ممهدة حتى أشرفوا على أطراف مكة من أسفل . ولم تخف هذه الحركة عن فرسان قريش فتراكضوا راجعين إلى مكة كى يحولوا بين المسلمين ودخولها ..

ومضى النبى ﷺ بأصحابه فى وجهتهم المحددة .. فإذا بناقته تبرك لا تجاوز مكانها ، وأسرع الناس إليها يحاولون أنهاضها والسير بها ، ولكنها أبت أن تقوم من مبركها . ودهش الناس لما عراها فقالوا : خلأت القصواء !

فقال النبى ﷺ : ما خلأت ، وما هو لها بخلق ، ولكن حبسها حابس الفيل عن مكة . ورأى رسول الله ﷺ فى وقوفها أمراً أراده الله . فأمر القوم بالنزول وهو يقول :

لا تَدْعُونى قريش اليوم إلى خطة يسألوننى فيها صلة الرحم إلا أعطيتهم إياها »[2] .

وكان هذا المكان الذى بركت فيه الناقة اسمه (الحديبية)

---

(١) حديث صحيح رواه ابن اسحق فى حديث الحديبية المشار إليه آنفاً .

(٢) حديث صحيح من حديث الحديبية عند البخارى وغيره) .

ونزل المسلمون كما أُمروا ينتظرون مع الغد القريب أن تُفتح لهم أبواب مكة ، فيطوفوا ويسعوا

ثم تساءل القوم : يا رسول الله ؛ ما بهذا المكان من ماء ..

فأخرج الرسول ﷺ سهما من كنانته أعطاه رجلا منهم : فنزل به إلى بئر من الآبار الجافة المنتشرة بالمكان ، فغرزه فيها ، فخرج الماء ، فاطمأن الناس لإنبثاق الماء ، ونزلوا من حوله يستقون ، ويسقون دوابهم .

أما قريش فقد تبلبلت أفكارهم واضطربوا إضطراباً شديداً ، وعلقوا كل آمالهم على مفاجأة خالد للمسلمين قبل أن يأخذوا أهبتهم ويستعدوا للقتال ، بيد أن خالد عاد إليهم ينبئهم بنزول محمد فى الحديبية ، ويعرفهم بفشل خطتهم ... فماذا يفعلون ؟!

إن محمداً الذى أخرجوه بليل من ديارهم قد عاد إليهم معززا بقوم من المهاجرين والأنصار ، وهم وإن كانوا هزموه فى (أحد) ، فإنهم جربوا شجاعة المسلمين واستبسالهم فى سبيل عقيدتهم .

واجتمع زعماء قريش فى دار الندوة من جديد وكان حزنهم شديداً وخوفهم عظيماً من هذا الزحف المباغت ، وفكرت جادة فى إبعاده عن مكة مهما كلفتها من مغارم ، وذلك أنها نظرت إلى الأمر من زاوية ضيقة ، فرأت أن مهابتها ستنزع من أفئدة الناس قاطبة إذا دخل المسلمون بلدهم على هذا النحو بعد ما وقع من حروب طاحنة .

غير أن قريشاً تعرف حروجة موقفها إن نشب قتال جديد .. فحجتها فيه أمام نفسها وأمام أحلافها داحضة ، وقد ينتهى بكارثة تودى بكيانها كله .

ولهذا سَيَّرت الوسطاء يفاوضون محمداً ﷺ علّهم ينتهون معه إلى مَخْلص من هذه الورطة .

وكان أول من جاءه (بديل بن ورقاء) فى رجال من خزاعة ، فكلموه وسألوه ما الذى جاء به هنا ؟

فقال الرسول ﷺ : إرجع إلى قريش فقل لهم : إن المسلمين جاءوا لزيارة البيت وهم يعظمون حرمته ، فإن هم خلوا سبيلنا أدينا شعائر الدين مسالمين، وخرجنا من مكة بعد أن ننتهي من الطواف ونفرغ من الزيارة .

وعاد الوفد إلى مكة يحملون إلى قومهم مقالة محمد ﷺ . فاختلفت قريش من جديد .. ! فريق منهم يرون أن يسالموا محمداً ﷺ ، ويُخْلوا له الطريق إلى بيت الله الحرام ، وفريق يحتج ويعارض هذا الرأى .

وقال أبو سفيان : أتسمحون لمحمد وأصحابه أن يطئوا أرضكم ، وهم أعداؤكم فَتَعصِبُوا رءوسكم بالعار إلى الأبد ؟!

ثم بعثوا (مكرز بن حفص) فلما رآه رسول الله ﷺ مقبلاً قال : هذا رجل غادر ، فلما إنتهى إلى رسول الله ﷺ وكلمه ، قال رسول الله ﷺ نحوا مما قال لبديل وأصحابه ، ثم بعثوا إليه سيد الأحابيش (الحليس بن علقمة) فهو زعيم قوم عُرفوا بالقوة وشدة البأس ، ورأت فيه قريش إن إستطاع أن يصد محمداً عنهم فقد أراحهم وكفاهم شره ، وإن رده محمد أخذته العزة فانضم إلى قريش ، وحارب فى صفوفهم .

وسار (الحليس) إلى محمد ﷺ فلما رآه مقبلاً قال : هذا الحليس مقبلاً وهو من قوم يتألهون ويُعظّمون الهَدْى ، فأطلقوا الذبائح ليراها ، وليعلم أننا قد جئنا لزيارة البيت مسالمين . فأطلق المسلمون النوق والخرفان ، ورآها (الحليس) وفى أعناقها قلائدها التى تدل على أنها هَدْى ، وقد أكلت أدبارها من طول الحبس ، فَكَرَّ إلى مكة راجعا دون أن يقابل الرسول ﷺ ، وقد بلغ به التأثر مبلغاً عظيماً ، وأخبر أهل قريش بما رأى . فقالوا له : إنما أنت أعرابى لا علم لك .

فغضب (الحليس) لذلك غضباً شديداً وقال لهم : والله ما على هذا حالفناكم ولا على هذا عاقدناكم .. أتصدون عن بيت الله الحرام من جاء معظماً ؟!

أَتَحُجُّ إلى البيت جميع قبائل العرب ! ويُمنع عنه ابن عبد المطلب وله فيكم شرف ونسب ؟ ! لئن صددتم محمداً عن البيت لأنفرنَّ بالأحابيش نفرة رجل واحد .... ، ولأكونن له نصيراً عليكم .

وخشيت قريش غضبة (الحليس) فأقبلت عليه تسترضيه وهى تقول :

يا حليس كُفَّ عنا حتى نأخذ لأنفسنا ما نرضى به .

وفكرت قريش ثانية فيمن ترسل إلى محمد ﷺ من رجالها ليستطيع صده عن دخول مكة فوقع إختيارها على (عُروة بن مسعود) . فلما خاطبه رجال قريش فى هذا الشأن إعتذر لهم لما رأى من تسفيه من سبقه ، ولكنهم مازالوا به حتى قبل أن يكون سفيراً إلى محمد ﷺ فخرج حتى أتى رسول الله ﷺ ، فجلس بين يديه ثم قال : يا محمد ، أجمعت أوشاب الناس ، ثم جئت إلى بيضتك لتفضها ؟ - إلى قومك لتجتاحهم - إنها قريش خرجت معها العوذ المطافيل - يقصد النساء والأطفال - قد لبسوا جلود النمور ، يعاهدون الله لا تدخلها عليهم عَنْوة أبداً .. وأيم الله لكأنى بهؤلاء الذين جمعتهم وقد انفضوا من حولك غداً ..

فصاح أبو بكر مقاطعاً عروة :

خَسِئْتَ .. فوالله ما ننفض من حوله أبداً .

فقال عروة : من هذا يا محمد ؟

قال : هذا إبن أبى قحافة .

فَرَدَّ عروة على أبى بكر يقول : أما والله لولا يد كانت لك عندى لكافأتك بها ، ولكن هذه بهذه وعاود عروة حديثه مع رسول الله ﷺ ، وجعل يتناول لحيته وهو يكلمة - كأنه ينبهه إلى خطورة ما سيقع بقومه - إلا أن (المغيرة بن شعبة) كان يقرع يده كلما فعل ذلك وهو يقول : أكفف يدك عن وجه رسول الله ﷺ قبل أن لا تصل إليك .

فقال عروة : ويحك ما أفظك وأغلظك .. ثم سأل النبى : من هذا يا محمد ؟

فأجاب الرسول ﷺ وهو يبتسم : هذا إبن أخيك (المغيرة بن شعبة) .

فقال عروة للمغيرة : أى غُدَر .. هل غسلتُ سوءتك إلا بالأمس[١] .

وقد رَدَّ رسول الله ﷺ بما يقطع اللجاجة وينفى الشبهة .. أنه لا يبغى حرباً ، وإنما يريد أن يزور البيت كما يزوره غيره ، فلا يلقى صاداً ولا راداً .

ورجع عروة فقال لرجال قريش :

يا معشر قريش .. إنى جئت كسرى فى ملكه ، وجئت قيصر فى ملكه، وجئت النجاشى فى ملكه ، وإنى والله ما رأيت ملكا فى قوم قط مثل محمد فى أصحابه .. لا يتوضأ إلا ابتدروا وضوءه ، ولا يسقط من شعره شىء إلا أخذوه ، ولقد رأيت قوما لا يسلمونه لشىء أبداً فَرَوْا رأيكم[٢] .

إن الرجال الذين تكلموا باسم قريش فى هذه المفاوضات لم تنهض لهم حجة ، بل إنهم عادوا إلى أهل مكة وهم أميل إلى ملاينة المسلمين وتمكينهم من آداء مناسكهم ، ولم يلحف بعضهم فى التصريح بذلك إلا لما لمسه من كبرياء قريش وعزوفها عن الحق بعد ما تبين .

إن النزق إستبد بهم وأطاش ألبابهم ، فقرروا ألا يدخل المسلمون البلد الحزام وليكن ما يكون .

وبقى المسلمون فى أماكنهم يتلمسون للمشكلة حلولاً أخرى أفضل من إقتحام مكة فى هجوم عام .

وحاول فريق من السفهاء أن يشعل المعركة ، لكن المسلمين لزموا الهدوء وملكوا أعصابهم .

فعن ابن عباس أن قريشا بعثوا أربعين رجلاً منهم أو خمسين ، وأمروهم أن يطيفوا بعسكر رسول الله ﷺ ليصيبوا لهم من أصحابه أحداً .. فأُخذُوا ، وأُتى بهم إلى رسول الله ﷺ ، فعفا عنهم وخلى

---

(١) كان المغيرة قبل إسلامه داهية فاتكا ، قتل نفراً فوادعهم عروة إطفاء للفتنة .

(٢) هذا كله من تمام قصة الحديبية عند ابن اسحق وهو عند البخارى نحوه .

سبيلهم ، وكانوا رموا فى المعسكر بالحجارة والنبل[1] .

وفى فظاعة قريش وسماحة المسلمين نزل قوله عز وجل :

« إذ جعل الذين كفروا فى قلوبهم الحمية حمية الجاهلية فأنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وألزمهم كلمة التقوى وكانوا أحق بها وأهلها وكان الله بكل شىء عليما »

(سورة الفتح آية ٢٦) .

ومن السكينة التى نزلت على المسلمين أن رسل قريش كانت تغدو على رسول الله ﷺ وتروح فلا يعترضها أحد .. أما رسل المسلمين إلى قريش فقد تعرضت للهلاك . فقد دعا رسول الله ﷺ (خراش بن أمية الخزاعى) وبعثه إلى قريش بمكة ، وحمله على بعير له يقال له الثعلب ، ليبلغ أشرافهم عنه ما جاء له ، فعقروا به جمل رسول الله ﷺ وأرادوا قتله ، فمنعته الأحابيش فخلوا سبيله حتى أتى رسول الله ﷺ . والرسل لا تقتل ، بيد أن غليان قريش أفقدها الوعى ، والرجل إذا فقد وعيه لا يبالى أن ينتحر . وقد انحرف كبراء مكة عن الصراط السوى ، ولم يكترثوا للمصير القاتم الذى ينتظرهم إذا ركبوا رءوسهم ، فلو اصطدم المسلمون بهم ما قامت لهم قائمة ، ولأصيبت حرمات مكة فى صميمها .

« ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لا يجدون وليا ولا نصيراً . سنة الله التى قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا »[2].

ولكن رسول الله ﷺ كره أن تجرى الأمور على هذا النحو ، ورأى أن يعيد محاولاته لإقناع أهل مكة بتركه يزور البيت ويعود لشأنه .

فدعا عمر بن الخطاب[3] ليذهب إلى القوم يحدثهم بما خرج المسلمون فيه .

---

(١) ضعيف رواه ابن هشام (٢٢٨/٢) عن ابن اسحق ورواه نحوه مختصراً أحمد (٨٦/٤-٨٨) من حديث عبد الله ابن المغفل بسند صحيح وفيه ان عدد المشركين ثلاثون وفيه أنزل الله تعالى « وهو الذى كف أيديهم عنكم ... الآية) الفتح ٢٤ .

(٢) سورة الفتح آية ٢٢ ، ٢٣ .

(٣) من تمام القصة عن ابن اسحق .

فقال عمر : يا رسول الله ، ليس بمكة أحد من بنى عدى يغضب لى إن أوذيت .. فأرسل عثمان بن عفان فإن عشيرته لا تزال بمكة ، وإنه مبلغ عنك إن أردت .

وذهب عثمان بن عفان زوج بنت رسول الله ﷺ ، فلما دخل مكة إلتقى بقريب له هو : (أبان بن سعيد بن العاص) ، فأجاره أبان من أذى قريش حتى يبلغ رسالته .

وعرض عثمان على رجال قريش ما جاء من أجله فأبوا أن يلبوا دعوة المسلمين ، أو أن يخضعوا لإرادتهم وإنما قالوا لعثمان : يا عثمان إن شئت أن تطوف بالبيت فطف .

فكان جواب عثمان لهم : ما كنت لأفعل حتى يطوف به رسول الله ﷺ.

وأرسلت قريش إلى (عبد الله بن أبى) فى جيش المسلمين : إن أحببت أن تدخل فتطوف بالبيت فافعل : فقال له ابنه : أذكرك الله ألا تفضحنا فى كل موطن ، تطوف ولم يطف رسول الله ﷺ... !

حينئذٍ أبى عبد الله بن أبى ما دعته إليه قريش وقال لرسولها : لا أطوف حتى يطوف رسول الله ﷺ . وبلغ حديث إبن أبى هذا محمداً ﷺ فَسُرَّ به . ومما يذكر هنا أن مكة لم تخل من رجال مؤمنين ونساء مؤمنات كانت قلوبهم معلقة بالمسلمين المحجوزين خارج مكة . لقد إنتشر الاسلام سراً فى بيوت كثيرة طالما تشوقت إلى اليوم الذى تستطيع فيه أن تظهر إيمانها ، وتتخلص من سطوة الكفار عليها .

ويظهر أن عثمان إتصل بأولئك النفر المؤمن وبشرهم بقرب الفتح ، فرأت قريش أن عثمان قد عدا الحدود المعهودة ، وأمرت باحتباسه ، عندها شاع - لدى المسلمين - أن عثمان قتل . وحين بلغت هذه الشائعة مسامع النبى ﷺ قال : لا نبرح حتى نناجز القوم[1] .

ودعا رسول الله ﷺ إلى مبايعته

---

(١) ضعيف أخرجه ابن اسحق وعنه ابن هشام (٢٢٩/٢) عن عبد الله بن أبى بكر مرسلا .

﴿ بيعــة الرضــوان ﴾

وكانت البيعة تحت شجرة متشابكة الغصون .. فهرع أصحابه إليه يبايعونه على الموت ، أو على ألا يفروا .

حدث (جابر بن عبد الله) بعد ما كف بصره قال :

قال لنا رسول الله ﷺ يوم الحديبية : أنتم خير أهل الأرض ، وكنا ألفا وأربعمائة ولو كنت أبصر اليوم لأريتكم مكان الشجرة[1] .

وروى (جابر) أن عبداً لحاطب جاء يشكوه لرسول الله ﷺ ويقول : ليدخلن حاطب النار . فقال رسول الله ﷺ : كذبت لا يدخلها ، شهد بدراً والحديبية[2] .

وتسمى هذه البيعة (بيعة الرضوان) إشارة لقول الله فى أصحابها :

« **لقد رضى الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما فى قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحا قريبا** »[3] .

وقد قطعت الشجرة ونسى مكانها ، وذلك خير ، فلو بقيت لضربت عليها قبة وشدت إليها الرحال ، فإن الرعاع سراع التعلق بالمواد والآثار التى تقطعهم عن الله .

عن طارق بن عبد الرحمن قال : انطلقت حاجاً فمررت بقوم يصلون فقلت ما هذا المسجد ؟ قالوا : هذه الشجرة حيث بايع النبى ﷺ بيعة الرضوان ،

---

(١) صحيح أخرجه البخارى (٧/٣٥٧) .

(٢) صحيح أخرجه مسلم (٧/١٦٩) .

(٣) سورة الفتح آية ١٨ .

فأتيت (سعيد بن المسيب) فأخبرته فقال سعيد : حدثنى أبى أنه كان فيمن بايع رسول الله ﷺ تحت الشجرة ، قال : فلما كان العام المقبل نسيناها فلم نقدر عليها .. ثم قال سعيد : إن أصحاب النبى ﷺ لم يعلموها وعلمتموها أنتم ؟ فأنتم أعلم ... !!

وعند أخذ البيعة من المسلمين ضرب رسول الله ﷺ بإحدى يديه على الأخرى وقال : هذه لعثمان ...

على أن عثمان لم يطل احتباسه ، فإن قريشا جزعت أن تصيبه بأذى وهو من سراتها بمكان .

وسارعت إلى بعث (سهيل بن عمرو) ليعقد مع محمد ﷺ صلحا .

﴿ أمـــر الهدنـــة ﴾

واتفقت قريش ، وتراضت مع عثمان على أن ترسل إلى محمد ﷺ (سهيل بن عمرو) يصالحه على أن يرجع عنهم فى عامه هذا ، ويأتيهم للزيارة فى العام المقبل ، وهى تقول فى ذلك :

فوالله لا تتحدث العرب عنا أنه دخلها علينا عُنوة أبداً .

وعاد عثمان إلى المسلمين ، وفى أعقابه جاء (سهيل بن عمرو) يفاوض النبى ﷺ .

فقال سهيل : لقد جئتك بعهد فيه أمن لنا وصلاح لك ، وفيه حَقْنٌ لدمائنا ودمائكم . قال الرسول ﷺ : وماهى شروطكم التى حمّلك قومك إياها ؟

قال سهيل : تعودون عن مكة هذا العام بدون زيارة ، ثم ترجعون فى العام القادم فَنُخْلِيها لكم ثلاثة أيام تؤدون فيها شعائركم ، ولا يكون معكم

من السلاح غير السيوف في غمودها .

قال الرسل ﷺ : ثم ماذا ؟

قال سهيل : تعاهدوننا على من أتى محمداً من قريش مسلما ، من غير إذن وليه يَرُدُّه إلى مكة ، ومن جاء مكة من أصحاب محمد لا يكونون ملزمين برده إليه .

وسكت رسول ﷺ قليلا ثم قال : ثم ماذا ؟

قال سهيل : تعاهدوننا على الهدنة عشر سنين يأمن فيهن الناس ، ويكف بعضهم عن بعض .

هذه شروط قريش فَرَوْا رأيكم .

وأقرَّ النبي ﷺ شروط قريش هذه ، ودهش المسلمون وتملكهم العجب .. !

ثم ثار ثائرهم وامتلأت نفوسهم بالغضب ... ! وتساءلوا فيما بينهم : لمَ يرض رسول الله ﷺ بشروط قريش هذه ؟! إن بوسعنا القتال ، وإن في قدرتنا دخول مكة لزيارة البيت عنوة ، مادامت قريش قد منعتنا الزيارة بالمفاوضة والحسنى .. وذهب عمر بن الخطاب إلى أبي بكر يقول : يا أبا بكر ، أليس برسول الله ؟ !

قال أبو بكر : بلى ! قال عمر : أوليسوا بالمشركين ؟! قال أبو بكر : بلى ! قال عمر : فعلام نعطى الدَّنيَّة في ديننا وتقبل هذه الشروط المجحفة بنا ؟؟ !!

قال أبو بكر : يا عمر ، إلزم مكانك ، فإني أشهد أنه رسول الله .

ثم أتى عمر بن الخطاب رسول الله ﷺ وقال : ألست برسول الله ؟

قال : بلى

قال : أولسنا بمسلمين ؟

قال : بلى

قال : أوليسوا بالمشركين .

قال : بلى ..

قال : فعلام نعطى الدنيَّة فى ديننا ؟ !

قال : أنا عبد الله ورسوله ولن أخالف أمره ، ولن يضيعنى[1] .

إن الله الذى عقل الناقة أن تتابع سيرها لا يأذن لهذه الكتائب أن توالى زحفها ، وتشرع رماحها ، وقد تحرز نصراً أقل على الإسلام - فى جدواه - من سِلْمٍ مبارك النتائج .

﴿ عقد الصلح بين رسول الله ﷺ وبين سهيل بن عمرو ﴾

ثم دعا رسول الله ﷺ علىّ بن أبى طالب رضوان الله عليه فقال :

أكتب : بسم الله الرحمن الرحيم

فاعترض سهيل : قائلا : لا أعرف هذا .. ولكن اكتب : باسمك اللهم

قال رسول الله ﷺ : أكتب باسمك اللهم . فكتب على

ثم قال رسول الله ﷺ :

أكتب : هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو ..

فقال سهيل مقاطعاً : لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك . ولكن اكتب اسمك واسم أبيك .

قال رسول الله ﷺ : أكتب : هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله سهيل بن عمرو : « إصطلحا على وضع الحرب عن الناس عشر سنين يأمن فيها الناس ويكف بعضهم عن بعض ، على أنه من أتى محمداً من قريش بغير إذن وليه رده عليهم ... ومن جاء قريشا ممن مع محمد لم يردوه عليه .

---

(١) حديث صحيح وهو من تمام قصة الحديبية والزهرى أحد رجال إسنادها ، وليس من مرسلاته خلافا لما يبدو من السياق وقد رواه أحمد موصولاً من طريق ابن اسحق .

وأن بيننا عيبة مكفوفة - صدوراً منطوية على ما فيها من خير - وأنه لا إسلال ولا إغلال - لا سرقة ولا خيانة - وأنه من أحب أن يدخل فى عقد محمد وعهده دخل فيه ، ومن أحب أن يدخل فى عقد قريش وعهدهم دخل فيه .

وأنك ترجع عنا عامك هذا فلا تدخل علينا مكة ، وأنه إذا كان عام قابل خرجنا عنها فدخلتها بأصحابك فأقمت بها ثلاثا معك سلاح الراكب ، السيوف في القرب لا تدخلها بغيرها »[1] .

وأتم رسول الله ﷺ صيغة العهد بالشروط التى اتفق عليها معه سهيل بن عمرو ودخلت قبيلة (خزاعة) فى هذا العهد إلى جانب محمد ﷺ ، وإنحازت قبيلة (بنى بكر) فيه إلى جانب قريش ، وَوُقِّع العهد وشهد عليه رجال من كلا الفريقين هم :

شهود صلح الحديبية :

أبو بكر الصديق - عمر بن الخطاب - عبد الرحمن بن عوف - عبد الله بن سهيل بن عمرو - سعد بن أبى وقاص - محمود بن مسلمة - مكرز بن حفص (وهو يومئذ مشرك) - وعلى بن أبى طالب (وهو كاتب الصلح) .

وما كاد العهد يُوَقَّع حتى أقبل على المسلمين رجل من قريش - وهو (أبو جندل) إبن المفاوض نفسه (سهيل بن عمرو) جاء يرسف فى الحديد وتثقل به قيوده ، قد انفلت إلى رسول الله ﷺ يريد الإلتحاق بالمسلمين ، فقد دخل فى دين الله ولقى العذاب من أهله .

---

(١) حديث صحيح وهذا العقد من تمام قصة الحديبية عند ابن اسحق والسياق له ، والبخارى وأحمد .

وما كاد سهيل يرى إبنه ويعرف ما أتى من أجله حتى رفع يده وأهوى بها على وجه ولده ، ثم أخذ بخناقه ليعود به إلى قريش وهو يقول لمحمد ﷺ :

يا محمد ، لقد أُبْرِمَ الأمر بيني وبينك ، وليس لك الحق فى إستبقاء من يأتيك من قريش ، وصاح أبو جندل يستغيث ويستنجد بالمسلمين قائلا : يا معشر المسلمين أُوُرَدُّ إلى المشركين يفتنوننى عن دينى ؟!

فلم يملك الرسول ﷺ إلا أن قال لأبى جندل : يا أبا جندل إصبر واحتسب فإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً ، إنا عقدنا بيننا وبين القوم صلحاً ، وأعطيناهم على ذلك وأعطونا عهد الله ، وإنا لا نغدر بهم .

وهكذا لم يملك المسلمون أن يمدوا لأبى جندل يد العون رغم ما كان بهم من غيظ شديد ، وحزن عظيم ! وهكذا عاد أبو جندل إلى قريش رغم إسلامه تنفيذاً لعهد الرسول ﷺ لقريش .

★★★

والنظرة الأولى لشروط الهدنة تدل دلالة واضحة على أنها مجحفة بحقوق المسلمين ومرضية لكبرياء قريش ، وحميتها الجاهلة . وقد تساءل أصحاب رسول الله ﷺ مستنكرين : لماذا يردون إلى قريش من جاء مسلماً ، ولا ترد قريش من جاءها من المسلمين مرتداً ؟

وفَسَّر رسول الله ﷺ هذا الشرط بأن من ذهب إليهم مرتدا كافراً فلا رَدَّه الله ، وقد وُقِىَ المسلمون خبثه . أما المستضعفون من المسلمين فستعى قريش بأمرهم كما عجزت عن سابقيهم ، وستكون العقبى لهم .

ألم يكن النبى ﷺ ومن معه مستضعفين ، ثم نصرهم الله وخذل قريشاً أمامهم ؟

ثم هاجت فى نفوس المسلمين مرة أخرى خيبة الأمل ، لقد حُدِّثوا أنهم داخلون المسجد الحرام ، وهاهم أولاء قد حرموا دخوله ومنعوا منه .

لكن الرسول ﷺ بيَّن أنهم عائدون إلى دخوله كما وعدوا ، فهو لم يذكر لهم أنهم سيطوفون به هذا العام .

وَعَرا المسلمين وجوم ثقيل لهذه النهاية الكئيبة ... وزاغت نظراتهم لما ركبهم من الحرج المفاجىء فلما فرغ رسول الله ﷺ من قضية الكتاب قال لهم :

قوموا فانحروا ثم احلقوا - ليتحللوا من عمرتهم ويعودوا إلى المدينة - فلم يقم منهم أحد .. ! حتى قال ذلك ثلاث مرات ... فلما لم يقم منهم أحد دخل على (أم سلمة) فذكر لها ما لقى من الناس .. ! فقالت أم سلمة : يا رسول الله أتحب ذلك ؟ أخرج ، ثم لا تكلم أحداً منهم كلمة حتى تنحر بُدْنَك، وتدعو حالقك فيحلقك .

فخرج صلى الله عليه وسلم ولم يكلم أحداً منهم حتى فعل ذلك .

فلما رأى المسلمون ما صنع النبى ﷺ زال عنهم الذهول ، وأحسوا خطر المعصية لأمره فقاموا - سراعاً - ينحرون هديهم ، ويحلق بعضهم بعضا[1] .

قال ابن اسحق : وكان الذى حلق لرسول الله ﷺ - فيما بلغنى فى ذلك اليوم - (خراش بن أمية بن الفضل الخزاعى).

وقال ابن اسحق : فحدثنى عبد الله بن أبى نجيح عن مجاهد عن ابن عباس قال :

حلق رجال يوم الحديبية ، وقَصَّر آخرون ، فقال رسول الله ﷺ :

« يرحم الله المحلقين » قالوا : والمقصرين يا رسول الله ؟

قال : « يرحم الله المحلقين »

قالوا : والمقصرين يا رسول الله ؟

قال : يرحم الله المحلقين

قالوا : والمقصرين يا رسول الله

قال : « والمقصرين » فقالوا : يا رسول الله فلم ظاهرت الترحيم للمحلقين دون المقصرين ؟ قال « لم يشكوا » (إسناده صحيح) .

★ ★ ★

---

(١) صحيح وهو من تمام قصة الحديبية عند البخارى وأحمد .

﴿ العودة إلى المدينة ونزول سورة الفتح ﴾

قال الزهرى فى حديثه : ثم انصرف رسول الله ﷺ من وجهه ذلك قافلا .. حتى إذا كان بين مكة والمدينة نزلت سورة الفتح :

« إنا فتحنا لك فتحا مبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر ويتم نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيما »[1] .

ثم كانت القصة فيه وفى أصحابه حتى إنتهى إلى ذكر البيعة فقال جل ثناؤه :

« إن الذين يبايعونك إنما يبايعون الله يد الله فوق أيديهم فمن نكث فإنما ينكث على نفسه ومن أوفى بما عاهد عليه الله فسيؤتيه أجراً عظيما »[2] .

ثم ذكر من تخلف عنه من الأعراب ، ثم قال حين استنفرهم للخروج معه فأبطأوا عليه :

« سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا »[3] .

ثم القصة عن خبرهم حتى إنتهى إلى قوله :

« سيقول المخلفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا نَتَّبعكم يريدون أن يبدلوا كلام الله قل لن تتبعونا كذلكم قال الله من قبل »[4] .

---

(١) سورة الفتح آية ١ ، ٢ .
(٢) سورة الفتح آية ١٠ .
(٣) سورة الفتح من الآية ١١.
(٤) سورة الفتح من الآية ١٥ .

ثم القصة عن خبرهم وما عرض عليهم من جهاد القوم أولى البأس الشديد (حديث صحيح » .

ثم ذكر محبسه وكَفَّه إياه عن القتال بعد الظفر منه بهم يعنى النفر الذين أصاب منهم وكَفَّهم عنه ثم قال تعالى : « **وهو الذى كف أيديهم عنكم وأيديكم عنهم ببطن مكة من بعد أن أظفركم عليهم وكانَ الله بما تعملون بصيرا** »[1] .

ثم قال : « **هم الذين كفروا وصدوكم عن المسجد الحرام والهدى معكوفا* أن يبلغ محله** »[2] .

★★★

﴿ بعد صلح الحديبية ﴾

إنه لم تمر أيام طوال على إبرام صلح الحديبية ، حتى كان تشدد المشركين فيه وبالاً عليهم ، فأخذوا يتشكون من النصوص التى فرضوها ، أو فرضتها حميتهم الغليظة .

ونظر المسلمون كذلك مبهورين إلى عواقب التسامح البعيد الذى أبداه النبى ﷺ ، فوجدوا من بركاته ما ألهج ألسنتهم بالحمد .

لقد إنفرط عقد الكفار فى الجزيرة منذ تم هذا العقد ، فإن قريشاً كانت تعتبر رأس الكفر وحاملة لواء التمرد والتحدى لدين الإسلام . وعندما شاع تعاهدها مع المسلمين خمدت فتن المنافقين الذين يعملون لها .. وتبعثرت القبائل الوثنية فى أنحاء الجزيرة ، وخصوصاً لأن قريشا جمدت على سياستها النفعية ، واهتمت بشئونها التجارية ،فلم تجتهد فى ضم أحلاف لها فى الوقت الذى إتسع فيه نشاط المسلمين الثقافى والسياسى والعسكرى

---

(١) سورة الفتح آية ٢٤ .
(٢) سورة الفتح من الاية ٢٥ .
(*) معكوفا : محبوسا

ونجحت دعايتهم فى تَألُّف قبائل غفيرة وإدخالها فى الإسلام .

وكثير من المؤرخين يعدون (صلح الحديبية) فتحاً بل إن الزهرى يقول فيه :

« ما فتح فى الاسلام فتح قبله كان أعظم منه ، إنما كان القتال حيث التقى الناس ، فلما كانت الهدنة ، ووضعت الحرب ، وآمن الناس بعضهم بعضاً ، والتقوا وتفاوضوا فى الحديث والمنازعة ، زاد الدخول فى الإسلام ، ولقد دخل فى تينك السنتين مثل من كان فى الإسلام قبل ذلك أو أكثر .

وقال ابن هشام : والدليل على قول الزهرى أن رسول الله ﷺ خرج إلى الحديبية فى ألف وأربعمائة ، ثم خرج عام فتح مكة - بعد ذلك بسنتين - فى عشرة آلاف .

أما المسلمون المعذبون فى مكة فقد فَرَّ منهم (أبو بصير عبيد بن أسيد) وهاجر إلى المدينة يبغى المقام فيها مع المسلمين ، فأرسلت قريش وراءه إثنين من رجالها يرجعان به إليها ، تنفيذاً لنصوص المعاهدة ، فقال رسول الله ﷺ : يا أبا بصير إنا قد أعطينا هؤلاء القوم ما قد علمت ، ولا يصلح لنا فى ديننا الغدر ، وإن الله جاعل لك ولمن معك من المستضعفين فرجاً ومخرجاً ، فانطلق إلى قومك .

وحزن أبو بصير وقال : يا رسول الله ، أتردنى إلى المشركين ليفتنوننى فى دينى ؟!

فلم يزد النبى ﷺ عن تكرار رجائه فى الفرج القريب . ثم أرسل أبا بصير مع القرشيين ليعودوا جميعاً إلى مكة[1] .

---

(١) رواه ابن اسحق بدون اسناد وعنه ابن هشام (٢/٢٣٣) .

ورفض أبو بصير أن يستسلم لهذا المصير ، فاحتال فى أثناء الطريق على سيف أحد الحارسين وقتله به ، فَفَرَّ الآخر مذعوراً ، وقفل راجعاً إلى المدينة يخبر رسول الله ﷺ بما وقع لصاحبه ، وإذا أبو بصير يطلع متوشحاً السيف يقول : يا رسول الله : وَفَّت ذمتك ، وأدَّى الله عنك .. أسلمتنى بيد القوم ، وامتنعتُ بدينى أن أفتن فيه أو يعبث بى .

فقال رسول الله ﷺ : وَيل أمه ، مسعِّر حرب لو كان معه رجال[1] .

وأدرك أبو بصير أنه لا مقام له فى المدينة ، ولا مأمن له فى مكة ، فانطلق إلى ساحل البحر فى ناحية تسمى (العيص) فلجأ إليه يأكل من بعض ما يلقيه إليه البحر ، وشرع يهدد قوافل قريش المارة بطريق الساحل ، وسمع المسلمون بمكة عن مقامه ، وعن كلمة الرسول فيه « مسعِّر حرب لو كان معه رجال ، فتلاحقوا بأبى بصير يشدون أزره حتى إجتمع إليه قريب من سبعين ثائراً ، فيهم أبو جندل بن سهيل بن عمرو .

وألَّف أولئك المعذبون الناقمون الفارون جيشاً ضيق الخناق على قريش ، فلا يظفر بأحد منهم إلا قتله ، ولا تمر بهم عير إلا إقتطعوها .

وإذا قريش ترسل إلى رسول الله ﷺ تناشده الرحم أن يُؤوى إليه هؤلاء فلا حاجة لها بهم .. وسبحان الله ... ! وبذلك نزلت قريش عن الشرط الذى أملته فى (عقد الصلح) تعنتاً ، وقَبِلَهُ المسلمون كارهين .

ويقول الشيخ الفاضل محمد الغزالى فى موضوع قصة أبى بصير وأبى جندل وإخوانهما أن لها دلالة مثيرة فهى قصة العقيدة المكافحة فى لؤم من الأعداء ووحشة من الأصحاب ، وهى توضح أن الإيمان بالله أخذ طريقه إلى قلوب أولئك النفر مجرداً من كل شىء إلا سلامة جوهره ، إنهم قد فقدوا الأمداد الروحيـــة التى تجيئهم من مخالطة الرسول ﷺ والإصغاء إليه وهو

---

(١) صحيح من تمام قصة الحديبية عند البخارى وأحمد .

يتلو وينصح ، بيد أنهم عُوِّضُوا عنها من الإتصال بكتابه والاقتباس من آدابه فكانوا - فى إهتدائهم للحق وإبائهم للضيم وإيثارهم للمغامرة - مُثلاً حسنى للإسلام المكافح العزيز .

ولم يعد أبو بصير إلى رسول الله ﷺ ، ذلك أن الإذن بالمقام معه جاءه وهو يحتضر . هذا بالنسبة لأبى بصير وأبى جندل وإخوانهما وهم رجال .. أما بالنسبة للنساء المهاجرات بدينهن فلهن شأن آخر ..

فقد أبى المسلمون عقيب صلح الحديبية أن يردوا النسوة المهاجرات بدينهن إلى أوليائهن ، إما لأنهم فهموا أن المعاهدة خاصة بالرجال فحسب ، أو لأنهم خشوا على النساء اللاتى أسلمن أن يضعفن أمام التعذيب والإهانة، وهن لا يستطعن مضطربا فى الأرض ورداً للكيد كما فعل أبو جندل وأبو بصير وأضرابهما .

وأياً ما كان من الأمر ، فإن إحتجاز من أسلم من النساء تم بتعليم القرآن ، وكُلِّفَ المسلمون أن يدفعوا لأزواجهن المشركين عوضا يستعينون به على زواج آخر إذا لم يشاءوا الدخول فى الإسلام والعودة به إلى زوجاتهم الأوليات .

قال تعالى : « **يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات مهاجرات فامتحنوهن الله أعلم بإيمانهن فإن علمتموهن مؤمنات فلا ترجعوهن إلى الكفار لا هن حل لهم ولا هم يحلون لهن** »(١).

والآية تشير - بجانب ما فيها من أحكام - إلى ما كانت تستمتع به المرأة من استقلال فكرى وكيان أدبى محترم .

---

(١) سورة الممتحنة : من الآية ١٠ .

كـانت (أم كلثوم بنت عـقبـة) قـد أسلمت بمكة ، وكـان لهـا أقـارب بالبادية بجهة (التنعيم) ، تزورهم من آن لآخر ، فأظهرت يوما لأهلها أنها تنوى زيارة أقـاربهـا هؤلاء .. ثم غـادرت مكة تبغى المدينة لتلوذ بالمسلمين هناك ، وتلجأ إليهم لحمايتها وحماية عقيدتها .

وبينمـا هى فى طريقـهـا قـابلت رجلاً من خزاعـة أعلمتـه بإسلامـهـا ورغبتها فى الذهاب إلى المدينة فتطوع الرجل لمرافقتها ومصاحبتها حتى أوصلها إلى المدينة بسلام . وقصدت أم كلثوم أم سلمة زوجة الرسول ﷺ ، فأخبرتها بإسلامـهـا ، وأظهرت لها تخوفها من أن يردها الرسول ﷺ إلى مكة عـملا بما بينه وبين قريش من عـهد ، وأعلمت أم سلمة رسول الله ﷺ بأمر أم كلثوم فطمأنها وأذهب روعها .

وجاء إلى المدينة فى طلب أم كلثوم أخواها (عمارة والوليد) يبغيان العـودة بهـا إلى مكة ، ولكن النبى ﷺ ردّهمـا قائلا : إن العهـد لا يسرى على المسلمات المؤمنات المهاجرات ، فالمرأة إذا أسلمت لا تحل لكافر ، وكان أمر الله للرسول ﷺ فى إتخاذ هذه الخطوة هو ما أنزله عليه من آيات .

★ ★ ★

﴿ ٢٢ - غزوة خيبر ﴾

أقـام رسـول الله ﷺ بالمدينة بعد عـودته من (الحديبـيـة) ، ذا الحجة وبعض المحرم ، ثم خرج فى بقيـة المحرم إلى (خيبر) واستعمل على المدينة (نميلة بن عـبـد الله الليـثى) ، ودفع الراية إلى على بن أبى طالب ، وكانت بيضاء .

بعد الصلح الذى عقده الرسول ﷺ فى الحديبية مع قريش قد أمن خطر مكة ، واتقى شر عداوتها هى ومن يحالفونها ... هذا ... إلا أنه كان هناك من أعدائه فى شبه الجزيرة فريقان (يهود خيبر) الذين إنضم إليهم كثيرون

من (بنى قينقاع) و (بنى النضير) الذين أجلاهم النبى ﷺ عن المدينة ، وهؤلاء هم بنو إسرائيل الذين ظنوا النبوة حكراً عليهم لا يفتأون يُجَبِّهُونَ المسلمين ويكذبون محمداً ويجحدون رسالته ، وقد أغرتهم القشور التى ورثوها من التوراة فجادلوا المسلمين جدالاً طويلاً ، وحرصوا أشد الحرص ألا يعترفوا بهم ، ثم ذهبوا إلى حد التأليب .. كما رأيت ، فكانت سيرتهم مزيجا غريبا من الحقد والكبر والدُس ، وما ألهب جلودهم من سياط كاوية فى صراعهم مع المسلمين ، وموقعة (بنى قريظة) ليست منهم ببعيدة ، فلم يتحولوا عن خطتهم قيد أنملة .

والفريق الثانى هم أعراب البادية الذين يسيحون فى عرض الصحراء كالإبل السائمة لا يعقلون شيئا فإذا لاح مغنم طاروا وراءه ، وقلما يلفتهم حديث الإيمان بالله واليوم الآخر .

وجمعت عداوة الإسلام بين أهل الكتاب اليهود وبين الأعراب البله ، وعندما فشلت الأحزاب فى إقتحام يثرب ، وجَنَتْ قريظة عقبى غدرها ، لم يهدأ يهود خيبر أو يحاولوا إصلاح شئونهم مع المسلمين .. كلا إنهم شرعوا يصلون حبالهم بغطفان والأعراب الضاربين حولهم ليؤلفوا ضد الإسلام جبهة أخرى تكيد من جديد لمحمد ﷺ وصحبه ، بيد أن المسلمين كانوا أيقاظا لهذه المؤامرات ، فما إن عادوا من عمرة الحديبية آخر السنة السادسة حتى توجهوا فى المحرم من السنة السابعة إلى (خيبر) لكسر شوكة بنى إسرائيل بها .

ولم يفت المسلمين - قبل مسيرهم - أن يفصموا الجبهة المؤلفة ضدهم من يهود وغطفان ، فأوهموا غطفان أن الهجوم متجه إليهم ، وأن قوة المسلمين توشك أن تلتف بهم .

قال ابن اسحق : بلغنى أن (غطفان) لما سمعت بمنزل رسول الله ﷺ

من خيبر ، جمعت له ، ثم خرجوا ليظاهروا يهود عليه .. حتى إذا ساروا مرحلة سمعوا خلفهم فى أموالهم وأهليهم حِساً ، فظنوا أن القوم خالفوهم إليهم ، فرجعوا على أعقابهم وأقاموا فى أهليهم وأموالهم ، وخَلَوْا بين رسول الله ﷺ وبين خيبر .

وهكذا نجحت الخطة فى عزل يهود خيبر عن حلفائهم المشركين .

وقال ابن اسحق : وحدثنى من لاأتهم ، عن (عطاء بن أبى مروان الأسلمى) عن أبيه ، عن (أبى معتب بن عمرو) أن رسول الله ﷺ لما أشرف على خيبر قال لأصحابه وأنا فيهم : (قفوا » ثم قال : اللهم رب السموات وما أظللن ، ورب الأرضين وما أقللن ، ورب الشياطين وما أضللن، ورب الرياح وما أذرين ، فإنا نسألك خير هذه القرية وخير أهلها وخير ما فيها ، ونعوذ بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها .. أقدموا بسم الله » (حديث صحيح وإسناده مرسل) .

قال : وكان عليه الصلاة والسلام يقولها لكل قرية دخلها .

وقال ابن اسحق : حدثنى من لا أتهم ، عن أنس بن مالك قال :

كان رسول الله ﷺ إذا غزا قوماً ، لم يغز عليهم حتى يصبح عليهم ، فإن سمع أذاناً أمسك ، وإن لم يسمع أذانا أغار ، فنزلنا خيبر ليلاً ، فبات رسول الله ﷺ حتى إذا أصبح لم يسمع أذاناً فركب وركبنا معه ، فركبت خلف أبى طلحة ، وإن قدمى لتمس قدم رسول الله ﷺ ، واستقبلنا عمال خيبر غادين ، وقد خرجوا بمساحيهم ومكاتلهم ، فلما رأوا رسول الله ﷺ والجيش قالوا : محمد والخميس معه ، فأدبروا هرابا . فقال رسول الله ﷺ : «الله أكبر ، خربت خيبر ، إنا إذا نزلنا بساحة قوم فساء صباح المنذرين » .

قال ابن إسحق : وحدثنا هارون عن حميد عن أنس بمثله . (حديث صحيح)

ويظهر أن اليهود ظنوا لأول وهلة أن زحف المسلمين صوب غطفان ، فلم

يعيروا الأمر إلتفاتا بل أصبحوا غادين لحقولهم ، فلما فوجئوا بجيش المسلمين إرتدوا إلى حصونهم فزعين .

إن اليهود - على ما ألف المسلمون من حروبهم - لا يعتمدون على تسيير الجيوش فى الفضاء الرحب تصيب ويصاب منها .. إنهم يكرهون اللقاء فى تلك الميادين المكشوفة ... ودينهم الذى لا ينفكون عنه هو الكفاح من وراء الجدران .

أذلك بقية من حرصهم على الحياة وتوقيهم الموت ؟

والقرى الفاجرة تجر على نفسها الهلاك إن عاجلاً وإن آجلاً . روى عن رسول الله ﷺ أنه قال : « إذا شاع الزنا والربا فى قرية فقد أحلت بنفسها غضب الله »[١] .

واليهود يشيع فيهم هذا الفساد المزدوج ، فهم إلى اليوم دهاقين الربا فى العالم ، وهم قادة التبرج والعهر ، ونسوتهم لا يردون يد لامس ، ولا ينفى هذا أن فيهم فئة تعرف الخلق والعفة ولكنهم قليل : « **ومن قوم موسى أمة يهدون بالحق وبه يعدلون** »[٢] .

والكثرة لا القلة هى التى تحدد مصاير الشعوب .

★★★

وشَنَّ المسلمون هجومهم على الحصون المشيدة ، فبدأت تتداعى تحت وطأتهم حصنا بعد حصن ودافع اليهود عنها دفاع المستميت فإن خيبر أخصب أرضهم وأمنع بقاعهم .

---

(١) حديث صحيح أخرجه الحاكم (٢/٣٧) من حديث ابن عباس وقال صحيح الإسناد ووافقه الذهبى وهو كما قالا .

(٢) سورة الأعراف : ١٥٩ .

ولما بدأ الحصار يمتد ، وبنو إسرائيل إذا سقطت قلعة تمسكوا بأخرى ... إستمات هؤلاء فى الدفاع عن كيانهم ، ولم يصبروا على حصار المسلمين لهم، بل قاتلوهم منذ أول يوم قتالاً شديداً حتى بلغ عدد جرحى المسلمين فيه خمسين جريحاً .

واستمر القتال ... ومرت الأيام ، واليهود على ما هم عليه من الاستماتة فى الدفاع عن حصونهم بالسهام والنبال ، وكانوا تارة يرجمونهم بالأحجار ، وتارة يخرجون إليهم يقاتلونهم وينازلونهم وجها لوجه ، ثم يعودون إلى حصونهم يتحصنون بها . ومات (سلام بن مشكم) وتولى قيادة اليهود من بعده (الحارث بن أبى زينب) ، وخرج الحارث يبغى منازلة المسلمين وجها لوجه ولكن المسلمين ردوه على عقبيه ، وألجأوه هو ومن معه إلى التحرز بالحصن ، ولكن كان لابد للرسول ﷺ أن يتخذ من الإجراءات ما يكفل سرعة فتح الحصون ، فإن طول الحصار عليها - وإن كان فيه ضيق وتهديد لمن فيها بالعطش والجوع - فيه كذلك مثل هذا الضيق ومثل هذا التهديد للمحاصرين ، فالمسلمون عُرْضَة لأن يعطشوا وعُرضة لأن يجوعوا .

وبعث الرسول ﷺ (أبا بكر) براية من رايات المسلمين لفتح الحصن الذى يجتمع فيه المقاتلون ، فقاتل أبو بكر يومه هذا ، ثم عاد إلى أصحابه دون أن يفتح الحصن ، وبعث الرسول ﷺ فى اليوم الثانى (عمر بن الخطاب) فقاتل يومه كذلك ، ثم عاد إلى أصحابه دون أن يفتح الحصن ، وفى اليوم الثالث قال رسول الله ﷺ لأعطين الراية غداً رجلاً يحب الله ورسوله ويحبه الله ورسوله .. فبات الناس يذكرون أيهم يُعطاها ؟ فلما أصبحوا غدوا إليه متطلعين إلى أخذها . فنادى النبى ﷺ عليا بن أبى طالب ، فأعطاها إياه .. فقال على : يا رسول الله : أقاتلهم حتى يكونوا مثلنا ؟

قال : « أنفذ على رِسلك حتى تنزل بساحتهم ، ثم أدعهم للإسلام ، وأخبرهم بما يجب عليهم من حق الله ، فوالله لأن يهدى الله بك رجلاً واحداً

خير من أن يكون لك حمر النعم »[1] .

وإنما ساق رسول الله ﷺ هذا النصح الرشيد حتى يقطع تطلع النفوس إلى المغانم المعجلة فإن ثروة اليهود - إذا هُزموا - ضخمة ولكن ثواب مقاتليهم - إذا إهتدوا - أضخم ولو نزل القوم على أحكام الله ، وتركوا الخلال الدنيئة التى عاشوا بها ، وعاملوا الناس بسوئها لأراحوا واستراحوا ، غير أنهم أبوا إلا الحرب .

فهاجمهم علىّ بالراية حتى إذا مادنا من الحصن خرج إليه أهله فقاتلهم، فضربه رجل من اليهود فطاح ترسه من يده ، فتناول علىّ بابا كان عند الحصن فتترس به فلم يزل يقاتل والباب فى يده حتى فتح الله عليه الحصن بعد أن قتل فى هذه المعركة قائد الحصن (الحارث بن أبى زينب) واتخذ المسلمون من الباب الذى تَتَرّس به على قنطرة عبروا عليها إلى داخل الحصن فاستولوا عليه وعلى ما فيه من أسلحة وعتاد . وكان الشعار يوم خيبر (يا منصور أمت أمت) . وانتقل المحاربون اليهود إلى حصن آخر من حصونهم يقاتلون منه المسلمين .

وخرج من حصون اليهود فارس يدعى (مرحبا) عُرِفَ بالشجاعة وقوة البأس ، وقد تسلح بكامل سلاحه ، فنادى فى المسلمين من يبارز ؟

فلما رأى الرسول ﷺ منه ذلك قال لأصحابه : من منكم لهذا ؟

فبرز من بين صفوف المسلمين (محمد بن مَسْلَمة) يقول : أنا له يا رسول الله ، أنا والله الموتور الثائر الذى قُتل أخوه بالأمس .

فقال رسول الله ﷺ : فقم إليه ..

ثم دعا رسول الله ﷺ لابن مسلمة بقوله : « اللهم أعنه عليه » .

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى (٧/٣٨٤-٣٨٥) ومسلم (٧/١٢١-١٢٢) عن سهل بن سعد .

وكان أخو محمد ابن مسلمة قد ألقى عليه اليهود بحجر رَحَى وهو جالس في ظل حصن من حصونهم يستريح من عناء القتال ، فكان أن كشطت القَلنسُوة الحديدية التى كان يلبسها فوق رأسه لحم وجهه ، وجحظت عينه وكان أن مات بعد إصابته بقليل .

وأسرع محمد بن مسلمة للقاء مرحب ، وكله شوق إلى الأخذ بثأر أخيه والقصاص له .

والتقى الرجلان بمكان قامت بينهما فيه شجرة صغيرة الحجم رفيعة الأغصان .. إتخذا المحاربان منها درعاً .. ومازلا يحاربان خلال أغصانها حتى أطاحا بأفنانها جميعا .. وبقيت الساق قائمة وحدها بينهما . وانقض مرحب بسيفه على ابن مسلمة يريد منه مقتلاً . فاتقى ابن مسلمة الضربة سريعا بتُرْسِه فانغرس السلاح بالتُرس ، ولم يستطع مرحب تخليص سلاحه ، فضربه ابن مسلمة فقضى عليه . عندئذٍ برز من حصن اليهود أخ لمرحب إسمه (ياسر) يدعو من يبارزه ، فخرج إليه من صفوف المسلمين (الزبير بن العوام) ابن عمة رسول الله ﷺ صفية بنت عبد المطلب وكانت صفية فيمن صحب جيش المسلمين من النساء فتقدمت من الرسول ﷺ تقول وقد خشيت على إبنها بأس ياسر : يقتل ابنى يا رسول الله .. فأجابها الرسول ﷺ بلهجة الواثق بل إبنك يقتله إن شاء الله .

وهكذا كان .. وقتل الزبير ياسراً اليهودى فلحق بأخيه مرحب .

وهكذا استمرت الحرب بين المسلمين واليهود قاسية أشد القسوة ، عنيفة أشد العنف لا يتخلى اليهود للمسلمين عن حصن من حصونهم إلا بعد أن يدافعوا عنه دفاع المستميت ولا يفرطون فى شبر من أرضهم إلا بعد أن يقاتلوا دونه أبرع قتال .

وتشبث اليهود بما بقى من حصونهم يذودون عنها ذياد اليائس .. وشدد المسلمون عليهم الحصار يريدون الانتهاء من هذا القتال مسرعين فقد أجهدهم

الجوع ، وضاق بهم المقام وأصيب كثير منهم بعلل شتى لرداءة الجو ووخامة المستنقعات ، وشكوا قلة زادهم إلى رسول الله ﷺ ، فسمح لهم بأكل لحم الخيل .. واستطاع المسلمون يوماً أن يستولوا على قطيع من حمر اليهود .. فقاموا بذبحه ، وأوقدوا النار لطبخه ، فمر بهم رسول الله ﷺ فسألهم ما الذى تطهون ؟!

أجابوا : لحم حمير .. فنهاهم الرسول ﷺ عن أكلها وأمرهم بسكب القدور وهو يقول : إن لحوم الحمر الأهلية لا تحل لكم .

وإستطاع المسلمون يوماً أن يحصلوا على شاتين من شياه اليهود ، فكان لهم منها فى هذا اليوم وليمة عظيمة رغم قلة الطعام بالنسبة لكثرة عدد الآكلين .

ولم تدم حالة المجاعة بين المسلمين طويلاً إذ لم يلبثوا أن مَنَّ الله عليهم بفتح حصن من الحصون التى كان يَدَّخِرُ بها اليهود طعامهم ويختزنون فيها غذاءهم ، ويحتفظون بكميات كبيرة من مواد التموين المختلفة .. فنال المسلمون بذلك من الطعام والغذاء ما كفاهم وسَدَّ حاجاتهم .

وبذلك تحسنت روح المسلمين المعنوية وقويت نفسيتهم ، وصار لديهم من العزم والقوة والجَلَد ما أعانهم على طول الحصار وشدة القتال .

ثم جاء إلى النبى ﷺ من أخبره أن اليهود لن يبالوا بهذا الحصار ، فإن لهم مشارب خَفِيَّة يخرجون إليها ليلاً فيسقون ويعودون ، فأمر النبى ﷺ بقطع مشاربهم[1] ليكرههم على القتال أو التسليم .. فخرجوا واشتبكوا مع المسلمين فى صراع شديد استشهد فيه عدد من المسلمن بعد أن مهدوا الطريق لسقوط الحصن . ويسمى (حصن الزبير) وهو نهاية سلسلة من القلاع تسمى (النطاة » استولى المسلمون عليها جميعاً بعد ما دخلوا حصون (ناعم) و(الصعب) و (الوطيح) و (السلالم) .

---

(١) رواه الواقدى مفصلا كما فى (البداية) (١٩٨/٤) والواقدى متروك .

وبقيت هنا سلسلة أخرى تهيأ المسلمون لمهاجمتها ، فقام رسول الله ﷺ على قلعة يقال لها : (سموان) فقاتل عليها أشد القتال ، وخرج منها رجل يسمى (عزولا) يبغى المبارزة . فهجم عليه (الحباب بن المنذر) فضربه بالسيف ضربة أطاحت يده اليمنى بنصف ذراعه ، ثم وقع السيف من يده ، وَفرَّ اليهودى راجعاً فأدركه الحباب فقطع عرقوبه ، وبرز يهودى آخر ، فقام إليه رجل من المسلمين فقتله اليهودى !! فلحق به (أبو دجانة) فقتله وثأر لصاحبه ، ثم كَبَّر المسلمون وتحاملوا على الحصن وأمامهم أبو دجانة ، فاقتحموه بعد لأى ، ووجدوا به أثاثا وطعاما وغنما ومتاعاً .

وأفلت بعض المحصورين فانضموا إلى إخوانهم بحصن (البزاة) ، وزحف المسلمون إليهم وتراشق الفريقان بالنبل ، فأصيب بنان النبى ﷺ فى المعركة!! ولكن المسلمين إستبسلوا فى الكرِّ على العدو .. حتى إفتتحوا هذا الحصن الآخر .. وأخذوا من فيه باليد ، ثم هَمَّ المسلمون بنصب المنجنيقات ليهدموا الحصون الباقية على من اعتصم فيها . عندئذٍ أيقن اليهود بالهلكة، ولم يروا محيصا من الإستسلام حقنا لدمائهم واستبقاءً لبعض أموالهم . فأرسلوا إلى محمد ﷺ وفداً منهم على رأسه (كنانة بن أبى الحقيق) يفاوضه فى ذلك .

وقبل رسول الله ﷺ الصلح على أن يبقيهم على أرضهم التى آلت إلى المسلمين بحكم الفتح على أن يكون للمسلمين نصف ثمارها ، ولليهود النصف الآخر نظير عملهم فيها .... ولم يجعل ذلك على الأبد مخافة عبثهم بل قال لهم :

« إن شئنا أن نخرجكم أخرجناكم »[1]

---

(١) حديث صحيح رواه البخارى (١٧/٥) وأبو داود (٣٩/٢) وغيرهم من حديث ابن عمر بمعناه ومسلم ٢٧/٥ .

وغنم المسلمون من عتاد اليهود وسلاحهم الشيء الكثير ، أما أموالهم وذهبهم اللذان حملهما بنو قينقاع وبنو النضير معهما عند مغادرتهم المدينة فلم يعثر لها المسلمون على أثر ، فلما سأل محمد ﷺ (كنانة) عنهما أجابه : يا أبا القاسم ؛ أنفقناها فى حربنا فلم يبق منهما شيء ، ثم أقسم للنبى ﷺ بالله على صحة ما يقول ... !

فقال النبى ﷺ : برئت منكم ذمة الله وذمة رسوله إن كان عندكم شيء من أموالكم وذهبكم . فأجاب كنانة : نعم ..

عندئذ أشهد النبى ﷺ على هذا طائفة من اليهود وطائفة من المسلمين .

ثم أمر بالبحث عن أموال اليهود وذهبهم الذين أنكر كنانة وجودهما وأقسم عليه .

وتولى بعض أصحاب رسول الله ﷺ استجواب اليهود المتصلين بكنانة فاعترف أحدهم بأنه رأى كنانة يطوف بإحدى خرائب خيبر . عند ذاك رَجَّحَ المسلمون أن أموال اليهود لابد أن تكون فى بعض هذه الخرابات ، وعلى هذا أمر النبى ﷺ بتفتيشها وتنقيب أرضها ، وفُتِّشت الخرابات ونُقِّبت أرضها فَعُثِرَ فيها على جراب من جلد جميل خُبِّيءَ فيه كنز من حلى اليهود ، واستخرجت هذه الحلى ، وواجه النبى ﷺ بها كنانة ، فاعترف ، وبذلك حَلَّ دمه للمسلمين فقتلوه ، ودخل المسلمون حصون اليهود يستخرجون ما بها ، ولكن النبى ﷺ نادى فيهم أن :

« كلوا .. واعلفوا دوابكم .. ولا تحملوا »

وبذلك كف المسلمون أيديهم عن زاد اليهود إلا ما كانوا يحتاجون إليه لطعامهم وطعام دوابهم إطاعة لأمر الرسول ﷺ .

وعامل الرسول ﷺ اليهود برفق بعد إستسلامهم ، فَرَدَّ إليهم صحائف من التوراة كانت فيما غنم المسلمون .

★ ★ ★

وحدث إبان المعركة أن عبداً حبشياً أسود كان يرعى لسيده اليهودى غنمه . فلما رأى أهل خيبر يحملون السلاح ، ويتأهبون للحرب سألهم : ما تريدون ؟ قالوا : نقاتل هذا الذى يزعم أنه نبى .. فوقع فى نفس الرجل ذكر النبوة ، فأقبل بغنمه على رسول الله ﷺ وسأله : ماذا تقول ؟ وإلام تدعو الناس ؟

فأجابه الرسول ﷺ : أدعو إلى الإسلام ، أن تشهد أن لا إله إلا الله وأنى رسوله ، وأن لا تعبد غيره .

قال العبد : فمالى إن شهدت وآمنت ؟

قال : لك الجنة إن مِتَّ على ذلك .

فأسلم ثم قال : يا نبى الله إن هذه الغنم عندى أمانة ..

فقال له الرسول ﷺ : أخرجها من عندك وارمها بالحصباء ، فإن الله سيؤدى عنك أمانتك ، ففعل فرجعت الغنم إلى صاحبها ، فعلم اليهودى أن غلامه أسلم ، ثم قام رسول الله ﷺ وقد تهيأ الناس للقتال فوعظهم وحضَّهم على الجهاد .. والتحم الفريقان ، فقتل العبد الأسود بين من قتل من المسلمين ، وحُملت جثته إلى المعسكر فرووا أن رسول الله ﷺ اطلع فى الفسطاط الذى ضم جثمان الشهيد ، ثم أقبل على أصحابه يقول : لقد أكرم الله هذا العبد وساقه إلى خير ، رأيت عند رأسه ثنتين من الحور العين ولم يُصَلِّ لله سجدة قط[1] .

---

(١) ضعيف ذكره ابن كثير (٤/ ١٩٠-١٩١) عن عروة مرسلا ، وروى البيهقى عن شرحبيل بن سعد عن جابر نحو هذه القصة وشرحبيل كان اختلط ، ومن طريقه اخرجه الحاكم (١٣٦/٢) .

﴿ أمر الحجاج بن علاط السلمى ﴾

قال ابن إسحاق :

لما فتحت خيبر كلم رسول الله ﷺ (الحجاج بن علاط السلمى) فقال : يا رسول الله ، إن لى بمكة مالا عند صاحبتى (أم شيبة بنت أبى طلحة) ، وكانت عنده ، له منها معرض ابن الحجاج ، ومال متفرق فى تجار أهل مكة فأذن لى يا رسول الله ، فأذن له . ثم قال الحجاج : إنه لابد لى يا رسول الله من أن أ قول ..

قال رسول الله ﷺ : قل ..

قال الحجاج : فخرجت حتى إذا قدمت مكة وجدت بـ (ثنية البيضاء) رجالا من قريش يتسمعون الأخبار ، ويسألون عن أمر رسول الله ﷺ ، وقد بلغهم أنه قد سار إلى خيبر ، وقد عرفوا أنها قرية الحجاز ريفا ومنعه ورجالاً، فهم يتحسسون الأخبار ، ويسألون الركبان ، فلما رأونى قالوا :

الحجاج بن علاط ؟ (ولم يكونوا علموا بإسلامى) وعنده والله الخبر ... أخبرنا يا أبا محمد ، فإنه قد بلغنا أن (القاطع) قد سار إلى خيبر ، وهى بلد يهود وريف الحجاز .

قال الحجاج : قد بلغنى ذلك .. وعندى من الخبر ما يسركم .. قال : فالتبطوا بجنبى ناقتى يقولون : إيه يا حجاج ؟ ..

قال الحجاج : هُزم هزيمة منكرة لم تسمعوا بمثلها قط ، وقُتل أصحابه قتلا لم تسمعوا بمثله قط ، وأسِرَ محمد أسراً .. وقالوا لا نقتله حتى نبعث إلى أهل مكة فيقتلوه بين أظهرهم بمن كان أصاب من رجالهم .

قال : فقاموا وصاحوا بمكة

وقالوا : قد جاءكم الخبر .. هذا محمد إنما تنتظرون أن يُقْدَم به عليكم

فيقتل بين أظهركم

قال الحجاج : فقلت لهم : أعينونى على جمع مالى بمكة وعلى غرمائى، فإنى أريد أن أقدم خيبر فأصيب من فل محمد وأصحابه قبل أن يسبقنى التجار إلى هناك (حديث صحيح وإسناده منقطع) .

قال ابن اسحق :

قال الحجاج : فقاموا فجمعوا لى مالى كأحث جمع سمعت به . قال : جئت صاحبتى فقلت : مالى (وقد كان لى عندها مال موضوع) لَعَلِىّ ألحق بخيبر فأصيب من فرص البيع قبل أن يسبقنى التجار .

قال : فلما سمع العباس بن عبد المطلب الخبر ، وجاءه عنى ، أقبل حتى وقف إلى جنبى وأنا فى خيمة من خيام التجار فقال : يا حجاج ما هذا الخبر الذى جئت به ؟

قال الحجاج : قلت : فاستأخر عنى حتى ألقاك على خلاء فإنى فى جمع مالى كما ترى ، فانصرف عنى ، حتى إذا فرغت من جمع كل شىء كان لى بمكة وأجمعت الخروج لقيت العباس فقلت : إحفظ عَلّى حديثى يا أبا الفضل، فإنى أخشى الطلب ثلاثا ثم قل ما شئت .

قال : افعل .

قال : فإنى والله قد تركت ابن أخيك عروسا على بنت ملكهم يعنى (صفية بنت حيى) ، ولقد فتح خيبر ، وانتثل ما فيها وصارت له ولأصحابه.

فقال : ما تقول يا حجاج ؟ قال : قلت : إى والله ، فاكتم عنى ، ولقد أسلمت وما جئت إلا لآخذ مالى فرقا من أن أغلب عليه ، فإذا مضت ثلاث، فأظهر أمرك فهو والله على ما تحب .

قال : حتى إذا كان اليوم الثالث لبس العباس حلة له قشيبة وتمضح

بالطيب وأخذ عصاه ، ثم خرج حتى أتى الكعبة فطاف بها ، فلما رأوه قالوا:

يا أبا الفضل ، هذا والله التجلد لَحرٍّ المصيبة

قال : كلا والله الذى حلفتم به ، لقد إفتتح محمد خيبر وترك عروسا على بنت ملكهم ، وأحرز أموالهم وما لهم فأصبحت له ولأصحابه .

قالوا : ومن جاءك بهذا الخبر ؟

قال : الذى جاءكم بما جاءكم به ، ولقد دخل عليكم مسلماً ، وأخذ ماله فانطلق ليلحق بمحمد وأصحابه فيكون معه .

قالوا : يا لعباد الله ، إنفلت عدو الله ، أما والله لو علمنا لكان لنا وله شأن .

قال : ولم يبلثوا أن جاءهم الخبر بذلك . (حديث صحيح واسناده منقطع)

﴿ خروج نساء مع الرسول ﷺ في غزوة خيبر ﴾

وفي هذه الغزوة أذن النبي ﷺ لمن تطوعن من النساء أن يخرجن معه قال ابن اسحق : شهد خيبر مع رسول الله ﷺ نساء من نساء المسلمين ، فرضخ لهن رسول الله ﷺ من الفيئ - أعطاهن يسيرا - ولم يضرب لهن بسهم[1].

وروى الإمام أحمد عن (حشرج بن زياد) عن جدته أم أبيه قالت : خرجنا مع رسول الله ﷺ في غزوة خيبر وأنا سادسة ست نسوة ، قالت : فبلغ النبي ﷺ أن معه نساء ، فأرسل إلينا فدعانا . قالت : فرأينا في وجهه الغضب قال : ما أخرجكن ، وبأمر من خرجتن ؟ قلنا : خرجنا نناول السهام ، ونسقي السويق ، ومعنا دواء للجرحى ، ونغزل الشعر فنعين به في سبيل الله ، قال: فانصرفن .

قالت : فلما فتح الله عليه خيبر أخرج لنا سهاما كسهام الرجال ، فقلت لها : يا جدة ما الذي أخرج لكنّ ؟ قالت : تمرا[2] .

---

(١) ذكره ابن اسحق بدون اسناد كما ذكره ابن هشام (٢٤٢/٢) عنه ، غير أنه استدل على ذلك بحديث النسوة من بني غفار .

(٢) ضعيف وهو في المسند (٣٧١/٦) وكذا أبو داود (٤٢٩/١) وعلته حشرج هذا فإنه لا يعرف كما قال الذهبي وأشار لذلك الحافظ في التقريب وسكت على الحديث في (الفتح) (٥٩/٦-٦٠) .

ويروى ابن كثير أن الرسول ﷺ أعطاهن من ثمرات الأرض كالرجال ، أما أنه أسهم لهن فى الأرض نفسها كالرجال فلا ، وهذا حق .

وفى حديث أبى داود أن نسوة من بنى غفار قلن : يا رسول الله ، قد أردنا أن نخرج معك فى وجهك هذا - وهو يسير إلى خيبر - نداوى الجرحى ، ونعين المسلمين بما استطعنا فقال : على بركة الله[1] .

★★★

وكانت (صفية بنت حيى بن أخطب) زعيم اليهود بين من أُسِرْنَ من نساء خيبر ، وقعت فى يد أحد الصحابة فاستردها منه الرسول ﷺ ثم أعتقها وبنى بها وجعل مهرها عتقها . (حديث صحيح أخرجه البخارى ومسلم عن أنس) وبذلك كُرِّمت صفية بنت زعيمهم السابق حيى بن أخطب، وزوج (كنانة بن أبى الحقيق بأن رفعها من السبى إلى مصاف أمهات المؤمنين وذلك أن (دحية الكلبى) كان قد أخذ صفية من السبايا لنفسه ، فأتى رجل من المسلمين إلى رسول الله ﷺ يقول : يا رسول الله ؛ أتعطى دحية صفية سيدة قريظة والنضير ... !! وهى لا تصلح إلا لك.......!

فقال رسول الله ﷺ : أُدْعُوُه نعطه غيرها .

ثم أمر أن يؤتى إليه بصفية بنت حيى ، فأتى بها بلال وبإبنة عم لها ، وَمَرَّ بهما فى مجيئه على جثث قتلى اليهود وأشلائهم ، فلما رأت صفية وابنة عمها قتلاهما بكت صفية وصرخت إبنة عمها وصاحت صياحا شديدا ، فكره الرسول ﷺ فعل بلال هذا واستنكره وقال له :

---

(١) ضعيف أخرجة أبو داود (١/ ٥١ وأحمد (٦/ ٣٨٠) وابن هشام (٢/ ٢٤٣) كلهم من طريق ابن اسحق باسناده عن امرأة من بنى غفار .

أنزِعَتْ منك الرحمة يا بلال ... ! حتى تمر بإمرأتين على قتلى رجالهما ؟!

فقال بلال معتذرا : يا رسول الله ، ما ظننت أنك تكره ذلك ، فأحببت أن تريا مصارع قومهما ! فأعطى النبى إبنة عم صفية إلى دحية وأعتق صفية وتزوجها بعد أن أسلمت .

★★★

ولكن رفق النبى ﷺ باليهود لم ينسهم زوال ملكهم وسلطانهم وماحلَّ بهم ، فكانوا فى قرارة نفوسهم يُضمرون له الشر ، ويتمنون له الضُّر ، وكان المثل لذلك ... أنه لما اطمأن الحال وهدأت الأمور أتت (زينب بنت الحارث) إمرأة سلام بن مشكم . وأهدت رسول الله ﷺ شاة مشوية مسمومة ، وأكثرت من السم فى ذراع الشاه لما عرفته أن الرسول يؤثرها .

وقد تناول النبى مضغة منها فلاكها ، ثم لفظها وهو يقول : إن هذا العظم ليخبرنى أنه مسموم ، وكان معه (بشر بن البراء) فأساغ اللحم وازدرده .

وجيئ بالمرأة الجانية فاعترفت بما صنعت وقالت للنبى ﷺ : بَلَغْتَ من قومى مالم يخف عليك ، فقلت إن كان ملكا استرحت منه ، وأن كان نبياً فَسَيُخْبَر ، فتجاوز عنها النبى ﷺ ، ثم مات (بشر) بعد ما سرى السم فى جسمه ، فقيل : إقتص له منها ، وقيل : بل أسلمت وعفا عنها [1].

----

(١) حديث صحيح رواه هكذا ابن هشام (٢/ ٢٤٠-٢٤١) عن ابن اسحق بدون اسناد وقد رواه البخارى (١٧٦/٥) ومسلم (١٤/٧-١٥) من حديث أنس ، وعند أحمد رقم (٢٧٨٥) من حديث ابن عباس وسنده حسن كما قال ابن كثير (٢٠٩/٤) .

ومكث يهود خيبر يزرعون الأرض على النصف من نتاجها ، إلا أن بُغضهم للمسلمين حملهم على إقتراف بعض الجرائم .

قال ابن اسحق : كان رسول الله ﷺ يبعث (عبد الله بن رواحة) من كل موسم زراعى - حسب إتفاقه مع يهود خيبر بعد الانتصار عليهم - فيقسم ثمرها ويعدل عليهم فى الخرص، فلما توفى النبى ﷺ ، أَقَرَّها أبو بكر رضى الله عنه ، بعد رسول الله ﷺ بأيديهم على المعاملة التى عاملهم عليها الرسول ﷺ حتى توفى ، ثم أَقَرَّها عمر رضى الله عنه صدرا من إمارته ، ثم بلغ عمر أن رسول الله ﷺ قال فى مرضه الذى قبضه الله فيه : « ولا يجتمعن بجزيرة العرب دينان » ففحص عمر عن ذلك حتى بلغه الثَبْت فأرسل إلى يهود فقال : إن الله عز وجل قد أذن فى جلائكم ، فقد بلغنى أن رسول الله ﷺ قال : « لا يجتمعن بجزيرة العرب دينان » فمن كان عنده عهد من رسول الله من اليهود فليأتنى به أنفذه له ، ومن لم يكن عنده عهد من رسول الله ﷺ من اليهود فليتجهز للجلاء ، فأجلى عمر من لم يكن عنده عهد من رسول الله ﷺ منهم .

(حديث صحيح واسناده مرسل)

وقد أغتيل رجل من الأنصار ، وفدعت* يدا عبد الله بن عمر بن الخطاب أيام خلافة أبيه ، فخطب عمر فى الناس قائلا :

إن رسول الله ﷺ عامل يهود خيبر على أن نخرجهم إذا شئنا ، وقد عَدَوْا على عبد الله بن عمر ففدعوا يديه كما قد بلغكم ، مع اعتدائهم

----

* فدعت : شدخت وشقت شقا يسيرا انظر المنجد مادة فدع

على الأنصارى قبله ، لا نشك ، أنهم أصحابه فليس لنا هناك عدو غيرهم ، فمن كان له مال بخيبر فليلحق به ... فإنى مخرج يهود . فأخرجهم[1] .

ولا ريب أن الهزيمة التى أصابت بنى إسرائيل فى خيبر قضت على كيانهم العسكرى فى الجزيرة قضاءً تاماً ، فجاء يهود (فدك) يطلبون الأمان ، فقد قذف الله الرعب فى قلوبهم حين بلغهم ما أوقع الله تعالى بأهل خيبر ، فبعثوا إلى رسول الله ﷺ يصالحونه على النصف من (فدك) وقاتل يهود (وادى القرى) بعد ما دُعوا للإسلام ، وأخبرهم رسول الله ﷺ، أنهم إن أسلموا أحرزوا أموالهم وحقنوا دماءهم ، وحسابهم[2] على الله، فلما أبوا نشبت بين الفريقين معركة محدودة انتهت مع الصباح بسقوط الوادى اليهودى عنوه .

واستسلم (يهود تيماء) ... وَمَدَّ الإسلام رواقة على هذه الأرض بعد أن ظلت حينا من الدهر فى أيدى اليهود ، يعيشون عليها كما يشتهون .

يقول الشيخ محمد الغزالى :
العظة التى نستخلصها من هذه المعارك ، وما أعقبها من جلاء ... أن الأرض لله يورثها من يشاء وهو لا ينتزعها من قوم ويعطيها آخرين محاباة .. كلا ولكن الأمة التى تفسد على النعمة تُسْلَبَها ، ثم تُساق النعمة إلى من يقدرها ، ويشكر الله عليها .. والأمة التى تتكبر مع الحرية وتتبطر ، تفقد امتلاكها لنفسها ، وحقها ، وأمرها ، لتقع فى إسار الآخرين فيصرفون

---

(١) حديث صحيح أخرجه الشيخان عن ابن عمر .

(٢) رواه الواقدى بدون سند كما فى (البداية) (٤/٢١٨) .

شئونها كما يشتهون ، وقد طبق هذا القانون على بنى إسرائيل بقسوة عندما أهدروا أحكام التوراة ، وتبعوا الهوى ، إن الحياة كَرٌ وفَرٌ ، وإقبال وإدبار .. والنظرة العجلى إلى تاريخ البشر توحى بأن مكان الصدارة لم يثبت لأمة من الأمم إلا ريثما تتهيأ أمة أخرى لا نتزاعه ، والدول التى سادت أشبه بلجج البحر التى ترتفع حينا ثم لا تلبث أن تضمحل رويدا رويدا حتى تنداح على الشاطئ ضعيفة متطامنة .. ولا مانع من أن تعود مرة أخرى مع المد لتبلغ الأوج ، ثم تنفك عنها أسباب القوة فتهبط مستكينة من جديد .

وقد ملك بنو إسرائيل وعُزواً بقدر حكيم ، ثم سلبوا الملك والعزة بقدر حكيم لترثهما دولة الإسلام الفتى الناهض ، وتم هذا التحول لخير البشر قاطبة .

لماذا تظاهر اليهودية الوثنية ضد الإسلام ؟ ولمصلحة من يقع هذا ؟

إن بنى اسرائيل ينظرون إلى الدنيا والدين من خلال منافعهم الخاصة وذلك ما حدا بهم إلى مقاومة الإسلام بعنف ، أما القدر الأعلى ، فيريد أن يجعل من الأمة الجديدة رسالة تغيير شامل لما شاع فى العالم أجمع من مفاسد ، ولما عرا حضارته من تعفن وركود . فإذا وقفت حفنة من الأعراب أو حفنة من اليهود لتعترض هذا التحول الهائل بدوافع من الحقد الرخيص أو المطامع الدنيا ، فهى التى جنت على نفسها إذا غرقت فى الطوفان .

لو ظل اليهود ألف سنة أخرى فى جزيرة العرب مازادوها إلا انقساما ، وما اكتسبت أقطار الأرض من بقائهم شيئا ، ربما نالت مزيداً من الحبوب والفواكه التى يتقنون زراعتها ، بيد أنها لن تظفر بهذه الزيادة إلا ومعها كِفْلٌ من الفساد الذى يُصَدِّره بنو إسرائيل إلى العالم من معاملات الربا ، وأخلاق العهر والتحلل .

أما الإسلام فقد خرج من الجزيرة يوم خرج رسالة إيمان وإصلاح، وبما يحمله فى طواياه من حق ونفع إستحق الانتصار والإنتشار .

﴿ عودة مهاجرى الحبشة ﴾

بعث رسول الله ﷺ (عمرو بن أمية الضمرى) إلى النجاشى ملك الحبشة ليأتى بمهاجرى الحبشة ، فحملهم فى سفينتين ، وقدم بهم على رسول الله ﷺ وهوبخيبر بعد الحديبية ، وكان على رأسهم (جعفر بن أبى طالب) ومعه إمراته (أسماء بنت عميس الخثعمية) وابنه (عبد الله بن جعفر) وكانت ولدته بأرض الحبشة .

ووافق فتح خيبر قدوم جعفر بن أبى طالب ومن معه من مهاجرى الحبشة ، وقد سُرَّ رسول الله ﷺ أيما سرور لمجيئ هؤلاء الصحاب الكرام . إنهم خرجوا من مكة فارين بدينهم من الفُتَّان .. واليوم يعودون وأمر الإسلام يعلو وسلطانه يمتد شمالى الجزيرة وجنوبيها ، فلا خوف من غشم أو ظلم .

وعندما حلوا بالمدينة قال رسول الله ﷺ مبتهجا : « والله ما أدرى بأيهما أفرح ؟ بفتح خيبر أم بقدوم جعفر ؟ .. وقبله بين عينيه واحتضنه [1].

وجعفر وإخوانه مكثوا فى الحبشة بضعة عشر عاما ، نزل خلالها قرآن كثير .. ودارت معارك شتى مع الكفار .. وتقلب المسلمون قبل الهجرة العامة وبعدها فى أطوار متباينة ، حتى ظن البعض أن مهاجرى الحبشة - وقد فاتهم هذا كله - أنزل قدراً من غيرهم ...

----

(١) حديث حسن أخرجة الحاكم (٢٠١/٤) والطبرانى فى (الكبير) عن الشعبى مرسلا وسنده صحيح .

فعن أبى موسى الأشعرى : كان أناس يقولون لنا : سبقناكم بالهجرة ، ودخلت (أسماء بنت عميس) على (حفصه) زوج النبى ﷺ زائرة - وكانت هاجرت إلى الحبشة فيمن هاجر - فدخل عمر بن الخطاب على حفصة وأسماء عندها ، فقال حين رأى أسماء : من هذه ؟ قالت : أسماء بنت عميس ، قال عمر : الحبشية هذه ؟ البحرية هذه ؟

قالت أسماء : نعم ، قال عمر : سبقناكم بالهجرة ، فنحن أحق برسول الله منكم ... فغضبت وقالت : كلا والله ، كنتم مع رسول الله ﷺ ، يطعم جائعكم ، ويعظ جاهلكم .. وكنا فى أرض البعداء البغضاء بالحبشة وذلك فى الله وفى رسول الله ، وأيم الله لا أطعم طعاما ولا أشرب شرابا حتى أذكر ما قلت لرسول الله وأسأله ، والله لا أكذب ولا أزيغ ولا أزيد ، فلما جاء النبى ﷺ قالت : يا نبى الله ، إن عمر قال كذا وكذا ...

قال : فما قلت له ؟ قالت : كذا وكذا .. قال ﷺ : ليس بأحق بى منكم، وله ولأصحابه هجرة واحدة ، ولكم أنتم - أهل السفينة - هجرتان[1] .

ولم يمض كبير وقت على أولئك العائدين حتى اكتسبوا ما فاتهم من علم القرآن والسنة وانتظموا فى موكب الجهاد مع من سبقوهم بإحسان .

وكانت فيمن عادوا من الحبشة (أم حبيبة) بنت أبى سفيان ، وكانت هاجرت فيمن هاجرن إلى الحبشة مع زوجها (عبد الله بن جحش) ثم تَنَصَّر ومات نصرانيا ، فوكَّل رسول الله ﷺ (خالد بن سعيد بن العاص) بتزويجها له ، وأصدقها النجاشى عن رسول الله ﷺ أربعمائة دينار وهو

---

(١) حديث صحيح أخرجه الشيخان فى صحيحيهما .

الذى كان خطبها لرسول الله ﷺ وقد أشرك النبى ﷺ مهاجرى الحبشة العائدين فى مغانم خيبر[1] مع أهل الحديبية[2] ، ولم يقسم لأحد غيرهم معهم ، فإن الله جعل خيبر مكافأة سَخِيَّة لمن ساروا إلى مكة ، وبايعوا على الموت تحت شجرة الرضوان .



« تأديب الأعراب »

أما عبدة الأصنام من البدو ، فإن المسلمين شرعوا يتعقبونهم متخلصوا من مشكلات اليهود ، وقد أشرنا آنفا إلى أن شمل هؤلاء الأعراب أنتكث بعد الموادعة التى تمت فى الحديبية بين قريش والمسلمين .. وكانوا بالأمس يحاصرون دار الإسلام أحزابا متحدة .. لكن الحال تبدلت اليوم .. تمزق بنو اسرائيل ، وانسحب أهل مكة ، وأمكن للمسلمين أن ينفردوا بأولئك القوم قبيلة إثر قبيلة .. ولن يعجز المسلمون عن حسم شرورهم ووقف فوضاهم .

إن البدو جنس جاف غليظ ، ولن ننسى أنهم حتى القرن الأخير ، كانوا يستمرئون الفتك بقوافل الحجاج ، وقد يذبحون الحاج لدراهم معدودة !

وكان بث السرايا فى فيافى (نجد) من أهم ما شغل المسلمين بعد ما رجعوا من خيبر ، فى صفر من السنة السابعة ، حتى شَدُّوا الرحال إلى مكة لعمرة القضاء ، كما نُصَّ على موعدها فى (عهد الحديبية) .

---

(١)حديث صحيح أخرجه البخارى (٣٩٢/٨) من حديث أبى موسى .

(٢) حديث حسن أخرجه أبو داود فى سننه (٢/ ٤٠) والحاكم (٢/ ١٣١) والبيهقى (٦/ ٣٢٥) وأحمد (٣/ ٤٢٠) من حديث مجمع بن جازية ، وقد قال ابن اسحق فى سيرة ابن هشام (٢/ ٢٤٦) : « وقسمت خيبر على أهل الحديبية من شهد ومن غاب عنها ، ولم يغب عنها ، إلا جابر بن عبد الله .. » .

ولا يعنينا كثيرا أن نتتبع هذه السرايا فى مسيرها فهى - وإن وطدت هيبة المسلمين العسكرية - أقرب إلى فرق الشرطة منها إلى الجيوش المعبأة، والهدف الأكبر من بعثها توطيد الأمن ، ومنع الغارات على المدينة ، وتمكين الدعاة إلى الله أن يجوبوا الآفاق بتعاليم الرسالة دون غدر أو خيانة ، والسرايا التى كان الرسول ﷺ يسيرها إلى كل فج ، كانت تحمل معها كلام الله لتقرأ منه : « **قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين ، فالذين آمنوا وعملوا الصالحات لهم مغفرة ورزق كريم والذين سعوا فى آياتنا معاجزين أولئك أصحاب الجحيم** »[1] فالسعى لمعاجزة الآيات أمر خطير ، ولو كانت معاجزة باللسان ما اكترث لها أحد ، فهيهات أن تغلب الخرافة الحق فى معرض جدل حر .... إنها معاجزة بالسطو والقهر : « **وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف فى وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا** »[2] وقد مضى المسلمون فى نشر الدعوة داخل جزيرة العرب على ذلك الأساس العادل .

ومنذ أمضوا (عهد الحديبية) ، وهم دائبون على البلاغ والتبصرة ، ولذلك نجحوا نجاحا ملحوظاً فى هذا المضمار ، فدخلت قبائل كثيرة فى عهدهم ، على حين انصرفت جموع الأعراب عن قريش ، فلم يدخل فى عهدهم أحد ... وسير الأمور فى هذا الإتجاه كان التمهيد الفعال لغلبة الإسلام ... ثم لفتح مكة نفسها فيما بعد بإذن الله .

----

(١) سورة الحج : ٤٩ . ٥٠ . ٥١

(٢) سورة الحج من الأيه ٧٢

والدعوة إلى الإسلام فى داخل الجزيرة لم تشغل النبى ﷺ عن حق آخر من حقوق الله عليه ، وهو إعلام الناس كافة بما أتاه الله من بينات .. ألم يبعث الرسول عليه أفضل الصلاة والسلام إلى الناس كافة ؟

فليرفع السراج إلى أعلى لتصل أشعته الهادية إلى مواطن أبعد ... مواطن غرقت فى الظلام دهراً كما بينا فى بداية هذا الكتاب .

« وأوحى إلى هذا القرآن لأنذركم به ومن بلغ أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهة أخرى قل لا أشهد قل إنما هو إله واحد وإننى برئ مما تشركون »[1] .

فليتجه إلى المشرق والمغرب .. إلى جنبات الكون .. إلى المجوس والنصارى يدعوهم إلى توحيد الله والإسلام له والخضوع لأحكامه .

﴿ رسل رسول الله ﷺ إلى الملوك يدعوهم إلى الإسلام ﴾

كان الفرس يحتلون أجزاء كبيرة من جنوب الجزيرة ،وكان الرومان يحتلون أجزاء أخرى من شمالها . وقد انتشرت ديانه المحتلين فى الأقاليم التي أخضعوها لنفوذهم .. ومن العبث إرجاع هذا الإنتشار للحرية العقلية المحضة ... وعلى أية حال فإن المجوسية سادت الأقاليم التابعة لفارس ، والنصرانية سادت الأقاليم التابعة للرومان .. وكان أمراء هذه الأقاليم يُعينون من قِبَلِ الدول الحاكمة ، وينصاعون لأوامرها .

----

(١) سورة الأنعام من الآيه : ١٩

وقد رأى النبى ﷺ أن يرسل بكتبه إلى رؤساء الدول الكبرى ، وإلى أمراء الولايات المحتلة على سواء يدعوهم إلى الله ويعرض عليهم الإسلام .

روى مسلم عن أنس ، أن رسول الله ﷺ بعث رسلا من أصحابه وكتب معهم كتبا إلى الملوك يدعوهم فيها إلى الإسلام فبعث (دحية بن خليفة الكلبى) إلى قيصر ملك الروم .

وبعث (عبد الله بن حذافة السهمى) إلى كسرى ملك فارس

وبعث (عمرو بن أمية الضمرى) إلى النجاشى ملك الحبشة

وبعث (حاطب بن أبى بلتعة) إلى المقوقس ملك الإسكندرية

وبعث (عمرو بن العاص السهمى) إلى جيفر وعياذ ابنى الجلندى الأزدبين ملكى عمان .

وبعث (سليط بن عمرو) أحد بنى عامر بن لؤى إلى ثمامة بن أثال وهوذه بن على الحنفيين ملكى اليمامة .

وبعث (العلاء بن الحضرمى) إلى المنذر بن ساوى العبدى ملك البحرين

وبعث (شجاع بن وهب الأسدى) إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى ملك تخوم الشام .

وبعث (المهاجر بن أبى أمية المخزومى) إلى الحارث بن عبد كلال الحميرى ملك اليمن .

﴿ ما حدث بالنسبة للرسل المبعوثين بالرسائل ﴾

بعث رسول الله ﷺ « دحية بن خليفة » بكتابه إلى قيصر الروم ، وليس الوصول إلى قيصر بدعوة غريبة على مسامعه أمراً سهلا ، فكيف

وهي - في نظر الرومـان - من أعـرابي سـاذج ينتـمي إلى قـوم تحت سلطانهم!!؟ وتقديرا لهذه الأوضاع إختار النبي لتلك المهمة من يقوم بها إيمانا واحتسابا غير مبال بعواقبها عليه ولا نتائجها عند من يدعوه .

فعن ابن حبان أن رسول الله ﷺ قال : « من ينطلق بصحيفتي هذه إلى قيصر وله الجنة » ؟ فقال رجل : وإن لم يقبل ؟ قال : وإن لم يقبل . فأخذ دحية الكتاب وسافر به إلى أرض الروم ، فوافق هرقل وهو مقبل على بيت المقدس يزوره عقب إنتصاره على الفرس قربى إلى الله .

وتناول قيصر الكتاب فقرأ فيه :

« بسم الله الرحمن الرحيم »

من محمد رسول الله إلى هرقل عظيم الروم ، سلام على من اتبع الهدى ، أما بعد فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإن عليك إثم الأكارين - الفلاحين - و « **قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون**»[(١)] .

وقد هاجت حاشية هرقل لا كتراث القيصر بهذه الرسالة، وازدادوا هياجا عندما عرض عليهم - لا تدري جادا أم هازلا - أن يعتنقوا هذا الدين!! .

----

(١) سورة آل عمران : آيه ٦٤ والحديث صحيح من قوله وتناول قيصر إلى هنا أخرجه البخاري (٢١/١٣٣) ومسلم (١٦٥/٥-١٦٦) عن ابن عباس .

وهرقل سياسى ماكر ، وأمر الدين لا يعنيه إلا بقدر ما يدعم ملكه وينمى قوته ، وقد تولى شئون الدولة فى وقت كانت الخلافات الكنسية حول طبيعة المسيح تغلى غليان المرجل، وتثير فى الأمة انقسامات مخيفة ، وقد حاول التقريب بين وجهات النظر المتباينة ، وجمع الكنائس المتخاصمة على مذهب واحد ... فعجز ، وتمرد عليه اليعاقبة وغيرهم فى مصر والشام .

فالكلام فى الإلهيات ليس غريبا عليه ، والتقريب بين وجهات النظر - لمصلحة الدولة - ديدنة ، ولعله فى أعماق قلبه يحس سخف أولئك المختلفين جميعا .

وربما تألقت فى نفسه - لوقت محدود - فكرة الخروج من عقدة التثليث إلى بساطة التوحيد ... ثم انطفأت لما ستجره على الدوله من خلاف أشق فى وهمه وأمر المملكة - عنده - أهم من أى شئ آخر . وشاءت لياقة قيصر السياسى أن يستدعى دحية ، وأن يحاول إيهامه بأنه مسلم ، ثم أعطاه قدرا من الدنانير .. وصرفه .

وعاد دحية إلى رسول الله ﷺ بالنبأ ، فقال رسول الله ﷺ :

كذب عدو الله ، ليس بمسلم ، وأمر بالدنانير فقسمت على المحتاجين[1] .

----

(١) أخرجه أبو عبيد فى (الأموال) (ص٢٥٥) عن بكر بن عبد الله المزنى واسناده صحيح لكنه مرسل بيد أن الزرقانى نقل فى (شرح المواهب) (٣/ ٢٤٠) عن (الفتح) أنه فى سند أحمد أيضا فلينظر أنه لم يذكر صاحبيه .

أمـا الولايات العـربيـة التـابعـة للرومـان ، فـإن النبى ﷺ أرسـل إلـى أمرائها يعرض عليهم الإسلام فكانت إجابتهم أخشن وأقسى من رد القيصر نفسه .

قرأ أمير دمشق خطاب رسول الله ﷺ له :

« بسم الله الرحمن الرحيم »

من محمد رسول الله إلى الحارث بن أبى شمر .

سلام على من اتبع الهدى وآمن بالله وصدق ، وإنى أدعـوك أن تؤمن بالله وحده لا شريك له ، يبقى ملكك »[1] .

فلما قرأه رمى به على الأرض وقال : من ينزع ملكى منى ؟ وأخذ بعد العُدَّة لقتـال المسلمين . والحـارث ليس بالملك الأصيل حتى يشمخ بملكه على هذا النحـو إنه مُولًى من قِبَلِ الرومـان الغـالبين ليخـدم أهواءهم ، ويمشى فى ركـابهم ، فـهـو كنفر من ملوك الشرق فى عـصرنا هذا ، صنعـهم المستـعـمـرون ليكونوا حِبـالاً تَنْجَرُّ بهـا الأمم المسـتـضـعـفه وراء غـاصـبـيـهـا ، والهـدية التى رَدَّها ، هى الأمل الوحـيـد لجعله حـاكـمـا شريفـا لو أنه قـبلهـا وأشاعها .

وبعث النبى ﷺ إلى أمير بصرى - من ولايات الروم - مثل ما بعث إلى أمير دمشق وحمل الكتاب (الحارث بن عمير الأزدى) فاعترضه فى الطريق (شرحبيل) بن عمرو الغسانى ، وسأله : أأنت من رسل محمد ؟ قال : نعم ، فأمر به شرحبيل فقتل ! وترامت هذه الأخبار إلى المسلمين فى المدينة ، فجرحت كرامتهم ، وأبانت لهم أن علاقتهم بالرومان لن تندفع فى طريق العدل والإحترام إلا بعد جهود شاقة .

---

(١) ذكره الواقدى بدون اسناد كما فى (البداية) (٢٦٨/٤)

أما (المقوقس) ملك الإسكندرية فقد رَدَّ على النبى ﷺ ردا حسنا ، فلم يؤمن ، ولم يتهجم عليه .. فلما تسلم كتابه من حاطب بن أبى بلتعه قال له: ما منعه إن كان نبيا أن يدعو على من خالفه وأخرجه من بلده ؟

فقال حاطب : ما منع عيسى - وقد أخذه قومه ليقتلوه - أن يدعو الله عليهم فيهلكهم ؟

فقال المقوقس : أحسنت أنت حكيم جاء من عند حكيم ، وكتب إلى رسول الله ﷺ يقول :

« لمحمد بن عبد الله من المقوقس عظيم القبط .

سلام عليكم ، أما بعد، فقد قرأت كتابك وفهمت ما ذكرت فيه وتدعو إليه ، وقد علمت أن نبيا قد بقى ، وكنت أظن أنه يخرج من الشام ، وقد أكرمت رسولك وبعثت لك بجاريتين لهما مكان عظيم فى القبط ، وبثياب ، وأهديت لك بغله تركبها ».

وماذا يفعل محمد ﷺ بهذا ؟!

لقد قبل الهدية تقديراً للعاطفة التى أملت بها ، وإن كان يرى أن الإيمان بالله وحده أفضل ما يُهدى إليه ، وخير ما ينتظره ويهش له .

وجدير بنا أن نذكر كلام حاطب للمقوقس حتى يعرف القارئ أن هذه البعوث بلغت حداً من الفقه والحصافه يستحق الإعجاب البالغ .

قال حاطب : « إن هذا النبى دعا الناس ، فكان أشدهم عليه قريش ، وأعداهم له اليهود ، وأقربهم منه النصارى... ولعمرى ما بشارة موسى بعيسى إلا كبشارة عيسى بمحمد ، وما دعاؤنا إياك إلى القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلى الأنجيل ، وكل نبى أدرك قوماً فَهُمْ أمته .... فحق عليهم أن يطيعوه . وأنت ممن أدرك هذا النبى ، ولسنا ننهاك عن دين المسيح ولكننا نأمرك به » وكان أثر هذه الدعوة الحارة الخطاب الذى سقناه آنفا .

★ ★ ★

تلك مثل لرسائله إلى رجالات النصرانية ومواقفهم منها ، وقد ساق النبى ﷺ كذلك مبعوثيه إلى رؤساء المجوسية يدعونهم إلى الله ويحدثونهم عن الدين الذى لو تبعوه لنقلهم من الغى إلى الرشاد... وقد تفاوتت ردودهم، بين العنف واللطف ، والإيمان والكفر ...

كتب رسول الله ﷺ إلى (كسرى أبرويز) ملك فارس يقول :

« بسم الله الرحمن الرحيم »

من محمد رسول الله إلى كسرى عظيم فارس ، سلام على من اتبع الهدى ، وآمن بالله ورسوله ،وشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمداً عبده ورسوله ، أدعوك بدعاية الله ، فإنى أنا رسول الله إلى الناس كافة لينذر من كان حياً ويحق القول على الكافرين - أسلم تسلم ، فإن أبيت فعليك إثم المجوس »[1] .

ومزّق كسرى الخطاب وهو غاضب .

ولعله حسب الجرأة على مكانته السامية بعض مارماه به القدر من مصائب .. فقد هزمه الروم هزيمة منكرة ، وهاقد جاء العرب يعلمونه مالم يكن يعلم .

وأصدر كسرى أمره إلى والى اليمن - وكانت لم تزل فى حكمه - يأمره أن يرسل اثنين من رجاله الأشداء ليأتيا إليه بالرجل الذى تجرأ على مكاتبته !!.... و « أبرويز » هذا رجل أحمق ، ومنصبه يضفى عليه لقب ملك الملوك ، والوثنية السياسية إذا ظاهرتها وثنية دينية ، أمست ظلمات بعضها فوق بعض ، وقد غلب على الرجل السفه فى تصريفه شئون الدوله ، وحكمه على الأشخاص والأشياء حتى ضاق قومه أنفسهم به ،بل ضاق به أقرب الناس إليه وهو إبنه « شيرويه » فوثب عليه فقتله .

---

(١) حديث حسن رواه ابن جريره فى تاريخه (٢/٢٩٥-٢٩٦) عن يزيد بن أبى حبيب مرسلا وأبو عبيد فى (الأموال) ص٢٣ عن سعيد بن السيب مرسلا نحوه .

ويُروى أن النبى ﷺ لما بلغه ما صنع (كسرى أبرويز) بكتابه قال : « مزّق الله ملكه »[1] والطريف أن والى اليمن لما صدر إليه أمر كسرى سارع إلى تنفيذه .. فأرسل اثنين من لدنه إلى المدينة ، يعرضان على النبى ﷺ أن ينطلق معهما ليُسْأل عما فعل ....!!

ونظر النبى ﷺ إلى الرجلين ، فوجدهما من ذلك النوع الذى تربيه الملوك في القصور كما تربى النسوة الديكة الرومية ... مناظر فارهه ، وبواطن تافهة ، فلما رأى شواربهما مفتوله وخدودهما محلوقة أشاح عنهما وقال :[2] ويحكما .... من أمركما بهذا ؟

قالا : أمرنا ربنا (يعنيان كسرى)

إن تأليه الملوك ضلال قديم .. وبعد أن انتشر الإسلام ذهبت حقيقة التأليه ، ثم عادت الآن آثاره وخصائصه ، فالملك يلقب (صاحب الجلالة) ولا يُسْأل عما يفعل ، ويُبْطل شرائع الله ، ويقيم شرائع الهوى ، ويمتد هو وبطانته ، لتنكمش أمامهما أمته ...

ولما سمع النبى ﷺ كلام الرجلين أمرهما أن يعودا من حيث أتيا إلى والى اليمن وقال : « أخبروه أن ربى قد قتل ربه الليلة » وكان رسول الله

---

(١) حديث صحيح رواه البخارى فى صحيحه (١٠٤/٨) وأبو عبيد عن سعيد بن المسيب مرسلا ومرفوعا ، وروى من وجوه أخر مرسلا ، فيراجع لها من شاء (البداية والنهاية)(٢٦٨/٤) .

(٢) حديث حسن أخرجه ابن جرير (٢٦٦/٢-٢٦٧) عن يزيد بن أبى حبيب مرسلا، وابن سعد فى (الطبقات) (ج ١ق ٢ص ١٤٧) عن عبيد الله بن عبد الله مرسلا أيضا وسنده صحيح .

ﷺ علم قبلهما بمصرع كسرى .

وقد وقع الإسلام فى قلب والى اليمن ورجاله بعد هذه القصة .. وانتشر انتشاراً عظيما فى الجنوب بين الطائفتين جميعاً من نصارى ومجوس.

وأرسل النبى ﷺ إلى أمير البحرين كتابا يدعوه إلى الإسلام ونبذ المجوسية حمله إليه (العلاء بن الحضرمى)[1] وكان (المنذر بن ساوى) أمير البحرين رشيدا موفقا .. فرحب بالدعوة وانشرح صدره لقبولها ، وقد أبلغ العلاء فى ترغيبه وابراز محاسن الإسلام له ... فمما قاله :

« يا منذر ، إنك عظيم العقل فى الدنيا فلا تصغرن عن الآخرة ... إن هذه المجوسية شَرُّدين ليس فيها تكرُّم ، ولا علم أهل الكتاب ، ينكحون ما يستحيى من نكاحه ، ويأكلون ما يتنزه عن أكله ، ويعبدون فى الدينا نارا تأكلهم يوم القيامة .... ولست بعديم عقل ولا رأى فانظر :

هل ينبغى لمن لا يكذب فى الدنيا ألا تصدقه ؟ ولمن لا يخون ألا تأمنه؟ ولمن لا يخلف ألا تثق به ؟

هذا هو النبى الأمى الذى .. والله.. لا يستطيع ذو عقل أن يقول : ليت ما أمر به نهى عنه .. أو ما نهى عنه أمر به ، أوليته زاد فى عفوه أو نقص من عقابه ، إذ كل ذلك منه على أمنية أهل العقل وفكر أهل النظر... » .

وقد أسلم « المنذر » وعرض على قومه الإسلام ، فمنهم من أعجبه فدخل فيه، ومنهم من كرهه وبقى على مجوسيته أو على يهوديته ، فلما

---

(١) رواه الواقدى فى آخر كتاب (الردّة) بسنده عن أبى حنتمه كما فى (نصب الراية) للزيلعى (٤/٤١٩-٤٢٠)

استشار رسول الله ﷺ ما يفعل بإزائهم كتب له :

« من أقام على يهودية أو مجوسية فعليه الجزية »[1] .

★★★

إن توسيع ميدان الدعوة بحيث تشمل المعروف المعمور من أرض الله يومئذ أمر يثير التأمل لقد كان العرب يستكثرون النبوة على واحد منهم ، ويوسعونه جحوداً أو كنودا .

« **وإذا رأوك إن يتخذونك إلا هزوا أهذا الذى بعث الله رسولا** »[2].

فما يكون شأن الروم والعجم ، وهم يرون العرب دونهم منزله وحضارة وثقافة وسياسة ألا يكونون أسرع إلى السخرية وأدنى إلى الكفران ؟؟

بيد أن أصحاب الرسالات لا ينظرون إلى الأمور على ضوء الحاضر الضيق المنكور ، فإن ثقتهم العميقة فى سيادة فكرتهم وامتداد نطاقها ، تصغر العقبات المفروضة فى الطريق وتجعلها - ولو كانت الشم الرواسى - هباءً منثوراً .

ولو انحسر (كارل ماركس) فى حدود مذهبه - وهو فكرة مطاردة تصل بذويها إلى السجون - لأصابه الشلل وقضى عليه وعلى أفكاره . لكنه مضى فى سبيله وهو على أمل بالغ أن تقوم بتوجيهها دول كبرى .

فإن كان هذا شأن الماديين من أصحاب الأفكار الضالة فلا جرم أن المرسلين المؤيدين بالوحى يكاتبون الملوك والأمراء وهم موقنون بأن ما لديهم من حق سيعلو ماعداه . وذلك ما كان يجول فى نفس الرسول ﷺ وهو يعالج هداية الأعراب الشاردين فى الصحراء .. طوراً باللين وطورا بالشدة .. ثم هو -

----

(١) ضعيف اخرجه الواقدى باسناده عن عكرمة قال : وجدت فى كتب ابن عباس ... فذكره »

(٢) سورة الفرقان آيه ٤١

فى الوقت نفسه - ينصح لقادة الشعوب الأخرى أن يفكروا فى هذا الدين الجديد ، وأن يعتنقوه وافرين .

إن الخرافة التي أفسدت عقل بدوى تُتَرِّبُ إهابه وثيابه رياح (نجد) هى بعينها الخرافة التى تفسد فكر كسرى ، عامل الفرس العظيم .

ما الفارق بين الحمى تصيب ملكاً أو تصيب صعلوكا ؟ إن الطبيب يصف لها - على الحالين - دواءً واحداً ويتخذ ضد عدواها حصانات واحدة.....

وقد أراد النبى ﷺ أن يشفى الكبار والصغار من أمراض نفوسهم وأن يناولهم جميعا الدواء الذى يَصِحُّون به .

« وننزل من القرآن ماهو شفاء ورحمة للمؤمنين ولا يزيد الظالمين إلا خسارا »[1].

فلا غرو إذا جمع فى مُصَحِّه بين الأحمر والأسود ، والسادة والعبيد .. أجل .. قد يكون أولئك الملوك محجبين وراء أسوار مشيدة ، وحولهم من الأتباع والجند والأبّهه والرياش ما يُبهر العين ... لكن أى عين تنبهر لهذه المظاهر !؟ إن الطبيب المعالج لا يعنيه من مريضه إلا جسده الشاحب العليل والأنبياء لا يرون فى القوم إلا أنهم جهال يجب أن يتعلموا .. سفهاء يجب أن يسترشدوا وأن ما حولهم من الدنيا يجعل تبعتهم أخطر، وجزاءهم على الهدى والضلال أضخم .

----

(١) سورة الإسراء : أية : ٨٢

على أن هذه القوى المسخرة فى حماية الباطل لن يطول أمدها ، إلا كما يطول الليل على المؤرق ، ثم تطلع الشمس ، ويمحو الله بالآية المبصرة سدول الظلام، ولذلك قال النبى ﷺ لرسل والى اليمن حين جاءوه : « أخبراه أن دينى وسلطانى سيبلغ ما بلغ كسرى ، وينتهى إلى الخف والحافر ، وقُولاً له : إن أسلمتَ أعطيتك ما تحت يديك وَمَلَّكتك على قومك »[1] .

إنه - وهو فى المدينة - يولى ويعزل عن حق لا عن غرور ، أليس موصولاً بمالك الملك ؟ مبعوثا من رب السموات والأرض ؟

ومن الطبيعى أن يعرف مشركو العرب أنباء هذه البعوث النبوية ، وأن يرقبوا نتائجها عن كثب وقد استبشروا أول الأمر حين بلغهم صنيع «كسرى» ابن هرمز ، وقال بعضهم لبعض : كفيتم الرجل فقد نصب له كسرى ملك الملوك ، وشاعت هذه المقوله فى مكة والطائف .

ثم مرت الأيام وطاح كسرى ، وبقى الإسلام يغزو الأفئدة والبلاد ، وجاءت الأنباء أن بعوث محمد ﷺ فى بعض الأرجاء أمكنها نشر الإسلام وتثبيت هدايته ، حتى دخلت فيه اليمن وعمان والبحرين ، فارتَدّ استبشار المشركين خذلانا ، وفكرت قبائل شتى فى الانقياد لحكمه ، خصوصا ورقعة الكفر تنكمش يوما بعد يوم أمام موجات الوحى الجارف وإن بقيت أخرى مُصِرَّة على جاهليتها .

« بل مَتَّعْنَا هؤلاء و آباءهم حتى طال عليهم العُمُر أفلا يرون أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون قل إنما أنذركم بالوحى ولا يسمع الصم الدعاء إذا ما يُنْذَرون»[2] .

---

(١) ضعيف أخرجه ابن جرير فى تاريخه (٢/٢٩٧) عن يزيد بن أبى خبيب مرسلا .

(٢) سورة الأنبياء آية ٤٤ ، ٤٥ .

ونعود بالحديث إلى ما بعد عودة الرسول ﷺ إلى المدينة بعد أن انتهت معركة خيبر واستتبت الأمور هناك .. أقام الرسول ﷺ فى المدينة شهرى ربيع وشهرى جماد ورجبا وشعبان ورمضان وشوالا بعث فيما بين ذلك من غزوه وسراياه ، ورسائله إلى الملوك والأمراء . ثم حَلَّ شهر ذى القعدة - وهو الشهر الذى صده فيه المشركون فى العام الماضى - خرج الرسول ﷺ معتمرا عمرة القضاء مكان عمرته التى صَدُّوه عنها .

« ٢٣ - عمرة القضاء »

قال ابن هشام : خرج رسول الله ﷺ من المدينة واستعمل عليها « عويف بن الأضبط الديلى » ويقال لها : (أى العمرة) عمرة « القصاص » لأنهم صدوا رسول الله ﷺ فى ذى القعدة فى الشهر الحرام من سنة ست ، فاقتصَّ رسول الله ﷺ منهم ، فدخل مكة فى ذى القعدة فى الشهر الحرام الذى صدوه فيه من سنة سبع .

وبلغنا عن ابن عباس رضى الله عنه أنه قال : فأنزل الله تبارك وتعالى فى ذلك : « **والحرمات قصاص** »[١] « **لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون** »[٢] .

وشاء الله أن تتحقق الرؤيا الحق التى أراها الله رسوله ونادى مناد محمد ﷺ فى المدينة : أن من شهد (عهد الحديبية) فلا يتخلف عن الخروج الى عمرة القضاء .

----

(١) الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص : سوره البقرة من الآية ١٩٤ .

(٢) سورة الفتح : آية : ٢٧

ولبى أصحاب الحديبية النداء فرحين بتحقيق الأمل الذى ظلوا عاما كاملاً ينتظرون تحقيقه ، وكلهم شوق إلى زيارة بيت الله الحرام الذى حرموا من زيارته سنين !!

وتجهز رسول الله ﷺ وخرج ومعه عدد من المسلمين ، فكانوا جميعا الفين ، بعد أن كانوا فى العام الماضى ألفا وأربعمائه . وجهز رسول الله ﷺ مائة فارس بالسلاح على رأسهم « محمد بن مَسْلَمَة » وسَيَّرهم أمامه خشية البغته والغدر من الأعداء ، وأمرهم ألا يتخطوا حرم مكة إذا بلغوا «مَرَّ الظهران» بل ينزلوا بواد قريب منها ، أما باقى المسلمين فقد ساروا ولا سلاح معهم إلا سلاح المسافر ، وهى السيوف فى الأغماد ، وعلى رأسهم يسير الرسول ﷺ على ناقته القُصوى وأمامهم يسوق « ناجية بن جُنْدَب » هَدْى الفداء ، وقدره ستون ناقة وبلغ (محمد بن مسلمة) بفرسانه مرَّ الظهران ، وهنالك التقى بنفر من قريش ، سألوه عن أخبار محمد ﷺ فقال لهم : يُصَبِّحُ هذا المكان غدا إن شاء الله . وفزع القرشيون لما رأوا الفرسان المسلحين الذين يسبقون محمدا ﷺ، وأسرعوا إلى مكة يُخبرون قومهم بما رأوا، ويعرفونهم بقرب وصول محمد ﷺ ، وقد حسبوه أتاهم محاربا وغازيا.

وفزعت قريش لهذا النبأ ، وأوفدت وفدا منها على رأسه « مكرز بن حفص » يسأل محمدا ﷺ عما دعاه إلى نقض الهدنه والمعاهدة التى عقدوها معه ، والتقى وفد قريش بمحمد ﷺ وسأله « مكرز » : يا محمد ! والله ما عُرِفْتَ صغيرا ولا كبيرا بالغدر ! تدخل بالسلاح الحرم ؟ وقد شَرَطْتَ ألا تدخل إلا بسلاح المسافر : السيوف فى الأغماد .

فأجاب الرسول ﷺ : « إنى لن أدْخِلَ السلاح الحرم

فقال مكرز : ما عرفنا فيك يا محمد إلا البر والوفاء .

وعاد مكرز وأصحابة ليُعَرِّفُوا قريشا أن محمدا ﷺ عند وعده ، لم ينقض عهده لهم وأنه ما جاء إلا زائراً معتمراً ، وأن السلاح لن يدخل عليهم مكة .. وأسرعت قريش صغيرها وكبيرها بالخروج من مكة يهيب بعضهم ببعض أن : أخرجوا سريعاً حتى لا نرى محمداً وأصحابه وهم داخلون .

وخرجت قريش على بَكْرَةِ أبيها ، فاعتلت التلال والهضاب حيث أقامت لنفسها مخيمات لجأت إليها مُخْلِيَةً بذلك مكة لدخول المسلمين .

أما رسول الله ﷺ فقد ترك مائتين من أصحابه مع فرسانه المائة بواد خارج مكة ، وأمر بحجز الهَدْى بـ (ذى طُوًى) ثم أقبل إلى مكة يحف به أصحابه، وقد أخذ (عبد الله بن رواحة) بزمام القصوى يقودها وعليها رسول الله ﷺ وأخذ ينشد

خلوا بنى الكفار عن سبيله — خلوا فكل الخير فى رسوله
يارب إنى مؤمن بقيله — أعرف حق الله فى قبوله
نحن قتلناكم على تأويله — كما قتلناكم على تنزيله
ضربا يزيل الهام عن مقيله — ويذهل الخليل عن خليله

فنهاه رسول الله ﷺ عن ذلك قائلا : « إيهاً يا ابن رواحة ! قل : لا إله إلا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وأعز جنده وهزم الأحزاب وحده .

فقالها أبو رواحة ورددها المسلمون معه .

ودخل محمد ﷺ مكة ... مكة التى خرج منها متخفيا بليل ... مكة التى خرج منها بدينه من قريش لا يرافقه إلا صديقه أبو بكر وتابع له .

ست سنوات مضت وتوشك السابعة أن تنقضى ، قضاها المسلمون فى جهاد ونضال ، وكفاح لنشر الدين الإسلامى .. وانتشر الإسلام وكثر

المسلمون .. وعادوا إليك مكة وكلهم شوق ولهفة وحنين لرؤية الكعبة والتمتع بقربها .. دخلوها بالنور ، وقد أخلتها لهم قريش بظلامها ،دخلوها ألفان من المسلمين وكانوا قد تركوها فرادى ... يا للعظمة ويا للجلال اللذين أكرمت بهما رسولك يارب !!

وتجاوبت أصداء الجبال والمرتفعات المحيطة بمكة تردد :

لبيك اللهم لبيك .. لا شريك لك لبيك ... إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك ..

لبيك اللهم لبيك .. تلبية هتف بها الرسول ﷺ ، ورددتها من ورائه أصوات ألفين من المسلمين ، واهتزت لأصدائها جبال مكة .. وأطلت رءوس قريش من فوق الجبال والتلال التى لجئوا إليها ، تتطلع بعيون حائرة مستعجبة نحو هذا الجلال القدسى العظم .. !

وظل محمد ﷺ يلبى والمسلمون وراءه يلبون معه حتى أتى الكعبة ، فاضْطَبَعَ بردائه (أى أخرج ذراعه وكتفه اليمنى منها) ثم قال « رحم الله إمْرَأً أراهم اليوم من نفسه قوة »[1] والتطواف بهذه السرعة إظهار لبأس المسلمين ، وتكذيب لإشاعات الضعف .. وقد أصبحت سُنَّة بعد ذلك .

واستلم رسول الله ﷺ الحجر الأسود ، ثم طاف حول الكعبة ، تارة يمشى وتارة يهرول وكلما وصل ركن من أركان الكعبة إستلمه بيده حتى إنتهى من الطواف .

ثم خرج إلى الصفا ، فسعى فيما بينها وبين المروة سبع مرات ثم وقف فى مكان بالقرب من المروة حيث أتى إليه أصحابه بالهَدْى ، فأمر بنحرها وهو يقول : « هذا المنحر وكل فجاج مكة منحر » .

----

(١) عن ابن عباس فى (المسند) رقم (٣٥٣٦) أن قريشا قالت : إن محمدا وأصحابه قد وهنتهم حمى يثرب فلما قدم رسول الله ﷺ لعامه الذى اعتمر فيه قال لأصحابه: إرملوا بالبيت ليرى المشركون قوتكم فلما رملوا قالت قريش : ماوهنتهم ، وسنده صحيح علقه البخارى (٨/ ٤١١) .

ثم حلق رأسه ، وحلق المسلمون رءوسهم ، وبذلك تمت لهم جميعا مناسك العمرة .

وهكذا زار المسلمون كعبتهم التي تشوقوا لها ، وحَنُّوا للطواف بها طويلا ... وتمتع المهاجرون منهم بالجلوس في حرم بيت الله الذي حُرِمُوا منه ، وبالتجوّل في طرقات مكة ودروبها يشاهدون دورهم التي خلّفوها وتركوها من وراء ظهورهم في سبيل الله ، ويطوفون مع إخوانهم الأنصار يُرُونَهمْ من مكة مجالس سَمَرِهم ، ومَعَالِمَ ذكرياتهم ...!

ولم ينزل رسول الله ﷺ ببيت من بيوت مكة ، بل أمر فضُرِبت له خيمته بـ (الأبطح) حيث نزل فيها . وهكذا انتهى اليوم الأول من الأيام الثلاثة المتفق عليها .

فلما كان اليوم الثاني ... أتى رسول الله ﷺ إلى حرم البيت فجلس فيه وأصحابه من حوله حتى حان آذان الظهر .. فاعتلى بلال سقف الكعبة يؤذن من عليها آذان الظهر ...

وتردد صوته الندىّ الرخيم يشق أجواز فضاء مكة وما حولها يردد : الله أكبر ... الله أكبر ....!

وأمَّ الرسول ﷺ ألفين من المسلمين يصلى بهم بجوار بيت الله ... حيث كان يلاقى الصعوبة ، ويعانى من المشقة في صلاته بمفرده منذ سبع سنين..!!

وأرسل الرسول ﷺ من أصحابه مَنْ حَلَّ محل المسلمين الذين تركهم خارج مكة حتى يأتى هؤلاء ، فيزوروا بيت الله ويأخذوا بحظٍ مما سبقهم إخوانهم إليه .

ورأت قريش من ملجئها فوق الجبال والتلال ما فعل المسلمون ...! رأت عظمة ، وشاهدت جلالا ...! وأحست النور الذى يملأ صدور هؤلاء الناس ، والإيمان الذى يَعْمُر قلوبهم ...

واهتزت نفوس أبناء قريش ، وخشعت قلوب أكثرهم ، وقالوا وهم فى عجب لما رأوا من شدة حماس المسلمين فى الطواف حول الكعبة ... ولما رأوا من هرولتهم وسعيهم : قد كنا نحسب المسلمين يُعانون عُسْراً وجهداً وشدة .!

أما حين رأوا بلالا يعتلى الكعبة ، وحين سمعوا صوته يؤذن من فوقها، فإن أعصاب أكثرهم لم تستطع احتماله ، فقد لوى (سهيل بن عمرو) وجماعة معه رءوسهم ، وغَطُّوا وجوههم ... وسدوا آذانهم ، حتى لا يروا ولا يسمعوا بلالا ...!

أما عكرمة بن أبى جهل فقد قال : لقد أكرم الله أبا الحكم ... إذ لم يسمع هذا العبد يقول ما يقول ! وكذلك قال صفوان بن أمية وقال غيره عن آبائهم أعداء الإسلام الذين ماتوا من قبل .

إلا أن هذا الأثر الذى تركة المسلمون فى نفوس المشركين كان يختلف فى نفوس بعضهم عن بعض فقد ترك الكثيرين منهم وقد تفتحت قلوبهم للإيمان ، ومالت نفوسهم للإسلام ، حتى أن العباس بن عبد المطلب عم الرسول ﷺ أتى إليه يعرض عليه أن يتزوج من « ميمونه أخت زوجته (أم الفضل) التى أسلمت وعَمَرَ قلبها بالإيمان ، ويطلب منه أن يخرجها من بين أظهر المشركين . وقبل الرسول ﷺ أن يتزوج من ميمونة ، فعقد عليها بمكة، وبنى بها فى (سرِف) .

وانقضت الأيام الثلاثة على المسلمين بمكة فأرسلت قريش إلى الرسول ﷺ (سهيل بن عمرو) و (حويطب بن عبد العزى) يطلبان منه أن يخرج من مكة حسب ما اتُّفق وإياهم عليه فقال لهما رسول الله ﷺ : ما عليكم لو تركتمونى فأعرست بين أظهركم ، وصنعنا لكم طعاما فحضرتموه ![1] .

----

(١) ضعيف رواه ابن هشام (٢/ ٢٥٥) عن ابن اسحق بغير اسناد والقصة فى البخارى (٧/ ٤٠٣-٤٠٧) من حديث البراء و (٧/ ٤١٠) عن ابن عمر وليس فى روايتهما : (لوتركتمونى) وإنما فيها : فلما أن أقام بها ثلاثا) مروه أن يخرج فخرج .

ولكن سهيلا وحويطبا كانا يعلمان ما سوف يكون من وراء مثل هذا الطعام الذى تأكله قريش مع المسلمين ! فقد رأيا ما قد كان من تأثير إيمان المسلمين وحدبهم على رسولهم فى أهل قريش ، لذا لم يتمالك حويطب أن صاح يقول:

لا حاجة لنا لطعامك .. نناشدك الله والعقد الذى بيننا إلا خرجت من أرضنا ، فقد مضت الثلاث اللاتى اتفقنا عليها معك .

فغضب (سعد بن عبادة) - وكان إلى جانب الرسول ﷺ - وانتهر حويطبا بقوله : كذبت ليست بأرضك ، ولا أرض أبيك ، والله لا يبرح منها رسول الله إلا طائعا راضيا . فابتسم الرسول ﷺ وقال لإبن عبادة :

يا سعد لا تؤذ قوما زارونا فى رحالنا .

وحينئذٍ أمر الرسول ﷺ مولاه (أبا رافع) أن ينادى فى المسلمين بألا يُمسى بمكة أحد من المسلمين ، ولما أخذ المسلمون فى التأهب لمغادرة مكة جاء على بن أبى طالب إلى الرسول ﷺ يقول : يا رسول الله ؛ إن «عمارة» إبنة عمنا حمزة تقيم مع أمها هنا فعلام نتركها بين المشركين ؟

وعلى هذا صحب المسلمون عند خروجهم من مكة « عمارة بنت حمزة » وأمها « سلمى بنت عميس » أما « ميمونه » فقد ترك الرسول ﷺ مولاه «أبا رافع » بمكة حتى خرج بها مساء فلحق بالمسلمين بـ (سَرَف) .

وفى هذه العمره نزل قوله تعالى : « **لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم مالم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا** »[1] .

---

(١) سورة الفتح آيه : ٢٧

وسار المسلمون ووجهتهم المدينة ، وقد رضيت نفوسهم كل الرضا ، وامتلأت قلوبهم بالغبطة والسرور . فقد نالوا ما كانت تتوق إليه نفوسهم منذ زمن طويل ، وأيقنوا أنه سيكون لهم من وراء عمرتهم هذه فتح عظيم .

﴿ أثر عمرة القضاء بمكة . وإسلام خالد بن الوليد وعمرو بن العاص ﴾

أما ما خلّف المسلمون بمكة فى عمرتهم هذه من أثر ، فقد ظهر بأسرع ما كان ينتظر المسلمون ويتوقعون .

فما لبث الكثيرون من أهلها حتى مالت قلوبهم للإسلام لما رأوا من عظمته ولما لمسوا فيه من الحق والصدق ، فجاءوا إلى النبى ﷺ يعلنون إسلامهم وإيمانهم بالله وحده . وكان فى مقدمة هؤلاء فريق ممن اشتهروا عند قريش بالشجاعة ، وعرفوا بين رجالها بالبطولة والإقدام .

منهم « خالد بن الوليد » بطل « أحد » وفارس فرسان قريش ...!

ومنهم « عمرو بن العاص » داهية العرب .....!

ومنهم « عثمان بن طلحة » حارس الكعبة ......!

وقد جمع الطريق بين هؤلاء الثلاثة ، فكان دخولهم إلى النبى ﷺ لإعلان إسلامهم معا ، وإن كانت قد إختلفت جهاتهم التى أتوا منها .

فقد آمن خالد بعد طول العناد والمكابرة ، وأعلن الشهادة بأن محمداً نبى حقا مبعوث من عند الله ، وأنه ليس بساحر ولا شاعر كما كان يتقول عليه ، وكما كانت قريش تتقول عليه ، وأيقن أن الإسلام هو دين الله الحق

القويم ، بعد ما قاد فرسان قريش طويلا لمحاربته ، ولمحاولة القضاء عليه . وكان لخالد من الجسارة والشجاعة ، ما جعله يصرح بإيمانه ، وبرغبته في الإسلام لقريش ! إذ يقول : لقد استبان لكل ذي عقل أن محمداً ليس بساحر، ولا شاعر ، وأن كلامه من كلام رب العالمين ، فحق على كل ذي لُبٍّ أن يَتَّبِعَهُ .

ووصفت قريش خالداً بأسوإ النعوت ، ورمته بأنه صبأ ... وهَمَّ أبو سفيان به ، فمنعه عنه عكرمة بن أبي جهل وهو يقول : مهلا أبا سفيان !! أنتم تقتلون خالدا على رأي رآه ، وهذه قريش كلها تتابعت عليه ... والله لقد خفت ألا يحول الحول حتى يَتَّبِعَهُ أهل مكة كلهم . ولما أجمع خالد على الخروج إلى رسول الله ﷺ ، طمع في أن يكون معه في خروجه رجل آخر من رجالات قريش ،فكلم في ذلك « صفوان بن أمية » بقوله : يا أبا وهب ؛ أما ترى محمداً قد ظهر على العرب والعجم ؟ فلو قدمنا عليه فاتبعناه ، فإن شرفه شرف لنا ...! ولكن صفوان الذي قُتِلَ أبوه وأخوه ببدر قال : لو لم يبق غيري دون إسلام ما اتبعته !

وذكر خالد لعكرمة ما ذكره لصفوان ، فأجابه بمثل ما أجابه صفوان من قبل .

وغادر خالد مكة يبغي المدينة ، دون أن يذكر وجهته لأحد من قريش . فبينما هو في طريقه التقى بصديق له هو « عثمان بن طلحة » صاحب مفاتيح الكعبة ، وتردد خالد .. أيذكر لعثمان وجهته ؟ ، ويسأله أن يصحبه، ولعثمان وِتْرٌ عند المسلمين من قتل أبيه وعمه ، ثم إخوته الأربعة يوم (أحد) ؟! ولكن خالداً لم يلبث أن زال عنه تردده ، وذكر لعثمان ما كان يبغي أن يقول . ووجد خالد لدى عثمان ميلاً إلى الإسلام ، ورغبة في أن يكون صاحبه في مبايعته . وتم الاتفاق بين خالد وعثمان على أن يتقابلا

خارج مكة ، فى مكان إتفقا عليه ، بعد أن يُسَوِىّ عثمان بعض أمور له بمكة.

ومن ثَمَّةَ تقابلا حَسَبَ الإتفاق ، وسارا ووجهتهما المدينة .

وكان عمرو بن العاص بعد « غزوة الأحزاب » قد قال لبعض رجال من قريش : ياصحاب إنى أرى أمر محمد يعلو علواً كبيرا ، وإنى قد رأيت رأياً فما ترون فيه ؟

قالوا : وما هو رأيك يا ابن العاص ؟ قال رأيت أن نخرج إلى نجاشى الحبشة، فنقيم عنده ، فإن ظهر محمد على قومنا كنا عند النجاشى ، فإنا نكون تحت يديه أحب إلينا من أن نكون تحت يدى محمد ، وإن ظهر قومنا فنحن مَنْ قد عرفوا ، فلن يأتينا منهم إلا الخير .

فقال أصحاب عمرو : إن هذا لهو الرأى

وعلى هذا تجهز عمرو وأصحابه فى الخروج إلى الحبشة ، وجمعوا لذلك جلوداً كثيرة لإهدائها إلى النجاشى ، وكان من أحب ما يُهْدى إليه الجلود .

ورحب النجاشى بعمرو وأصحابه ، وقبل هديتهم ، وأقاموا لديه فى رحب وسعة فلما أرسل النبى ﷺ إلى النجاشى (عمرو بن أمية الضمرى) - فيمن أرسل إلى الملوك والأمراء - وأرسل معه كتابين ، يطلب منه فى أحدهما أن يدخل فى الإسلام ، وفى الآخر أن يرد المسلمين الذين يقيمون بالحبشة إليه ، وأن يكون وكيلا عنه فى تزويجه (أم حبيبة) بنت أبى سفيان التى كانت ممن هاجرن إلى الحبشة .

ووقع نظر عمرو بن العاص على عمرو بن أمية ، فعرف فيه رسولا لمحمد ... فدخل على النجاشى يقول : أيها الملك ، إنى قد رأيت رجلا خرج من عندك ، وهو رسول رجل عدولنا ، فأعطينيه لأقتله ، فإنه قد أصاب أشرافنا وخيارنا .

ونظر النجاشي إلى عمرو بدهشة وغضب وقد عرف أنه يعني بقوله عمرو بن أمية - ثم رفع يده وضرب بها أنفه حتى ظن عمرو أنه قد كسره ... ومادت الأرض تحت أقدام عمرو وقد رأى ما رأى من غضب النجاشي ... ولم يملك إلا أن قال للنجاشي وصوته يتهدج ولسانه يتلعثم : أيها الملك والله لو ظننت أنك تكره هذا ما سألتك فيه .

فقال الملك بحدة وَحَنَقٍ : أتسألني أن أعطيك رسول رجل يأتيه الناموس الأكبر الذي كان يأتي موسى وعيسى لتقتله ؟!!

قال عمرو وقد تأثرت نفسه لقوة الروح التي يتكلم بها النجاشي ، وخشعت روحه لشدة حماسته : أيها الملك ، أكذلك هُوَ ؟

أجاب النجاشي : ويحك يا عمرو !! أطعني واتَّبِعْهُ ، فإنه والله لعلى الحق .. ولسوف يَظْهَر على من خالفه .

وأحس عمرو بخشوع الإيمان ينساب في نفسه وبنور الإسلام يملأ قلبه ، فقال للنجاشي بثقة وإطمئنان : أفتبايعني له على الإسلام ؟ فأجاب النجاشي على الفور : نعم .

وبسط يده لعمرو ، فبايعه عمرو لمحمد ، وخرج عمرو من لدى النجاشي، وقد كتم خبر إسلامه عن أصحابه يتحين فرصة للسفر على إحدى السفن من الحبشة إلى جزيرة العرب ... وحانت الفرصة لعمرو ، فسافر على إحدى السفن إلى جزيرة العرب ... ومن ثَمَّةَ إبتاع بعيرا ركبه وسار ووجهته المدينة لمبايعة رسول الله ﷺ .

وبينما هو في طريقه أبصر برجلين يقيمان خيمة ينزلان بها للراحة من عناء السفر، فأقبل عليهما فإذا به يتعرف فيهما خالد بن الوليد ، وعثمان بن طلحة ، فسأل عمرو خالدا : يا أبا سليمان ... إلى أين أنت ذاهب ؟ أجاب خالد : إلى محمد ... والله لقد تبين الطريق وظهر الأمر ، وإن هذا

الرجل لنبى فاذهب فأسلم ، فحتى متى ؟!

فكان جواب عمرو : وأنا ما جئت إلا لأسلم ....!

وسبحان الهادى التقوا ثلاثتهم على طريق واحد إلى هدف واحد ... وساروا فلما بلغوا مشارف المدينة ، أبصر بهم رجل من المسلمين فصاح بفرح - وقد أدرك مقصدهم- والله لسوف تُسْلِمُ مكة قيادها بعد هذين ! يعنى بقوله عمرو بن العاص وخالد بن الوليد ...

وأسرع الرجل يجرى ووجهته مسجد رسول الله ﷺ يخبره بقدوم الوافدين وقال رسول الله ﷺ : رمتكم مكة بأفلاذ أكبادها ...! وسُرَّ رسول الله ﷺ بقدوم هؤلاء أيَّما سرور فلما دخلوا عليه بعد أن أبدلوا ملابسهم من وعثاء السفر ، قابلهم بوجه متهلل يفيض بشرا وسرورا .

وتقدم خالد من رسول الله ﷺ مُسَلِّماً بسلام الإسلام ونطق بالشهادتين، وعندئذٍ قال له الرسول ﷺ :« الحمد لله الذى هداك ، قد كنت أرى لك عقلاً رجوت ألا يسلمك إلا إلى خير .

فقال خالد : يا رسول الله ، أدع الله لى أن يغفر لى تلك المواطن التى كنت أشهدها عليك .

وتقدم عثمان فبايع . . وتلاه عمرو فبايع وهو يقول : يا رسول الله ، إنى أبايعك على أن يغفر لى الله ما تقدم من ذنبى ....

فقال رسول الله ﷺ : يا عمرو إن الإسلام يَجُبُّ ما كان قبله ، والهجرة تقطع ما كان قبلها .

وانصرف الرسول ﷺ إلى تدبير أمور المسلمين ، والعمل على نشر دين الإسلام على أوسع رقعه من رقاع الأرض ، وقد بات موقناً من أن فتح مكة قد أصبح أمراً قريب الوقوع .

★ ★ ★

١٢ - ﴿ غزوة مؤتة ﴾(١)

عَزَّ على المسلمين مصرع (الحارث بن عمير الأزدى ، رسولهم إلى أمير بصرى ، والطريقة الشائنه التى عومل بها ، فقد أوثق (شرحبيل بن عمرو) رباطه ثم قدمه فضرب عنقه ، ولم يقتل أحد غيره من بعوث الرسول ﷺ الكثيرة إلى الآفاق ، والرُسُلُ لا يُقتلون ، لذلك كان وقع هذه الإهانة شديداً على المسلمين ، فعزموا على الاقتصاص لرجلهم ، وعلى زلزلة الوالى الأثيم الذى صنع ما صنع لحساب الرومان .

وتجهز المسلمون فى جيش يعتبر بالنسبة لهم كبيراً ، إذ بلغت عُدُته ثلاثة آلاف .

وخرج أهل المدينة يودعون الجيش الزاحف وهم يقولون : صحبكم الله بالسلامة ، ودفع عنكم وردكم إلينا صالحين .

قال ابن اسحق : حدثنى محمد بن جعفر بن الزبير عن عروة بن الزبير قال :

ورتب النبى ﷺ قادة الجيش ، فجعل الأمير (زيد بن حارثة) ، وقال إن أصيب زيد (فجعفر بن أبى طالب) وإن أصيب جعفر (فعبد الله بن رواحة) فإن أصيب عبد الله فليرتض المسلمون من بينهم رجلا يجعلونه عليهم . سلسل رسول الله ﷺ أمور الغزوة قبل أن تبدأ وهى الحملة القتالية الوحيدة التى خرجت بهذه التعليمات من بين مثيلاتها من الحملات المحددة التى لم

---

(١) هى سرية ولكنها سميت غزوة بالرغم من أن رسول الله ﷺ لم يخرج فيها ، وذلك لأن المعركة حدث فيها أشياء كالتى تحدث فى الغزوات من عنف وقتال شديد .

يخرج فيها رسول الله ﷺ مع المقاتلين ، وكأنه ﷺ كان يعلم مقدما بمن سيموت من هؤلاء الخارجين إلى القتال .

ولما وصلت الحملة إلى موقعها ودار القتال ، وكان رسول الله ﷺ في المدينة التفت الصحابة إلى رسول الله ﷺ فسمعوه يقول : أخذ الراية فلان فقُتل .. ثم قال وأخذها بعده فلان ، وكان ﷺ يقص المعركة وهو في المدينة، فقالوا : لم يقل ذلك إلا لأنه شهد . وحينما عاد المقاتلون عرف الصحابة منهم أن الأمر قد دار كما رواه رسول الله ﷺ وهو جالس في المدينة ، وقد حدث مطابقا غاية التطابق فقالوا : شهدها رسول الله ﷺ وما دام قد شهدها فهي « غزوة »[1] .

ونعود لقول النبي ﷺ لجنوده .. إذ سمع هذه التعليمات رجل يهودي إسمه (النعمان بن فنحص) فقال موجها خطابه لرسول الله ﷺ : يا أبا القاسم ، إن كنت نبيا فسيصاب من سميتهم ، فإن الأنبياء من بني إسرائيل كانوا إذا قالوا : إذا أصيب فلان ، لابد أن يصاب، ولو كان عدد من أسموهم مائة !

وغادر المقاتلون المدينة .. وخرج الناس لوداع أمراء رسول الله ﷺ وسلموا عليهم فلما ودَّع (عبد الله بن رواحه) مع من وَدَّع من أمراء رسول الله ﷺ بكى ..فقالوا ما يبكيك يا ابن رواحه ؟ قال : أما والله ما بي حب الدنيا، ولا صبابة بكم، ولكني سمعت رسول الله ﷺ يقرأ آية من كتاب

---

(١) عن الشيخ الجليل محمد متولي الشعراوي من خواطره في تفسير القرآن (عدد ٥٥٧٠/٧٠)

الله عز وجل يذكر فيها النار : « **وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا** »[1] فلست أدرى كيف لى بالصدور بعد الورود ؟ فقال المسلمون : صحبكم الله ، ودفع عنكم وردكم إلينا صالحين .

(حديث صحيح اسناده مرسل)

وخرج النبى ﷺ فى وداعهم حتى ثنية الوداع ، وسلم لواءهم رايه بيضاء إلى (زيد بن حارثة) وهو يوصيهم قائلا : « أوصيكم بتقوى الله ، وبمن معكم من المسلمين خيرا ... أغزوا باسم الله فى سبيل الله فقاتلوا من كفر بالله ، ولا تغدروا ... ولا تَغُلُّوا ... ولا تقتلوا دليلاً ، ولا إمرأة ، ولا كبيراً فانياً ... ولا تَغْرِقُنَّ نخلا ، ولا تَقْلَعُنَّ شجراً ، ولا تهدموا بيتاً وإذا لقيتم عدوكم من المشركين فادعوهم إلى إحدى ثلاث :

ادعوهم إلى الدخول فى الإسلام ... فإن فعلوا فاقبلوا منهم وكُفُّوا عنهم ثم أدعوهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين .. فإن فعلوا فلهم ما للمهاجرين وعليهم ما على المهاجرين وإن دخلوا فى الإسلام واختاروا ديارهم يكونوا كأعراب المسلمين ، يجرى عليهم حكم الله ، ولا يكون لهم فى الفيئ، ولا فى الغنيمة شئ إلا أن يجاهدوا مع المسلمين ، فإن أبوا فادعوهم إلى إعطاء الجزية ، فإن فعلوا فاقبلوا منهم وكفوا عنهم فإن أبواْ هذا وذاك فاستعينوا بالله وقاتلوهم » .

وانطلق الجيش إلى مشارف الشام .... إلا أن أخباره سبقته إلى الروم ولابد أن تهاويل كثيرة أحاطت بسمعة المسلمين ، وطاقتهم الحربية مما جعل القوم يستعدون للقتال بجيش كثيف .

---

(١) سورة مريم آية ٧١ .

فلمـا وصل المسلمـون إلى « مـعـان » من أرض الشـام ، علمـوا أن (شرحبيل) عامل هرقل على الشام قد علم بمسيرهم إليه ، فجمع لهم الجموع من قبائل العرب المختلفة ، وأرسل إلى هرقل ، فأمده بجيش عرمرم من أبناء الروم على رأسه أخوه (تيودور) فبلغ جيشهم مائة ألف من الروم ، ومائة ألف أخرى من نصارى العرب والهجوم على جيش تلك عُدَّتُه مجازفة رهيبة !

فأقام المسلمون ليلتين بـ (معان) يتدبرون أمرهم ، وقال نفر منهم : نكتب إلى رسول الله نخبره بعدد عدونا ، فإما أن يمدنا بالرجال ، وإما أن يأمرنا بأمره فنمضى له . ولم يرق ذلك لعبد الله بن رواحة فشجع الناس قائلاً : يا قوم ، والله إن التى تكرهون للتى خرجتم تطلبون - الشهادة - وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة ... ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به ، فأنطلقوا ، فإنما هى إحدى الحسنيين : إما ظهور ، وإما شهادة......

وكان لهذه الكلمة الملتهبة أثرها ، فاختفت من صفوف المسلمين مشاعر التردد ، وقرروا القتال مهما كانت النتائج . وابن رواحة شاعر حاد العاطفه، وقد أحس منذ خروجه أن الاستشهاد مقبل عليه فهو يتهيأ له بقلبه ولسانه . وقد تكون الحكمة العسكرية فى تصرف غير ما أوحى به ... غير أن المسلمين ما إن سمعوا حديث الفداء والموت فى سبيل الله حتى جاشت بأنفسهم محبة الآخرة ... ثم ذكروا أنهم نُصروا فى معارك سابقة باستعداد أقل من عدوهم ، فأقدموا مطمئنين .

عن أبى هريرة قال : شهدت « مؤتة » فلما دنا المشركون رأينا مالا قبل لأحد به من العُدةِ والسلاح والكراع والديباج والحرير والذهب ، فبرق بصرى !! فقال لى « ثابت بن أرقم » يا أبا هريرة كأنك ترى جموعا كثيرة ؟

قلت : نعم - وأبو هريرة ممن أسلموا بعد الحديبية - فقال له ثابت إنك لم تشهد « بدرا » معنا إنا لم ننصر بالكثرة .

والتقى الجمعان في قرية إسمها « مُؤْتَه » وعبث أن ننتظر من ثلاثة آلاف بطل أن يصاولوا في ميدان مكشوف فيالق تربو عليهم سبعين ضعفا !!

واقتحم (زيد بن حارثة) صاحب لواء المسلمين جيش العدو والراية في يده يقاتل قتال الأبطال، لا يأبه بكثرة عدد العدو ، ولا بوفرة عتاده حتى أجهزت عليه كثرة ضربات الرماح التي تلقاها من مقاتليه ، وتلقف الراية (جعفر بن أبي طالب) فأقبل مندفعا بفرسه في حماسه وشجاعة يقاتل بسيفه يمينا وشمالا ، حتى إذا ما أحاط العدو بفرسه ، وعرف ألا مَفَرَّ له منهم ولا نجاة ، نزل عن الفرس فعقرها وانطلق يهوى بسيفه على أعدائه ، واللواء بيمينه ... حتى قطع الأعداء يمينه فتناوله بشماله ، فقطع الأعداء شماله، فتناوله بعضديه !! وما زال حتى ضربه رجل من الروم فقضى عليه !

روى أبو داود حديث شاهد عيان يقول : لكأني أنظر إلى جعفر حين إقتحم على فرس شقراء ثم عقرها ، ثم قاتل القوم حتى قتل وهو ينشد :

يا حبذا الجنة واقترابها ... طيبة ، وبارداً شرابها
والروم روم قَدْ دَنَا عذابها ... كافرة بعيدة أنسابها
عَلَيَّ إن لا قيتها ضرابها

وقد رزق جعفر هذه الشهادة وهو ابن ثلاث وثلاثين سنة[1] .

---

(١) أخرجه البخاري في صحيحة (٤٢٦١) عن عبد الله بن عمر قال : أمَّر رسول الله ﷺ في غزوة مؤته زيد بن حارثة وقال : إن قتل زيد فجعفر وإن قتل جعفر فعبد الله بن رواحة ، قال عبد الله بن عمر كنت فيهم في تلك الغزوة فالتمسنا جعفر بن أبي طالب فوجدناه في القتلى ووجدنا ما في جسده بضعا وتسعين من طعنه ورمية .

فلما قتل جعفر حمل (عبد الله بن رواحة) الراية ، وتقدم يقاتل ويقاتل حتى أجهد فولىّ بفرسه مترددا بين الإقبال والإدبار ، فجاءه ابن عم له بجزء من لحم يقول : شُدَّ بهذا صُلبك ، فإنك قد لقيت فى أيامك هذه ما لقيت ، فأخذ ابن رواحة قطعة اللحم واقتضم منها قضمة ، وعندئذٍ وصل إلى سمعه صوت احتدام المعركة بين العدو والمسلمين ، فألقى بالقطعة من يده وهو يقول :

يا نفس إن لا تقتلى تموتى	هذا حِمام الموت قد صليت
وما تمنيتِ فقد أعطيتِ	إن تفعلى فعلهما هديت

ورمى الطعام من يده وقال لنفسه : وأنت فى الدنيا ؟ ثم إنتضى سيفه وتقدم مقتحماً به حتى قتل .

وسقط لواء المسلمين ، وقد سقط الأمراء الثلاثة الذين أمَّرهم رسول الله ﷺ على الجيش .. الواحد تلو الآخر بعد أن جاهدوا جهاد الأبطال ! وقاتلوا لآخر رمق فى حياتهم . وتقدم (ثابت بن أرقم) من بنى العجلان فرفع اللواء وهو يقول : يا معشر المسلمين إصطلحوا على رجل منكم .. قالوا: أنت .. قال : ما أنا بفاعل ...

فاصطلح الناس على أن يؤمروا (خالد بن الوليد) . وثابت أبى القيادة لانكوصا عن الموت بل شعورا بوجود الأكفأ منه فى الجماعة ، وحمله الراية خشية أن تسقط ، من آيات الجرأة فى هذا الوقت العصيب ! .. وليت كل إمرئ يعرف أقدار الناس ينزلهم منازلهم التى يستحقونها ، فلا يكلف أمته أن تحمل عجزه وأثرته ....

عن أنس بن مالك أن رسول الله ﷺ ، نعى زيداً وجعفراً وابن رواحة للناس قبل أن يأيتهم خبرهم .(حديث صحيح أخرجه البخارى (٧/٤١٣) وغيره .

وقال ابن اسحق : ولما أصيب القوم، قال رسول الله ﷺ فيما بلغنى : «أخذ الراية زيد بن حارثة فقاتل بها حتى قُتل شهيدا ، ثم أخذها جعفر فقاتل بها حتى قُتل شهيدا قال : ثم صَمَتَ رسول الله ﷺ حتى تغيرت وجوه الأنصار وظنوا أنه قد كان فى عبد الله بن رواحة بعض ما يكرهون .. ثم قال : ثم أخذها عبد الله بن رواحة فقاتل بها حتى قُتل شهيدا » ثم قال : «لقد رُفعوا إلىَّ فى الجنة فيما يرى النائم على سُرر من ذهب ، فرأيت فى سرير عبد الله بن رواحة إزورارا عن سَرِيرَىْ صاحبيه فقلت : عم هذا ؟ فقيل لى : مضيا .. وتردد عبد الله بعض التردد ثم مضى ...»

(حديث حسن)

وأخذ (خالد بن الوليد) الراية فشرع يقاتل ويحتال للخلوص بالجيش من هذا المأزق المتضايق . وقتال الانسحاب شاق مُرهق .. خصوصا وخالد لا يريد إشعار الروم بهذه الخطة .

روى البخارى عن خالد : إندقت فى يدى يوم « مؤتة » تسعه أسياف ، وما ثبت فى يدى إلا صفيحة يمانية .

ودخل الليل على المتحاربين فكان هدنه مؤقته ، فلما طلع الصبح كان خالد قد أعاد تنظيم قواته القليلة ، وغَيَّرَ من ترتيب صفوفه ، فجعل الميمنة ميسرة ، والمقدمة مؤخرة ، والمؤخرة مقدمة ، وفصل جانبا من الرجال صَفَّهم فيما وراء الجيش ، وأوصاهم أن يُحدثوا من الضوضاء والجَلَبَه ما يُخيِّل معه لسامعهم أنهم يفوقون عددهم هذا أضعافا مضاعفة .

وجعل (خالد بن الوليد) هدفه مناوشة الرومان بحيث يلحق بهم أفدح الخسائر دون أن يعرض كتلة الجيش لالتحام عام ، وقد أفلحت هذه الخطة فى إنقاذ الآلاف القليلة التى معه ، وإنقاذ سمعه المسلمين فى أول معركة لهم مع الدول الكبرى .

والعجيب أن الرومان أعياهم هذا القتال ، وأصيبوا فيه بخسائر كبيرة، بل إن بعض فرقهم إنكشف ... وولى مهزوماً ... وتريث قواد الروم فى الهجوم يتدبرون أمرهم ... وكانت هذه هى الفرصة التى ينشدها خالد ، فاكتفى بهذه النتيجة ... وآثر الانصراف بمن معه .

★★★

والدلاله التى تعلو عن الريب فى هذه المعركة ... أن شجاعة المسلمين وبسالتهم بلغتا حداً لم تعرفه أمة معاصرة ، وقد أكسبهم هذا الروح العالى إقداماً حَقَّر أمامهم كبرياء الأمم التى عاشت مع التاريخ دهراً تصول وتجول لا يقفها شئ .

إن الاستهتار بالخطر والطيران إلى الموت ليس فروسية إحتكرها الرجال المقاتلون وحدهم ، بل قوة غامرة قاهرة تعدت الرجال إلى الأطفال ، فأصبحت الأمة كلها أمة كفاح غال عزيز .

وحسبك أن جيش « مؤته » لما عاد إلى المدينة قابله الصبيه بصيحات الاستنكار يقولون :

يا فرار ...! فررتم فى سبيل الله ؟! فلما سمع النبى ﷺ هذا القول لرجال جيش المسلمين قال لهم : ليسوا بالفُرَّار ، ولكنهم الكرار إن شاء الله .

إن أولئك الصغار الأغرار ، يرون أن انسحاب خالد ومن معه فرارا يقابل بحثو التراب ... أىُّ جيل قوى نابه هذا الجيل الذى صنعه الإيمان بالحق ؟!

أى نجاح بلغته رسالة الإسلام فى صياغة أولئك الأطفال العظام ؟! من آباؤهم ؟! من أماتهم ؟! كيف كان الأباء يربون ، وكيف كانت الأمهات يدللن ؟! إن مسلمة اليوم بحاجة ماسة إلى أن تعرف هذه الدروس ....!!

★★★

تحدث رسول الله ﷺ عن قادة الجيش الذين قتلوا فقال لأصحابه :

« ما يسرُهم أنهم عندنا »[1] أجل إن الجوار الذى صاروا إليه أحب لنفوسهم وأقر لعيونهم من الدنيا وما فيها ، أما أسرهم ففى كفالة الله وهو نعم المولى ونعم النصير .

قال ابن اسحق : حدثنى عبد الله بن أبى بكر ، عن أم عيسى الخزاعية عن أم جعفر بنت محمد بن جعفر بن أبى طالب ، عن جدتها أسماء بنت عميس زوجة جعفر قالت : لما أصيب جعفر وأصحابه دخل علىّ رسول الله ﷺ وقال: « إئتنى ببنى جعفر » قالت : فأتيته بهم ، فتشممهم وذرفت عيناه فقلت :

يا رسول الله ، بأبى أنت وأمى، ما يبكيك ؟!

أبلغك عن جعفر وأصحابه شئ ؟ قال : نعم ... أصيبوا هذا اليوم !!

قالت : فقمت أصيح وأولول وأدق صدرى بيدى ، فقال رسول الله ﷺ : يا أسماء ، لا تقولى هُجْراً ... ولا تضربى صدراً ...!

ثم خرج وهو يقول آسفا مُتحسراً: واعماه ....! وأمر بأن لا يغفلوا عن آل جعفر من أن يصنعوا لهم طعاماً فإنهم قد شغلوا بأمر صاحبهم .

(حديث حسن)

وعن (عبد الله بن جعفر) ابن الشهيد قال : جاءنا النبى ﷺ بعد ثلاث من موت جعفر فقال : « لا تبكوا على أخى بعد اليوم ، وأدعو إلى بنى أخى » قال عبد الله : فجئ بنا كأننا أفراخ ، فقال : ادعوا إلى الحلاق،

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى (٦/ ١٣٥) من حديث أنس المتقدم فى رواية له

فجئ بالحلاق ، فحلق رءوسنا ، ثم قال الرسول ﷺ - مداعبا - : أما محمد فشبيه عمنا أبى طالب ، وأما عبد الله فشبيه خَلقِى وخُلقى ثم أخذ بيدى فأشالها وقال : « اللهم أخلف جعفراً فى أهله ، وبارك لعبد الله فى صفقة يمينه - قالها ثلاثا - قال عبد الله : وجاءت أمنا فذكرت له يتمنا ، وجعلت تحزنه .... فقال لها النبى ﷺ : « العيله تخافين عليهم ، وأنا وليهم فى الدنيا والآخرة ؟[1] ».

وأتى الرسول ﷺ ابنته فاطمة فقال : « على مثل جعفر فلتبك الباكية وواسى الرسول ﷺ أبناء زيد بن حارثة وهو يبكى .. وواسى آل ابن رواحة وهذه أسماء من استشهد يوم « مؤته » :

من قريش من بنى هاشم : جعفر بن أبى طالب رضى الله عنه ، وزيد بن حارثة رضى الله عنه .

ومن بنى عدى بن كعب : مسعود بن الأسود بن حارثة بن نضلةَ .

ومن بنى مالك بن حسل : وهب بن سعد بن أبى سرح .

ومن الأنصار ، ثم من بنى الحارث بن الخزرج : عبد الله بن رواحة وعباد بن قيس .

ومن بنى غنم بن مالك بن النجار : الحرث بن النعمان بن إساف بن نضله بن عبد بن عوف بن غنم .

ومن بنى مازن بن النجار : سراقه بن عمرو بن عطية بن خنساء .

قال ابن هشام : وممن استشهد يوم « مؤته » فيما ذكر ابن شهاب - من بنى مازن بن النجار : أبو كليب ، وجابر إبنا عمرو بن زيد بن عوف بن

---

(١) حديث صحيح أخرجه أحمد (رقم ١٧٥٠) باسناد صحيح على شرط مسلم ، وبعضه عند أبى داود والنسائى والحاكم وصححه ووافقه الذهبى .

مبذول ، وهما لأب وأم .

ومن بنى مالك بن أفصى : عمرو وعامر ابنا سعد بن الحارث بن عباد بن سعد بن عامر بن ثعلبه بن مالك بن أفصى .

وقال ابن هشام : ويقال : أبو كلاب وجابر إبنا عمرو .

★★★

﴿ ١٣ - سرية ذات السلاسل ﴾

كانت « مؤته » فى جمادى الأولى من السنه الثامنة ... ومرت الأيام بعدها لا يتعرض فيها المسلمون لقريش ولا لحلفائهم ، ولا تتعرض قريش للمسلمين ، ولا لمن فى عهدهم وهذا تبع نصوص « عهد الحديبية » إلى أن كانت موقعة « مؤتة » بين المسلمين وبين جيش الرومان وأتباعهم من العرب، وما كان فيها من انسحاب جيش المسلمين تحت إمارة (خالد بن الوليد) وعودته إلى المدينة كان من ذلك أن ابتدأ الإستخفاف بالمسلمين يشيع بين بعض القبائل التى كانت قد رهبتهم ، وخشيت جانبهم ، وكان أن ابتدأ نفر من قريش يعملون على التخلص من واجب احترامهم للمعاهدة التى بينهم وبين المسلمين .

وفى الحق أن الأثر الذى تركه انسحاب المسلمين من « مؤتة » فى نفوس قريش والقبائل المتاخمة لها ، والقريبة من المدينة ، كان يختلف كل الاختلاف عنه فى القبائل التى كانت قريبة من الموقعة نفسها ، فإن هذه الأخيرة إعتبرت المناورة التى انسحب بها الجيش الذى عِدَّة رجاله ثلاثة آلاف أمام جيش الروم الذى عدة رجاله مائة ألف من الروم ،ومائة ألف من نصارى العرب مناورة بارعة .. بل معجزة قَلَّ أن تصادف جيشا كهذا إلا أن تكون يد الله فى جانبه ....

ثم كان من إعجاب هذه القبائل من المسلمين ، وبشدة إيمانهم ، أن مالت قلوب الكثيرين من رجالها إلى الإسلام وكان من إعجاب رجال العرب الذين كانوا يقاتلون إلى جانب الروم ببسالة المسلمين ، وشجاعتهم ، وشدة مِراسِهم في القتال ... أنهم ما كادوا يشعرون بالتفرقة العظيمة التي يعاملهم بها القواد ، عن المعاملة التي يعاملون بها عسكر الروم حتى انصرفوا عنهم ، ومن ثَمَّة كسب الإسلام الذي لا يعرف التفرقة مكسبا عظيما .

ثم كان هناك أيضا مكسب للمسلمين من وراء ما عملوه في سبيل استرداد هيبتهم ، فقد بعث رسول الله ﷺ بـ « عمرو بن العاص » في جماعة من المسلمين إلى بعض القبائل التي تقطن شمال شبه الجزيرة بالقرب من مشارف الشام - وذلك لوقوفهم بجانب جيش الروم في معركة مؤته - ولأن أم عمرو بن العاص كانت من هذه النواحي ، فكان من السهل على عمرو أن يتألفهم ، وكان من اليسير على هذه النواحي أن يثقوا به .

ولكن عمرا ما كاد يصل في سيره إليهم إلى ماء هناك يسمى «السلاسل » حتى توقف في سيره وقد خشي مَغَبَّة تألب القبائل عليه ، وخاف غدرها وقتالها ، فبعث إلى النبي ﷺ يطلب مددا ، وأرسل النبي ﷺ المدد وفيه « عمر بن الخطاب » و «أبو بكر الصديق » بقيادة « أبي عبيدة بن الجراح » وقد أوصاه ألا يختلف[1] مع « عمرو بن العاص » .

---

(١) ضعيف ، رواه ابن اسحق عن محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن الحصين التميمي مرسلا .

فلما التقى (أبو عبيده بن الجراح) بـ (عمرو بن العاص) وكل منهما على قيادة رجاله لم يَرْضَ عمرو ذلك بل قال لأبى عبيده : إنما جئت مددا لى ....

وكان أبو عبيدة على شجاعته ودرايته رجلا سهلاً ليناً هيناً ، فنزل على إرادة عمرو ورضى له القيادة عليه وهو يقول : يا عمرو ، إن آخر كلمة قالها رسول الله ﷺ لى : لا تختلفا ...

وقاد عمرو الرجال جميعا فدوَّخ بهم القبائل المواليه للروم التى خرج إليها وطاردها من مكان إلى مكان فتوغل فى بلاد : بلى وعذرة وبلقين وطيئ وكلما انتهى إلى موضع قيل له : كان هنا جمع فلما سمعوا بك تفرقوا وظفر مرة بواحد من هذه الجموع فاقتتلوا ... وحمل عليهم المسلمون ففزعوا ، وأعجزوهم هرباً فى البلاد .

ومع أن عمرا دَوَّخ أولئك الأعراب ، وشتت شملهم ، إلا أنه لم يلقهم فى معركة حاسمة . وعلى أية حال ، فإن سمعة المسلمين إنزاح عنها غبار كثير بهذه الغزوة .

***

﴿ معركة بين قريش وحليفتها بنى بكر مع قبيلة خزاعة حليفة المسلمين ﴾

شُغِلَ المسلمون بعد (عهد الحديبية) بنشر الدعوة ، وعرض تعاليم الإسلام على كل ذى عقل وكان وفاؤهم لقريش أمراً مقرراً فيما أحبوا وفيما كرهوا ، ورأى الناس من ذلك الآيات البينات ... لكن قريشا ظلت على جمودها القديم فى إدارة سياستها ، غير واعية للأحداث الخطيرة التى غيرت

مجرى الأحوال فى الجزيرة العربية وتوشك أن تغيره فى العالم كله ، وقد جرَّها فقدان الوعى إلى حماقة كبيرة أصبح بعدها « عهد الحديبية » لَغْواً .

وذلك أنها - مع حلفائها من بنى بكر - هاجموا (خزاعة) - وهى مع المسلمين فى حلف واحد - وقاتلوهم فأصابوا منهم رجالا .. وإنحازت خزاعة إلى الحرم ، إذ لم تكن متأهبة لحرب ، فتبعهم بنو بكر يقتلونهم ، وقريش تمدهم بالسلاح وتعينهم على البغى .

وأحس نفر من (بنى بكر) أنهم دخلوا الحرم - حيث لا يجوز قتال - فقالوا لرئيسهم (نوفل بن معاوية) إنا قد دخلنا ، إلهك إلهك ، فقال نوفل: لا إله اليوم يا بنى بكر ... أصيبوا ثأركم ... وفزعت خزاعة لما حَلَّ بها فبعثت إلى رسول الله ﷺ بـ (عمرو بن سالم الخزاعى) بعد أن لجأت إلى دار (بُدَيْل بن ورقاء الخزاعى) وكان يقيم بمكة فاستنجدت به ، ووصل (عمرو بن سالم) المدينة ودخل على رسول الله ﷺ وهو بالمسجد بين الناس فقصَّ عليه ما كان من (بنى بكر) وقريش لخزاعة ، وكيف قاتلوهم غدراً ، فنقضوا بذلك الميثاق الذى عقدوه فيما بينهم جميعاً ، وطلب من الرسول ﷺ أن يعمل على نجدتهم ونصرتهم .

واستمع الرسول ﷺ إلى مقالة (عمرو بن سالم) فلما فرغ قال : نُصرت يا عمرو بن سالم فأدرك الناس أن الرسول ﷺ لن يسكت على نقض بنى بكر وقريش عهدهم لخزاعة وللمسلمين .

أما (بديل بن ورقاء) الذى استنجد به قومه ، فقد خرج هو الآخر فى نفر من خزاعة قاصدين رسول الله ﷺ ، حيث أعلموه بما كان ، ثم كروا راجعين إلى مكة .

وأحسست قريش بعد فوات الأوان - خطأها ، فخرج أبو سفيان إلى المدينة يصلح ما أفسده قومه .... ويحاول أن يعيد للعهد المهدر حرمته .

وفى الطريق إلى المدينة إلتقى بـ (بديل بن ورقاء) عائدا من المدينة إلى مكة .. وأدرك (ابن ورقاء) ومن معه أن ما حمل أبا سفيان على أن يقصد محمدا ﷺ هو شعور قريش بفظاعة ما حدث من بعض رجالها لخزاعه. وأدرك أبو سفيان أن بُدَيْلاً ما أتى إلا من عند محمد فسأله :

من أين أقبلت يا بديل ؟ فأخفى بديل عن أبى سفيان ماكان من ذهابه إلى المدينة ، ولكن أبا سفيان لم يكن ليصدق إنكار بديل ذلك ، فلما رحل بديل وأصحابه ، سار إلى مبرك نياقهم ، ونظر فى روثها فعرف فيها النوى من علف المدينة فتمتم يقول : أحلف بالله لقد جاء بديل محمداً .

وعلى ذلك ذهب أبو سفيان إلى ما بعثته فيه عشيرته ، وقد علم أن محمداً قد أَلَمَّ بما فعلته قريش، فلما وصل المدينة لم يستطع أن يقصد إلى رسول الله مباشرة فيما جاء من أجله ، فقصد إلى إبنته (أم حبيبه) زوجة رسول الله ﷺ ، لتكون واسطة بينه وبين محمد ﷺ .

ودخل أبو سفيان إلى ابنته (أم حبيبة) وهَمَّ بالجلوس على فراش النبى ﷺ ، فأسرعت أم حبيبة فطوته عنه ... فَدُهِشَ أبو سفيان من تصرف ابنته وسألها : يا بنيه ، ما أدرى !! أرغبت بى عن الفراش ... أم رغبت بالفراش عنى ؟؟!!

فأجابت : بل هو فراش رسول الله ﷺ ، وأنت رجل مشرك نجس ، فلم أحب أن تجلس عليه فغضب أبو سفيان وقال : والله يا بنيه ، لقد أصابك من بعدى شر !!

وغادر أبو سفيان إبنته قاصدا الرسول ﷺ ، فكلمه فيما أوفدته قريش من أجله ، وهو رغبتها فى زيادة مُدَّة الحلف الذى بينها وبين المسلمين ، وفى زيادة تأكيده وتثبيته ، ولكن الرسول ﷺ لم يرد على أبى سفيان[1] جوابا ،

---

(١) ضعيف رواه ابن اسحق بدون اسناد فى سيرة ابن هشام (٢/٢٦٥) وابن جرير (٢/٣٢٥-٣٢٦) .

فتحول أبو سفيان إلى أبى بكر يرجو وساطته ، ولكن أبا بكر رفض ، فسار إلى عمر بن الخطاب فكان جواب عمر له : أنا أشفع لكم عند رسول الله ؟!!! والله لو لم أجد إلا الذّر لجاهدتكم به !!

فتركهما إلى على بن أبى طالب فدخل عليه وعنده زوجه (فاطمة بنت رسول الله ﷺ) وبين يديها ولدها الحسن ، فعرض أبو سفيان الأمر على علىّ ، وطلب شفاعته عند النبى ﷺ فيه ، ولكن عليا قال : يا أبا سفيان ، إن رسول الله إذا اعتزم أمراً لا يستطيع أحد أن يرده فيه ، فالتفت أبو سفيان إلى فاطمة يناشدها بقوله : يا فاطمة هل لك أن تشفعى لقريش عند أبيك فيكون إبنك هذا سيد العرب أبد الدهر ؟!

قالت فاطمة : يا أبا حنظله ، لقد علمت ما لنساء المسلمين فى ذلك ، وما أحد يجير على رسول الله .

عندئذٍ تملك اليأس أبا سفيان ، وفاض به الأسى ، فقال لعلى يستشيره:

يا أبا الحسن ، إن الأمور قد اشتدت عَلَىّ فما الذى تشيربه ؟

قال على " والله ما أعلم شيئا يُغنى عنك ، ولكنك سيد بنى كنانة فقم فَأجِرْ بين الناس ، ثم الحق بأرضك . قال أبو سفيان : أو ترى ذلك مغنيا عنى شيئاً؟

أجاب على : لا والله ، ما أظنه .. ولكن لا أجد لك غير ذلك .

فقام أبو سفيان إلى المسجد .. وهناك أعلن أنه قد أجار بين الناس ، ثم ركب بعيره وانطلق إلى مكة فلما كان بها أسرع إليه قومه يسألونه عما تم بينه وبين محمد ، فأخبرهم بما كان من فشل مسعاه ، وبما أشار علىّ عليه به أن يفعله ، فهزوا رءوسهم ، وتحولوا عنه مغضبين وهم يقولون : ما زاد علىّ على أن لعب بك !

أما النبى ﷺ فكان أن اعتزم أمرا عظيما ....!

﴿ ٢٤ - فتح مكة ﴾

ما كاد أبو سفيان يغادر المدينة ، حتى أمر محمد ﷺ عائشه أن تَشْرَعْ في تجهيز زاد للسفر ، وشرعت عائشة في إعداد ما أمرها النبى ﷺ به ، وبينما هى فى ذلك دخل عليها أبو بكر فلما رأى ما هى بسبيله سألها : يا عائشه ، أَهَمَّ رسول الله ﷺ أن يغزو ؟ قالت عائشه : ما أدرى !

وأتى رسول الله ﷺ ، فسأله أبو بكر : يا رسول الله ، أفأتجهز ؟

قال الرسول ﷺ : نعم ...

سأل أبو بكر : فأين تريد يا رسول الله ؟

قال رسول الله ﷺ : قريشاً وأَخْفِ ذلك يا أبا بكر ...!

وأمر محمد ﷺ الناس بالاستعداد للحرب ، ولم يذكر لهم الوجهة التى يقصد ، وأرسل إلى القبائل الموالية له :

« من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليشهد رمضان بالمدينة ... »

واستعد أهل المدينة .. وجاء المسلمون من القبائل بخيلهم وأسلحتهم وعتادهم ، حتى بلغت عدتهم جميعا عشرة آلاف .

فلما كان اليوم العاشر من رمضان فى السنة الثامنة من الهجرة ، والجيش على أهبة مغادرة المدينة ، أعلن محمد ﷺ على الناس ، أنه إنما خرج يريد مكة ، ثم دعا الله بقوله :

« اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى لا تعلم بمسيرنا وَنَبْغَتَهَا فى بلادها » (١).

وبينما الجيش على وشك المسير ، إستدعى محمد ﷺ إبن عمه (عليا) وابن عمته (الزبير بن العوام) وأمرهما أن يسرعا فيدركا إمرأة من مكة

---

(١) ضعيف رواه ابن اسحق بدون اسناد

تدعى (سارة) هي مولاة لبعض بني عبد المطلب في مكان اسمه (روضة خاخ) في الطريق بين مكة والمدينة قد أرسل معها (حاطب بن أبي بلتعه) كتابا إلى أهل مكة يعرفهم فيه بخروج جيش المسلمين إليهم ، وقد خبأته في عقيصتها[1] وقد أتى الرسول ﷺ الخبر من السماء بما فعل حاطب .

وكان حاطب من رجال المسلمين المصاحبين للجيش وأسرع علي والزبير بطويان الأرض طيا حتى أدركا المرأة ، فسألاها الكتاب ، فأنكرت فاستنزلاها عن بعيرها ، والتمساه في رحلها فلم يجدا شيئا ، فقال علي للمرأة : والله لتُخْرِجَن لنا الكتاب أو لنكشفنك فلما رأت المرأة الجِدَّ من علي قالت : أعْرِضْ ...

فأعرض علي والزبير ، فأخرجت المرأة الكتاب من بين جدائل شعرها ودفعته إليهما .. فعادا به إلى رسول الله ﷺ فدعا رسول الله ﷺ بحاطب، وأراه الكتاب وكان فيه : « من حاطب بن أبي بلتعة إلى ناس بمكة (من المشركين) يخبرهم ببعض أمر رسول الله ﷺ » ، وسأله رسول الله ﷺ : ما حملك على هذا يا حاطب ؟ .... دقيقة ولا شك عصيبه على حاطب ! الذي كان يُعْرَف عنه الإخلاص للإسلام والمسلمين .....!

وأجاب حاطب : يا رسول الله ! أما والله إني لمؤمن بالله ورسوله ما غيَّرت وما بدَّلت ولكني إِمْرؤٌ ليس لي في قريش أهل ولا عشيرة ، وكان لي بينهم أم وولد ومال ، فصانعتهم عليهم ، وتوددت لهم بسببهم حتى لا يؤذوني فيهم ، وما فعلته ينفعني ولا يضرك ، إن الله ناصرك .

فقال عمر بن الخطاب : يا رسول الله ، دعني لأضرب عنقه ، فإن الرجل قد نافق ...

---

(١) العقيصة : هي نوع من تضفير المرأة لشعرها قال الليث : العقص أن تأخذ المرأة كل خصلة من شعرها فتلويها ثم تعقدها حتى يبقى فيها التواء ثم ترسلها .

فقال رسول الله ﷺ : إنه قد شهد بدرا .. وما يدريك يا عمر ؟ .. لعل الله قد إطّلع يوم بدر على أهل بدر .. فقال : إعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ....!

وعندئذ نزل الوحى على الرسول ﷺ بقول الله سبحانه وتعالى :

« يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوى وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحق يخرجون الرسول وإياكم أن تؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهاداً فى سبيلى وابتغاء مرضاتى تُسرُّون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم ومن يفعله منكم فقد ضلَّ سواء السبيل » إلى قوله تعالى : **« قد كانت لكم أسوه حسنه فى إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا براء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده »**[1] .

فعلم المسلمون أن الله قد عَدَّ حاطباً فى الذين آمنوا ، وأن حاطباً مؤمن وليس بمنافق ، وأن ما أتاه ما هو إلا زَلّة ضعف قد تصيب الإنسان أحيانا دون إرادته ! وأن حاطباً خرج بهذا العمل عن جادة الصواب .. وما كان له أن يوادَّ المشركين وهم الذين تبجحوا بالكفر ، وتظاهروا على العدوان ، وصنعوا بالمسلمين ما (حاطب) أعلم به من غيره !!

لكن الإنسان الكبير تعرض له فترات يَصْغُرُ فيها ، والله أبَرُّ بعباده من أن يؤاخذهم بسورات الضعف التى تعرو نورهم فيخبو ، وسعيهم فيكبوا ..

وقد استكشف النبى ﷺ خبيئة (حاطب) فعرف أنه لم يكذبه فى إعتذاره ، إنهم مقبلون على معركة كبيرة قد ينهزمون فيها ، فتقوم

----

(١) حديث صحيح أخرجه الشيخان وغيرهما والآيات ١ . ٢ . ٣ . ٤ من سورة الممتحنة .

العصبيات القديمة بحماية الأقارب الشاردين ، ويبقى (حاطب) لا حمى له، فليتخذ تلك اليد عند قريش ، حيطه للمستقبل .

ذاك ما فكر فيه حاطب ، وهو خطأ ، فإن المشركين لم يذكروا فى عداوة الإسلام رحماً ولا أهلاً وما ينبغى - ولو دارت الدوائر - أن نبقى لهم وُداً ، وقد خاصمناهم فى ذات الله ، وأخذ علينا العهد أن نبذل فى حربهم أنفسنا وأموالنا ... ولو جاز إتخاذ يد عندهم ، فكيف يُتَوَسَّلُ لذلك بعمل يُعَدُّ خيانة كبيرة فادحة ، الإضرار بالإسلام وأهله ؟!!

على أن حاطباًشفع له ماضيه الكريم ، فجبرت عثرته ، وأمر النبى ﷺ بأن يذكر الرجل بأفضل ما فيه . وبهذا التقدير السمح علّمنا الإسلام ألا ننسى الحسنات والفضائل لمن يخطئون حينا ، بعد أن أصابوا طويلا .

ثم مضى رسول الله ﷺ لسفره فى عشرة آلاف من المسلمين وخرج مع رسول الله المهاجرون والأنصار فلم يتخلف عنه منهم أحد . واستخلف على المدينة (أبارُهْم كلثوم بن حصين بن عتبه بن خلف الغفارى) وخرج لعشر مضين من رمضان ، فصام رسول الله ﷺ وصام الناس معه ، حتى إذا كان بـ (الكديد) بين (عسفان) و (أمج) أفطر[1] . (إسناده صحيح)

وسار جيش المسلمين ووجهتهم مكة ، وقد أمّلَ الرسول ﷺ ألا تأخذ قريش بمسيرهم خبراً، حتى لا تستعد لحربهم ، وهو الحريص على أن يتم له

---

(١) عن ابن اسحق فى سيرة ابن هشام عن : محمد بن مسلم بن شهاب الزهرى عن عبد الله بن عبد الله بن عتبة (ابن مسعود) عن عبد الله بن عباس .

فتح مكة دون إراقة دماء .

وأرسل محمد ﷺ عيونا للجيش يرقبون الطريق ، فعاد بعضهم إلى الرسول ﷺ ، ومعهم رجل من قبائل (هوازن) وبسؤاله ظهر أنه جاسوس لها يجمع لها الأخبار من هنا وهناك ، واستجوبه الرسول ﷺ ، فعلم منه أن (هوازن) تجمع الجموع لمحاربة المسلمين ، وأنهم قد أرسلوا إلى (ثقيف) بالطائف لتعينهم فى هذا الأمر ، فأمهلتهم حتى ترسل إلى (دمشق) لتأتى منها بأدوات من أدوات الحرب الثقيلة مثل المنجنيق ، فأمر رسول الله ﷺ بالحفاظ على الرجل وعدم إطلاق سراحه .

﴿ إسلام عم الرسول ﷺ العباس وآله وبعض من أقربائه ﴾

سَرَىَ القلق فى ربوع مكة عقب أوبة (أبى سفيان) ورأى (العباس) عم النبى عليه الصلاة والسلام أن يعلن إسلامه هو وعياله ، وأن يهجروا مكة إلى المدينة، فقابلوا رسول الله ﷺ فى الطريق مقبلاً بجيشه على مكة.

وفرح الرسول ﷺ للقاء عمه العباس ، وسُرَّ لإعلانه إسلامه ، وبعث بأهله إلى المدينة أما العباس فقد رافق الجيش فى مسيره ...

وخرج كذلك (أبو سفيان بن الحارث بن عبد المطلب) ابن عم النبى ﷺ ، و (عبد الله بن أمية) ابن عمته فى أهل لهما ، وكانا يقصدان كذلك المدينة لمبايعة محمد ﷺ ، فلقيا النبى ﷺ بـ (الأبواء) وكانا من أشد الناس إيذاء له بمكة ، فأعرض عنهما لما ذكر من مساءتهما ، وتقدم العباس يشفع لهما ، كما تقدمت لذلك (أم سلمه) زوج النبى ، وكانت هى

وميمونه ممن صاحب النبى ﷺ من زوجاته فى سفره ، وكان (عبد الله بن أمية) أخا لأم سلمة لأبيها ، ولكن النبى ﷺ قال : لا حاجة لى بهما ، أما ابن عمى فقد نالنى منه السوء ، وأما ابن عمتى وصهرى فقد قال بمكة ما قال .. ولما علم أبو سفيان برفض النبى ﷺ لمقابلته عزّ عليه ذلك وقال : والله لَيُؤْذَنَنَّ لى أو لآخذن بيد إبنى هذا ، ثم لنذهبن فى الأرض حتى نموت عطشاً وجوعاً . فرقّ له النبى ﷺ وأذن له بالدخول ودخول صاحبه إليه فدخلا وأسلما . . وسار الجيش فى طريقه يطوى الوهاد والنجاد مسرعاً إلى مكة ، ولم يظهر أى شئ يدل على أن قريشا قد أخذت علماً بمسيره ، حتى بلغ « مَرّ الظهران » وهو مكان قريب من مكة وهناك عسكر الجيش فى مساحة من الأرض لا تبلغ العين مداها طولاً وعرضاً ، وأيقن العباس أن محمدا ﷺ إذا دخل بهذا الجيش العرمرم مكة عُنوة ، فإن قريشا ستهب بلا شك لمقاومته، وفى ذلك ما فيه من القضاء عليها . وفكر العباس فرأى أن خير حل يُمْكِنُهُ أن يقدمه لعشيرته التى غادرها بالأمس هو أن يعمل على دعوتها للصلح والمهادنة مع محمد ﷺ .

وفى الليلة التى عسكر فيها المسلمون بمر الظهران ، وأوقدوا نيرانهم الكثيرة المتعددة .. حتى أضحت الصحراء كأنها قطعة من نار ونور ....

خرج العباس وقد ركب بغله الرسول ﷺ البيضاء ، يستشرف فوق ربوة عالية لَعَلّه يجد حطّاباً ، أو صاحب لبن ، أو انسانا يقصد مكة فيبعث معه إلى قريش أن يخرجوا إلى رسول اله ﷺ فيستأمنوه .

﴿إسلام أبو سفيان بن حرب﴾

وبينما العباس فى موقفه هذا يستشرف هنا وهناك إذ به يسمع صوتا لرجلين يتحدثان على مقربة منه فأنصت يتسمع ، فإذا أحدهما يقول : ما رأيت كالليلة نيرانا قط ولا عسكرا !

فيقول الآخر : هذه والله « خزاعة حَمَشَتْها الحرب - أى أغضبتها وهيجتها تهيجاً شديداً - فيجيب الأول : خزاعة أقلُّ وأذلُّ من أن تكون هذه نيرانها وعسكرها .

وعرف عباس فى صوت المتكلم الأول صوت « أبى سفيان بن حرب » فرفع صوته منادياً : يا أبا حنظله ...!! فجاءه صوت أبى سفيان متسائلا : أبو الفضل ؟! أجاب العباس : نعم ، وتقدم أبو سفيان ، وقد أقبل على العباس هو ومن معه ، وكان معه « بديل بن ورقاء » و « حكيم بن حزام » وكانوا قد خرجوا يتعرفون « الأخبار» ويتسمعون ما يقال ، فلما اقتربوا من الوادى راعهم ما به ، ثم قال أبو سفيان : مالك يا أبا الفضل ؟ وما بك ؟ قال العباس : ويحك يا أبا سفيان !! هذا رسول الله ﷺ فى الناس ، واصباح قريش والله إذا دخل مكة عُنوة !

قال أبو سفيان : فما الحيلة ؟ فداك أبى وأمى ؟!

قال العباس : اركب فى عَجزِ البغلة حتى آتى بك رسول الله .

فركب «أبو سفيان » البغلة مع العباس ، أما « بديل بن ورقاء » و«حكيم بن خزام» فقد عادا إلى مكة وسار العباس بأبى سفيان بين عسكر

المسلمين ونيرانهم ، وكلما مرّاً على نار ، نظر مَنْ حولها على البغلة ، فيعرفون فيها بغلة رسول الله ﷺ ، فيتركونها تَمُرّ حتى أتت على نيران «عمرو بن الخطاب » فنظر إلى البغلة فرأى « أبا سفيان » عليها فنهض من مجلسه وهو يقول : « أبو سفيان » عدو الله ؟! الحمد لله الذى أمكننا منك .....!!

ثم أسرع يحث الخطا إلى خيمة رسول الله ﷺ ليستأذنه فى ضرب عنق « أبى سفيان » فقال العباس للرسول ﷺ : يا رسول الله ، إنى قد أجرته ...

وجلس العباس إلى الرسول وهو يقول : والله لا يحادثه الليلة رجل غيرى . فاحتدَّ عمر على العباس واحتدَّ العباس على عمر ، ولما كَثُر الجدال بينهما ، وزادت المناقشة ، قال الرسول ﷺ للعباس : إذهب به يا عباس إلى رحلك ، فاذا أصبحت فإتنى به .

وأصبح العباس وأبو سفيان عند رسول الله ﷺ ، وقال ﷺ لأبى سفيان: ويحك يا أبا سفيان !! ألم يأن لك أن تعلم أنه لا إله إلا الله ؟

قال أبو سفيان : بأبى أنت وأمى ، ما أحلمك ، وأكرمك ، وأوصلك !! والله لقد ظننت أن لو كان مع الله إله غيره ما أغنى عنى شيئاً ..

قال محمد ﷺ : ويحك يا أبا سفيان !! ألم يَأنِ لك أن تعلم أنى رسول الله ؟

قال أبو سفيان : بأبى أنت وأمى ، ما أحلمك ، وأكرمك ، وأوصلك !! أما هذه ، فإن فى النفس منها حتى الآن شيئا ..!

فأسرع العباس يقول لأبى سفيان : ويحك !! أسْلِمْ ، واشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمداً رسول الله ، قبل أن يُضرب عنقك فلم يَسَعْ أبا سفيان إلا أن يُسْلم ، وأن يشهد بشهادة الحق وقال العباس للرسول : إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً فقال رسول الله ﷺ :

« من دخل دار أبى سفيان فهو آمن ... ومن دخل المسجد فهو آمن .. ومن أغلق بابه فهو آمن »[1].

وإنما أعطى رسول الله ﷺ أبا سفيان هذه الميزه إرضاءً لعاطفة الفخر فى نفسه ، وقد أرضاه بما لا يضر أحداً ، ولا يكلف جهداً ، ولا عليه أن يتحبب إلى نفس بمثل هذا الثمن الميسور . وأراد رسول الله ﷺ أن يستوثق من سير الأمور بعيداً عن الحرب والضرب ، فضم إلى ذلك المسلك مع أبى سفيان أن أوصى العباس باحتجازه فى مضيق الوادى حتى يستعرض القوى الزاحفة كلها ، فلا تبقى فى نفسه أثارة لمقاومة ، وهو سيد مكة المتبوع ، قال العباس : فخرجت بأبى سفيان حتى حبسته بمضيق الوادى حيث أمرنى رسول الله ﷺ ومرت القبائل على راياتها .. كلما مرَّت قبيلة قال : يا عباس، من هؤلاء ؟ فأقول : سليم فيقول : مالى ولسليم ؟ ...

ثم تمر به القبيلة فيقول : يا عباس ، من هؤلاء ؟ فأقول : مزينة ، فيقول : مالى ولمزينة ؟ .. حتى نفدت القبائل ، ما تمر به قبيلة إلا سألنى عنها ، فإذا أخبرته قال : مالى ولبنى فلان ؟!

---

(١) حديث صحيح أخرجه ابن هشام (٢٦٨/٢) عن ابن اسحق معضلا ، لكن وصله عنه ابن جرير (٢/ ٣٣٠-٣٣٢) عن حسين بن عبد الله بن عبيد الله بن عباس ، وحسين هذا ضعيف ، لكن قال الهيثمى فى (المجمع) (١٦٥/٦ -١٦٧) رواه الطبرانى ورجاله رجال الصحيح) .

حتى مَرَّ رسول الله ﷺ فى كتيبته الخضراء ، وفيها المهاجرون والأنصار، لا يُرى منهم إلا الحَدَقُ من الحديد فقال : سبحان الله .. يا عباس، من هؤلاء ؟؟!

فأجاب العباس : هذا رسول الله فى المهاجرين والأنصار ....

فقال أبو سفيان وقد أخِذَ مما رأى : ما لأحدٍ بهؤلاء قِبَلٌ ولا طاقة .. والله يا أبا الفضل ، لقد أصبح ملك ابن أخيك الغداة عظيماً !

قال العباس : يا أبا سفيان ، إنها النبوة

قال أبو سفيان : فَنِعْمَ إذن(1) ....

وانطلق أبو سفيان إلى مكة مبهوراً مذعوراً ، وهو يحس أن من ورائه إعصاراً إذا انطلق اجتاح ما أمامه ، فما يقف دونه شئ ...

وكان النبى ﷺ قَسَّم جيشه : فجعل على الجناح الأيمن (خالد بن الوليد) وأمره أن يدخل مكة من أسفل ، وجعل على الجناح الأيسر « الزبير بن العوام » وأمره أن يدخل مكة من شمالها وجعل « سعد بن عبادة » على أهل المدينة وأمره أن يدخل مكة من جانبها الغربى ، أما النبى ﷺ فكان على المهاجرين ، وكان دخولهم مكة من أعلاها .

ورأى أهل مكة الجيش الفاتح يقبل من بعيد رويداً رويداً ، فأجتمعوا على سادتهم ينتظرون الأوامر بالقتال .. فإذا صوت أبى سفيان ينطلق عاليا واضحا :

---

(1) حديث صحيح رواه ابن هشام (٢/٢٦٨-٢٦٩) عن ابن اسحق بدون اسناد ، لكن رواه ابن جرير والطبرانى موصولا عن ابن عباس كما تقدم ، وبعضه فى صحيح البخارى (٨/٤-٦) وابن جرير (١/٣٣٢-٣٣٣) عن عروة مرسلاً ، فهو شاهد قوى .

يا معشر قريش ، هذا محمد جاءكم فيما لا قبل لكم به ، فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن ومن أغلق عليه بابه فهو آمن .. ومن دخل المسجد فهو آمن ....

وشُدهت إمرأته « هند بنت عتبة » وهي تسمع من زوجها هذا الكلام ... فوثبت إليه ، وأخذت بشاربه تلويه .. وأخذت تصيح قائلة : أقتلوا الحميت الدسم الأحمس[1] - أي الزّق المنتفخ قُبِّحْتَ من طليعه قوم[2].

ولم يكترث أبو سفيان لسباب إمرأته فعاود تحذيره : ويلكم لا تغرنكم هذه من أنفسكم .. فإنه قد جاءكم مالا قِبَلَ لكم به .. فمن دخل دار أبي سفيان فهو آمن .. قالوا : قاتلك الله ، وما تغني عنا دارك !؟ قال : ومن اغلق عليه بابه فهو آمن ، ومن دخل المسجد فهو آمن فتفرق الناس إلى دورهم وإلى المسجد .

(حديث صحيح عن ابن اسحق من سيرة ابن هشام)

وأصبحت « أم القرى » .. وقد قَيَّد الرعب حركاتها ، واسترخت تجاه القدر المنساق إليها ... فاختفي الرجال وراء الأبواب الموصدة ، أو اجتمعوا في المسجد الحرام يرقبون وهم واجمون ... على حين كان الجيش الزاحف يتقدم .. ورسول الله على ناقته ، تتوج هامته عمامة دسماء[3] ورأسه خفيض من شدة التخشع لله ، لقد إنحنى على رحله ، وبدا عليه التواضع الجم حتى

---

(١) الحميت : زق السمن ، الأحمس : شديد اللحم تشبهه بالزق لسمنته

(٢) الطليعه : الذى يحرس القوم

(٣) لونها أقرب إلى السواد

كادت أن تمس لحيته واسطه الرحل[1] ، إن الموكب الفخم المهيب الذى ينساب به حثيثا إلى جوف الحرم ، والفيلق الدارع الذى يحفُّ به ينتظر إشارة منه ، فلا يبقى شئ آمن .

إن هذا الفتح المبين ليذكره بماض طويل الفصول ...!! كيف خرج مطارداً؟!! وكيف يعود اليوم منصوراً مؤيداً ..؟!! الله أكبر .. الله أكبر ... وأى كرامة عظمى حَفَّه الله بها هذا الصباح الميمون ؟؟ . وكلما استشعر هذه النعماء إزداد لله على راحلته خشوعاً وانحناءً يا ألله !! لحظة يرجف لها القلب هيبة وتُحنى لها الرءوس خشوعاً ....!

ولكن الحميّة أخذت « سعد بن عبادة » زعيم الأوس عندما تحرك جناحة للمسير ، تذكر ما فعل أهل مكة ، وما فرطوا فى جنب الله .. ثم شعر بزمام القوة فى يده فصاح :

اليوم يوم الملحمة !! اليوم تستحل الحرمة ، اليوم أذل الله قريشاً ...
وبلغت هذه الكلمة مسامع رسول الله ﷺ فقال :

« بل اليوم يوم تُعَظَّم فيه الكعبة[2] ... اليوم يوم أعزَّ الله فيه قريشا » وأمر أن يُنزع اللواء من « سعد » ويدفع إلى ابنه مخافة أن تكون لسعد صوله بين الناس .

----

(١) رواه ابن هشام (٢/٢٦٩) عن ابن اسحق عن عبد الله بن أبى بكر مرسلا ووصله الحاكم (٣/٤٧)

(٢) أخرجه البخارى وغيره فى حديث عروة مرسلا

وسار رسول الله ﷺ فدخل مكة من أعلاها [1]، وأمر قادة جيشه ألا يقاتلوا إلا من قاتلهم [2]، فدخلت سائر الفرق من أنحاء مكة الأخرى ودخلت الفرق والكتائب جميعا دون مقاومة من قريش ، إلا ما كان من الناحية التى دخل منها « خالد بن الوليد » فهناك كان يقطن أشد الناس عداوة للمسلمين، أمثال : « عكرمة بن أبى جهل » و « صفوان بن أمية » و «سهيل بن عمرو » .. فلم يَطِبْ لهؤلاء أن يدخل المسلمون عليهم دون مقاومة، فقاتلوهم مع من حرضوهم للقتال معهم إلى أن فروا جميعاً منهزمين أمام قوة المسلمين وأحس خالد بن الوليد بالمشركين يتطايرون من حوله أمام جيشه .

وغضب رسول الله ﷺ لما كان من قتال خالد بن الوليد ، ولكنه حينما علم أن خالداً لم يقاتل إلا بعد أن دُفِعَ إلى ذلك دفعاً قال : « الخير فيما اختاره الله »

وسكنت مكة ، واستسلم سادتها وأتباعها .. وعلت كلمة الله فى جنباتها ، ثم نهض رسول الله ﷺ إلى البيت العتيق ، فطاف به سبعا ، ثم دعا بعثمان بن طلحة ، فطلب منه أن يأتيه بمفاتيح الكعبة ، وأخذ يكسر الأصنام المصفوفة حوله ويضربها بقوسه ظهرا لبطن فتقع على الأرض مهشمة متناثرة .

كانت هذه الحجارة - قبل ساعة - آلهه مقدسة ، وهى الآن جصٌ وتراب وأنقاض ، يهدمها نبى التوحيد وهو يقول : « جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً »[3] .

---

(١) صحيح أخرجه البخارى (٨/١٤-١٥) عن ابن عمر وعائشه

(٢) ذكره ابن هشام (٣/٢٧٣) عن ابن اسحق بدون اسناد .

(٣) حديث صحيح أخرجه الشيخان فى صحيحيهما عن ابن مسعود ومسلم من حديث أبى هريرة .

ثم أمر بالكعبة ففُتحت ، فرأى الصور تملأها ، وفيها صورتان لإبراهيم واسماعيل يستقسمان بالأزلام فقال - ساخطا على المشركين - قاتلهم الله ، والله ما استقسما قط[1] ، ومحاذلك كله [2]، حتى إذا طهر المسجد من الأوثان أقبل على قريش وهم صفوف .. صفوف ، يرقبون قضاءه فيهم ، فأمسك بعضادتى الباب - باب الكعبة - وهم تحته فقال :

« لا إله إلا الله وحده .. صدق وعده ونصر عبده .. وهزم الأحزاب وحده »

ثم قال : يا معشر قريش : ما ترون أنى فاعل بكم ؟

قالوا : خيرا ، أخ كريم وابن أخ كريم .

قال : « فإنى أقول لكم ما قال يوسف لإخوته « لا تثريب عليكم اليوم إذهبوا فأنتم الطلقاء » [3].

كلمات دون شك سكتت قريش لحظة لها ، حتى تفهمت معناها الجليل ، وأدركت مغزاها الكبير ومن ثم ابتدأ يسرى إلى نفوس أبنائها الإعجاب والتقدير والإعزاز والحب لهذا الإنسان السامى الكامل النبيل المتمثل أمامهم في شخص محمد ﷺ .. يرتفع به سموُّ نفسه ونقاءُ روحه فوق مستوى البشرية وما فيها من الأحقاد والضغائن !

وعندما كان الرسول ﷺ بالمسجد يجهز على الوثنية فى عاصمتها الكبرى ، اقترب منه « فضاله بن عمير » يريد أن يجد فرصة ليقتله .. فنظر إليه النبى ﷺ نظرة عرف بها طويته ... إلا أنه فى غمرة النصر الذى

---

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى عن ابن عباس

(٢) حديث صحيح اخرجه أحمد (٣/٣٣٥ ، ٣٣٦ ، ٣٨٣ ، ٣٩٦) من حديث جابر بسند صحيح .

(٣) رواه ابن اسحق كما فى ابن هشام (٢/٢٧٤) وقد ذكره الغزالى فى «الأحياء» (٣/١٥٨) من حديث ابى هريرة ورواه ابن الجوزى فى (الوفاء) من طريق ابن ابى الدنيا

أكرمه الله به لم يجد فى نفسه على الرجل بل استدعاه ثم سأله : ماذا كنت تحدث به نفسك ؟

قال : لا شئ ، كنت أذكر الله .. ثم ضحك النبى ﷺ ، ثم قال : استغفر الله .. وتلطف معه الرسول ﷺ ، فوضع يده على صدره .. ، فانصرف الرجل وهو يقول :

ما رفع يده عن صدرى حتى ما من خلق الله شئ أحب إلى منه[1] .

سبحان الله وبحمده .. سبحانه الفتاح العليم .. سبحان مغير الأحوال..!!

ما بين طرفة عين وانتباهتها يغير الله من حال إلى حال

وصعد بلال فوق ظهر الكعبة فأذن للصلاة .. الله أكبر .. الله أكبر يا سيدى يا رسول الله ... صلى الله عليك وسلم تسليماً كبيراً .. لا إله إلا الله وحده .. صدق وعده ونصر عبده وهزم الأحزاب وحده .. سبحانك وتعاليت يا أرحم الراحمين.

وانصت أهل مكة للنداء الجديد على آذانهم كأنهم فى حلم ، إن هذه الكلمات تقصف فى الجو ... فتقذف بالرعب فى أفئدة الشيطان ، فلا يملكون أمام دويّها إلا أن يُولُّوا مُدبرين ، أو يعودوا مؤمنين « الله أكبر .. الله أكبر » هذه الصيحات المؤكدة تذكر الناس بالغاية الأولى من محياهم وبالمرجع الحق بعد مماتهم . فكم ضَلّلَتْ البشر غايات صغيرة أركضتهم على ظهر الأرض ركض الوحوش فى البرارى ، واجتذبت انتباههم كله ، فاستغرقوا فى السعى وراء الحطام ، وامتلكت عواطفهم كلها ، فالحزن يقتلهم للحرمان، والفرح يقتلهم بالإمتلاء ... ولمَ يُسفّه المرء نفسه بالغيبوبة فى هذه التوافه؟ إن صوت الحق يستخرجه من وراء هذه الحجب المتراكمة ، ليُلقى فى روعه ما كان ينساه ، وهو تكبير سيد الوجود ورب العالمين .. سيده ومولاه ...!

---

(١) رواه ابن هشام (٢ (٢٧٦) باسناد معضل .

« أشهد أن لا إله إلا الله ، أشهد أن لا إله إلا الله »

لقد سقط الشركاء جميعاً .. طالما ضرع الناس للوهم ، واعتزوا بالهباء، وأملوا الخير فيمن لا يملك لنفسه نفعا ، وانتظروا النجدة ممن لا يدفع عن نفسه عدوان ذبابة ، ولِمَ الخبط فى هذه المتاهات ؟ إن كان المغفلون يشركون مع الله بعض خلائقه ، أو يؤلهونها دونه !! فالمسلمون لا يعرفون إلا الله ربا، ولا يرون غيره موئلا .

والتوحيد المحض ، هو المنهج العتيد للغاية التى استهدفوها ... ولكن مَنْ الأسوة ؟ مَنْ الإمام فى هذا السبيل ؟ مَنْ الطليعة الهادية المُؤنسه ؟ إن المؤذن يستتلى ليذكر الجواب .

« أشهد أن محمداً رسول الله ... أشهد أن محمداً رسول الله » .

سيرة هذا الرجل النبيل هى المثل الكامل لكل إنسان يبغى الحياة الصحيحة .

إن محمدا ﷺ إنسان ، يرسم بسنته الفاضلة السلوك الفريد لمن اعتنق الحق وعاش له ، وهو يهيب بكل ذى عقل أن يُقبل على الخير ، وأن ينشط إلى مرضاة ولىّ أمره وولىّ نعمته ، فيحث الناس على أداء عبادة ميسورة رقيقة .

« حى على الصلاة .. حى على الصلاة » .

هذه الصلوات هى لحظات التأمل فى ضجيج الدنيا ... هى لحظات المآب كلما انحرف الإنسان عن الجادة ... هى لحظات الخضوع لله كلما هاج بالمرء النزق ، وطغت على فكره الأثرة فنظر إلى ما حوله وكأنه إله صغير ... هى لحظات الاستمداد والإلهام .

وما أفقر الإنسان - برغم غروره - إلى من يلهمه الرشد فلا يستحمق، ويمده بالقوة فلا يعجز ويستكين ... ثم يحث الناس - أخيراً - على تجنب الخيبة فى شئونهم كلها .

والخيبة - والعياذ بالله - إنما تكون فى الجهد الضائع سُدى ، فى العمل الباطل لأنه خطأ ، سواء كان الخطأ فى الأداء ، أو فى المقصد .... وهو يحذر من الخيبة عندما يدعو .

« حى على الفلاح .. حى على الفلاح »

ويوم يخرج العمل من الإنسان ، وهو صحيح فى صورته ونيته ، فقد أفلح ، ولو كان من أعمال الدنيا البحته ، ألم يُعَلِّمّ الله نبيه أن يجعل شئون حياته - بعد نسكه وصلاته - خالصة لله ؟ « **قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين**» [1].

ولا سبيل إلى ذلك إلا بإصغار ماعدا الله من غايات ، والتزام توحيده أبداً ، ومن ثَمَّ يعود إلى تقرير الغاية والمنهج مرة أخرى .

« الله أكبر ... الله أكبر ... لا إله إلا الله .... »

إن كلمات الأذان تمثل العناوين البارزة لرسالة كبيرة فى الإصلاح ، ولذلك جاء فى السنن الثابتة أن المسلم عندما يسمعها يقول : « اللهم رب هذه الدعوة التامة ، والصلاة القائمة ، آت محمدا الوسيلة والفضيلة ،

----

(١) سورة الأنعام : ١٦٢ ، ١٦٣

وابعثه مقاما محمودا الذي وعدته إنك لا تخلف الميعاد »[1] .

وبعد أن أتم بلال الأذان ، أَمَّ رسول الله ﷺ الناس فصلى بهم بجوار بيت الله ، وفي رحاب كعبته ، ثم قام على الصفا يدعو الله .

★★★

ويوم الفتح قد ترجع بنا الذكريات إلى رجال لم يشهدوا هذا النصر المبين .. ولم يسمعوا صوت بلال يرن فوق الكعبة بشعار التوحيد ، ولم يروا الأصنام مكبوبة على وجوهها مسواة بالرغام ولم يروا عُبَّادها الأقدمين وقد اتجهوا إلى الإسلام .. إنهم قُتلوا أو ماتوا إبان المعركة الطويلة التى نشبت بين الإيمان والكفر .

ولكن النصر الذى يجنى الأحياء ثماره اليوم لهم فيه نصيب كبير ، وجزاؤهم عليه مكفول عند من لا يظلم مثقال ذرة .

إنه ليس من الضرورى أن يشهد كل جندى النتائج الأخيرة للكفاح بين الحق والباطل ، فقد ينتهى أجله فى المراحل الأولى منه ، وقد يصرع فى هزيمة عارضة - كما وقع لسيد الشهداء « حمزة » ومن معه- والقرآن الكريم ينبه أصحاب الحق إلى أن المعول فى الحساب الكامل على الدار الآخرة لا على الدار الدنيا فهناك الجزاء الأوفى للمؤمنين والكافرين جميعاً:

« فاصبر إن وعد الله حق فإما نرينك بعض الذى نعدهم أو نتوفينك فإلينا يرجعون »[2].

----

(١) حديث صحيح أخرجه البخارى فى صحيحة وفى (أفعال العباد) واصحاب السنن الأربعة ، والطبرانى فى (الصغير) وابن السنى فى (عمل اليوم والليلة) ، واحمد والبيهقى من حديث جابر مرفوعا دون قوله : إنك لا تخلف الميعاد فتفرد بها البيهقى ، وهى شاذة لا تصح .

(٢) سورة غافر : أيه ٧٧

ودخل رسول الله ﷺ مكة لعشر بقين من شهر رمضان سنة ثمان ، وظل بها سائر الشهر يقصر ، ويفطر أكثر من خمسة عشر يوماً ، وكان قد خرج من المدينة صائماً ، ثم أفطر هو وصحبه فى الطريق[١] .

فلما استقر الأمر شرع يبايع الناس على الإسلام [٢]فجاءه الكبار والصغار ، والرجال والنساء فتمت البيعة على السمع والطاعة لله ولرسوله فيما استطاعوا[٣] .

وسنة رسول الله ﷺ في مبايعة النساء أن يأخذ عليهن الميثاق كلاماً لا مصافحة .

فعن عائشة : لا والله ما مست يد رسول الله يد إمرأة قط[٤] .

وهكذا دخل أهل مكة فى الإسلام ، وإن كان بعضهم بقى على ريبته وجاهليته يتعلق بالأصنام ويستقسم بالأزلام ، وأولئك تُركوا للأيام تشفى جهلهم ، وتحيى ما مات من قلوبهم وألبابهم . وما دامت الدولة التى تحمى الوثنية وتقاتل دونها قد ذهبت وولت ، فسوف تتلاشى هذه الخرافة من تلقاء نفسها .

إن فتح مكة جاء عقب ضربة خاطفة ، ولقد أفلحت خطة المسلمين فى تعمية الأخبار عن قريش حتى بوغتوا فى عقر دارهم .. فلم يجدوا مناصا للإستسلام .

---

(١) أما قصره ﷺ فى مكة فثابت فى « البخارى » (٨/١٧) عن ابن عباس قال: أقام النبى بمكة تسعه عشر يوما يصلى ركعتين ، وأما إفطاره فهو فى « الصحيحين » من حديث ابن عباس أيضا

(٢) حديث حسن رواه أحمد (٣/٤١٥ . ٤/١٦٨) من حديث الأسود بن خلف وسنده حسن .

(٣) ضعيف رواه ابن جرير بدون اسناد (٢/٣٢٧) أو من حديث قتادة مرسلا والطريق اليه ضعيف .

(٤) صحيح أخرجه الشيخان وغيرهما .

فما استطاعوا الجلاد ولا استجلاب الأمداد ، وفتح العرب جميعاً أعينهم ، فإذا هم أمام الأمر الواقع حتى خُيِلّ إليهم أن النصر معقود بألوية الإسلام فما ينفك عنها .

﴿ أحداث حدثت أثناء فتح مكة ﴾

قال ابن اسحق : وحدثنى « يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير » عن أبيه عن جدته « أسماء » إبنة أبى بكر رضى الله عنه قالت :

لما وقف النبى ﷺ بذي طوى قال « أبو قحافة لإبنة له من أصغر ولده: أى بنية ، اظهرى بى على « أبى قبيس » قالت : (وقد كَفَّ بصره) قالت: فأشرفت به عليه فقال : أى بنية ، ماذا ترين ؟ قالت : أرى سواداً مجتمعاً ، قال : تلك الخيل ، قالت : وأرى رجلاً يسعى بين يدى ذلك السواد مقبلاً مدبراً ، قال : أى بنية ، ذلك الوازع (يعنى الذى يأمر الخيل ويتقدم إليها ويرتبها) ثم قالت : قد والله انتشر السواد . فقال : قد والله إذن دُفعت الخيل ، فأسرعى بى إلى بيتى .

فانحطت به وتلقاه الخيل قبل أن يصل إلى بيته ، وفى عنق الجارية طوق من ورق ، فيلقاها رجل فيقتطعه من عنقها قالت : فلما دخل رسول الله ﷺ مكة ، ودخل المسجد أتى أبو بكر بأبيه يقوده ، فلما رآه رسول الله ﷺ قال : هلا تركت الشيخ فى بيته ، حتى أكون أنا آتيه فيه ؟ قال أبو بكر : يا رسول الله ، هو أحق أن يمشى إليك من أن تمشى أنت إليه قالت : فأجلسه بين يديه ، ثم مسح صدره ، ثم قال : « أسْلِمْ » فَأَسْلَمَ ، قالت : فدخل به

أبو بكر وكأن رأسه ثغامة[1] فقال رسول الله ﷺ : « غيروا هذا من شعره » ثم قام أبو بكر فأخذ بيد أخته وقال : أنشد الله والإسلام طوق أختى فلم يجبه أحد .. فقال : أى أخية احتسبى طوقك فوالله إن الأمانة فى الناس اليوم لقليل . (إسناد صحيح)

وقال ابن اسحق : وكان رسول الله ﷺ قد عهد إلى أمرائه من المسلمين حين أمرهم أن يدخلوا مكة ، أن لا يقاتلوا إلا من قاتلهم ، إلا أنه قد عهد فى نفر (سماهم) أمر بقتلهم ، وإن وُجدوا تحت أستار الكعبة منهم : «عبد الله بن سعد » أخو « بنى عامر بن لؤى) وإنما أمر رسول الله ﷺ بقتله ، لأنه كان قد أسلم ، وكان يكتب لرسول الله ﷺ الوحى ، فارتدَّ مشركا راجعاً إلى قريش ، ففر إلى « عثمان بن عفان » - وكان أخاه فى الرضاعة - فغيبه حتى أتى به رسول الله ﷺ بعد أن إطمأن الناس وأهل مكة ، فاستأمن له ، فزعموا أن رسول الله ﷺ صَمَتَ طويلا ثم قال : « نعم » فلما انصرف عنه عثمان ، قال رسول الله ﷺ لمن حوله من أصحابه : لقد صَمَتُّ ليقوم إليه بعضكم فيضرب عنقه . فقال رجل من الأنصار : فهلا أومأت إلىّ يا رسول الله ، قال : « إن النبى لا يقتل بالإشارة »

قال ابن هشام : ثم أسلم بعد ، فولاه «عمر بن الخطاب » بعض أعماله، ثم ولاه عثمان بن عفان بعد عمر رضى الله عنهما .

(حديث صحيح)

وقال ابن اسحق : و « عبد الله بن خطل » رجل من « بنى تيم بن غالب » وإنما أمر بقتله ، أنه كان مسلماً ، فبعثه رسول الله ﷺ مصدقاً ، وبعث

---

(١) الثغامة : واحدة الثغام ، وهو نبات الجبال الأبيض ، يُشَبَّه به الشيب

معه رجلاً من الأنصار ، وكان معه مولى له يخدمه ، وكان مسلماً ، فنزل منزلاً ، وأمر المولى أن يذبح له تيساً ، فيصنع له طعاما فنام فاستيقظ ولم يصنع له شيئا ، فعدا عليه فقتله ، ثم ارتدَّ مشركاً ، وكانت له قينتان (جاريتان) وكانتا تغنيان بهجاء رسول الله ﷺ ، فأمر رسول الله ﷺ بقتلهما معه .

و « الحويرث بن نقيذ بن وهب بن عبد بن قصى » وكان ممن يؤذيه بمكة.

قال ابن هشام : وكان العباس بن عبد المطلب حمل فاطمة ، وأم كلثوم ابنتى رسول الله ﷺ من مكة يريد بهما المدينة فنخس بهما « الحويرث بن نقيذ » فرمى بهما إلى الأرض .

قال ابن اسحق : و « مقيس بن صبابة » وإنما أمر رسول الله ﷺ بقتله لقتل الأنصارى الذى كان قتل أخاه خطأ ، ورجوعه إلى قريش مشركا .

و « سارة » مَوْلاة لبعض بنى عبد المطلب ، و «عكرمة بن أبى جهل» وكانت « سارة » ممن يؤذيه بمكة ، أما عكرمة فهرب إلى اليمن ، وأسلمت إمرأته (أم حكيم بنت الحارث بن هشام ، واستأمنت له من رسول ﷺ فأمنه، فخرجت فى طلبه إلى اليمن، فأتت به رسول الله ﷺ ، فأسلم» .

وأما « عبد الله بن خطل » فقتله « سعيد بن حريث المخزومى » و«أبو برزة الأسلمى » اشتركا فى دمه ، وأما « مقيس بن صبابه » فقتله «نميلة بن عبد الله» رجل من قومه . وأما « قينتا بن خطل » فقُتلت إحداهما ، وهربت الأخرى حتى استؤمن لها من رسول الله ﷺ بعد ، فأمنها ، وأما « سارة » فاستؤمن لها ، فأمنها ... ثم بقيت حتى أوطأها رجل من الناس فرساً فى زمن عمر بن الخطاب بالأبطح فقتلها ، أما « الحويرث بن نقيذ » فقتله على بن أبى طالب رضى الله عنه .

قال ابن اسحق : وحدثني سعيد بن أبي هند ، عن أبي مرة مولى (عقيل بن أبي طالب) أن (أم هانئ) ابنة أبي طالب قالت : لما نزل رسول الله ﷺ بأعلى مكة ، فَرَّ إليّ رجلان من أحمائي من بني مخزوم ، وكانت عند (هبيرة بن أبي وهب المخزومي) قالت : فدخل عَليٌّ (على بن أبي طالب) أخي فقال : والله لأقتلنهما ، فأغلقت عليهما باب بيتي ، ثم جئت رسول الله ﷺ ، وهو بأعلى مكة ، فوجدته يغتسل من جفنه إن فيها لأثر العجين، وفاطمة ابنته تستره بثوبه ، فلما اغتسل أخذ ثوبه فتوشح به ، ثم صلى ثماني ركعات من الضحى ، ثم انصرف إليّ فقال : « مرحباً وأهلاً بأم هانئ، ما جاء بك ؟) فأخبرته خبر الرجلين ، وخبر على ، فقال : « قد أجرنا من أجرت ، وأمنا من أمنت ، فلا يقتلنهما » .

قال ابن هشام : هما (الحارث بن هشام) و (زهير بن أبي أمية بن المغيرة) . (إسناده صحيح)

ثم إن رسول الله ﷺ لما نزل إلى مكة وإطمأن الناس .. خرج (صفوان بن أمية) يريد جَدَّه ، ليركب منها إلى اليمن ، فقال (عمير بن وهب): يا نبي الله ، إن (صفوان بن أمية) سيد قومه ، وقد خرج هارباً منك ليقذف نفسه في البحر ، فأمّنه صلى الله عليك ، قال : هو آمن . قال عمير: يا رسول الله ، أعطني آية يعرف بها أمانك ، فأعطاه رسول الله ﷺ (عمامته التي دخل بها مكة) فخرج بها عمير حتى أدركه وهو يريد أن يركب البحر فقال : يا صفوان ، فداك أبي وأمي ، الله الله في نفسك أن تهلكها ، فهذا أمان من رسول الله ﷺ قد جئتك به ، قال : ويحك أغرب عني .. فلا تكلمني !!

قال : أي صفوان ، فداك أبي وأمي ، أفضل الناس ، وأبر الناس وأحلم الناس ، وخير الناس .. ابن عمك عِزُّه عزِكَ ، وَشَرَفُهُ شرفك وملكه

ملكك . قال : إنى أخافه على نفسى ، قال : هو أحلم من ذاك وأكرم .

فرجع معه .. حتى وقف به على رسول الله ﷺ ، فقال صفوان إن هذا يزعم أنك أمنتنى .. قال ﷺ : صدق . قال : فاجعلنى فيه بالخيار شهرين قال: أنت بالخيار فيه أربعة أشهر .

قال ابن اسحق : وحدثنى سعيد بن أبى سعيد المقبرى ، عن أبى شريح الخزاعى قال : لما قدم « عمرو بن الزبير » مكة لقتال أخيه (عبد الله بن الزبير) جئته فقلت له : يا هذا ، إنا كنا مع رسول الله ﷺ حين افتتح مكة، فلما كان الغد من يوم الفتح ، عَدَتْ (خزاعة) على رجل من هزيل فقتلوه وهو مشرك ، فقام رسول الله ﷺ فينا خطيبا فقال :

« يا أيها الناس إن الله حرم مكة يوم خلق السموات والأرض ، فهى حرام من حرام إلى يوم القيامة ، فلا يحل لإمرئ يؤمن بالله واليوم الآخر أن يسفك فيها دما ولا يعضد فيها شجراً ، لم تُحْلَلْ لأحد كان قبلى ، ولا تُحَلْ لأحد يكون بعدى ولم تُحْلَلْ لى إلا هذه الساعة غضباً على أهلها ، ألا ثم قد رجعت كحرمتها بالأمس ، فليبلغ الشاهد منكم الغائب ، فمن قال لكم : إن رسول الله قد قاتل فيها ، فقولوا إن الله قد أحلها لرسوله ولم يحللها لكم ، يا معشر خزاعة ، ارفعوا أيديكم عن القتل ، فلقد كثر القتل إن نفع لقد قتلتم قتيلا لأدينه ، فمن قتل بعد مقامى هذا فأهله بخير النظرين إن شاءوا فدم قاتله ، وإن شاءوا فعقله » .

ثم ودى رسول الله ﷺ ذلك الرجل الذى قتلته خزاعة فقال عمرو لأبى شريح : انصرف أيها الشيخ ، فنحن أعلم بحرمتها منك ، إنها لا تمنع سافك دم ولا خالع طاعة ، ولا مانع جزية فقال أبو شريح : إنى كنت شاهداً وكنت

غائباً ، ولقد أمرنا رسول الله ﷺ أن يبلغ شاهدنا غائبنا وقد بلغتك فأنت وشأنك . (إسناده صحيح)

وقال ابن هشام : وبلغنى عن (يحيى بن سعيد) أن النبى ﷺ حين إفتتح مكة ودخلها ، قام على الصفا يدعو الله وقد أحدقت به الأنصار ، فقالوا فيما بينهم : أترون رسول الله ﷺ إذا فتح الله عليه أرضه وبلده يقيم بها ؟!

فلما فرغ من دعائه قال : « ماذا قلتم ؟ » قالوا : لا شئ يا رسول الله، فلم يزل بهم حتى أخبروه ، فقال النبى ﷺ : معاذ الله ، المحيا محياكم والممات مماتكم »

(حديث صحيح واسناده معضل)

﴿تسليم مفتاح الكعبة لعثمان بن طلحة﴾

بعد أن أتم رسول الله ﷺ تطهير الكعبة مما كان فيها من صور ، أتى إليه على بن أبى طالب ومفتاح الكعبة فى يده فقال :

يا رسول الله ، اجمع لنا الحجابة مع السقايه ، صلى الله عليك ، فقال رسول الله ﷺ : أين عثمان بن طلحة ؟ فدعى له فقال : « هاك مفتاحك يا عثمان .. اليوم يوم بر ووفاء » .

وأقام محمد ﷺ بمكة خمسة عشر يوماً ، يأتى الناس إليه فيدخلون فى دين الله أفواجاً وجماعات .. وهو لا يكف عن التسبيح لله تعالى ، وترديد آياته التى أنزلها عليه :

« إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا »[1] .

★★★

﴿ ١٣ - مسير خالد بن الوليد بعد فتح مكة إلى بنى جذيمة من كنانة ﴾

وفى خلال الخمسة عشر يوما التي قضاها الرسول ﷺ بمكة ، بعث برُسلٍ إلى من حولها من جهات يدعون فيها للإسلام ، ولم يأمرهم بقتال ، وأمرهم بأن يتولوا هدم ما بها من أصنام فبعث خالد بن الوليد إلى العزى فهدمها ، وبعث عمرو بن العاص إلى صنم هذيل فهدمه ، وبعث إلى ذى الكفين ومناة من هدمهما . ودخل فى الإسلام ، واستجاب لرسل محمد ﷺ كثير من الناس بعد ما علموا بإسلام أكثر أهل قريش ، وكان فيمن بعثهم محمد ﷺ للدعوة إلى الإسلام (خالد بن الوليد) بعثه إلى (بنى جذيمة) فى جماعة ممن أسلم من قبائل العرب ، وأمره أن يسير بأسفل تهامة داعياً، ولم يبعثه مقاتلاً .

ورفع بنو جذيمة أسلحتهم حين رأوا خالداً ومن معه مقبلين عليهم ، وتهيئوا لقتالهم فصاح خالد عليهم : ضعوا السلاح فإن الناس قد أسلموا .. وتردد بنو جذيمة فيما يفعلون ، فقال لهم رجل منهم يُدعى « جَحْدَماً » لما رأى ترددهم : ويلكم يا بنى جذيمة إنه خالد والله ! ما بعد السلاح إلا الإسار وما بعد الإسار إلا ضَرْب الأعناق ، والله لا أضع سلاحى أبداً ....

فأجاب بعضهم : يا جحدم : أتريد أن تسفك دماءنا ؟ إن الناس قد أسلموا ، ووُضعت الحرب وآمن الناس . . » . . . ومازالوا به حتى وضع سلاحه . . ووضع معه من كانوا يؤيدون القتال سلاحهم ، وسلموا لخالد وهم يقولون : صبأنا ... صبأنا ....!! (أى خرجنا عن ديننا) عندئذٍ أمر خالد فَكُتِّفُوا وعرضهم على السيف ، فقتل منهم عددا غير قليل .

---

(١) سورة النصر ١ ، ٢ ، ٣ .

مسير على بن أبى طالب لتلافى خطأ خالد بن الوليد :

ولما بلغ رسول الله ﷺ ما فعل خالد ببنى جذيمة بعد أن ألقوا بسلاحهم كان له فى نفسه وَقْعٌ شديد ، ورفع يديه إلى السماء يقول : « اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد » - عن ابن اسحق عن حكيم بن حكيم عن أبى جعفر محمد بن على - (حديث صحيح واسناده مرسل)

ثم دعا بعلى بن أبى طالب ، فأعطاه مالاً وقال له :

« أخرج إلى هؤلاء القوم فانظر فى أمرهم واجعل أمر الجاهلية تحت قدميك » فخرج على بن أبى طالب إلى بنى جذيمة ، فدفع إليهم دية قتلاهم وما تلف لهم من مال ومتاع فلما لم يبق لبنى جذيمة دم ولا مال إلا وَدَاهُ (دفع ديَتَهُ) وقد تبقى معه مبلغ من المال دفعه إليهم وهو يقول : إنى أعطيكم هذه البقية من هذا المال احتياطاً لرسول الله ﷺ مما لا يعلم ولا تعلمون . ففعل ثم رجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره الخبر فقال ﷺ : « أصبت وأحسنت » قال : ثم قام رسول الله ﷺ فاستقبل القبلة قائماً شاهراً يديه حتى ليرى ما تحت منكبيه يقول :

« اللهم إنى أبرا إليك مما صنع خالد بن الوليد » ثلاثا .(صح بنحوه واسناده منقطع)

ولما أراد الناس أن ينالوا من خالد لمَا كان منه قال الرسول ﷺ : « لا تسبوا خالد بن الوليد ، فإنما هو سيف من سيوف الله سَلَّهُ على المشركين »

وهكذا طُهِّرَت مكة وما حولها من الأصنام والأوثان حتى لَكَأَن الناسُ يسارعون إلى تحطيم ما ببيوتهم منها وهم يقولون : لقد كنا منك فى غرور !.

وأقام الرسول ﷺ على أهل مكة من يعلمهم ويفقههم فى الدين ، وأقرَّ سقاية الحاج من زمزم لعمه العباس ، وأَقَرَّ عثمان بن طلحة وأولاده من بعده على سدانة الكعبة إلى يوم القيامة لا يأخذها منهم إلا معتدٍ ظالم .

★ ★ ★

٢٥ - ﴿ غـزوة حنـين ﴾

بيد أن هذا النصر كان له رد فعل معاكس لدى القبائل الكبيرة القريبة من مكة وفى مقدمتها « هوازن» و « ثقيف » وتعتبر « الطائف » قصبتها وهى أكبر المدن فى الجزيرة بعد مكة ويثرب .

أما « هوازن » فكان قد بلغها ما أصاب المسلمون من نصر بفتح مكة، فأسرعوا تحت إِمْرَةَ « مالك بن عوف النصرى » فأهابوا بحلفائهم من ثقيف وغيرها من القبائل الموالية لهم ، فجمعوا منها الجموع على عَجَلٍ للخروج إلى رسول الله ﷺ ، واعتراض طريقه قبل أن يسير هو إليهم لتحطيم أصنامهم والقضاء على وثنيتهم .

وكان « مالك بن عوف » شجاعاً مقداماً إلا أنه سقيم الرأى .. سيئ المشورة فأمر قومه - وهم خارجون للغزو - أن يأخذوا معهم نساءهم وأموالهم وذراريهم ، ليشعر كل رجل وهو يقاتل أن ثروته وحرمته وراءه فلا يَفِرُّ عنها .. وقد اعترضه « دُرَيْدُ بن الصِمَّة » - وهو فارس مجرب محنك - وقال له : هل يردُّ المنهزم شئ ؟ إن كانت الدائرة لك ، لم ينفعك إلا رجل برمحه وسيفه وإن كانت عليك فُضحت فى أهلك ومالك ..

فَسَفَّه « مالك » رأيه وأصرَّ على خطته .

وعلم المسلمون بمخرج أعدائهم فأرسلوا عيونهم يتعرفون عُدَّتهم وهيئتهم

روى أبو داود : أن رجلاً جاء إلى رسول الله ﷺ فقال له : إنى انطلقت بين أيديكم حتى طلعت جبل كذا وكذا فإذا أنا « بهوازن » عن بكرة أبيهم

بظعنهم وبنعمهم وشأتهم اجتمعوا إلى « حنين » .. فتبسم رسول الله ﷺ وقال : « تلك غنيمة المسلمين غدا إن شاء الله »[1] .

غادر النبي ﷺ مكة في إثني عشر ألف مقاتل بعد أن انضم إلى جيشة الذى أتى به لفتح مكة ألفان من أهلها ، وقد تزودوا جميعا بالزاد والعتاد .

واستعمل « عتاب بن أسيد بن أبى العيص بن أمية بن عبد شمس » على مكة أميرا على من تخلف عنه من الناس وسار هذا الجيش العرمرم الكبير الذى لم تشهد جزيرة العرب جيشا مثله للمسلمين ... وقد ملك رجاله الزهو والإعجاب .

إن السهولة التى تم بها فتح مكة ... وإحساس جمهور المؤمنين أن الجاهلية تلفظ أنفاسها الأخيرة فلن تبدى مقاومة تذكر .. وظن حدثاء العهد بالإسلام أن شيئا ما لن يقف فى طريقه .. كل ذلك جعل الجيش يزحف للقاء المشركين وهو غير مكترث لما سوف يواجه ... ولم يكترث ؟ إنهم وهم قِلّة كانوا يكسبون المعارك الطاحنة ، فكيف وهم اليوم يخرجون فى عدد لم يجمعوا مثله قبلاً ؟ قيل : إن أبا بكر الصديق لما نظر إلى الجيش قال : لن نغلب اليوم من قلة ....

وسار جيش المسلمين حتى وصل إلى « وادى حنين » .

---

(١) حديث صحيح أخرجه أبو دواد (١/٣٩١-٣٩٢) عن سهل بن الحنظلية بسند صحيح

وكان « مالك بن عوف » ورجاله قد سبقوا إلى احتلال مضايقه ، وكمنوا بين منعطفات الوادى ، وبين مُنْفَرَجَاتِ جبل حنين حتى إذا ما انحدر المسلمون إلى الوادى شَدُّوا عليهم شَدَّة رجل واحد .... وانبثوا فى الشعاب والأجناب المنيعة ثم تهيئوا لاستقبال المسلمين . وأقبلت الطلائع الغفيرة تتدافع نحو الوادى - وهى غافلة عما يكمن فيه - وكان وادياً أجوف منحدراً ، يَنْحَطُّ فيه الركبان كلما أوغلوا .. كأنهم يسيرون إلى هاوية ...!!

فلما تكاثرت فى درويه الفرق الزاحفة ، لم يَرُعْهم إلا وابل من السهام يتساقط فوقهم من المكامن العالية !!! وكان غبش الفجر لا يزال يترك بقاياه فى الجو الغائم، فارتاعت المقدمة لهذه المفاجأة .. فهى فى عماية من الليل وعماية من أمرها !! لا تعرف إلا أن تستدير ثم تولى الإدبار ...! وكرٌّ المسلمون يدفع بعضهم بعضاً يتزاحمون إلى الهرب ، ويتسابقون إلى الفرار!! وانتشرت موجة الفزع ، فكسرت الصفوف المرصوصة وبعثرتها !

واستغل رجال « مالك » هذا الارتباك ، فهجمت كتائبهم ، وحملت الخيل على ما أمامها فانكفأ المسلمون مهزومين لا يلوى أحد على أحد ...!

ورأى ماحلٌ بالمسلمين جماعة من قريش الذين أسلموا بالأمس ، والذين لم يسلموا بقلوبهم وانما خرجوا مع جيش المسلمين يبغون الغنيمة .. ونظروا إلى الجيش المولى نظرة تَشَفٍّ وفرح !!

وعاد إلى بعضهم كفره بالله ورسوله ، فقال أبو سفيان : لا تنتهى هزيمتهم دون البحر . ولا عجب فإن الأزلام التى يستقسم بها فى جاهليته لا تزال فى كنانته ...!!

وقال « شيبه بن عثمان بن أبى طلحة » : اليوم أُدْرِكُ ثأرى من محمد ..!!

وقال « كلدة بن الجنيد » : ألا بطل سحر محمد اليوم ...!!

فأجابة « صفوان بن أمية » - ولم يزل مشركا : أسكت فَضَّ الله فاك .. فوالله لأن يُربّني رجل من قريش أحب إلى من أن يُربّنى رجل من «هوازن» .

وفى هذه اللحظة العصيبة بالنسبة للمسلمين ... الدقيقة بالنسبة لتقرير مصيرهم ....! الحاسمة بالنسبة لبقاء هيبتهم أوضياعها ...! لم ييأس الرسول ﷺ من رحمة ربه ، ولم يَدُرْ بخُلده أن ربه تخلّى عنه ... فانحاز ﷺ ذات اليمين وقد أغضبه هذا الفرار فصاح :

« أين أيها الناس ؟ هلموا إلىّ أنا رسول الله .. أنا محمد بن عبد الله ...! »

فلا يرد عليه أحد .. وركبت الإبل بعضها بعضا وهى مولية بأصحابها[1]!!!

ولمح النبى ﷺ وراءه رجل من « هوازن » على جمل له أحمر بيده راية سوداء فى رأس رمح طويل و« هوازن » خلفه إذا أدرك الفارين طعن برمحه، وإذا فاتوه رفع رمحه لمن وراءه فاتبعوه .

إن الذى تولى كِبْرَ هذه المهزلة الشائنه هم الطلقاء من أهل مكة ورعاع البدو ...!

----

(١) صحيح أخرجه ابن هشام (٢٨٩/٢) وابن جرير (٣٤٧/٣) كلاهما عن ابن اسحق بسند صحيح عن ابن جابر بن عبد الله .

ووقف النبي ﷺ ساكن الجأش .. يدير الرأى فى خطة ينقذ بها سمعه الإسلام ومستقبله ، وقد أحاط به لفيف من المهاجرين الأولين ، ومن أهل بيته .

فأمر الرسول ﷺ (العباس بن عبد المطلب) - وكان العباس رجلاً جسيماً جهورى الصوت - بأن ينادى : يا معشر الأنصار الذين أوَوا ونصروا ...

يا معشر المهاجرين الذين بايعوا تحت الشجرة ...

يا أصحاب البيعة « يوم الحديبية »[1] .

لقد هداه الله سبحانه وتعالى أن يهتف بأصحاب العقائد ، ورجال الفداء عند الصدام، فهم - وحدهم - الذين تنجح بهم الرسالات وتفرج الكروب .

أما هذا الغثاء من العوام الحراص على الدنيا ، السعاة إلى المغانم فما يقوم بهم أمر ، أو تثبت بهم قدم .

---

(١) صحيح رواه ابن اسحق بسند صحيح عن العباس وقد ساقه ابن جرير وابن هشام عنه ، وهو فى مسلم (٥/١٦٦-١٦٧) نحوه .

﴿ الثبات والنصر ﴾

وتردد نداء العباس في جنبات الوادى .. وسمع المهاجرون الذين هاجروا في سبيل الله تاركين ديارهم وأموالهم .. وسمع الأنصار الذين نصروا النبى ﷺ وعاونوه حينما اضطهده قومه من قريش .. أَيَتَخَلَّوْنَ عن محمد اليوم ؟!! أيخذلونه ويسلمونه ؟!

أيضيعون جهاد السنين في سبيل دين الله ؟؟!!

لا .. هذا لن يكون أبدا .....!! وأنزل الله سكينتــه فى قلوبهم بعــد الفزع .. وملأ نفوسهم بالثقة بعد الخوف ...

واندفع فريق من المهاجرين ، وفريق من الأنصار يلبون نداء الرسول ﷺ مجيبين : لبيك .. لبيك يا رسول الله ...

ونزل الكثيرون منهم عن إبلهم حين عَزَّ عليهم الرجوع بها ، وأسرعوا إلى ناحية الرسول ﷺ يلبون نداءه ...

لك الحمد والشكر يارب .. واقتحم المسلمون يواجهون العدو ، وفى مقدمتهم (على بن أبى طالب) وأسرع علىّ يؤازره رجل من الأنصار إلى حامل راية « هوازن فانقضا عليه فصرعاه . وتجالد الناس ... وحَمِىَ القتال .. ونظر النبى ﷺ إلى جيشه وقد ارتدَّت إلى رجاله عزيمتهم، وعاد إليهم بأسهم وقوتهم .. فاشتبكوا مع أعدائهم فى قتال حاد عنيف فقال :

« الآن حمى الوطيس » ثم أخذ حفنة من الحصى فحصب بها وجوه المشركين وهو يقول : « شاهت الوجوه ! اللهم إنى أنشدك ما وعدتنى ، اللهم لا ينبغى عليهم أن يظهروا علينا ، انهزموا ورب محمد » .

قال العباس : فذهبت أنظر ، فإذا القتال على هيئته فيما أرى ، فما هو إلا أن رماهم فمازلت أجد حدهم كليلا ، وأمرهم مدبرا[1] .

ودارت الدائرة ، وانعكست الآية ، وأصبح المشركون ولاهَمَّ لهم إلا الفرار من وجوه المسلمين . والنجاة بأرواحهم ، والخلاص بأنفسهم .

ولم يطل الوقت .. حتى كان رجال ثقيف ومن معهم يوغلون مُولِّين الأدبار في وادى حنين واتبع المسلمون المشركين فى فرارهم يطاردونهم ويقاتلونهم أشد قتال ، والنبى ﷺ يقول : « من قتل قتيلا فله سلبه » ورجع الطلقاء والبدو إلى رسول الله ﷺ فإذا هم يَروْن الأسرى مكتفين .

وفى هذه المعركة نزل قول الله تعالى : « **لقد نصركم الله فى مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ثم أنزل الله سكينته على رسوله وعلى المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا وذلك جزاء الكافرين**»[2].

وهكذا كان النصر فى جانب المسلمين بعد ما ظُنَّ بهم الظنون، وبعد ما شمت الشامتون !.. وحتى جَرُؤَ « شيبة بن عثمان بن أبى طلحة » على أن يقصد إلى النبى ﷺ يريد قتله ليأخذ ثأره لأبيه الذى قُتل يوم « أحد » حتى إذا ما كان بالقرب منه غَشِيَتْهُ غاشية لم يستطع منها أن يرفع سيفه على النبى ﷺ، فتقهقر، وعندئذٍ سمع صوت النبى ﷺ بقوله: يا شيب أدن منى !

----

(١) صحيح رواه مسلم عن العباس

(٢) سورة التوبة : ٢٥ . ٢٦

فدنا شيبة من الرسول ﷺ وهو مُطْرِقٌ لا يستطيع رفع طرفه إليه ، فوضع الرسول ﷺ يده على صدر « شيبة » وهو يقول :

« اللهم أذهب عنه الشيطان » فرفع « شيبة » رأسه وقد أضحى الرسول ﷺ أعز لديه من حياته وقال الرسول ﷺ : يا شيب ، قاتل الكفار فتقدم (شيبة) يقاتل بين يدى الرسول ﷺ وهو يود أن يقيه بنفسه.

وفَرَّ المشركون المنهزمون أمام جيش المسلمين متفرقين هنا وهناك ، فمنهم من فَرَّ إلى « الطائف » ومنهم من سار إلى « نخلة » ومنهم من عاد إلى « أوطاس » حيث كانوا يعسكرون لينجوا بمتاعهم وأولادهم ، ولكن المسلمين كانوا فى أثرهم يقاتلون ويأسرون .

وأرسل النبى ﷺ فى أعقابهم « أبا عامر الأشعرى » فقاتلهم حتى قُتل، فأخذ الراية منه ابن عمه « أبو موسى الأشعرى » فمازال يناوش القوم حتى بَدَّدَ شملهم وهُزِموا شر هزيمة[1] .

وقُتل « دريد بن الصمة » قتله « ربيعه بن رفيع السُّلَمى » المعروف «بابن الدُّغُنَّه» وهو بعد غلام يافع .. وكان قد أناخ به الهودج ، وهو يحسبه إمرأة يريد سلبها ، فلما رآه رجلاً هَمَّ بقتله فقال له (دريد) : من أنت ؟ فأخبره (ربيعه) باسمه ، ثم أهوى عليه بسيفه فلم يصب منه مقتلا، فقال له «دريد» : بئس ما سلحتــك أمك .. خذ سيفى من مؤخر الرحل . ثم

---

(١) صحيح ذكره ابن اسحق بدون اسناد ومعناه فى البخارى (٨/٢٣-٣٥) وابن جرير (٣٥١/٢) من حديث أبى موسى الأشعرى .

اضرب به وارفع عن العظام واخفض عن الدماغ ، فإنى كذلك كنت أضرب الرجال ، ثم إذا أتيت أمك فأخبرها أنك قتلت « دريد بن الصمة » فضربه فقتله .

ولما التقى ربيعه بأمه وأخبرها بما فعل ، وبما قال له دريد قالت : إنما قال ذلك ليذكرنا نعمه عليك ، فوالله لقد أعتق لك أمهات ثلاث أنا وأمى وأم أبيك[1] .

ونهى رسول الله ﷺ عن قتل الضعفاء والنساء والأولاد ، وكان المسلمون لشدة حنقهم على مشركى « هوازن » يودون لو يقتلون ذراريهم وهم يقولون : إنما هم أولاد المشركين . فكان جواب رسول الله ﷺ عن ذلك : «أو ليس خياركم أولاد المشركين ؟ كل نَسَمةٍ تولد على الفطرة حتى يُعْرِبَ عنها لسانُها » .

وكانت النساء المسلمات ممن خرجن مصاحبات لجيش المسلمين لا يقللن عن رجالهن حماسة فى قتال المشركين إذا وجدن إلى ذلك سبيلا ، وكن غير متساهلات مع من فَرَّ من المعركة ثم لم يعد إليها .

قال ابن اسحق : وحدثنى عبد الله بن أبى بكر أن رسول الله ﷺ التفت فرأى (أم سليم بنت ملحان) زوج (أبى طلحة ») وهى حازمة وسطها ببرد لها وإنها لحامل بعبد الله بن طلحة ومعها جمل أبى طلحة ، وقد خشيت أن يَعُزَّها الجمل فأدنت رأسه منها ، فأدخلت يدها فى خزامته مع الخطام ،فقال لها رسول الله ﷺ : « أم سليم » قالت : نعم بأبى أنت

----

(١) عن ابن اسحق .

وأمي يا رسول الله ، أقتل هؤلاء الذين ينهزمون عنك كما تقتل الذين يقاتلونك فإنهم لذلك أهل ! فقال رسول الله ﷺ : أوَ يكفى الله يا أم سليم. قال : ومعها خنجر فقال لها أبو طلحة : ما هذا الخنجر معك يا أم سليم ؟ قالت : خنجر أخذته إن دنا منى أحد من المشركين بَعَجْتهُ به قال : يقول أبو طلحة : ألا تسمع يا رسول الله ما تقول أم سليم الرميصاء ؟

(حديث صحيح واسناده مرسل)

﴿ الغنائم ﴾

وجمعت الغنائم وأحصيت فكانت :

أربعه وعشرين ألفاً من الإبل ، وأكثر من أربعين ألفا من الغنم ، وأربعة آلاف أوقية من الفضة .

وهذا إلى جانب ستة آلاف من السَّبْى .

وأمر النبى ﷺ بنقل هذه الغنائم إلى «الجعرانه » وإقامة الحراسة عليها ، وأن تضرب للسبى خيام يأوون إليها ، وأن يبتاع كساء من مكة لمن يحتاج منهم إلى كساء .

وكره رسول الله ﷺ أن يقسم على الناس هذه الغنائم ، وتأنّى ، يبتغى أن يرجع القوم إليه تائبين ، فيُحْرِزُوا ما فقدوا .. ومكث ينتظرهم بضع عشرة ليلة فلم يجئه أحد [١].

فشرع يسكت المتطلعين من رؤساء القبائل وأشراف مكة .

---

(١) صحيح أخرجه البخارى (٨/٢٦-٢٧)

وبدأ بقسمة المال : فكان المؤلفة قلوبهم أول من أعطى ، بل أول من حَظِىَ بالأنصبة الجزلة .

أخذ أبو سفيان مائة من الإبل ، وأربعين من الفضة ، فقال: وابنى معاوية ؟

فمُنح مثلها لابنه معاوية .. فقال : وابنى يزيد ؟ فمنح مثلها لابنه يزيد[1] .

وأقبل رؤساء القبائل ، وأولوا النُّهْمة يتسابقون إلى أخذ ما يمكن أخذه، وشاع فى الناس أن محمداً ﷺ يعطى عطاء من لا يخشى الفقر .. فازدحموا عليه يبغون المزيد من المال ..

وَأكبَّ عليه الأعراب يقولون : يا رسول الله ، أقسم علينا فيئنا .. حتى اضطروه إلى شجرة فانتزعت رداءه فقال : « أيها الناس.... رُدُّوا علىّ ردائى، فو الذى نفسى بيده ، لو كان لكم عندى عدد شجر تهامه نعماً لقسمته عيلكم ، ثم ما ألفيتمونى بخيلاً ولا جباناً ولا كذاباً »

ثم قام إلى جنب بعير فأخذ من سنامه وبره فجلعها بين إصبعيه ثم رفعها وقال :

« أيها الناس ، والله مالى من فيئكم ولا هذه الوبرة ، إلا الخمس ، والخمس مردود عليكم »[2] إن أعين القوم تكاد تخرج من المحاجر تطلعا إلى الدنيا ....!!

----

(١) ذكر ابن هشام (٣٠٨/٢) نحوه عن ابن اسحق بدون اسناد ورواه ابن جرير (٢٥٨/٢) عنه عن عبد الله بن أبى بكر مرسلا واعطاؤه ﷺ فى هذه الغزوة للمؤلفه قلوبهم منهم أبو سفيان ثابت فى مسلم (١٠٨/٣) .

(٢) صحيح رواه أحمد رقم (٦٧٢٩) والبيهقى (٣٣٦/٦-٣٣٧) بسند حسن عن عبد الله بن عمرو ، والبخارى (١٩٣/٦-١٩٤ عن جبير بن مطعم إلى قوله « كذابا » والباقى عند الحاكم (٤٩/٣) من حديث عبادة بن الصامت) .

وهؤلاء الأعراب والطلقاء والرؤساء ، ما أغنوا عن الإسلام شيئا فى مآزقه الأولى ... ! بل كانوا هم العقاب الصلدة ، التى اعترضت مسيله حتى تحطمت معاول المؤمنين الراغبين فى ثواب الآخرة ، المؤثرين ما عند الله ولكنهم اليوم - بعد ما أعلنوا إسلامهم - يبغون من الرسول ﷺ أن يفتح عليهم خزائن الدنيا ، فحلف لهم أنه ما يستبقى منها شيئا لشخصه ، ولو امتلك ملء هذه الأودية مالاً لوزعه عليهم .

والحق أن رسول الله ﷺ وسع بحلمه وكرمه مسالك بينة من الطيش والجشع فى سبيل تألف هؤلاء الناس وتحبيبهم فى الإسلام ولو عاقبهم على جبنهم فى « حنين » لنال منهم أى منال . والعجيب أن هؤلاء الذين فروا عند الفزع هم الذين كثروا عند الطمع ...!

وشاء النبى ﷺ أن يلطف معهم ، وينسى ما ضيهم تكرماً وتأليفاً .

ويقول الشيخ الفاضل محمد الغزالى فى هذا :

وماذا يصنع رسول الله ﷺ : إن فى الدنيا أقواماً كثيرين يُقادون إلى الحق من بطونهم لا من عقولهم ! فكما تُهدى الدواب إلى طريقها بحزمة برسيم ، تظل تمد إليها فمها حتى تدخل حظيرتها آمنة ، فكذلك الأصناف من البشر تحتاج إلى فنون من الإغراء حتى تستأنس بالإيمان وتهش له .

عن أنس بن مالك قال : كنت أمشى مع رسول الله عليه وسلم ، وعليه برد نجرانى غليظ الحاشية ، فأدركه أعرابى فجذبه جذبة شديدة ، حتى نظرت إلى صفحة عاتق رسول الله ﷺ وقد أثرت به حاشية الرداء من شدة جذبته قال : مُرْ لى من مال الله الذى عندك ، فالتَفَتَ إليه ، فضحك ، ثم أمر له بعطاء[1] .

إن هذا الأعرابى لا يعجبه المنطق الدقيق ، ولا الطبع الرقيق قدر ما يعجبه من عطاء يملأ جيوبه ، ويسكن مطامعه .

ومن هنا قال « صفوان بن أمية » : ما زال رسول الله يعطينى من غنائم «حنين » وهو أبغض الخلق لى ، حتى ما خلق الله شيئا أحب إلى منه[2] .

﴿ حكمه هذا التقسيم ﴾

وهذه السياسه البعيدة لم تُفهم أول الأمر .. بل أطلقت ألسنة شتى بالاعتراض .. فهناك مؤمنون ظنوا هذا الحرمان ضربا من الإعراض عنهم والإهمال لأسرهم !

روى البخارى عن (عمرو بن تغلب) قال :

أعطى رسول الله ﷺ قوماً ، ومنع آخرين ، فكأنهم عَتَبوا عليه فقال : «إنى أُعطى قوماً أخاف هلعهم وجزعهم ، وأَكِلُ قوماً إلى ما جعل الله فى قلوبهم من الخير والغنى ، منهم (عمرو بن تغلب » قال عمرو : فما أُحَبُّ

---

(١) صحيح أخرجه مسلم (١٠٣/٣) وكذا البخارى .

(٢) رواه مسلم (٧٥/٧) والترمذى (٢٤/٢) وأحمد (٤٠١/٣) عن سعيد بن المسيب أن صفوان قال كذا هو عند مسلم وظاهره الانقطاع بين سعيد وصفوان ، وعند أحمد والترمذى عن صفوان ، وظاهره الاتصال ولكن الترمذى رجح الأول وأيده ابن العربى فى المعارضة فقال : لأن سعيد لم يسمع من صفوان شيئا

أن لى بكلمة رسول الله حُمُر النعم .

فكانت هذه التزكية تطييباً لخاطر الرجل ، أرجح لديه من أثمن الأموال...

وكان الأنصار ممن وقعت عليهم مغارم هذه السياسة ... لقد حُرموا جميعا أعطية « حنين » وهم الذين نودوا وقت الشدة ، فطاروا يقاتلون مع رسول الله ﷺ ... حتى تبدل الفرار انتصاراً .. وهاهم أولاء يرون أيدى الفارين تعود ملأى ..... أماهم فلم يمنحوا شيئا قط .

عن أبى سعيد الخدرى : لما أصاب رسول الله ﷺ الغنائم يوم (حنين) .. وقَسَّمَ للمتألفين من قريش وسائر العرب ما قَسَّم ولم يكن للأنصار شئ منها ، قليل ولا كثير وَجَدَ هذا الحى من الأنصار فى أنفسهم حتى قال قائلهم: لقى والله رسول الله قومه ... فمشى (سعد بن عبادة) إلى رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، إن هذا الحى من الأنصار ، وجدوا عليك فى أنفسهم !

قال : فيم ؟ قال : فيما كان من قسمك هذه الغنائم فى قومك وفى سائر العرب ولم يكن فيهم من ذلك شئ .

قال رسول الله ﷺ : فأين أنت من ذلك يا سعد ؟

قال : ما أنا إلا إمرؤ من قومى فقال رسول الله ﷺ : إجمع لى قومك فى هذه الحظيرة ، فإذا اجتمعوا فأعلمنى .

فخرج سعد ، فصرخ فيهم فجمعهم فى تلك الحظيرة ... حتى إذا لم يبق من الأنصار أحد إلا اجتمع له أتاه فقال :

يا رسول الله . اجتمع لك الحى من الأنصار حيث أمرتنى أن أجمعهم .

فخرج رسول الله ﷺ ، فقام فيهم خطيبا : فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله ثم قال :

« يا معشر الأنصار ، ألم آتكم ضُلاَّلاً فهداكم الله ؟؟ وعالة فأغناكم الله؟؟ وأعداءً فألف الله بين قلوبكم ؟؟

قالوا : .... بلى ... قال رسول الله ﷺ : ألا تجيبون يا معشر الأنصار ؟؟

قالوا : وما نقول يا رسول الله ؟؟ وبماذا نجيبك ؟ المن لله ورسوله .

قال : والله لو شئتم لقلتم فَصَدَقْتُم وصُدِّقْتُم : جئتنا طريدا فأويناك ، وعائلا فآسيناك ، وخائفا فأمناك .. ومخذولاً فنصرناك .

فقالوا : المن لله ورسوله ... فقال : « أوجدتم فى نفوسكم يا معشر الأنصار فى لعاعة من الدنيا ، تألفت بها قوماً أسلموا، وَوَكَلْتُكُم إلى ما قسم الله لكم من الإسلام ، أفلا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس إلى رحالهم بالشاة والبعير .. وتذهبون برسول الله إلى رحالكم ؟ فو الذى نفسى بيده ، لو أن الناس سلكوا شعبا وسلكت الأنصار شعبا لسلكت شعب الأنصار ، ولولا الهجرة لكنت إمرأ من الأنصار ، اللهم ارحم الأنصار ، وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار » .

فبكى القوم حتى أخضلوا لحاهم .. وقالوا : رضينا بالله رباً ، ورسوله قسماً .. ثم انصرف .. وتفرقوا[1] والأنصار فى تاريخ الدعوات - مُثُل فريدة للرجال الذين تقوم بهم الرسالات العظمى، حتى إذا استوت على سوقها ، وتجاوزت أيام محنتها ومؤنتها، وتدلت ثمارها، وحَلا جناها ، جاءت أيد غير أيديهم فقطفت ما تشتهى، ولم تكتف بذلك ، بل لطمت أيدى الغارسين حتى لا تلتقط من الثمار الساقطه قليلا أو كثيراً .....

----

(١) حديث صحيح ، رواه أحمد (٣/٧٦-٧٧) وابن هشام (٢/ ٣١٠ -٣١١) وابن جرير (٢/٣٦-٣٦١) كلهم عن ابن اسحق بسنده الصحيح عن ابى سعيد الخدرى ، وذكره ابن كثير فى (البدايه) (٤/٣٥٨-٣٥٩) من روايه يونس بن بكير عن ابن اسحق .

ولا نقول ذلك تعليقاً على توزيع الغنائم فى هذا المقام، فقد اتضح وجه الرشد فى هذه القسمة الحصيفة . ولكننا نذكر فى مناقب الأنصار ، وافتراض ترفعهم عن الدنيا فى سبيل الدين وتأليف الناس عليه . إن شئون الحكم ابتعدت عنهم ، واحتازها غيرهم ، وهم لها أكفاء فلم تمض ثلاثون سنة حتى كانت فى أيدى الطلقاء .

ولا ريب فى أن أولئك المتجردين لله سوف يلقون جزاءهم الأوفى، وإن شأن الدنيا أنزل قدرا من أن يأسى عليه رجل العقيدة .

غير أننا نتساءل ، أكان من مصلحة الرسالات نفسها أن تقع هذه الأثرة ؟ أم كان من سوء حظ الإسلام أن يلقى هذا اللون من الحكام ، فَيُقْصَى أصحاب السبق وأولو النصرة ، ويملك زمام الدين آخر الناس دخولا فيه وبصرا به ؟!!

﴿ عودة وفد هوازن ﴾

وبعد أن أتم رسول الله ﷺ توزيع الغنائم ... أتى وفد من هوازن مسلماً تائباً ، يطلب من الرسول ﷺ رد أموال هوازن وسباياها وهم يقولون[(١)]:

يا رسول الله امتن علينا ، فإنما فى السَّبى عماتك وخالاتك وحواضنك اللاتى كن يَكْفُلْنَكَ ! ولو أنا أرضعنا وكفلنا للحارث بن أبى شِمْرٍ أو للنعمان بن المنذر ، ثم نزل منا أحدهما بمثل الذى نزلت به ، رجونا عطفه وعائدَتَهُ علينا ، وأنت خير المكفولين .

---

(١) إسناده حسن عن ابن اسحق عن عمرو بن شعيب عن ابيه عن جده عبد الله بن عمرو .

فأجاب الرسول ﷺ: فأبناؤكم ونساؤكم أحب اليكم أم أموالكم ؟

قالوا : يا رسول الله ، خيرتنا بين أهلنا وأموالنا ! بل ترد الينا نساءنا وأبناءنا فهم أحب إلينا ... فقال الرسول ﷺ : مالي ولبني عبد المطلب منها فهو لكم ، أما ما كان للناس ، فسأسأل عنه الناس لكم ، فإذا ما صليت الظهرفقوموا فاستشفعوا فى أبنائكم ونسائكم ، فسأعطيكم عند ذلك وأشفع لكم .

فلما صلى الرسول ﷺ بالناس قام وفد هوازن فتكلموا بما أمرهم الرسول به ، وتكلم محمد ﷺ على مسمع من الناس ، فأعلن تنازله عن حقه لهوازن وحق بنى عبد المطلب فى السّبى . عندئذٍ قام المهاجرون فأعلنوا تنازلهم عن حقهم . ثم توالت القبائل بعد ذلك فأعلن بعضها التنازل وتمسك بعضها بحقه فيها .

فقال الرسول ﷺ : أما من يريد منكم التمسك بحقه فى هذا السبى ، فسأعوضه عن كل فرد منه بستة فرائض من أول سبى أصيبه بعد ذلك إن شاء الله .

فارتضى الناس حَلَّ الرسول هذا ، وتخلوا عن السبى لهوازن .

وكان بالسبى إمرأه عَنُفَ عليها الحراس فقالت لهم : تعلموا والله إنى لأخت صاحبكم من الرضاعة فلم يصدقوها حتى أتوا بها إلى الرسول ﷺ ، فعرف فيها الرسول ﷺ « الشيماء » بنت الحارث بن عبد العزى ، التى طالما حملته ولا عبته وهو صغير يَرْضَعُ فى بنى سعد فبسط الرسول ﷺ للشيماء رداءه فأجلسها عليه وخَيَّرها : إن شاءت أقامت عنده معززه مكرمة، وإن شاءت متّعها وردها إلى قومها ، فاختارت الرجوع إلى قومها.
وانصرف وفد هوازن بنسائهم وأبنائهم بعد أن قال لهم الرسول ﷺ : أخبروا (مالكاً) أنه إن أتانى مسلما رددت عليه أهله وماله ، وأعطيته مائه من الإبل .

﴿ ٢٦ - غزوة الطائف ﴾

كانت ثقيف تعلم أن النبى ﷺ لابد سائر اليها ، فأغلقت عليها أسوار مدينتها الحصينه التى اسمها (الطائف) وتحصنت بحصونها المنيعه وأعدت نفسها لقتال المسلمين .

وعلم المسلمون أن القوم لا يزالون على إصرارهم والبقاء على جاهليتهم، وأن الخسائر التى لحقت بهم لم تكسر شوكتهم ولم ترهق عزيمتهم ، فقرروا السير اليهم ومناجزتهم .

وللمسلمين خبرة قديمة بهذا الأسلوب من القتال ، فقد حاصروا وحُوصروا، وعرفوا أنجح طرائق الهجوم والدفاع ، ونهض رسول الله ﷺ بجيشه حتى اقترب من الطائف فعسكروا حولها بعد ما نزلوا وهم بطريقهم فى بستان لرجل من أهلها، وبعد ما هدموا حصنا (لمالك بن عوف) . ورمت ثقيف من فوق حصونها المسلمين بنبالها ... فنالت معسكرهم بها ، وأصيب عدد من المسلمين ، فأمر النبى ﷺ بالابتعاد عن مرمى النَّبلْ، فانتقلوا إلى مكان بعيد فلا تنالهم السهام . وتشاور محمد ﷺ مع المسلمين فيما يتخذون من أساليب لفتح مثل هذه الحصون المنيعة ، وقتال أهلها ، واجبارهم على الخروج منها .. وأشار المسلمون على النبى ﷺ بأن يستعينوا على ذلك بالمنجنيق والدبابات ، وأن يستدعوا لذلك من الرجال من يُحسن استخدامها. وعلى ذلك أرسل النبى ﷺ إلى قبيلة « بنى دوس » من يستدعى بعض رجالهم وكانوا على علم باستخدام مثل هذه الآلات، فجاء نَفَرٌ منهم ومعهم معداتهم وآلاتهم.

ونُصب المنجنيق .وضُربت به حصون الطائف، ودخل جماعة من المسلمين تحت الدبابات : وهى آلات من جلد سميك وخشب ، يُستعان بها على الاقتراب من حصون العدو لنقبها . وزحفوا بها حتى أتوا جدار الحصن لينقبوه ولكن أهل الطائف الذين كان لهم إلمام ودراية بأفانين مثل هذا القتال وأساليبه ، أتوا بقطع من حديد فحموها بالنار حتى صارت مثل الجمر ، وألقوا بها على الدبابات فحرقتها ، وخرج رجال المسلمين من تحتها يبغون الفرار ، فلحقتهم نبال ثقيف فقتلت منهم عدداً كبيراً .

عندئذٍ لم يجد النبى ﷺ بُداً من أن يأمر رجاله بتقطيع كروم أهل الطائف وتحريقها ، وكانت تنتشر فى بساتين واسعة خارج المدينة وكانت تُعرف بطيبها وجودتها ، وذلك حتى يجبر أصحابها على التسليم .

وشرع المسلمون فى تنفيذ الأمر يقطعون ويحرقون .

ورأى أهل الطائف مالجأ إليه الرسول ﷺ ، وهم الذين يعلمون كرهه لمثل ذلك الفعل ، ونهيه عنه ، فنادوا يناشدون عاطفته هذه قائلين :

يا محمد ، لم تقطع أموالنا ؟ إما أن تأخذها إن ظَهَرْتَ علينا ، وإما أن تدعها لله وللرحم الذى بيننا وبينك !!

فأمر النبى ﷺ بالكف عن التقطيع والتحريق ، وأمر أن يُنادوا فى ثقيف أن كل من خرج إليه من أهلها مسلما فهو عاتقه ، فخرج إليه من أهلها نحوٌ من عشرين رجلاً ، فوكَّل بهم جماعة من المسلمين للعناية بأمرهم ورعايتهم .

وظل يحاصرهم نحواً من شهر .. ثم بدا له أن يدعهم وشأنهم ، وأشار على المسلمين بذلك خاصة أنه رأى أن حصار الطائف سيطول لما تختزن ثقيف عندها من طعام ومؤن .

وروى أن رسول الله ﷺ استشار (نوفل بن معاوية) فقال :

يا نوفل ، ما ترى فى المقام عليهم ؟

فقال : يا رسول الله ، ثعلب فى جحر ، إن قمت عليه أخذته، وإن تركته لم يضرك[1] . فأمر النبى ﷺ عمر بن الخطاب أن يؤذن فى الناس بالرحيل[2] .

فلما قفلت بهم المطايا قالوا : يا رسول الله ، أَحْرَقَتْنَا نبال ثقيف ، فادع الله عليهم ... فقال ﷺ : « اللهم اهد ثقيفا »[3] .

ولم يطل بقاء ثقيف على شركها .. فما هى إلا شهور قلائل حتى أرسلوا وفدهم إلى المدينة يخبر النبى ﷺ برغبتهم فى الإسلام وانفساح قلوبهم له .

﴿ عمرة رسول الله ﷺ من الجعرانة ﴾

وخرج رسول الله ﷺ من الجعرانه إلى مكة معتمراً ، فلما قضى عمرته، أمضى فيها بعضا من الوقت . لا ليعاود المقام فيها بعد أن فتحها الله عليه ، بل لينظم أمورها ، ثم يرتحل هو وأصحابه إلى مهجرهم الخالد....

﴿ العودة إلى دار الهجرة ﴾

إن صلة المسلمين بالمدينة أضحت من العمق والقوة بحيث لا يرجحها وطن قديم ، ولا ذكريات عزيزة . ولا ننسى تهامس الأنصاروقلقهم - يوم

---

(١) ضعيف جدا رواه الواقدى كما فى (البدايه) (٤/ ٣٥٠) وهو متهم بالكذب

(٢) ضعيف ذكره ابن هشام (٢/ ٣٠٣) عن ابن اسحق بلاغا ، ورواه ابن أبى لهيعه عن ابى الأسود عن عروة وهو مع ارساله ضعيف .

(٣) ضعيف أخرجه الترمذى (٣/ ٣٧٩) عن أبى الزبير عن جابر قال : حديث حسن ، وقالوا : أبو الزبير مدلس وقد عنعنه ، وقد تابعه عبد الرحمن بن باسط عند أحمد (٣/ ٣٤٣) ولكنه لم يسمع من جابر كما قال ابن معين .

وقف النبى ﷺ على الصفا يدعو بعد فتح مكة - وتساؤلهم بأن رسول الله ﷺ إحتمال بعد الفتح إقامته على أرضه وبلده ، وتطمينه لهم بأن المحيا محياهم والممات مماتهم[1] .

ولما كان أهل مكة حدثاء عهد بالإسلام ، وفقههم فى أحكامه ومراميه قليل ، فإن النبى ﷺ خلف فيهم « معاذ بن جبل » يعلمهم كتاب ربهم وسنة نبيهم[2] .

(إستخلاف النبى ﷺ عتاب بن أسيد على مكة)

وجعل النبى ﷺ « عتاب بن أسيد » أميراً على مكة وعمره يومئذ عشرون عاما ، وكان عتاب شاباً ذكياً ، قنوعاً شجاعاً ، وقد تقرر له من مال المسلمين درهم كل يوم ، هو مرتب الإمارة ، فقرّت بذلك عينه ، بل إنه خطب الناس فقال : أيها الناس ، أجاع الله كبد من جاع على درهم، فقد رزقنى رسول الله ﷺ درهما كل يوم ، فليست بى حاجة إلى أحد[3] .

---

(١) ذكرناه آنفا بعد فتح مكة

(٢) ذكره ابن هشام (٢/٣١١) عن ابن اسحق بدون اسناد ورواه الحاكم (٣/٢٧) عن عروة مرسلا .

(٣) ذكره ابن هشام وابن جرير عن ابن اسحق بدون سند ورواه الحاكم (٣/٥٩٤-٥٩٥) عن مصعب بن عبد الله الزبيرى معضلا .

﴿ حج عتاب بالمسلمين سنة ثمان ﴾

وكانت عمرة رسول الله ﷺ فى ذى القعده ، فقدم رسول الله ﷺ المدينة لست ليال بقين من ذى القعدة .

وحج الناس تلك السنة على ما كانت العرب تحج عليه ، وحج بالمسلمين تلك السنة «عتاب بن أسيد » وهى سنة ثمان .

وعاد رسول الله ﷺ إلى المدينة .. سبحان الله .. ما أفسح المدى بين هذه الأوبة الظافرة بعد أن تَوَّج الله هامته بالفتح المبين ، وبين مقدمه إلى هذا البلد النبيل منذ ثمانية أعوام ...

لقد جاءه مُطارداً يبغى الأمان ، غريباً مستوحشاً ينشد الإيلاف والإيناس ، فأكرم أهله مثواه ، وآووه ونصروه ، واتبعوا النور الذى أنزل معه ، واستخفوا بعداوة الناس جميعا من أجله ... وهاهو ذا بعد ثمانية أعوام يدخل المدينة التى استقبلته مهاجراً خائفاً ، لتستقبله مرة أخرى ، وقد دانت له مكة ، وألقت تحت قدميه كبرياءها وجاهليتها .. فأنهضها ليعزها بالإسلام ، وعفا عن خطيئتها الأولى « **إنه من يتق ويصبر فإن الله لا يضيع أجر المحسنين** »[(١)] .

عاد محمد ﷺ إلى المدينة بروح طيبه ونفس مطمئنه بعد أن مَنَّ الله عليه وعلى المسلمين بفتح مكة ، فقد كان فى فتح مكة خير عظيم للإسلام، ونصر مبين للمسلمين .. فلم يكن أثر الفتح أن (أم القرى) قد دانت للرسول ﷺ ؟ أو أن بيت الله قد فتح لحج المسلمين ؟ أو أن قريشا التى ناوأت وعادَت وحاربت محمدا ﷺ منذ أن بعثه الله رسولا قد خضعت

---

(١) سورة يوسف من الآيه : ٩٠ .

وأسلمت له ؟ .. بل كـان إلى جـانب هذا كله أن في خضـوع مكة ، وفي تطهـيـر بيت الله ، وفي إسـلام قـريش - من الأثر مـا هو أبعـد من هذا بالنسـبـه لكل عـربى يحج إلى بيت الله ، ويعلم مـا لمكة من المكانة في الجزيرة العربية .. وما لقريش من منزلة بين رجال العرب ، فبخضوع مكة ، وبفـتـح بيت الله لحج المسلمين، وبإسـلام قـريش ضَمِنَ مـحـمـد ﷺ لدعـوته الانتـشـار، ولدين الله الذى بعثـه به البقـاء والخلود ، لذلك لم تلبث قبـائل العرب طويلاً بعد فتح مكة حتى خضعت لمحمد ﷺ .. وأسلمت له وتقدم إليه أكثرها طائعاً مختاراً .

★★★

﴿ وفود على المدينة تعلن إسلامها ﴾

وفي الفـتـرة التى تلت فـتح مكة وغـزوة حنين ، وفـد على مـحـمـد ﷺ الأفراد والوفود .

إسلام كعب بن زهير :

وكان ممن وفدوا على رسول الله ﷺ ليقدموا إليه طاعتهم ، ويعلنوا إسلامهم (كعب بن زهير) الذى كان يؤذى النبى ﷺ ويهجوه في أشعاره .

فقد بعث إليـه أخوه (بُجَيْرُ بن زهير) يُعْلِمُهُ بما كان من غضب محمد ﷺ على أمثاله ممن كانوا يؤذونه ويهجونه ، ويصف له كيف أمر بقتلهم ثم عفا عن أكثرهم عندما آمنوا به وأعلنوا إسلامهم له ؛ ويطلب منه أن يحذو حذوهم ، فيـأتى النبى ﷺ تائبـاً مـسـتـغـفراً ليـعـفو عنه ، أو أن يضرب في مجاهل الأرض حتى يجد لنفسه خلاصاً وأمناً بعيداً عن سطوة الإسلام التى تكاد تَعُمُّ شبه الجزيرة .

ووجد اقـتـراح « بجير » على أخيـه « كعب » - أن يأتى النبى مسلماً - وجيبا في قلب كعب ، فسرعـان مـا عمل على نبـذ عداوة النبى ﷺ ،

ووفد إلى المدينة يبغى الإسلام بين يديه . ونزل « كعب » بالمدينة بدار رجل يعرفه ، فلما أصبح الصباح قصد هو والرجل مسجد رسول الله ﷺ ، فلما فرغ النبى من صلاته تقدم « كعب » منه وجلس بين يديه متنكراً وهو يقول : يا رسول الله ، إن كعب بن زهير قد جاء ليستأمن منك تائباً مسلماً ، فهل أنت قابل منه إن أنا جئتك به ؟ قال رسول الله ﷺ : نعم .

قال كعب : أنا يا رسول الله كعب بن زهير ، وأنشد بين يدى النبى قصيدته المشهورة التى مطلعها :

بانت سعادُ فقلبى اليوم مَتْبولُ ... مُتَيَّمٌ إثرها لـم يُفْدَ مَكْبُولُ

وأسلم كعب وعفا النبى ﷺ عنه .

زيد الخيل :

ومن الوفود التى وفدت إلى رسول الله ﷺ مُسْلِمةً وفد من « طَيِّئ » على رأسه رئيس له اسمه « زيد الخيل » وكان رجلاً كاملاً فاضلاً، حتى لقد قال فيه الرسول ﷺ : « ما ذُكِرَ لى رجل من العرب بفضل ثم جاءنى إلا رأيته دون ما يقال فيه ، إلا « زيد الخيل » فإنه لم يُبَلَّغ كل ما فيه » وأبدل الرسول ﷺ اسم « زيد الخيل » بـ « زيد الخير » .

﴿ ١٣ - أمر عدى بن حاتم الطائى ﴾

وبعث النبى ﷺ بعلى بن أبى طالب فى جماعة من المسلمين لهدم صنم « طيِّئ» وعلم بمسيرهم هذا « عدى بن حاتم الطائى » وكان ذا مكانة كبيرة فى قومه ، وكان يدين بالنصرانية ، ويُكِنُّ لمحمد ﷺ وللمسلمين أشد العدواة فسارع بالخروج إلى الشام بأهله وماله ، قبل أن يدخل عليه المسلمون أرضه ، ولكن أختا له اسمها « سَفَّانَة » تخلفت ، فلم تخرج معه ، فكان أن وقعت فى السبايا التى سباها المسلمون بعد ما أغاروا على

«طيئ» وهدموا صنمها . ورجع المسلمون بغنائمهم إلى المدينة ، ووُضعت «سَفَّانَه » أخت « عَدِيّ » بمكان قرب باب المسجد كانت السبايا تحبس فيه عادة حتى يُتَصرَّف فى أمرها .

ومَرَّ رسول الله ﷺ بهذا المكان ، فوقفت له « سفَّانه » تناشده أن يطلق سراحها وهى تقول : يا رسول الله ، هلك الوالد (تعنى أباها حاتم بن عدى الذى كان معروفا بين العرب بالجود والكرم) وغاب الوافد ، فامنن علينا مَنَّ الله عليك .

فسألها الرسول ﷺ : من وافدك ؟

قالت : عدى بن حاتم   قال : الفار من الله ورسوله ؟

ثم انصرف عنها ، ولم يسمع لشكايتها وتكرر سؤال « سَفَّانَة » للرسول ﷺ ، وتكرر إعراض الرسول ﷺ عنها حتى كادت أن تيئس من إمكانها نيل رضاه والوصول إلى عفوه .

وفى يوم كررت « سَفَّانه » سؤالها للرسول ﷺ بعد أن أشار إليها رجل خلفه أن قومى فكلميه فقامت وكلمته ، فقال رسول الله ﷺ :

« قد فعلت فلا تعجلى بخروج حتى تجدى من قومك من يكون لك ثقة حتى يبلغك إلى بلادك ثم آذنينى » فسألت عن الرجل الذى أشار اليها أن تكلمه ، فقيل لها : إنه على بن أبى طالب رضى الله عنه . وأقامت حتى قَدِمَ ركب من « بلى » أو « قضاعة » وكانت « سَفَّانَة » تريد أن تلحق أخاها بالشام ، فجاءت إلى رسول الله ﷺ وقالت : يا رسول الله قد قدم رهط من قومى لى فيهم ثقة وبلاغ ، فكساها رسول الله ﷺ وحملها وأعطاها نفقةً وحصلت على ما كانت تبغى ، وخرجت معهم معززة مكرمةً حتى قدمت الشام .

قال ابن اسحق : قال عدى بن حاتم :

فوالله إنى لقاعد فى أهلى إذ نظرت إلى ظعينة تصوب إلىَّ تؤمنا قال : فقلت : إبنة حاتم ؟! فإذا هى .. فلما وقفت علىّ إنسحلت تقول : القاطع .. الظالم .. إحتملت بأهلك وولدك وتركت بقية والدك عورتك . قال : أى أُخيَّة لا تقولى إلا خيراً ، فوالله مالى من عذر لقد صنعت ما ذكرت .. قال : ثم نزلت فأقامت عندى ، فقلت لها - وكانت إمرأة حازمة - : ماذا ترين فى أمر هذا الرجل ؟ قالت : أرى والله أن تلحق به سريعاً ، فإن يكن الرجل نبيا فللسابق إليه فضله ، وإن يكن ملكاً فلن تذل فى عز اليمن وأنت أنت، قال : قلت : والله إن هذا للرأى .

قال : فخرجت حتى أقدم على رسول الله ﷺ المدينة فدخلت عليه وهو فى مسجده فسلمت عليه فقال : من الرجل ؟ فقلت : عدى بن حاتم . فقام رسول الله ﷺ وانطلق بى إلى بيته ، فوالله إنى لعامد بى إلى بيته ، إذ لقيته إمرأة ضعيفه كبيرة ، فاستوقفته فوقف لها طويلاً تكلمه فى حاجتها ، قال: قلت فى نفسى : والله ما هذا بملك ، قال : ثم مضى بى رسول الله ﷺ حتى دخل بى بيته .. تناول وسادة من أدم محشوه ليفا فقذفها إلى وقال : «إجلس على هذه » قال : قلت : بل أنت فاجلس عليها ، فقال : بل أنت فجلست عليها ، وجلس رسول الله ﷺ بالأرض ، قال : قلت فى نفسى : ما هذا بأمر ملك ، ثم قال : « إيه ياعدى بن حاتم ألم تك ركوسياً ؟ قال عدى: بلى . قال : « أو لم تكن تسير فى قومك بالمرباع ؟ » قلت : بلى

قال : فإن ذلك لم يكن يحل لك فى دينك قلت : أجل والله ، وعرفت أنه بنى مرسل يعلم ما يجهل ثم قال : لعلك يا عدى إنما يمنعك من دخول فى هذا الدين ما ترى من حاجتهم ، فوالله ليوشكن المال أن يفيض فيهم حتى لا يوجد من يأخذه .. ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه ما ترى من كثرة عدوهم وقلة عددهم ، فوالله ليوشكن أن تسمع بالمرأة تخرج من القادسية على

بعيرها حتى تزور هذا البيت لا تخاف ، ولعلك إنما يمنعك من دخول فيه أنك ترى أن الملك والسلطان فى غيرهم وأيم الله ليوشكن أن تسمع بالقصور البيض من أرض (بابل) قد فتحت عليهم ؟

قال عدى : فأسلمت . وكان عدى يقول : قد مضت إثنتان وبقيت الثالثه، والله لتكونن قد رأيت القصور البيض من أرض (بابل) قد فتحت وقد رأيت المرأة تخرج من القادسية على بعيرها لا تخاف حتى تحج هذا البيت، وأيم الله لتكونن الثالثه : ليفيض المال حتى لا يوجد من يأخذه .

(حديث حسن وأسناده ضعيف) .

﴿بعثات لجمع الزكاة والجزية﴾

وفى هذه الآونة كانت رسل محمد ﷺ وصيارفته يجوبون جزيرة العرب، كُلٌ فيما أرسله النبى ﷺ فيه : فمنهم من يجمع فريضة زكاة العُشر التى فرضها النبى ﷺ للفقراء على الأغنياء بعد ما فتحت مكة ، وأصبح بيت الله وما يتصل به من الشئون تحت إدارة المسلمين ، فزادت نفقات المسلمين تبعاً لذلك .

ومنهم من يجبى الجزية التى فرضت على القبائل التى لم تدخل فى الإسلام .. ومنهم من يدعو لدين الله ويفقه فيه ، وقوبل أكثر الرسل بقبول حسن ، وردٌ بعضهم رداً سيئاً .

سار عمرو بن العاص إلى « جَيْفَر » و « عمرو » ابنى « الجُلَنْدى » أميرَىْ عُمَان ، فأخذ الصدقات من الأغنياء ووزعها على الفقراء ، وحَصَّل الجزية من أهل البلد - وكان لا يزال أكثرهم على دينهم - وعاد بها إلى محمد ﷺ .

وخرج رسول لمحمد ﷺ لجمع الزكاة والجزية من « خزاعه »و « بنى تميم» فجمعت « خزاعة » للرسول من أموالها الشئ الكثير ليأخذ منه ما يريد، أما بنو تميم فقد إمتنعوا عن إخراج أموالهم وشهروا سيوفهم فى وجه رسول محمد ﷺ مهددين له ، فعاد هذا إلى المدينة فأخبر النبى ﷺ بما كان منهم .

﴿ ١٤ - بعثة عُيَيْنَة بن حِصن إلى بنى تميم ﴾

فأرسل النبى ﷺ بجماعة من المسلمين على رأسهم « عيينة بن حصن » لمحاربة «بنى تميم » بما فعلوا وكان أن عاد (عيينه) وصحبه إلى النبى ﷺ بعدد من أسرى بنى تميم .. وعدد آخر من سباياهم من النساء والأطفال ، وأوفدت بنى تميم وفدا منها لمخاطبة الرسول بشأن أسراهم وسباياهم، فلما أتوا مسجد الرسول ﷺ بالمدينة ، وقفوا ينادونه من وراء الحجرات بما تأذّى له الرسول ﷺ فى نفسه، فلما خرج وجلس إليهم ، انتدبوا من بينهم رجلاً عُرف فيهم بفصاحة اللسان وبلاغة القول ليتكلم عنهم .

وتكلم خطيبهم هذا واسمه « عُطَارِدْ بن حاجب » ففاخر بأنساب قومه ، وعَدَّد مناقبهم ، وأشاد بفضلهم متحدياً من يستطيع من العرب أن يطاولهم ويَبْلُغ مبلغهم ، فأشار النبى ﷺ إلى (ثابت بن قيس) وكان جهورى الصوت ، ومن أقوى المسلمين على الخطابة ليرد على خطيب بنى تميم .

فنهض ثابت، وارتجل كلمة قوية فى عبارتها ، بليغة فى مدلولها ، سُرَّ منها النبى ﷺ وطابت لها نفوس من بالمجلس من المسلمين ، وعجب من فصاحتها وبلاغتها بنوتميم،ولكنهم كرهوا أن يكون لغيرهم فخر السبق عليهم فى فصاحة القول وبلاغته ، فقدموا شاعرهم « الزِّبْرِقَان بن بدر » وهم يقولون للرسول ﷺ : إئذن لشاعرنا !

فلما أذن الرسول ﷺ ، قام « الزبرقان » فأنشد شعرا في المباهاة بقومه ، والمفاخرة بحسبهم ونسبهم ، فلما انتهى من إنشاده ، طلب النبى ﷺ إلى شاعر المسلمين (حسان بن ثابت) الرد عليه فقام حسان فأنشد من روائع الشعر ما أشاد فيه وفاخر بأعمال المسلمين . وانفض المجلس والمسلمون فى سرور واغتباط بمقام « ثابت »و « حسان » من بنى تميم ، وبنوتميم يقول بعضهم لبعض عن محمد ﷺ :

إن هذا الرجل مُؤَيد ، ومُؤَتّى له ... ! والله لخطيبه أخطب من خطيبنا ولشاعره أشعر من شاعرنا ! ولهو أحلم منا ،، فأسلموا له .

وعلى ذلك أسلم من كان لم يسلم منهم .

وَرَدَّ رسول الله ﷺ إليهم أسراهم وسباياهم، وأجازهم جميعا إجازة حسنة ولما سألهم : هل بقى أحد منكم لم نُجْزِه ؟ قالوا : يا رسول الله إنه غلام لاشرف له !

قال رسول الله ﷺ : إنه وافد وله حق .

فأرسلوه إلى الرسول ﷺ فأجازه وانصرفوا جميعاً ، وكلهم يَوَدُّ لو يقدم نفسه وماله لإرضاء الرسول ﷺ .

وهكذا كان هذا وغيره مما سُقْنَا مثلا لما كان يجد الرسول ﷺ وأصحابه عند بعض قبائل العرب من استعداد لتقبل الدعوة ، وسهولة فى اتباع فرائضها ... وما كانوا لا يزالون يلاقونه فى دعوتهم من عَنَتٍ وشدة عند بعضهم الآخر .

★ ★ ★

٢٧ - ﴿ غزوة تبوك ﴾

على أن الرسول ﷺ لم يكن لينصرف أكثر تفكيره فى هذه الآونة إلا إلى العمل على تأمين حدود جزيرة العرب شمالاً حيث تقع بلاد الشام وهى واقعة تحت سيطرة الرومان ، ولم يكن يشغله إلا إثبات قوة المسلمين للملأ حتى لا يطمع فيهم طامع ، ولا يُحَدِّث إمرؤ نفسه بإمكان التغلب عليهم والنيل منهم .

عزم ﷺ أن يُرسى العلائق بين الإسلام والنصرانية على دعائم مكينة وهو لا يقبل مساومة فى ترك دعاته أحرارا يعرضون دينهم على الناس ... فإن راقهم دخلوه ، وإن ساءهم تركوه ، يجب أن تتاح الفرصة المعقولة لإفهام الجماهير ما تدعى إليه .

أما أن تقطع أعناق الدعاة ، وتقام الأسوار الكثيفة فى وجوههم ، فهذا ما يقاومه الإسلام بالقوة . ثم إن الرومان فى الشام والعراق ومصر وغيرها من البلدان قوم غزاة لا تربطهم بأهل البلاد الأولين إلا صلات القهر المادى والأدبى .

فالذى يعترض زحف الإسلام إلى الشمال يجب أن يسأل نفسه قبل ذلك: لِمَ سكت عن زحف الرومان إلى الجنوب ؟ وعن الطريقة التى يباشرون بها حكم هذه الأقطار المغلوبة على أمرها ؟! والمقارنة المنصفة تجعل ما يطلبه النبى ﷺ شيئا لاغبار عليه .

دعوا العقائد المختلفة تبين عن نفسها وتجذب الشعوب إليها ، أو تصرفهم عنها .. لكن هذا الطلب قوبل بالرد المسلح ! فلا دولة الروم تفتح أبواب المصيدة عن الفرائس التى تضطرب داخل جدرانها ، ولا كنيسة الروم ترحب بهذا الجو الجديد .

قال الشيخ الفاضل محمد الغزالى فى كتابه : « التعصب والتسامح بين المسيحية والإسلام » فى صدد غزوة « تبوك » :

« ... والكنيسة لا تطيق أن يعيش بجانبها رأى يخالف فى الفروع التافهة، فكيف تسمح بالبقاء لدين ينكر سلطة رجالها ؟! لأنه لا يرى بين العباد وربهم وسائط ،وينكر عقيدة الفداء التى ترتكز عليها ، لأنه يبنى الجزاء على عمل الإنسان وحده .

فليس للإنسان إلا ما سعى ،،،، ولا تزر وازرة وزر أخرى ، ثم هو ينكر مبدأ الشركة فى الألوهية ، فليس للعالم إلا رب واحد يخضع له عيسى وأمه... » .

لذلك رأى الروم أن يعيدوا الكرةُ فيضربوا الإسلام فى شمال الجزيرة ضربة ترده من حيث جاء وتوصد عليه أبواب الحدود فلا يستطيع التسرب منها وتضمن الكنيسه بعدئذ إنفرادها بالضمير البشرى ، حتى إذا قرعت أجراسها لم يشب رنينها صدى لمؤذّن يهتف بتكبير الله وتوحيده ، ويدعو للصلاة والفلاح .

وترامت إلى النبى ﷺ فى المدينة أنباء هذا الإعداد الماكر ، وتاريخ النصرانية - منذ تولت الحكم - يؤكد نية العدوان لدى رجال الكهنوت ...

فلم ير النبى ﷺ بُداً من استنفار المسلمين لملاقاة العدوان المبيت .

والتهيؤ لملاقاة الروم جاء فى أيام قيظ وقحط !!

والسير إليهم يتطلب جهدا مُضْنِياً ونفقة كبيرة ....!

وقتال الروم ليس صداماً مع قبيلة محدودة العدد والعُدّة .. بل هو كفاح مرير مع دولة تبسط سلطانها على جملة قارات ، وتملك موارد كثيرة من الرجال والأموال ...

على أن أصحاب العقيدة لا ينكصون أمام الصعاب ، والسكوت على تحدى النصارى لهذا الدين ورغبتهم الملحة فى القضاء عليه يعتبر انتحاراً وبواراً ، فليتحامل المسلمون على أنفسهم إذن وليواجهوا مستقبلهم بما يفرض من تضحيات وتفديات .

وللظروف العصيبة التى اكتنفت إعداد هذا الجيش سُمِّىَ « جيش العسرة » والآيات التى أنزلها الله فى كتابه - متعلقة بغزوة العُسرة - هى أطول ما نزل فى قتال بين المسلمين وخصومهم .

وقد بدأت بإستنهاض الهمم لرد هجوم المسيحية على الإسلام ، وإفهام المسلمين مغبة تقصيرهم فى أداء الفريضة، وإشعارهم بأن الله لا يقبل ذرة من تفريط فى حماية دينه ونصرة نبيه ، وأن التراجع أمام الصعوبات الحائلة - دون قتال الروم - يعتبر مزلقة إلى الردّة والنفاق .

« يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا فى سبيل الله إثاقلتم إلى الأرض أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم ولا تضروه شيئا والله على كل شئ قدير » (التوبة ٣٨ . ٣٩)

ومضت الآيات تتحدث فى صرامة وعنف ، ففضحت المنافقين وكشفت عن المترددين وأهانت طلاب الدَّعة والراحة الذين آثروا ظل القعود فى بيوتهم وحقولهم على حر الصحراء ووعثاء السفر ، ومتاعب الجلاد « **فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله وقالوا لا تنفروا فى الحر قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون** » . (٨١ التوبة) .

وأنباء «جيش العسرة» تفيض بها صفحات طوال من سورة التوبة [١] .

ولعل من البين فى أسلوب القرآن الكريم وهو يصف هذا الجهاد، أنه لم تأخذه هوادة فى التنوية بمن اشتركوا فيه والتنديد بمن تخلفوا عنه ، ولا عجب فتحديد موقف الإسلام من النصرانية ، هو بَتٌّ مستقبل فى الدين كله إلى الأبد .

فإما ثبت المسلمون أمام لدد الكنيسة المتعصبة ، وإما أحرقتهم نارها ، فلم يبق لدينهم أثر .

وكان لهذا الحزم أطيب النتائج ، فخرج المسلمون فى تعبئة لم يخرجوا من قبل فى مثلها ، وانطلقوا صوب الشمال ، حيث تربض جيوش الروم .

----

(١) من كتاب الشيخ الفاضل محمد متولى الشعراوى حول خواطره فى تفسير القرآن الكريم الجزء ٦٦ ص٥٢٥١ عن أسماء سورة التوبة : هذه السورة لها أسماء كثيرة : فهى براءة - والتوبة والفاضحة والحافرة لأنها حفرت عن قلوب المنافقين وقال حذيفة : هى سورة العذاب - وقال ابن عمر : كنا ندعوها : المشقشقة - وقال الحارث بن يزيد كانت تدعى: المبعثرة - ويقال لها : المسورة - ويقال لها : البَحُوث لأنها تبحث عن أسرار المنافقين أنظر « البرهان فى علوم القرآن » للزركشى (١/ ٢٦٩) .

وتجلت - في هذا الاعداد - طوايا النفوس ، ومقدار ما استودعت من إخلاص وسماحة ونشاط ، فهناك أغنياء أخرجوا ثرواتهم لتجهيز الجيش ، وإمداده بحاجته ، من الرواحل والسلاح والخيل ، وبلغت الحماسة ببعضهم أن أبا بكر جاء بأمواله كلها إلى رسول ﷺ فأخذ منها ما أخذ ورد الباقي، وجاء عمر بن الخطاب بنصف أمواله ، أما عثمان بن عفان فقد سبق في بذله سبقاً بعيداً ، حتى إن الرسول ﷺ عجب من كثرة ما أنفق وقال : « اللهم أرض عن عثمان فإني عنه راضي »[1] .

هذا ما فعله المؤمنون الموسرون ، أما من كان من متوسطي الحال فقد قاموا على تجهيز أنفسهم واعداد زادهم ، وزاد بعضهم فكان يأتي بالبعير مجهزاً إلى الرسول ﷺ ليحمل عليه نفرا أو نفرين بالتناوب .

أما من كان من الفقراء الذين لا يستطيعون القيام على أمرهم ، ولا يملكون تجهيز أنفسهم ، فقد جاءوا إلى الرسول ﷺ يطلبون منه أن يحملهم معه ، فحمل من استطاع تجهيزه منهم ، ومن لم يستطع تجهيزه فقد اعتذر لهم فانصرفوا محزونين ، وتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ماينفقون .. وحسرة على ما سيفوتهم من الجهاد مع رسول الله ﷺ .. حتى سُموُا بـ (البكائين) وكانوا سبعة نفر من الأنصار وغيرهم .

فلقي (ابن يأمين بن عمير بن كعب النضري) (أبا ليلى عبد الرحمن بن كعب) و (عبد الله بن مغفل) وهما يبكيان فقال : ما يبكيكما ؟ قالا : جئنا رسول الله ﷺ ليحملنا فلم نجد عنده ما يحملنا عليه ، وليس عندنا ما نتقوى به على الخروج معه ، فأعطاهما ناضحا له ، فارتحلاه وزودهما شيئا من تمر ، فخرجا مع رسول الله ﷺ .

---

(١) رواه ابن هشام (٣١٦/٢) باسناد معضل وقد رواه ابن شاهين في كتابه (شرح مذاهب أهل السنة جـ١٨ رقم ٢٣ من نسختي) من حديث عائشه .

روى عن (عليه بن يزيد) أنه قام من الليل يصلى ، فتهجد ما شاء الله ثم بكى وقال : اللهم إنك أمرت بالجهاد ورغبت فيه ، ثم لم تجعل عندى ما أتقوّى به ، ولم تجعل فى يد رسولك ما يحملنا عليه .... وإنى أتصدق على كل مسلم بكل مظلمة أصابنى فيها فى مال ، أوجسد أو عرض .

وأصبح الرجل - على عادته - مع الناس ، فقال رسول الله ﷺ : أين المتصدق هذه الليلة ؟ فلم يقم أحد ، ثم قال : أين المتصدق ؟ فليقم ، فقام إليه فأخبره .

فقال رسول الله ﷺ : « أبشر .. فوالذى نفسى بيده لقد كتبت فى الزكاة المتقبله[1] . هذا ما كان من المؤمنين المخلصين ... أما ما كان من المنافقين والذين فى قلوبهم مرض ، فقد إستاءوا وتذمروا وأبدوا إمتعاضهم من أن يغادروا ديارهم فى هذا الجو الصائف الحار ويتركوا مزارعهم وقد أخرجت زرعها ، وبساتينهم وقد أثمرت ثمرها .. وزاد بعضهم فى نفاقه ، فصاروا يُحَرِّضُونَ الناس على التخلُّف عن الخروج مع رسول الله ﷺ وهم يقولون لهم : لا تنفروا فى الحر ، وتقدم كثير منهم إلى محمد ﷺ يستأذنونه فى التخلف عن الخروج مع الجيش ، ويتعللون فى ذلك بشتى العلل . وعلم محمد ﷺ أن هناك جماعة من المنافقين قد أخذوا على أنفسهم تحريض الناس على التخلف عن الخروج للقتال واتخذوا لذلك بيت (سويلم اليهودى) يجتمعون فيه لتدبير خططهم . فبعث (طلحة بن عبيد الله) فى نفر من أصحابه فحرق عليهم البيت فاقتحموا النيران هاربين ، وقفز أحدهم من ظهر البيت فكسرت رجله ، وبذلك كانوا مثلا وعبرة لغيرهم من المنافقين

---

(١) صحيح ذكره ابن اسحق فى « المغازى » بدون اسناد ، وقد ورد مسنداً موصولا من حديث يجمع ابن حارثه عمرو ابن عوف وابى عبس ، وعليه بن زيد وقتيبه كما بينه الحافظ فى « الاصابة » فليراجعها من شاء .

ومن أسخف الأعذار التى تمحلها أولئك القاعدون المنافقون ما قال (الجد بن قيس) للنبى ﷺ - وقد عرض عليه الجهاد - : يا رسول الله أو تأذن لى ولا تفتنى ؟ فو الله لقد عرف قومى أنه ما من رجل بأشد عجباً بالنساء منى ، وإنى أخشى إن رأيت نساء بنى الأصفر « الروم » ألا أصبر

فأعرض عنه رسول الله ﷺ وفيه نزلت الآية :

« **ومنهم من يقول إئذن لى ولا تفتنى ألا فى الفتنه سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين** »[1] وهناك الذين فترت - أول الأمر - هممهم ، فلما جد الرحيل وانطلق الجيش أحسوا خطر التخلف على إيمانهم ، فنهضوا يدركون ما يوشك أن يفوتهم . منهم « أبو خيثمة » عاد يوما إلى أهله - بعد مسير النبى ﷺ وصحبه - وكان اليوم قائظاً، فوجد إمراتيه كلتيهما ، قد أعدتا له الطعام الشهى والماء البارد الروّى ، ووجد مسكنه مبللاً رطباً ، وسط بستانه الذى أخذت ثماره تينع فاستيقظ ضمير الرجل ، وقال : رسول الله فى الشمس والريح والحر ، وأبو خيثمه فى ظل بارد ؟ وطعام مُهيّأ ، وامرأة حسناء فى ماله مقيم ؟! والله ما هذا بالنُّصف . . . ثم قال : والله لا أدخل عريش واحدة منكما حتى ألحق برسول الله ، فهيئا لى زاداً . . ففعلتا ثم قدم راحلته فارتحلها . وأسرع الرجل المؤمن يطلب رسول الله ﷺ ، حتى أدركه حين نزل « تبوك » .

هذا بعض ما كان أثناء الإستعداد لتجهيز الجيش ، وبعد رحيله .

ولنعد إلى سرد الأحداث ... فقد وفدت جماعات العرب ، وأتى رجال القبائل ، وتم اجتماع المقاتلين جميعا خارج المدينة ، وعليهم أبو بكر، حتى إذا ما تم إعداد الجيش ، وفرغ النبى ﷺ من شئون أهل المدينة ، ووضع عليهم « محمد بن مَسْلَمَة » وترك على أهله على بن أبى طالب ، خرج ليقود الجيش إلى حدود الشام لمقاتلة الروم ، وقد بلغ تعداد المسلمين الخارجين للقتال ثلاثين ألفا من المقاتلين .

---

(١) سورة التوبة آيه ٤٩

يا ألله ... إنه لعمر الحقِّ جيش جدير بأن يفخر به المسلمون ....!

وذلك رغم تخلف المتخلفين ، واعتذار كثير من المنافقين ...

وسار هذا الجيش العرمرم مخترقاً صحراء تكاد تشتعل حصباؤها ناراً، وتضطرم رمالها لهيباً ؛ وبالمدينة جلس المتخلفون النافرون من الحر .. ينعمون بظل ظليل ... وماء سلبيل وجو جميل .. فماذا يا تُرى كان شعورهم ، ورسول الله ﷺ وأصحابه فى الحر والهجير ، كان أكثرهم - بلا شك - يحمد لنفسه أنه استطاع التخلف والبقاء فى مزارعه وبساتينه ودياره ، وكان فيهم - بلا شك - من أخذه الندم على تخلفه عن الخروج بصحبة الرسول ﷺ مثل « خيثمة » الذى تحدثنا عنه آنفا .

وكان رسول الله ﷺ إذا سأل عن أحد ووجده من المتخلفين قال : إذا كان به خيرٌ فسيلحقه الله بكم . وكان فيهم « أبو ذر الغفارى » الذى لم يكن تخلفه عن تراخ أو تهاون أو نفاق ، إنما كان لعجز بعيره عن السير ، مما اضطره إلى النزول عنه ... وقطع المسافة فى أعقاب الجيش ماشياً ... ولما رآه الرسول ﷺ مقبلاً وقد عسكر الجيش فى منزل من منازله قال له : مرحباً بأبى ذر ! ما خلفك ؟.

فلما أخبره أبو ذر خبره قال : إن كنت لِمَنْ أَعَزِّ أهلى علىَّ تخلفا !! يا أبا ذر، لقد غفر الله لك بكل خطوة ذنبا إلى أن بلغتنى .

وسار جيش « العسرة » وقد سُمِّىَ بهذا (الإسم لما لقى - كما ذكرنا - فى تكوينه من شدة ولما تَكَبَّد فى تمويله من عُسر - حتى نزل (بالحِجْر) وبها أطلال منقورة فى الصخر لمنازل (ثمود) قوم « النبى صالح » الذين عصواْ نبيهم ، فأرسل الله الصاعقة فصعقتهم ، وهى أطلال هامدة وآثار بقيت تُذَكِّر بغضب الله على من كذبوا رسله ، وتعجلوا عقابه ... فقال رسول الله ﷺ : « لا تدخلوا مساكن الذين ظلموا أنفسهم إلا أن تكونوا باكين أن

يصيبكم ما أصابهم»[١] والظاهر أن النبى ﷺ يريد ألا يغفل المسلمون عن مواطن العظه ... وألا يستهينوا مما خلا قبلهم من مُثلات ، فإن المرء لو قيِّض الله له أن يزور السجون ويشهد مثلا غرفة الإعدام فليس يليق أن ينظر إلى حبل المشنقة وهو شارد أو ضاحك لا أقل من بعض الأسى لأحوال المجرمين ومصارعهم .

وروى « أحمد » عن « جابر » لما مَرَّ النبى ﷺ بـ « الحجر » قال : « لا تسألوا الآيات - خوارق العادات - فقدسألها قوم صالح ، فبعث الله لهم ناقة ، فكانت ترد من هذا الفج ، وتصدر من هذا الفج ، فعتَوا عن أمر ربهم ، فعقروها[٢] ، فأخذتهم صيحة أهمد الله بها مَنْ تحت أديم السماء منهم ... »[٣] والنهى عن سؤال الآيات عود بالناس إلى الأحوال المألوفة ، إذ لا جدوى فى الخروج عليها . وخير للسائلين أن يبذلوا طاقتهم فى أداء ما يكلفون به ، وأن يرققوا قلوبهم حتى تلين لأمر الله . فإن مَنْ قَبْلَهُم شهد العجائب ، ثم اغرتهم قسوة القلب بازدرائها فحاقت بهم اللعنة .

★ ★ ★

وعانى الجيش الذاهب الى (تبوك) مصاعب ثقيله ، وروى فى تفسير قول الله عز وجل :

« لقد تاب الله على النبى والأنصار الذين اتبعوه فى ساعة العسرة » (سورة التوبة من الآيه ١١٧)

---

(١) صحيح أخرجه أحمد (٥٢٢٥ .٥٣٤٣، ٥٤٠٤، ٥٤٤١، ٥٦٤٥، ٤٧٠٥، ٥٩٣١ ، ٤٥٦١) من حديث ابن عمر وأخرجه البخارى (١٠٢/٧) ومسلم (٢٢١/٨) نحوه.

(٢) كانت الناقة تشرب ماء هم يوما ويشربون لبنها يوما .

(٣) فى المسند (٢٩٦/٤) من طريق عبد الله بن عثمان بن خيثم بن الزبير عن جابر وقال الحافظ ابن كثير فى تاريخه (١١/٥) « اسناده صحيح » وكذلك صححه الحاكم من هذا الوجه (٣٤٠/٢-٣٤١)ووافقه الذهبى .

قال ابن كثير فى تفسيره (٣٩٦/٢) : قال قتادة : « خرجوا إلى الشام عام تبوك فى لهبان الحر على ما يعلم الله من الجهد ما أصابهم منها جهد شديد، حتى لقد ذكر لنا أن الرجلين كانا يشقان التمرة بينهما ، وكان النفر يتداولون التمرة بينهم يمصها هذا ثم يشرب عليها ، ثم يمصها هذا ثم يشرب عليها ، فتاب الله عليهم ، وأقفلهم من غزوتهم » ولكن المنافقين تخلفوا عن الخروج مع رسول الله ﷺ إبتداءً .

وروى الإمام أحمد قال : خرجوا فى « غزوة تبوك » الرجلان والثلاثة على بعير واحد ، وخرجوا فى حر شديد ، وأصابهم عطش ، حتى جعلوا ينحرون إبلهم لينفضوا أكراشها ، ويشربوا ماءها فكان ذلك عسرة فى الماء، وعسرة فى النفقة ، وعسرة فى القيظ !!!

وعن عبد الله بن عباس أنه قيل لعمر بن الخطاب : حدثنا عن شأن العسرة .. فقال عمر : خرجنا إلى تبوك فى قيظٍ شديد ، فنزلنا منزلاً ، وأصابنا فيه عطش حتى ظننا أن رقابنا ستنقطع حتى إن الرجل لينحر بعيره، فيعتصر فرثه فيشربه .. ثم يجعل ما بقى على كبده .....

ونذكر حين كان « جيش العسرة » بالحجر عند الأطلال ... كان العطش قد بلغ بهم مبلغه ، فصادفهم بئر بجوار تلك الأطلال .. فتسارع الرجال يغتسلون ويستقون لإبلهم ويستعدون لطهو طعامهم ، وعجن عجينهم .. ولكن النبى ﷺ قال لهم : « لا تشربوا من ماء البئر ، ولا تتوضئوا منه للصلاة وما كان من عجين عجنتموه فاعلفوه للإبل ، ولا تأكلوا منه شيئا . فتجنب الناس الوضوء من ماء البئر وأراقوا ما كانوا قد عبئوه من مائها . وقال النبى ﷺ أيضا يحذرهم : « لا يخرجن أحد منكم الليلة إلا ومعه صاحب . وعمل رجال

الجيش بمشورة الرسول ﷺ فَسَلِموا ، إلا رجلين خرج أحدهما فى حاجة له فطمرته رمال العواصف ، وفقد الثاني بعيره فخرج يتفقده ، فحملته الريح فأطاحت به .

وأصبح الصباح ، وارتحل الجيش ، والناس عطشى يطلبون الماء لشربهم وسد حاجتهم فلا يجدونه فشكوا إلى رسول الله ﷺ ذلك ، وبادره أبو بكر : يا رسول الله صلى الله عليك إن الله عَوَّدك فى الدعاء خيراً فادع الله لنا ....!

فقال : أو تحب ذلك ؟ قال : نعم فرفع رسول الله ﷺ يديه إلى السماء فلم يرجعهما حتى قالت السماء - أى آذنت بمطر - فأظلت، ثم سكبت فملأوا ما معهم وشربوا ...ثم ذهبنا ننظر ، فلم نجدها جاوزت المعسكر[1] .

قال ابن اسحق : وكان فى الجيش رجل منافق فقالوا : ويحك هل بعد هذا من شئ ؟

قال : سحابة مارّة ....!

ولم يترك المنافقون المصاحبون للجيش رياءهم ونفاقهم ، ولم ينصرفوا عن تثبيط الناس عن القتال والعمل على قتل هممهم ، وتخذيل معنويتهم ، فكانوا يقولون للناس : أتحسبون جِلاَدَ بنى الأصفر - وهم الروم - كقتال العرب بعضهم بعضاً ؟ والله لكأنّا بكم غداً مُقَرَّنين فى الحبال !!!

واشتد الجدل بين المنافقين والمؤمنين ، والنبى ﷺ فى مجلس ناء لا يسمع لحديثهم، ثم إذا به يقول لعمار بن ياسر : يا عمار ؛ أدرك القوم فإنهم قد اقترفوا إثماً .

---

(١) ذكره ابن كثير فى التاريخ (٥/٩) من روايه عبد الله بن دهب بسنده عن ابن عباس ثم قال : اسناده جيد .

وذهب عمار إلى القوم فنبأهم بما أوحى إلى الرسول ﷺ من أمرهم ، فجاءوا إلى الرسول ﷺ يعتذرون ويقولون : يا رسول الله ؛ إنما كنا نخوض ونلعب .

ومما كان من المنافقين أيضا ، أن ضلَّت ناقة رسول الله ﷺ يوما ، وخرج نفر من المسلمين للبحث عنها فلم يقفوا لها على أثر فقال « زيد بن اللصيت » لمن يجالسه ، وكان يجلس فى رحل رجل اسمه (عمارة بن حزم): هذا محمد يزعم أنه يخبركم بأمر السماء ، وهو لا يدرى أين ناقته !!

وكان محمد ﷺ يجلس إلى جماعة من أصحابه فيهم (عمارة بن حزم) فقال لهم :

« إن رجلا قد قال ...(وذكر ما قال (زيد) عن الناقة)وإنى والله ما أعلم إلا ما علمنى الله ... وقد دلنى الله عليها ، فهى فى هذا الوادى فى شعب كذا وكذا ، وقد حبستها شجرة بزمامها .. فانطلقوا حتى تأتونى بها ، فذهبوا فجاءوا بها . وراح (عمارة بن حزم) إلى رحله يقص على من فيه ما كان من الرسول ﷺ ، وما تنبأ به ، فقال رجل من السامعين : زيد والله قال ما تنبأ به الرسول . فأقبل « عمارة » على زيد يضربه ويوكز فى عنقه وهو يقول : إلىَّ عباد الله إن فى رحلى لداهية وما أشعر ، أخرج أى عدو الله من رحلى فلا تصحبنى .

قال ابن اسحق : فزعم بعض الناس أن زيداً تاب بعد ذلك ، وقال بعض الناس لم يزل متهماً بشرحتى هلك .

(عن عاصم بن قتادة عن محمود بن لبيد عن رجال من بنى عبد الأشهل) .

ووصل جيش المسلمين إلى « تبوك » على حدود جزيرة العرب وحدود الشام الذى يقع تحت حكم الروم . وهناك علم محمد ﷺ أن الروم قد تحصنوا بحصونهم داخل بلادهم ، وأنهم لن يواجهوه وجها لوجه ولابد أن الروم آثروا

الإختفاء داخل حدودهم عن ملاقاة هذه القوة الفتية .

وجمع رسول الله ﷺ أصحابه يستشيرهم فى المسير والتقدم إلى داخل بلاد الشام حيث يتحصن جند الروم لقتالهم ...

فقال له عمر بن الخطاب : يا رسول الله ، إن كنت أُمِرْتَ بالمسير فَسِرْ ...

فأجاب الرسول ﷺ : لو أمرتُ به ما استشرتكم فيه ...

وتشاور أصحاب النبى ﷺ فى الأمر .. وتباحثوا فيه ... وارتَأوْا ألا يتقدم الجيش إلى داخل بلاد الروم ، وأن يكتفوا من هذه الغزوة بما ألقوْه من الرعب والفزع فى قلوب الرومان حتى ألجئوهم الى التحصن فى حصونهم فى داخل بلادهم ، وبما علم الرومان وعلم غيرهم من الممالك والقبائل المتاخمة لهم بما أضحى للمسلمين من عظمة ، وما أصبحوا عليه من قوة .

وعلى هذه الحدود عسكر الرسول ﷺ بجيشة الكبير بضعه عشر يوما ، يمدُّ بصره وراء الصحراء حيث اختفى الرومان . . يرقب منهم أى حركة أو اشاره تُنْبِئ أن هناك من يفكر فى محاربته أو التعرض له . بيد أنهم بقوا قابعين مستكينين ؛ فهل أمن محمد الآن على حدود جزيرة العرب وبات لا يشغله أمر زحف الرومان عليها ؟ ... لا .. لم يكتف الرسول ﷺ بما رأى من ظاهرة تنبئ أن الرومان قد باتوا يخشوْن محمدا ﷺ ويحسبون حساب المسلمين .. بل رأى أن يعمل أيضا على تأمين هذه الحدود بمعاهدات ومحالفات بينه وبين من يجاورها من الإمارات والممالك .

★ ★ ★

﴿ معاهدات الرسول ﷺ مع أهل « أيلة » وأذرع وجرباء ودومة ﴾

بعث رسول الله ﷺ إلى « يوحنا بن رُؤْبَه » صاحب « أيلة » - وكان نصرانيا - يعرض عليه : إما أن يدخل فى طاعة المسلمين ، وإما يغزوه . فجاء « يوحنا » إلى الرسول ﷺ وعلى صدره صليب من ذهب ، فقدم طاعته ، فقرر عليه النبى ﷺ جزيةً مقدارها ثلاثمائة دينار ، وكتب له عهداً أمَّن فيها أهل « أَيْلة » وكُلَّ من صاحبهم براً وبحراً .

كذلك كتب الرسول ﷺ مثل هذا العهد ، وأعطى مثل هذا الأمان ، لأهل « جَرْبَاء » وأهل « أَذْرُع » بعد أن قدَّر عليهم ما يناسبهم من الجزية .

أما « أُكَيْدِر بن عبد الملك الكِنْدِىُّ » النصرانى أمير « دومة » فقد كان النبى لا يأمن جانبه فبعث إليه خالد بن الوليد فى خمسمائه من فرسان المسلمين ، وأوصاه أن يلحق بجيش المسلمين إلى المدينة بعد أن يفرغ منه .

ولم يجد النبى ﷺ بعد ذلك سببا يدعو لبقاء جيشة بتبوك .. فالجيش كبير يحتاج إلى تموين وإلى غذاء، وشُقَّة العودة طويلة بعيدة تستنفد كل ما أصبح معهم من طعام وزاد .

وعلى ذلك أصدر النبى ﷺ أمره بالعودة فشدَّ الجيش رحاله وكرَّ عائداً نحو المدينة موفوراً منصوراً .

و « غزرة تبوك » تشبه « غزوة الأحزاب » - مع الفارق - فإن بلاء المسلمين أولها كان شديداً ،ثم جاء ختامها طمأنينة وعزه .

★ ★ ★

قال ابن اسحق : فحدثنى عصام بن قتادة عن أنس بن مالك قال :

وأثناء عودة رسول الله ﷺ بجيش المسلمين ، كان فى الطريق ماء يخرج من

وشل ما[1] يروى الراكب والراكبين والثلاثة[2] بواد يقال له : : « وادى المشقق » فقال رسول الله ﷺ : « من سبقنا إلى ذلك الوادى فلا يستقين منه شيئا حتى نأتيه » .

فسبقه إليه نفر من المنافقين فاستقوا ما فيه ، فلما أتاه رسول الله ﷺ وقف عليه ، فلم ير فيه شيئا فقال : من سبقنا إلى هذا الماء ؟ فقيل له : يا رسول الله فلان وفلان . فقال : أو لم أنههم أن يستقوا منه شيئا حتى آتيه ؟ ثم لعنهم رسول الله ﷺ ودعا عليهم ، ثم نزل فوضع يده تحت الوشل ، فجعل يصب فى يده ما شاء الله أن يصب ، ثم نضحه به ، ومسحه بيده ، ودعا رسول الله ﷺ بما شاء الله أن يدعو به ، فانخرق من الماء كما يقول من سمعه ما إنَّ له حِساً كحسِّ الصواعق.. فشرب الناس واستقوا حاجتهم منه ، فقال رسول الله ﷺ « لئن بقيتم أو من بقى منكم لتسمعن بهذا الوادى وهو أخصب ما بين يديه وما خلفه » (حديث صحيح)

وقال ابن اسحق : وحدثنى محمد بن ابراهيم الحارث التيمى ، أن عبد الله بن مسعود كان يحدث ، قال : قمت من جوف الليل ، وأنا مع رسول الله ﷺ فى « غزوة تبوك » قال : فرأيت شعلة من نار فى ناحية العسكر ، قال: فأتبعتها أنظر اليها ، فاذا رسول الله ﷺ ، وأبو بكر وعمر ، وإذا (عبد الله ذو البجادين المزنى) قد مات ، وإذا هم قد حفروا له ، ورسول الله ﷺ فى حفرته ، وأبو بكر وعمر يدليانه إليه وهو يقول : « أدنيا إلى أخاكما » فدلياه إليه ، فلما هيأه لشقه قال : « اللهم إنى قد أمسيت راضيا عنه فارض عنه » قال : يقول عبد الله بن مسعود : ياليتنى كنت صاحب الحفرة (اسناده منقطع والحديث حسن) .

---

(١) الوشل : الماء القليل يتحلبه من صخر أو جبل (انظر المنجد) مادة وشل

(٢) شحيح الماء

قال ابن هشام : وإنما سمى « ذو البجادين » لأنه كان ينازع إلى الإسلام فيمنعه قومه من ذلك ويضيقون عليه ، حتى تركوه فى (بجاد) ليس عليه غيره ، (والبجاد) : الكساء الغليظ الجافى) فهرب منهم إلى رسول الله ﷺ ، فلما كان قريبا منه شقّ بجاده اثنين ، فإتزر بواحد ، واشتمل بالآخر ، ثم أتى رسول الله ﷺ ، فقيل له : ذو البجادين لذلك والبجاد أيضا : المسح (أى ما يلبس من نسيج الشعر على البدن تقشفاً وقهراً للجسد)[1] .

★★★

وقدم رسول الله ﷺ المدينة .. ولاحت له معالمها من بعيد ، فقال : «هذه طابة» وهذا « أُحد » جبل يحبنا ونحبه »[2] . وتسامع الناس بمقدمه فخرج النساء والصبيان يقلن :

طلع البدر علينا — من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا — مادعا لله داع

لقد قوبل جيش العسرة فى مرجعه بخفاوة بالغة إنه أكبر جيش خرج مع رسول الله ﷺ ، إذ وصل تعداده نحو الثلاثين ألفا ... ولم ينس النبى ﷺ فى ذهابه وإيابه أصحاب القلوب الكبيرة الذين صعب عليهم أن يجاهدوا معه فتخلفوا راغمين والعبرات تملأ عيونهم .

عن أنس بن مالك : أن رسول الله ﷺ حين رجع من غزوة تبوك فدنا من المدينة قال :

« إن بالمدينة أقواماً مَا سِرتُمْ مسيراً ، ولا قطعتم وادياً إلا كانوا معكم » فقالوا : يا رسول الله .. وهم بالمدينة ؟ قال : « وهم بالمدينة ، حبسهم

---

(١) انظر المنجد مادة (مسح)

(٢) صحيح أخرجه الشيخان وغيرهما .

العـذر »[1] بهـذه المواسـاة الرقـيـقـة ، كـرم النبى ﷺ الرجـال الذين شـيـعـوه بقلوبهم وهو ينطلق إلى الروم ، فأصلح بالهم ، وأزاح هما ثقيلا عن أفئدتهم أما المنافقون من مؤملى الشر ودعـاة الهـزيمة !، والأعـراب الذين إعـتـبـروا الإسلام نكبة حلت بهم فهم يتربصون الدوائر بأهله .

أما هؤلاء وأولئك فأمامهم عناء طويل .

﴿ المخلـــفون ﴾[2]

قـصـة كعب بن مـالك : ولما دخل رسول الله ﷺ المدينة بدأ بالمسـجد، فصلى فيه ركعتين ثم جلس للناس ، فجاءه المخلفون ، فطفقـوا يعتذرون له ويحلفون .... وكانوا بضعه وثمانين رجلاً فقبل منهم رسول الله علانيتهم .. وبايعهم واستغفرلهم ، ووكَّل سرائرهم إلى الله ، وجاءه كـعب بن مـالك ، فلما سلم عليه ، تبسَّم تبسُّم المغضب ثم قال :

تعال ... قـال : فجئت أمشى حتى جلست بين يديه ، فقال لى : ما خلفك ألم تكن قد ابتعت ظهرك ؟ فقلت : بلى والله .. إنى لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر ، ولقد أعطيت جدلا ، ولكنى والله ، لقد علمت إن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به علىّ ، ليوشكن الله أن يُسخطك علّى ، ولئن حدثتك حديث صدق تجد على فيه ، إنى لأرجو فيه عفو الله عنى ، والله ما كان لى من عذر ، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنك ......

فقال رسول الله ﷺ : أما هذا ، فقد صدق .. فقم حتى يقضى الله فيك .. فقمت وثار رجال من « بنى سلمة » فأتبعونى يؤنبونى ، فقالوا : والله ما علمناك كنت أذنبت ذنبا قبل هذا .. ولقد عجزت أن لا تكون إعتذرت إلى

----

(١) صحيح أخرجه البخارى (١٠٣/٨)

(٢) هذه الرواية من خلاصة لزاد المعاد .

رسول الله ﷺ بما إعتذر إليه المخلفون ...فقد كان كافيك ذنبك إستغفار رسول الله ﷺ لك .

قال : فو الله مازالوا يؤنبونى ، حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسى ، ثم قلت لهم : هل لقى هذا معى أحد ؟ قالوا : نعم ، رجلان ، قالا مثل ما قلت، فقيل لهما مثل الذى قيل لك ، فقلت من هما ؟ قالوا : « مرارة بن الربيع العامرى » و « هلال بن أمية الواقفى » فذكروا رجلين صالحين شهدا (بدرا) فيهما أسوة .. فمضيت حين ذكروهما لى . ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا - أيها الثلاثة - من بين من تخلف عنه فاجتنبنا الناس وقاطعونا، وتغيروا لنا ، حتى تنكرت لى الأرض فما هى بالتى أعرف .

فلبثنا على ذلك خمسين ليلة ، فأما صاحباى فاستكانا وقعدا فى بيوتهما يبكيان ، وأما أنا فكنت أشَبَّ القوم وأجلدهم ... فكنت أخرج أشهد الصلاة مع المسلمين .. وأطوف فى الأسواق .. ولا يكلمنى أحد ، وآتى رسول الله ﷺ وهو فى مجلسه بعد الصلاة ، فأقول فى نفسى : هل حَرَّك شفتيه بِرَدِّ السلام أم لا ؟ ... ثم أصلى قريبا منه فأسارقه النظر ، فإذا أقبلت على صلاتى أقبل إلى ، وإذا التفت نحوه أعرض عنى !!

حتى إذا طال علىَّ ذلك من جفوة المسلمين ، مشيت حتى تسورت جدار حائط أبى قتاده - وهو ابن عمى وأحب الناس إلىَّ - فسلمت عليه ... فوالله ما رَدَّ السلام .. فقلت : يا أبا قتادة أنشدك الله ، هل تَعْلَمُنى أحب الله ورسوله ؟ فسكت !! فعدت له فنشدته فسكت فعدت له فنشدته ، فقال : الله ورسوله أعلم !!

ففاضت عيناى وتوليت حتى تسورت الجدار .

فبينا أنا أمشى بسوق المدينة .. وإذا «نبطى » من أنباط الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول : من يدل على « كعب بن مالك » فطفق الناس

يشيرون له ، حتى إذا جاءنى دفع إلى كتابا من مَلِك غسان فإذا فيه : «أما بعد فإنه قد بلغنى أن صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة ، فالحق بنا نواسك » .

فقلت لما قرأتها - وهذا أيضا من البلاء ، فتيممت بها التنور فسجرتها (يعنى أحرقها فى موقد النار) .

حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين ، إذا رسول رسول الله ﷺ يأتينى فيقول : إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل إمرأتك .. فقلت : أطلقها أم ماذا ؟ قال : لا ، ولكن اعتزلها ولا تقربها . وأرسل إلى صاحبىّ كذلك، فقلت لأمرأتى : إلحقى بأهلك فكونى عندهم حتى يقضى الله فى هذا الأمر .

فجاءت امرأة « هلال بن أمية » فقالت : يا رسول ، إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم فهل تكره أن أخدمه ؟ قال : لا ولكن لا يقربك ، قالت : إنه والله ما به حركة إلى شئ ، والله مازال يبكى ، منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا .

قالب كعب : فقال لى بعض أهلى : لو استأذنت رسول الله ﷺ فى امرأتك كما أذن لإمرأة « هلال بن أمية » أن تخدمه ؟ فقلت : والله لا استأذن فيها رسول الله ﷺ ، وما يدرينى ما يقول رسول الله إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب ؟. ولبثت بعد ذلك عشر ليال حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا . فلما صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة ، على سطح بيت من بيوتنا ، وبينا أنا جالس على الحال التى ذكر الله تعالى، قد ضاقت علىّ نفسى ... وضاقت على الأرض بما رحبت ، سمعت صوت صارخٍ أوفَى على جبل (سَلْع) بأعلى صوته : يا كعب بن مالك ، أبشر ، فخررت ساجداً ، وعرفت أن قد جاء فرج من الله .

وآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى الفجر ، فذهب الناس يبشروننا وذهب قِبَلَ صاحبى مبشرون وأركض إلىَّ رجل فرساً .. وسعى ساع من أسلم ، فأوفى على ذروة الجبل ، وكان الصوت أسرع من الفرس .

فلما جاءنى الذى سمعت صوته يبشرنى ، نزعت له ثوبىَّ فكسوته إياهما ببشراه ، والله ما أملك غيرهما ، واستعرت ثوبين فلبستهما ، وانطلقت إلى رسول الله ﷺ فتلقانى الناس فوجاً فوجاً، يهنئوننى بالتوبة يقولون : ليهنك توبة الله عليك .

قال كعب : حتى دخلت المسجد ، فإذا رسول الله ﷺ جالس وحوله الناس .. فقام إلىَّ (طلحة بن عبيد الله) يهرول حتى صافحنى وهنأنى .. والله ما قام إلى رجل من المهاجرين غيره ولست أنساها لطلحة فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال : - وهو يبرق وجهه من السرور - أبشر بخير يوم مَرَّ عليك منذ ولدتك أمك .

قال : قلت : أهو من عندك يا رسول الله ، أم من عند الله ؟

قال : لا .. بل من عند الله . وكان رسول الله ﷺ إذا سُرَّ إستنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر، وكنا نعرف ذلك منه .

فلما جلست بين يديه قلت : يا رسول الله ، إن من توبتى أن أنخلع من مالى صدقة إلى الله وإلى رسوله .

فقال : أمسك عليك بعض مالك ، فهو خير لك .

قلت : فإنى أمسك سهمى الذى بخيبر .

ثم قلت : يا رسول الله ، إن الله إنما أنجانى بالصدق ، وإن من توبتى أن لا أحدث إلا صدقا ما بقيت . فوالله ما أعلم أحداً من المسلمين أبلاه الله فى صدق الحديث منذ ذكرت ذلك لرسول الله ﷺ إلى يومى هذا ما أبلانى ،

والله ما تعمدت بعد ذلك إلى يومى هذا كذبا ، وإنى لأرجو أن يحفظنى الله ما بقيت .

فأنزل الله سبحانه وتعالى على رسوله عليه أفضل الصلاة والسلام :

« **لقد تاب الله على النبى والمهاجرين والأنصار** » إلى قوله تعالى:

« **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين**»[1]

فوالله ما أنعم الله علىّ نعمة قط - بعد أن هدانى للإسلام - أعظم فى نفسى من صدقى لرسول الله ﷺ أن لا أكون كذبته ، فأهلك كما هلك الذين كذبوا فإن الله قال للذين كذبوا حين أنزل الوحى شر ما قال لأحد ، قال : «**سيحلفون بالله لكم إذا انقلبتم إليهم** » **إلى قوله** : « **فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين** »[2].

قال كعب : وكان تخلفنا - أيها الثلاثة - عن أمر أولئك الذين قبل منهم رسول الله ﷺ حين حلفوا له ، فبايعهم واستغفرلهم ، وأرجأ أمرنا ، حتى قضى الله فيه ، فبذلك قال الله : « **وعلى الثلاثة الذين خُلِّفوا** »[3] وليس الذى ذكر الله مما خلفنا عن الغزو ، وإنما هو تخليفه إيانا وارجاؤه أمرنا عمن حلف له واعتذر إليه فقبل منه[4] .

★ ★ ★

---

(١) سورة التوبة الآيات ١١٧ . ١١٨ . ١١٩

(٢) سورة التوبة الآيات ٩٥ . ٩٦ .

(٣) التوبة من الآيه ١١٨ .

(٤) صحيح أخرجه البخارى (٨/٩٢-١٠٠) بطوله ، وكذا مسلم(٨/١٠٦-١١٢)

﴿ عودة خالد بن الوليد إلى المدينة ﴾

وجاءت البشائر إلى رسول الله ﷺ تبشره بنجاح خالد بن الوليد في مهمته وتعرفه أنه قد تم أسر « أُكَيْدِر » أمير دومة دون قتال يُذكر ، ودون أن يتكبد فرسان المسلمين أي مَشَقَّة وأي عناء ، وكان ذلك مالا قاه خالد ، فقد دخل « دومة » في ليلة مقمرة ، فوجد « أُكَيْدِر » خارج حصنه يصيد بقر الوحش ، وكان أن أسر خالد (أكيدر) وبعض نفر من رجاله وفاوض خالد أكيدر على أن تَفْتَح مدينته للمسلمين أبوابها أو يُقتل هو ثم تهاجم مدينته ، وتم الصلح بين أكيدر وخالد على أن تَفتح مدينته أبوابها ، وعلى أن يكون لخالد منها ألف بعير وثمانمائة رأس من الغنم وأربعمائة درع ومثلها رماح وأن يصحب أكيدر خالداً إلى المدينة ليرى رسول الله ﷺ فيه رأيه .

وناشد أكيدر أهل مدينته في أن يفتحوا أبوابها فداءً له ففتحوها ، فساق منها خالد ، وأخذ ما تم الاتفاق عليه بينه وبين أميرها .

وبعث خالد من يبشر الرسول ﷺ ، ثم لَحِقَ البشيرَ بالمدينة يصحبه أسيره ، ويسوق ويحمل ما أنعم الله به على المسلمين .

وفرح أهل المدينة بما أنعم الله به عليهم ، وجعلوا يتفرجون معجبين بما على أمير دومة من ملابس حريرية موشاة بالذهب .

قال ابن اسحق حدثني عاصم بن عمرو بن قتادة ، عن أنس بن مالك قال : رأيت قباء أكيدر حين قدم به على رسول الله ﷺ ، فجعل المسلمون يلمسونه بأيديهم ويتعجبون منه فقال رسول الله ﷺ : « أتعجبون من هذا ، فوالذي نفسي بيده لمناديل (سعد بن معاذ) في الجنة أحسن من هذا » .

(اسناده صحيح) .

ثم كان أن صالح محمد ﷺ أكيدر على الجزية ، ثم أطلق سراحه ، وسراح من معه .

وكان للمسلمين في هذه الغنيمة التي أتى بها خالد ما عوضهم عما كانوا ينشدونه من وراء غزوة تبوك وكان فيها للمنافقين ما جعلهم يُقَصِّرُونَ من ألسنتهم ، ويلتزمون حَدَّهم .

★ ★ ★

﴿ موت عبد الله بن أبيّ ﴾

على أن المنافقين في المدينة لم يلبثوا طويلاً بعد ذلك حتى تقلمت أظافرهم ، وكُسرت شوكتهم بانهيار ركن كان يَدْعَمُهُم ويسندهم ، وهو موت (عبد الله بن أبى) شيخهم وكبيرهم .

ومع ما كان من (ابن أبى) للنبى ﷺ، فقد صلى النبى ﷺ عليه وأقام عليه حتى كُفِّن ودُفن ، ولما خوطب النبى ﷺ من أصحابه فيما كان من صلاته على (ابن أبيّ) بعد ما كان منه من مواقف ضد الرسول والمسلمين، قال الرسول ﷺ :

لقد قيل لى : « **استغفر لهم أولا تستغفر لهم ، إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم** »[1] فلو أعلم أني إن زدت على السبعين غُفرَ له لزدت عليه ! وعَزَّى النبى ﷺ (عبد الله بن عبد الله بن أبى) وكان من أخلص المسلمين ثم إنصرف .

★ ★ ★

﴿ مسجد الضرار ﴾

سلك النبى ﷺ مع الذين يتظاهرون بالإسلام طريق الملاينة والإغضاء ، يقبل منهم أعذارهم - وهى مختلفة - ويتكرم عن فضحهم ، وهم يتفلتون من قيود السمع والطاعة فإذا تلبس أحدهم بخيانة تُهدْر دمه ، رغب فى

----

(١) التوبة آية ٨٠ .

التجاوز عنه حتى لا يقال إن محمداً يقتل أصحابه ، وما هم في صحبته من شئ ، ولكن هكذا سيقول الناس .

ولو أن هؤلاء المنافقين كانوا على قليل من الخير ... لأسرهم هذا الحلم وانخلعوا من خداعهم الصغير ، وأقبلوا على الإسلام طيبين خالصين .. بيد أن هذا الأسلوب العالى فى معاملتهم لم يزدهم على الله ورسوله إلا جرأة ، فزاد إفتياتهم ، وَرَبَتْ شرورهم ، ولم يبق بُدٌّ من كشف خبثهم ، وإشعار جمهور الأمة بما تنطوى عليه نفوسهم وأعمالهم .

وقد نزلت الآيات أخيراً تندد بما فعل ويفعل أولئك المنافقون .. وتُمزِّق الأستار التى يتوارون خلفها ، وكانت ألا عيبهم قبل « تبوك » وبعدها هى النهاية الحاسمة للسماحة التى مرحوا فى سعتها طويلاً ولم يقدروها حق قدرها .

فأمر النبى ﷺ أن يعلن على الناس ذبذبتهم ونكوصهم ، وكُلِّف ألا يقبل منهم وألا يصلى عليهم ، بل عُرِّف أن إستغفاره لهم لن يجاب ، ثم طولب المسلمون كافة أن يقاطعوهم . ومن أعجب ما تفتقت عنه حيل المنافقين أن يبنوا مسجدا (بذى أوان) (بلد بينه وبين المدينة ساعة من نهار) بنوه ليلتقوا فيه وحدهم ، ويمكرون فيه بالإسلام تحت ستار التجمع على العبادة ، وقد ذهبوا للرسول ﷺ قبل رحيله إلى (تبوك) يقولون له :

(بنينا مسجداً لذى العلّة والحاجة والليلة المطيرة ، ونحن نحب أن تأتى فتصلى لنا فيه ، فاعتذر النبى ﷺ بأنه على جناح السفر .. وأنه مشغول بالإعداد له ، وقال : « لو قدمنا إن شاء الله آتيناكم ، فصلينا لكم فيه »[1] .

---

(١) ضعيف رواه ابن هشام (٣٢٢/٢) عن ابن اسحق بدون اسناد ، لكن ذكره ابن كثير فى التفسير (٣٨٨/٢) عن ابن اسحق عن الزهرى ويزيد ابن رومان وعبد الله بن أبى بكر وعاصم بن عمر وابن قتادة وغيرهم مرسلا والله أعلم .

فلما آب النبى ﷺ بجيشه ، وتحرج موقف المنافقين وانكشفت خباياهم ، أرسل « مالك بن الدخشم » و« معن بن عدى » أخا بنى العجلان ، فقال : إنطلقا إلى هذا المسجد الظالم أهله ، فاهدماه وحرقاه .. فخرجا مسرعين حتى أتيا « بنى سالم بن عوف » وهم رهط « مالك بن الدخشم» فقال مالك لمعن : أنظرنى حتى أخرج إليك بنار من أهلى ، فدخل إلى أهله فأخذ سعفا من النخل فأشعل فيه ناراً ،ثم خرجا يشتدان حتى دخلاه وفيه أهله ، فحرقاه وهدماه ، وفيه أهله الذين فروا مذعورين لمرأى اللهب ، يدمر آخر ما شَادَ النفاق من حيل .

ونزل قوله تعالى :« **والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون لا تقم فيه أبدا لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه** »[1] .

* * *

﴿ طليعة الوفود ﴾

« وفد ثقيف »

إستغرق المسير إلى « تبوك » والعودة منها أياماً طوالا ، فقد خرج المسلمون إليها فى رجب ، وعادوا فى رمضان ليؤدوا ما عليهم من فريضة الصيام ، ولم يلبثوا طويلاً حتى جاءت البشريات بأن وفدا من ثقيف قدم المدينة ليفاوض رسول الله ﷺ على الدخول فى الإسلام . . . لقد استجاب الله دعوة نبيه لأهل الطائف أن يسلس قيادهم للحق فيأتوا طائعين

وكان أهل الطائف - بعد أن إنفض الحصار المضروب عليهم - قد أخذوا

---

(١) التوبة الآيه ١٠٧ ومن الآيه ١٠٨

يتروُون فى شأنهم ومصيرهم إلا أن جمهورهم لم يزل ولائه للأصنام وصدوده عن الإسلام .

وحاول رئيسهم « عروة بن مسعود » أن يتحدث إليهم فى نبذ هذه الجاهلية (وعروة) فيهم سيد مطاع محسوب ، غير أن نخوة الإمتناع إستبدت بهم ، فلما أظهر الرجل دخوله فى الإسلام ودعاهم إلى ذلك رموه بالنبل فقتلوه .

وهكذا قُتل (عروة) بيد قومه وهو يدعوهم إلى الإسلام ، وقد حذره من ذلك رسول الله ﷺ ، وفاضت روحه ونفسه راضية مطمئنة يقول لمن حوله من آله وقومه : كرامة أكرمنى الله بها وشهادة ساقها الله إلىّ ، فليس فِىَّ إلا ما فى الشهداء الذين قُتلوا مع رسول الله ﷺ قبل أن يرتحل عنكم وأوصى (عروة) أن يدفن مع هؤلاء الشهداء ، فدفنه أهله معهم .

فهل كان فى قتل (عروة) ما أزاح عن (ثقيف) شبح الإسلام الذى كانت تخافه وتخشاه ؟ وأبعد عنها دعوة محمد التى قُتل سيد من سادتها بسببها ؟! .. لا فإن « أبا مُليح بن عروة » وابن عمه (قارب ابن الأسود) مالبثا أن خرجا إلى رسول الله ﷺ فأسلما بين يديه .

ولم ييأس العقلاء من رشد قومهم ، ولم تستطع ثقيف كذلك تجاهل ما حولها ...فإن دولة الأصنام تُدبِرْ فى كل مكان ، وأمر الإسلام يعلو يوماً بعد يوم .

ثم ما مرت شهور قليلة على ذلك حتى وجدت ثقيف نفسها وقد أحاط بها الإسلام من كل جانب فهنا وهناك قبائل قد أسلمت ..... وهنا وهناك مسلمون يتربصون بثقيف المشركة ... وهنا وهناك رجال يعترضون طرق رجالها ومسالك قوافلها ، فهى لا تأمن معهم على نفسها ولا على أموالها .

فاجتمع « عمرو بن أمية » بـ « عبد ياليل بن عمر » وقال له :

إنه قد نزل بنا أمر ليست معه هجرة ، إنه قد كان من أمر هذا الرجل

ما رأيت ، وقد أسلمت العرب كلها ، وليست لكم بحربهم طاقة ، فانظروا في أمركم .

ورأت ثقيف أن تبعث وفدها إلى رسول الله ﷺ ليصل إلى وضع تَقِرُّ به وتألف الوفد من ممثلين لعشائر ثقيف كلها حتى يلتزموا ما يصل إليه من شروط .

وبالقرب من المدينة أبصر بهم « المغيرة بن شعبة » وعرف سبب مجيئهم، فأسرع إلى الرسول ﷺ يزف إليه هذه البشرى الطيبة ، ولقيه أبو بكر ، وعلم منه الخبر ، فكان من فرح أبي بكر أن قال للمغيره : أقسمت عليك بالله لا تسبقني إلى رسول الله حتى أبشره أنا هذه البشرى ، وأسرع أبو بكر يبشر الرسول ﷺ ، وعاد المغيره إلى رجال ثقيف ، فعلّمهم كيف يحيون الرسول تحية الإسلام ومَثَلَ الوفد بحضرة الرسول ﷺ ، وبالرغم مما علمهم المغيرة من تحية الإسلام ، فقد حيوة بتحيتهم تحية الجاهلية .

وأمر الرسول ﷺ بأن تضرب لهم خيام بجانب المسجد ، وأمر أن يقوم بالسفارة بينهم وبين الرسول (خالد بن سعيد بن العاص) فأقاموا بهذه الخيام يسمعون رسول الله إذا ما صلى بالمسلمين ويسمعون القرآن والتكبيرات

وجادل الوفد رسول الله ﷺ جدالاً طويلاً يبغي أن يظفر منه بإقرار لبعض مآثر الجاهلية ورسول الله ﷺ يأبى أشد الإباء . طلبوا منه أن يدع (اللات) ثلاث سنين ثم يهدمها ، ثم ساوموه على سنتين ، ثم سنة ، ثم شهر واحد ... بعد مقدمهم ، والنبي ﷺ يأبى إلا هدمها دون توقيت أمد معين .

فلما يئسوا سألوه ألا يكسروا أوثانهم بأيديهم ، فأجابهم إلى ذلك بإرسال من يكسرها لهم .

وسألوه أن يضع عنهم الصلاة ... فقال رسول الله ﷺ :

« لا خير في دين بلا صلاة »[1] .

وأسلم (عبد ياليل) ورفاقه - وكان ذلك في رمضان - فصاموا مع المسلمين ما بقى منه وكان بلال يحمل إليهم طعامهم في إفطارهم وسحورهم فيأكلون ، وقد أمنوا جانب المسلمين بعد ما كانوا لا يتناولون طعاما يأتيهم إلا بعد ما يأكل منه خالد أولاً خوفاً من أن يكون قد دُسَّ لهم فيه ما يخشى منه على حياتهم ، ولما حان موعد رحيلهم كتب لهم النبي ﷺ كتاب صلح بينه وبين ثقيف وأمَّر عليهم «عثمان بن العاص » - وكان أحدثهم سنا- ولكنه كان أحرصهم على تعلم القرآن وأفضلهم في التفقة في الدين .

وعاد الوفد إلى الطائف ومعه « المغيرة بن شعبه » و « أبو سفيان بن حرب » ليهدما « اللات » وكان يوم هدم اللات يوما مشهودا .. فإن نسوة ثقيف خرجن حاسرات الرءوس يبكين ويصرخن ويندبن وهن يرين الفئوس تهدم إلههم وطالما خشعن له ، وذبحن حوله .. وسُقْنَ له النذور .

ويروى أن المغيره كلما هوى بالفأس على بنيان الصنم قال أبو سفيان : واهالك ، آهالك ، تأسفا !! ولعله كان يسخر ، أو يواسى نساء ثقيف .

وبذلك هُدمت اللات آخر صنم كان يُعبد في الحجاز وأسلم أهل الطائف بعد مكابرة وعناد ، ونال الإسلام بذلك نصراً .. وأي نصر .. ولامراء في أن إستسلام ثقيف ثم دخولها في الإسلام يُعَدُّ كسبا كبيراً وفتحاً جديداً ، فلم يبق قبيل عزيز الجانب في الجزيرة إلا وقد دان لله ورسوله .

أما القبائل التى لم تزل على جاهليتها ... فهي أوزاع توشك أن تستبين الحق وتستريح له .

---

(١) ضعيف ذكره ابن هشام (٢/٣٢٥-٣٢٦) عن ابن اسحق معضلاً والجملة الأخيرة وصلها داود (٢/٤٢) وأحمد (٥/٢١٨) عن الحسن عن عثمان بن أبي العاص مرفوعا نحوه ، ورجاله ثقات لكن الحسن وهو البصري مدلس وقد عنعنه .

إن الليل المضروب عليها لن يطول سواده بل أن تباشير الفجر قد خالطته هنا وهناك حتى لم يبق لظلمته مكان تتشبث به .

قال ابن اسحق : لما فتح رسول الله ﷺ مكة ، وفرغ من تبوك، وأسلمت ثقيف وبايعت ، ضربت إليه وفود العرب من كل وجه .

وإنما كانت العرب تربص بالإسلام أمر هذا الحى من قريش .. وذلك أن قريشاً كانوا إمام الناس وهاديهم وأهل البيت الحرام ، وصريح ولد اسماعيل - وقادة العرب لا ينكرون ذلك - وكانت قريش هى التى نصبت لحرب رسول الله ﷺ وخلافه .

فلما فتحت مكة ودانت له قريش ، ودوخها الإسلام ، عرفت العرب أنها لا طاقة لها بحرب رسول الله ولا عداوته .. فدخلوا فى دين الله أفواجا .. يضربون إليه من كل وجه .

يقول الله سبحانه وتعالى لنبيه : « **إذا جاء نصر الله والفتح ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا** » (سورة النصر ١ ، ٢ ، ٣) .

★ ★ ★

بعدكم من السنين بلغ النبى ﷺ هذه المرحلة ؟!

بعد اثنتين وعشرين سنة من الدعاية الحثيثة .. والتذكير الدائم .. والجهاد والمجاهدة.. والصبر والمصابرة .. والصمود وتحمل الأذى .. وكفاح العدوان .....

فإن كانت هناك بقايا من الغافلين لا تزال تضرع للأصنام ، وتحيا على الفوضى ، فإن فطامها عن هذه الرذائل لا ينكره ذولُبٌ أو مروءه ، ومن ثم اتجه الإسلام إلى تطهير الجزيرة كلها من عبادة الأوثان واشعار المشركين بأن أمامهم مهلة محدودة للتخلص من أدرانها .. ثم تعريفهم كذلك بأن الأصنام التى كانوا يقدسونها حول الكعبة قد أزيلت ، فأصبحت الكعبة قبلة مسجد

يؤمه الموحدون ، وليست مطاف جهال يتبركون بالحجارة ، وأن تقاليد العُرى التى شاعت فى الجاهلية ، وجعلت المطاف يزدحم بالسوءات المكشوفة قد نبذها الإسلام ، فلن يسمح فى عهده بالتبذل القديم .

وأقبل موسم الحج فى السنة التاسعة ، والمشركون على ما ألفوا ، إنهم يؤمُّون البيت العتيق ، ولا يتعظون من مصير الأصنام التى تكسرت ! أين الآلهه التى قضوا أعمارهم ينحنون لها ويتوسلون بها ؟؟ لقد تهشمت وديست ... ومع ذلك فإن عبادها لبثوا مشركين ، وقد تكون فى نفوسهم حسرات لخلو الكعبة منها .....

إن من حق المسلمين أن يضعوا حدا لهذه المهازل ، وأن يزيحوا عن كرامة البشر هذا الهوان .

﴿ حج أبى بكر ﴾

وفى وسط هذا التيار الجارف الذى قارب أن يعم الجزيرة العربية كلها ، أتى موعد الحج إلى بيت الله الحرام ، وأوفد رسول الله ﷺ أبا بكر أميراً على الحج ، ليقيم بالمسلمين المناسك . فخرج أبو بكر فى ثلاثمائه حاج مسلم يسوق البُدْن أمامه ، موليا وجهه شطر المسجد الحرام .

ونزل الوحى بسورة « براءة » بعد انصراف أبى بكر ووفد الحجيج ، فأشير على رسول الله ﷺ أن يبعث بالآيات إليه ليقرأها على أهل الموسم كافة .

ورأى رسول الله ﷺ أن يرسل بها على بن أبى طالب قائلاً :

«لا يؤدى عنى إلا رجل من أهل بيتى »[1] وذلك من رسول الله تمشى

---

(١) حديث حسن رواه ابن هشام (٣٢٨/٢) عن ابن اسحق عن أبى جعفر محمد بن على مرسلاً ولكن له شواهد يتقوى بها ذكرها ابن كثير فى تاريخه (٣٧/٥ - ٣٨) .

مع عادة العرب فى عهود الدماء والأموال .

ألا ترى أنه قبل هجرته وكّلَ إلى علىّ ردّ الأمانات إلى أهل مكة ....؟

إن أواصر القربى تقتضى التكافل التام فى هذه الشئون ، فكأن الرسول أدى بيده ما أداه علىّ عنه وكأنه قال بلسانه فى الموسم ما سيقرؤه علىّ بين الناس . ورعاية هذه الأفهام ليست فريضة بل هى من النبى ﷺ زيادة حيطة وإعذار .

قال ابن اسحق : ثم دعا علىّ بن أبى طالب فقال له : « أخرج بهذه القصة من صدر « براءة » وأذّن فى الناس يوم النحر إذا إجتمعوا بمنى أنه «لا يدخل الجنة كافر .... ولا يحج بعد العام مشرك ولا يطوف بالبيت عريان، ومن كان له عند رسول الله عهد فهو إلى مدته » .

فخرج على يمتطى (العضباء) - ناقة رسول الله ﷺ - حتى أدرك أبا بكر فى الطريق فلما رآه أبو بكر سأله : أأمير أم مأمور ؟ قال : بل مأمور ... ثم مضيا [1].

أبو بكر - كما كلفه رسول الله ﷺ - يقيم للناس المناسك ، وعلىّ يؤذن فى الناس بما أُمِر به ويقرأ على العرب صدر السورة التى فصلت فى أمرهم ، وأجهزت على الوثنية فى بلادهم . وكان هناك مؤذنون آخرون بثهم أبو بكر فى المجامع الكبيرة يعينون عليا على إبلاغ رسالته ، ويصيحون هنا وهناك : لا يحج بعد العام مشرك .. ولا يطوف بالبيت عريان (وكان من طقوس كثير من المشركين أن يطوفوا حول البيت الحرام وقد تجردوا من ملابسهم) .

----

(١) حديث حسن وهو تمام حديث أبى جعفر المتقدم

وعن (زيد بن يُفيع) سألنا عليا : بأى شئ بعثت فى الحجة ؟

قال : بُعثت بأربع : ١ - لا يدخل الجنة إلا نفس مؤمنة ٢ - ولا يطوف بالبيت عريان ٣ - ولا يجتمع مسلم وكافر فى المسجد الحرام بعد عامه هذا . ٤ - ومن كان بينه وبين النبى ﷺ عهد ، فعهده إلى مدته ومن لم يكن له عهد فأجله إلى أربعة أشهر[1] .

وليعلم من يشاء أن تشريع قانون بمحو الوثنية كتشريع قانون بمحو الأمية عمل إنسانى نبيل . وأن اعتراضا عليه لا يصدر من رجل يؤثر الخير للأمم ، ويتمنى لها السمو والكرامة .

وبحسب الإسلام أنه ظل اثنين وعشرين عاماً يحارب الخرافة بالتعليم والتربية كلما اتيحت له فرص لنشر المعرفة وغرس الأدب ، وبالقصاص والقتال كلما وقف فى طريقه الجهال والضلال يبطلون سعيه ويصدون عنه .

وقد منح الإسلام الوثنية - أول الأمر - حق الحياة وترك من يرتدُّ عنه يرجع اليها إذا شاء ، ولم يفعل ذلك اعزازا لها ، إنما هو حسن ظن بالإنسان وضميره .. فَقَلَّ من يسفهون أنفسهم ، ويتركون الله العظيم إلى صورة من حجر أو خشب أو طعام !

فلما تبين أن الوثنيين يستخفون بكل شئ وأنهم يستغلون الحق الممنوح فى الفتنه والعدوان والقتل لم يبق لتركهم من حكمه .

إن الكلب العقور لا يُترك طليقاً، فإذا أفلت من قيده فأهدر دمه ، فمن السفه إعتبار ما حدث جريمة قتل والذين يظنون ، أو يحلو لهم الظن بأن

---

(١) صحيح أخرجه أحمد رقم (٥٩٤) والترمذى (١١٦/٤) وصححه .

الإسلام عندما طارد الوثنية ، خنق حرية الرأى ... هم أشخاص واهمون أو مغرضون . وعلى هدى التجارب والمصائب التى عاناها المسلمون طوال اثنين وعشرين عاما تعرف سر الغضب الذى اشتعل آخر الأمر ، ولِمَ نزل الوحى يعالن المشركين بالقطيعة ، ويرفض منهم كل اعتذار ؟ ثم يسرد ما أسلفوا من سيئات على أنه خليقة فيهم ، لم ينفكوا عنها يوماً ، ولا يُرجى أن ينفكوا عنها أبداً . ومن ثم فلا مكان لأصنامهم بعد المهلة المضروبة لهم .

« براءة من الله ورسوله إلى الذين عاهدتم من المشركين فسيحوا فى الأرض أربعة أشهر واعلموا أنكم غير معجزى الله وأن الله مخزى الكافرين وأذان من الله ورسوله إلى الناس يوم الحج الأكبر أن الله برئ من المشركين ورسوله فإن تبتم فهو خير لكم» (سورة التوبة آيه ١ ، ٢ ومن الآيه ٣)

ونزلت « براءة » فى نقض ما بين رسول الله ﷺ وبين المشركين من العهد الذى كانوا عليه فيما بينهم وبينه : ألا يصد عن البيت أحد جاءه ، ولا يخاف أحد فى الشهر الحرام، كان ذلك عهدا عاما بينه وبين الناس من أهل الشرك ، وكانت بين ذلك عهود بين رسول الله ﷺ وبين قبائل من العرب خصائص إلى آجال مسماه ، فنزلت فيه ، وفيمن تخلف من المنافقين عنه فى غزوة (تبوك) وفى قول من قال منهم ، فكشف الله تعالى فيها أسرار أقوام كانوا يَسْتَخْفُون بغير ما يظهرون .

ثم أمر الله رسوله ﷺ بجهاد أهل الشرك ممن نقض من أهل العهد الخاص، ومن كان من أهل العهد العام ، بعد الأربعة أشهر التى ضرب لهم أجلا ، إلا أن يعدو فيها عاد منهم فيقتل بعدائه . وكانت «براءة » تسمى

في زمان النبي ﷺ وبعده « المبعثره »[1] لما كشفت سرائر الناس .

وكانت غزوة « تبوك » آخر غزوة غزاها رسول الله ﷺ .

★ ★ ★

ولما قضى أبو بكر بالناس مناسك الحج عاد هو وعليّ ومن معهما من أهل المدينة إلى المدينة .

وانصرف المسلمون من العرب إلى محاطّ قبائلهم ، وعاد المشركون كل إلى دياره يتدبرون أمرهم فيما وَجَّه لهم محمد ﷺ من إنذار على لسان علي. وهو ألا يقربوا بيت الله بعد عامهم هذا لأنهم نَجَسٌ ، وأن يعاهدوا محمدا ﷺ ألا يقرّبوا من المسلمين، أو يتعرضوا لهم بما يؤثر في إسلامهم أو يزعزع من عقيدتهم ، أو يحاربهم محمد ﷺ ويجاهدهم المسلمون حتى يتوبوا ويؤمنوا ، وذلك بعد ما كان النبي ﷺ لا يقاتل إلا من قاتله ، ومن كَفَّ يده كف عنه . وساءل المشركون بعضهم بعضا : ما تصنعون وقد أسلمت قريش ؟! حقاً ! ما يصنعون وأهل مكة قد أسلموا ، وحق عليهم جهاد المشركين ، وصدهم عن بيت الله ؟!! ومن قبل هذا النذير المخوف ومن بعده، كانت أفواج الوافدين تنطلق صوب المدينة تبايع رسول الله ﷺ على أن تخلع رداء الجاهلية .. وتدخل في الدين الحق ، وكانت بدايتها وفد ثقيف.

★ ★ ★

﴿ سنة الوفود وهي سنه تسع ونزول سورة الفتح ﴾

وهذه الوفود المقبلة عرفت - خلال السنين السابقة - طرفاً يسيراً عن الإسلام .. فقد شاع في أرجاء المدينة كلها نبأ الرسالة الجديدة، وما تضمنته من عقائد ، وما تفرضه على أتباعها من تعاليم . وتتبع المحبون والمبغضون كفاحها الموصول في طلب الحياة ،ومبلغ ما بذلت وبذل أعداؤها حتى انتهت الأمور بهذا الختام المبين .

---

(١) وهو أحد الأسماء التي سميت بها سورة التوبة وقد ذكرناهم آنفا .

ونحن نعلم أن الحزب الذى يبدأ نشاطه بأنصار قلائل ... يتضاعف الإقبال عليه عندما تلمع له وقفات مُشَرِّفة، ويتاح له نصر كبير ... فكيف إذا إختفى خصومه وتألقت نجومه ؟؟

فلا جرم أن المدينة تتدفق عليها سيول الراغبين فى اعتناق هذا الدين ، أو الراغبين فى مسالمته ورسم سياسة تقوم على التعاون معه .

﴿ وفد بنى تميم ﴾

ولقد ذكرنا آنفا بعد أن أرسل إليهم « عيينه بن حصن » لمحاربتهم وعودته بعدد من أسراهم . حينئذٍ أرسلوا وفدا لمخاطبة الرسول ﷺ بشأن أسراهم وسباياهم ، وقد ذكرنا تفاصل ما حدث .

★★★

﴿ وفد عامر بن الطفيل وأربد بن قيس ﴾(١)

قال ابن اسحق : وقدم على رسول الله ﷺ وفد (بنى عامر) فيهم «عامر بن الطفيل» و « اربد بن قيس بن جزء بن خالد بن جعفر » و «جبار بن سلمى بن مالك بن جعفر » وكان هؤلاء الثلاثة رؤساء القوم وشياطينهم ، فقدم « عامر بن الطفيل) عدو الله على رسول الله ﷺ وهو يريد الغدر به وقد قال له قومه : يا عامر إن الناس قد أسلموا فأسلم ، قال : والله لقد كنت آليت على نفسى أن لا أنتهى حتى تتبع العرب عقبى .. أفأنا أتبع عقب هذا الفتى من قريش ؟! ثم قال لأربد : إذا قدمنا على الرجل فإنى سأشغل عنك وجهه فإذا فعلت ذلك فَاعْلُهُ بالسيف ، فلما قدموا على رسول الله ﷺ ، قال عامر بن الطفيل : يا محمد ، خالّنى قال ﷺ : « لا .. حتى تؤمن بالله وحده » .

قال : يا محمد خالّنى ، وجعل يكلمه وينتظر من « أربد » ما كان أمره به فجعل «أربد» لا يحيز شيئا ، فلما رأى عامر ما يصنع «أربد» قال:

---

(١) كان عامر هو الذى غدر بأصحاب رسول الله ﷺ يوم (بئر معونة) .

يا محمد خالنى قال : « لا حتى تؤمن بالله وحده لا شريك له » فلما أبى عليه رسول الله ﷺ قال : أما والله لأملأنها عليك خيلاً ورجالاً ، فلما ولىّ قال رسول الله ﷺ : « اللهم اكفنى عامر بن الطفيل » فلما خرجوا من عند رسول الله ﷺ قال عامر لأربد : ويلك يا أربد !! أين ما كنت أمرتك به ؟ والله ما كان على ظهر الأرض رجل هو أخوف عندى على نفسى منك .. وأيم الله لا أخافك بعد اليوم أبداً ، قال : لا أبا لك ، لا تعجل علىّ ، والله ما هممت بالذى أمرتنى به من أمره إلا دخلت بينى وبين الرجل حتى ما أرى غيرك ، أفأضربك بالسيف ؟ وخرجوا راجعين لبلادهم ، حتى إذا كانوا ببعض الطريق بعث الله على « عامر بن الطفيل » الطاعون فى عنقه، فقتله الله فى بيت إمرأة من بنى سلول ، فجعل يقول : يا بنى عامر، أغُدَّة كغدة البكر فى بيت إمرأة من بنى سلول .

وقال ابن هشام : ويقال : أغده كغدة الإبل وموتا فى بيت سلولية

قال ابن اسحق : ثم خرج أصحابه حين واروه حتى قدموا أرض بنى عامر ، فما قدموا أتاهم قومهم فقالوا : ما وراءك يا أربد ؟ قال : لا شئ والله لقد دعانا إلى عبادة شئ لوددت أنه عندى الآن فأرميه بالنبل حتى أقتله .. فخرج بعد مقالته بيوم أو يومين معه جمل يتبعه ، فأرسل الله تعالى عليه وعلى جمله صاعقة فأحرقتهما ، وكان أربد بن قيس أخا (لبيد بن ربيعه) لأمه .

★ ★ ★

﴿ وفد بنى سعد ﴾

أرسلت قبيلة « سعد بن بكر » « ضمام بن ثعلبة » وافداً إلى رسول الله ﷺ فامتطى « ضمام » بعيره حتى دخل المدينة ، فأناخه على باب

المسجد ثم عقله ، ثم دخل المسجد ، ورسول الله ﷺ جالس فى أصحابه ....
وكان « ضمام » رجلاً جلداً ، أشعر ، ذا غديرتين ، فأقبل حتى وقف على رسول الله ﷺ فى أصحابه فقال : أيكم ابن عبد المطلب ؟ فقال رسول الله ﷺ : أنا ابن عبد المطلب .

قال : أمحمد ؟ قال : نعم قال : يا ابن عبد المطلب ، إنى سائلك ومُغْلِظٌ عليك فى المسأله ، فلا تجدن فى نفسك .

قال : لا أجد فى نفسى فسل عما بدا لك .

قال : أنشدك الله إلهك وإله من كان قبلك ، وإله من هو كائن بعدك ، آلله أمرك أن تأمرنا أن نعبده وحده ، ولا نشرك به شيئاً ، وأن نخلع هذه الأنداد التى كان آباؤنا يعبدون معه ؟

قال : اللهم نعم

وفى رواية أنه قال : يا محمد أتانا رسولك ، فزعم لنا أنك تزعم أن الله أرسلك .

قال : صدق   قال : فمن خلق السماء ؟ قال : الله   قال : فمن خلق الأرض ؟

قال : الله .. قال : فمن نصب هذه الجبال وجعل فيها ما جعل ؟ قال : الله .

قال : فبالذى خلق السماء وخلق الأرض ، ونصب هذه الجبال ، آلله أرسلك ؟

قال : نعم   قال ضمام : وزعم رسولك أن علينا خمس صلوات فى يومنا وليلتنا .

قال : صدق   قال : فبالذى أرسلك ، آلله أمرك بهذا ؟

قال : نعم

ثم جعل يذكر فرائض الإسلام وشرائعه على هذا النحو حتى إذا فرغ قال :

فأنى أشهد أن لا إله الا الله ، وأشهد أن محمدا رسول الله ، وسأؤدى هذه الفرائض واجتنب ما نهيتنى عنه ، ثم لا أزيد ولا أنقص وانصرف إلى بعيره راجعا .

فقال رسول الله ﷺ : « إن صدق ذو العقيصتين دخل الجنة »[1] .

فأتى « ضمام » بعيره فأطلق عقاله ، ثم خرج حتى قدم على قومه فاجتمعوا إليه ، فكان أول ما تكلم به أن قال : بئست اللات والعزى ...

قالوا : مه ! ضمام ، إتَّقِ البَرَصَ ، اتق الجُذام إتق الجنون ....!

قال : ويلكم إنهما والله لا يضران ولا ينفعان إن الله قد بعث رسولاً ، وأنزل عليه كتابا ، إستنقذكم به مما كنتم فيه ، وإنى أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله ، وقد جئتكم من عنده بما أمركم به ونهاكم عنه .

قال : فوالله ما أمسى فى الحى من ذلك اليوم رجل ولا إمرأة إلا مسلما[2] .

ذلك وفد يمثل بساطة الأميين فى منطقهم ، وسلامة طويتهم فى جدلهم وتساؤلهم ، وخلو أذهانهم من العقد التى تعترض الحق فى مسيله السمح .

ولا نكران فى أن جهاد الدعوة القديم له أثره فى الوصول إلى هذه النتائج السريعة . وهذا طبيعى ، فإن تغيير دين ليس كتجديد زى ، و«ضمام بن ثعلبة » كان يستحضر فى ذهنه - وهو يسأل النبى ﷺ ، ثم وهو يخاطب قومه- أن هذه الرسالة الجديدة مرت بأطوار شتى من المحن والفتن ، كشفت عن صدقها وسلامة جوهرها ، فليس إيمانه وإيمان قومه وليد ساعة من كلام .

---

(١) قال الحافظ بن كثير (٥/٦١) هذا يدل على أن ضماما رجع إلى قومه قبل الفتح لأن العزى ضربها خالد بن الوليد بعد الفتح .

(٢) حديث حسن بهذا التمام رواه أبو داود (١/٧٩) والحاكم (٣/٥٤-٥٥) وأحمد رقم (٢٣٨٠) من حديث ابن عباس .

﴿ وفد عبد القيس ﴾

قال بن اسحق : وقدم على رسول الله ﷺ « الجارود بن عمرو بن حنش» أخو عيد القيس ، قال ابن هشام : الجارود : ابن بشر بن المعلى فى وفد عبد القيس وكان نصرانيا .

قال ابن اسحق : وقد كان رسول الله ﷺ بعث « العلاء بن الحضرمى » قبل فتح مكة إلى «المنذر بن ساوى العيدى » فأسلم فحسن إسلامه ثم هلك بعد رسول الله ﷺ قبل رِدَّة أهل البحرين والعلاء عنده أميراً لرسول الله ﷺ على البحرين .

★★★

﴿ وفد بني حنيفة ومعهم مسيلمة الكذاب ﴾

وقدم على رسول الله ﷺ وفد « بنى حنيفه » فيهم « مسيلمة بن حبيب الحنفى » الكذاب فلما وصلوا إلى المدينة دخلوا على النبى ﷺ يعلنون إسلامهم ،وكانوا قد خلفوا « مسيلمة » فى رحالهم ، فلما أسلموا ذكروا مكانه ، فقالوا : يا رسول الله ، إنا قد خلفنا صاحبا لنا فى رحالنا وفى ركابنا يحفظها لنا ، فأمر له رسول الله ﷺ بمثل ما أمر به للرجل منهم وهو يقول :

« أما إنه ليس بشركم مكانا » وذلك لقيامه بحفظ متاع أصحابه .

وانصرف الوفد إلى « اليمامة » وقد ذكروا لمسيلمة ما قال النبى عنه، فما إن وصلوا إلى اليمامة حتى ارتَدَّ (مسيلمة) وأعلن أنه نبى أُشْرِكَ مع محمد فى النبوة بدليل قول النبى لرفاقه : إنه ليس بشركم مكانا ... وصار يسجع فى القول محاولا بذلك أن يضاهى - والعياذ بالله - القرآن ، داعيا للإيمان به وتصديقه محللا لهم الكثير مما حرَّم الله ، وأرسل (مسيلمة) إلى النبى ﷺ كتابا مع رسولين له يقول فيه « من مسيلمة رسول الله إلى محمد

رسول الله ، سلام عليك ، أما بعد ، فإنى قد أُشركت فى الأمر معك وإن لنا نصف الأرض ، ولقريش نصف الأرض ، ولكن قريشا قوم يعتدون» .

فلما إطلع محمد ﷺ على الكتاب ، ظهر الغضب على وجهه وقال للرسولين:

فما تقولان أنتما ؟ قالا : نقول كما قال صاحبنا

قال : أما والله لولا أن الرسل لا تُقتل لضربت أعناقكما..

وكان جواب النبى ﷺ على كتاب مسيلمة :

« إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده »

قال ابن اسحق : وقد كان تكلم فى عهد رسول الله ﷺ الكذابان : «مسيلمة بن حبيب الكذاب » باليمامه فى بنى حنيفه ، و « الأسود بن كعب العنسى» بصنعاء .

وقال ابن اسحق : حدثنى يزيد بن عبد الله بن قسيط ، عن عطاء بن يسار، أو أخيه سليمان بن يسار عن أبى سعيد الخدرى قال : سمعت رسول الله ﷺ وهو يخطب الناس على منبره وهو يقول : « يا أيها الناس ، إنى قد رأيت ليلة القدر ، ثم أنسيتها ، ورأيت فى ذراعى سوارين من ذهب ، فكرهتهما، فنفختهما فطارا ، فَأَوَّلْتُهُمَا هذين الكذابين صاحب اليمن وصاحب اليمامة »

(إسناده صحيح) .

وقال ابن اسحق : وحدثنى من لا أتهم ، عن أبى هريرة رضى الله عنه أنه قال :

سمعت رسول الله ﷺ يقول : « لا تقوم الساعة حتى يخرج ثلاثون دجالاً كلهم يَدَّعى النبوة » (حديث صحيح وإسناده ضعيف)

ولم يقف ادعاء النبوة فى ذلك الحين على هذين الكذابين ، بل إدَّعى بنَجْد « طليحة » زعيم بنى أسد ولكنه لم يستطع المجاهرة بادعائه الكاذب هذا فى حياة النبى ﷺ .

﴿ زيد الخيل وفد طيئ ﴾

تكلمنا عنه فى حينه ....

﴿ أمر عدى بن حاتم ﴾

تكلمنا عنه سالفا ....

★★★

﴿ قدوم فروة بن مسيك المرادى ﴾

وقدم « فروه بن مسيك المرادى » على رسول الله ﷺ ، مفارقاً لملوك «كندة» ومباعداً لهم وقد كان قبيل الإسلام بين « مراد » و « همدان » وقعة أصابت فيها «همدان» من « مراد » ما أرادوا ، حتى أثخنوهم فى يوم كان يقال له : « يوم الردم » فلما انتهى إلى رسول الله ﷺ قال : يا رسول الله : من ذا يصيب قومه مثل ما أصاب قومى يوم الردم لا يسوءه ذلك ؟

فقال رسول الله ﷺ : أما إن ذلك لم يزد قومك فى الإسلام إلا خيراً .

واستعمله النبى ﷺ على « مراد » و « زبيد » و « ومذحج » كلها ، وبعث معه خالد بن سعيد بن العاص على الصدقة ، فكان معه فى بلاده حتى توفى رسول الله ﷺ .

★★★

﴿ قدوم عمرو بن معد يكرب ﴾

وقدم على رسول الله ﷺ « عمرو بن معد يكرب » فى أناس من (بنى زبيد » فأسلم وكان عمرو قد قال (لقيس بن مكشوح المرادى) حين انتهى إليهم أمر رسول الله ﷺ : يا قيس ، إنك سيد قومك ، وقد ذكرلنا أن رجلاً من قريش يقال له محمد قد خرج بالحجاز يقول إنه بنى ، فأنطلق بنا إليه ، حتى نعلم علمه ، فإن كان نبيا كما يقول ، فإنه لن يخفى عليك ، وإذا

لقيناه إتبعناه ، وإن كان غير ذلك علمنا علمه ، فأبى عليه قيس ذلك ، وَسفَّه رأيه ، فركب (عمرو بن معد يكرب) حتى قدم على رسول الله ﷺ ، فأسلم وصَدَّقه وآمن به ، فلما بلغ ذلك (قيس بن مكشوح) أَوْعَدَ عمرا واشتد عليه ، وقال : خالفنى وترك رأيى فأقام (عمرو بن معد يكرب) فى قومه من (بنى زبيد) وعليهم (فروة بن مسيك) فلما توفى رسول الله ﷺ ارتد (عمرو بن معد يكرب) .

★★★

﴿ وفد كنـــــدة ﴾

قال ابن اسحق : وقدم على رسول الله ﷺ « الأشعث بن قيس » فى وفد كندة فحدثنى الزهرى بن شهاب أنه قدم على رسول الله ﷺ فى ثمانين راكبا من كندة فدخلوا على رسول الله ﷺ مسجده وقد رجلوا جممهم وتكحلوا ، عليهم جبب الحبرة وقد كففوها بالحرير ، فلما دخلوا على رسول الله ﷺ قال : ألم تسلموا ؟ قالوا : بلى قال : فما بال هذا الحرير فى أعناقكم ؟ قال : فشقوه منها فألقوه ، ثم قال له الأشعث بن قيس : يا رسول الله ، نحن بنو آكل المرار ، وأنت ابن آكل المرار، قال : فتبسم رسول الله ﷺ وقال : « ناسبوا بهذا النسب العباس بن عبد المطلب وربيعه بن الحارث» وكان العباس وربيعة رجلين تاجرين ، وكانا إذا شاعا فى بعض العرب فسئلا ممن هما قالا : نحن بنو آكل المرار ، يتعززان بذلك وذلك أن كندة كانوا ملوكاً ، ثم قال لهم : لا ، بل نحن بنو النضر بن كنانة لا نقفوا أمنا ولا ننتفى من أبينا » فقال الأشعث بن قيس : هل فرغتم يا معشر كندة ، والله لا أسمع رجلاً يقولها إلا ضربته ثمانين .

(حديث صحيح واسناده مرسل)

والمرار : شجر يقال له المرار .

★★★

﴿ وفـــــد الأزد ﴾

وقدم على رسول الله ﷺ « صرد بن عبد الله الأزدى » فأسلم وحسن إسلامه فى وفد من الأزد، فأمَّره رسول الله ﷺ على من أسلم من قومه، وأمره أن يجاهد بمن أسلم من كان يليه من أهل الشرك، من قبل اليمن.

فخرج (صرد بن عبد الله) يسير بأمر رسول الله ﷺ، حتى نزل بـ (جرش) وهى يومئذ مدينه مغلقة، وبها قبائل من قبائل اليمن، وقد انضمت اليهم « خثعم » فدخلوها معهم، حين سمعوا بسير المسلمين إليهم، فحاصروهم فيها قريبا من شهر، وامتنعوا فيها منه، ثم إنه رجع عنهم قافلاً، حتى إذا كان إلى جبل لهم يقال له (شكر)، ظن أهل (جرش) أنه إنما ولى عنهم منهزما فخرجوا فى طلبه حتى إذا أدركوه، عطف عليهم، فقتلهم قتلا شديداً.

★★★

﴿ النهضة المباركة ﴾

ما لبث أن زالت غبرة الجاهلية عن آفاق الجزيرة كما تزول بقايا الليل أمام طلائع الفجر، وصحت العقول العليلة فلم تعد تخشى وترجو إلا الله بعد ما ظلت دهوراً تعبد أصناماً جامدة، وسمع الأذان للصلوات يشق أجواز الفضاء خلال الصحراء التى أحياها الإيمان الجديد، وانطلق القراء شمالا وجنوبا يتلون آيات الكتاب، ويقيمون أحكام الله، ويعلمون العرب مالم يعلموا هم ولا آباؤهم.

إن هذه الجزيرة - منذ نشأ فوقها عمران - لم تهتز بمثل هذه النهضة المباركة، ولم يتألق تاريخها تألقه فى هذه الأيام الفريدة من عمرها.

وكان النبى ﷺ يستقبل الوفود ويشيعها، بعد ما ينفخ فيها من روحه الكبير، ويزودها بحكمته الباهرة، فتعود من حيث أتت لتنشئ فى

مواطنها القصية معاقل للإسلام ، وصحائف بيضا فى تاريخ أمة .

ولم يكتف النبى ﷺ بترقب الوفود المقبلة .. بل أرسل رجاله الكبار إلى الجنوب ليزيد رقعة الإسلام هناك اتساعاً ، فإن فى اليمن وما حولها قبائل كثيفة العدد ، ولأهل الكتاب السابقين نشاط قديم ، وقد نشأ الإسلام هناك حقاً ، وتقلص ظل الفرس لغير عودة .. إلا أن هذه البقاع النائية تحتاج مزيداً من رعاية وتفقد .

﴿ ١٥ - بعثة خالد بن الوليد ﴾

ومن ثم بعث رسول الله ﷺ (خالد بن الوليد) إلى (بنى الحارث بن كعب بنجران) وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام قبل أن يقاتلهم (ثلاثا) ، فإن استجابوا فاقبل منهم ، وإن لم يفعلوا فقاتلهم . فخرج خالد حتى قدم عليهم ، فبعث الركبان يضربون فى كل وجه ، ويدعون إلى الإسلام ويقولون : أيها الناس ... اسلموا تسلموا .. فأسلم الناس . ودخلوا فيما دعوا إليه فأقام فيهم خالد يعلمهم الإسلام وكتاب الله وسنة نبيه ﷺ .

﴿ ١٦ - بعثة معاذ بن جبل ﴾

ثم بعث (معاذ بن جبل) إلى اليمن حين انتشر بها الإسلام ليعلم أهلها ويرشدهم ، وكان بها جماعات من اليهود والنصارى .

قال ابن اسحق : وحدثنى عبد بن أبى بكر ، أنه حدث أن رسول الله ﷺ - حين بعث معاذا - أوصاه وعهد إليه ثم قال له : « يَسِّرْ ولا تُعسِّرْ ، وَبَشِّرْ ولا تُنفِّرْ وإنك ستقدم على قوم من أهل الكتاب يسألونك : ما مفتاح الجنة ؟ فقل لهم : شهادة أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له »

(اسناده مرسل والحديث صحيح)

قال : فخرج معاذ حتى إذا قدم اليمن قام بما أمره به رسول الله ﷺ ، فأتته إمرأة من أهل اليمن فقالت : يا صاحب رسول الله ﷺ، ما حق زوج المرأة عليها ؟ قال : ويحك !! إن المرأة لا تقدر على أن تؤدى حق زوجها ... فاجهدى نفسك فى اداء حقه ما استطعت .

ونذكر أن معاذ قبل أن يرحل إلى اليمن ، ورسول الله ﷺ يوصيه بما سيفعله ، خرج معه إلى ظاهر المدينة ومعاذ راكب راحلته ، ورسول الله ﷺ يسير بجواره ... وكأنما هاتفا خفيا انبعث فى قلب رسول الله ﷺ يُشعره أن مقامه فى الدنيا يوشك على النهاية ...!! فلما فرغ من وصايته له قال : يا معاذ إنك عسى أن لا تلقانى بعد عامى هذا ، ولعلك تمر بمسجدى هذا وقبرى» فبكى معاذ بكاءً شديداً خشعاً لفراق رسول الله ﷺ ثم التفت النبى ﷺ بوجهه نحو المدينة فقال : « إن أولى الناس بى المتقون مَنْ كانوا وحيث كانوا »[1] .

وقد وقع ما أومأ إليه الرسول ﷺ ، فإن معاذاً أقام باليمن حتى كانت حجة الوداع ، ثم كانت وفاة النبى ﷺ بعد الحج الأكبر بأحد وثمانين يوما !! ومعاذ باليمن . . . .

وقد كان للعناية باليمن ما يبررها ، فقد ظهر فيها وفى (بن حنيفه) دجالان يزعمان النبوة (وقد تقدم ذكرهما) ولم يكن لكلا الدجالين من خلال الرجولة وآيات الخير ما يجمع عليهما حفنته من الرجال ولكن كذاب ربيعة أخير من صادق مضر ....!

وقد اشتعلت فتنه المتنبئين حيناً ، ثم داستها أقدام المجاهدين بعد ، فأخمدت جذوتها وذهبت نبوة مسيلمة وغيره كما تذهب بولة شاة على أديم الثرى ....!

---

(١) صحيح أخرجه أحمد (٥/٢٣٥) بسند صحيح عن معاذ .

١٧ - ﴿ بعثة على بن أبى طالب ﴾

كما أوفد رسول الله ﷺ (على بن أبى طالب) فى ثلاثمائة فارس إلى جماعة من أهل اليمن أبوا أن يخضعوا لدعوة الإسلام يدعوهم إلى ذلك.

★ ★ ★

وهكذا ظل محمد ﷺ يبعث برسله ودعاته لإتمام رسالته حتى بلغ الإسلام فى شبه الجزيرة ذروته .

وبقى على رسول الله ﷺ - وقد استدار العام منذ حَجَّ أبو بكر بالناس أن يخرج هو ليحج بهم وليَسُنَّ للمسلمين كل ما يجب أن يتبعوه فى مناسك حجهم .

﴿حجة الوداع﴾

قال ابن اسحق :

فلما دخل على رسول الله ﷺ ذو القعدة تجهز للحج وأمر الناس بالجهازله ، قال : فحدثني عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه القاسم بن محمد ، عن عائشه زوج النبي ﷺ قالت : خرج رسول الله ﷺ الحج لخمس ليال بقين من ذي القعده ودخل مكة في ٨ ذي الحجة سنة ١٠هـ (٧ مارس سنه ٦٣٢ م)

(اسناده صحيح)

قال ابن هشام : فاستعمل على المدينة « أبا دجانه الساعدي » ويقال : «سباع بن عرفطه الغفاري » .

وخرج رسول الله ﷺ بما يزيد على مائة ألف من المسلمين يبغون بيت الله ... وكان في صحبه النبي ﷺ زوجاته جميعا ، ومعه من النياق لهديه عدد كبير .

يا ألله !!! كم هي فرحة المسلمين الذين أتوا من كل حدب وصوب لاجتماعهم هذا ...!! وكم هو سرورهم بمسيرهم لحج بيت الله بصحبة الرسول ﷺ ؟ ثم كم هي فرحة الرسول بإجتماع أهل جزيرة العرب من حوله مسلمين....! وكم هو سرورهم بثمرة رسالته ؟؟!!

وبذى الحُلَيْفَه إجتمع إلى رسول الله ﷺ كل حجاج المسلمين يسوق أكثرهم هديهم معهم . وبذى الحليفة أحرم الرسول ﷺ بإزار ورداء ، وأحرم معه المسلمون جميعا . ومن ذى الحليفة لبى النبى صلوات الله وسلامه عليه .. يقول والمسلمون يرددون من ورائه : لبيك اللهم لبيك .... لبيك لا شريك

لك لبيك

إن الحمد والنعمة لك والملك ... لبيك لا شريك لك لبيك

يا ألله ...! كم صوت من أصوات المسلمين ردد هذه التلبية الكريمة ؟ وكم قلب خشع لعظمته ؟ .. وكم نفس أخذت من مهابة الله ؟

وسار الحجيج يقطعون ما بين المدينة ومكة ينزلون في كل مهبط ومسجد يؤدون فريضة الصلاة ثم يواصلون سيرهم ، حتى وصلوا إلى مكان اسمه (سرف) عندئذ أهل النبى ﷺ بالحج والعمرة ، ونادى فى أصحابه : من لم يكن معه هدى ينحره فليهلل بالعمرة دون الحج .

قال ابن اسحق : فحدثنى عبد الرحمن بن القاسم عن أبيه القاسم بن محمد عن عائشه قالت : لما وصلنا (سرف) وقد ساق رسول الله ﷺ الهدى ، وأشرف الناس ، أمر الناس أن يحلوا بعمرة إلا من ساق الهدى .

قالت : وحضت ذلك اليوم فدخل على رسول الله ﷺ وأنا أبكى فقال : مالك يا عائشة ؟ لعلك نفست ؟ قالت : قلت : نعم ، والله لوددت أنى لم أخرج معكم عامى هذا فى هذا السفر ، فقال : « لا تقولن ذلك فإنك تقضين كل ما يقضى الحاج إلا أنك لا تطوفين بالبيت » .

قالت : ودخل رسول الله ﷺ فحل كل من كان لا هدى معه وحل نساؤه بعمرة فلما كان يوم النحر أتيت بلحم بقر كثير فطُرح فى بيتى فقلت ما هذا ، قالوا : ذبح رسول الله ﷺ عن نسائه البقر .

حتى إذا كانت ليلة الحصبة ، بعث بى رسول الله ﷺ مع أخى عبد الرحمن فأعمرنى من « التنعيم » مكان عمرتى التى فاتتنى .

(اسناده صحيح) .

قال ابن اسحق : وحدثنى نافع مولى عبد الله بن عمر ، عن عبد الله بن عمر ، عن حفصه إبنة عمر قالت : لما أمر رسول الله ﷺ نساءه أن يحللن بعمرة قلنا : فما يمنعك يا رسول الله أن تحل معنا ؟ فقال :

« إنى أهدَيتُ وَلَبَّدتُ فلا أحل حتى أنحر هدى »

(اسناده صحيح) .

﴿ قدوم على عند عودته من اليمن إلى مكة ورسول الله ﷺ فى الحج ﴾

وفى هذه الآونه وفد علىّ بن ابى طالب من اليمن إلى مكة محرما بعد أن أدى المهمة التى أوفده فيها الرسول ﷺ ، وأتى مكة ، فدخل على زوجته فاطمة ، وقد خلعت عنها ملابس إحرامها وتزينت ولبست الملابس الملونة ، فسألها : لم فعلت هذا ؟ قالت : أمرنا به أبى .

وقَصَّ علىّ على النبى ﷺ ما كان من أمر سَفْرتِه ، وما كان من إسلام القوم الذين سار إليهم بعد ما عصوه فى الأمر وحاربوه مما اضطر معه إلى قتالهم ، ثم كان أن انتصر عليهم . فحمد النبى ﷺ الله على ذلك ثم قال لعلىّ : يا على انطلق فطف بالبيت وحل كما حل أصحابك . قال على : يا رسول الله إنى قلت حين أحرمت : اللهم إنى أُهِلُّ بما أَهَلَّ به نبيك ورسولك محمد فسأله النبى ﷺ : فهل معك هَدْى ؟

قال : لا ، فأشركه النبى فى هديه وثبت علىّ على إحرامه حتى أدى مناسك الحج جميعاً . وسار محمد ﷺ والحجيج إلى منى ، وقد أحرم كل من كان قد حَلَّ إحرامه .

والحج هذه المرة جاء مغايراً لما ألفته العرب أيام جاهليتها .. إنتهت العهود المُعْطَاة للمشركين ، وحظر عليهم أن يدخلوا المسجد الحرام ، فأصبح أهل الموسم - قاطبة - من الموحدين الذين لا يعبدون مع الله شيئا .. وأقبلت وفود الله من كل صوب تيمم وجهها شطر البيت العتيق ، وهى تعلم أن رسول الله ﷺ هو - فى هذا العام - أمير حجهم ، ومعلمهم مناسكهم، ونظر رسول الله ﷺ إلى الألوف المؤلفة وهى تلبى وتهرع إلى طاعة الله .. فشرح صدره انقيادها للحق واهتداؤها إلى الإسلام ، وعزم أن يغرس فى قلوبهم لباب الدين ، وأن يغتنم هذا التجمع الكريم ليقول كلمات تبددآخر ما أبقت الجاهلية من مخلفات في النفوس ، وتؤكد ما يحرص الإسلام على إشاعته من آداب وعلائق وأحكام .

وحين بزغت شمس اليوم التاسع من ذى الحجة ركب محمد ﷺ ناقته القصواء ، وتوجه هو والمسلمون ، فصعدوا جميعا جبل عرفات يلبون ويكبرون.

وضُربت للنبى خَيْمة بالقرب من عرفات أقام بها حتى مالت الشمس ذلك اليوم ، ثم سار راكبا ناقته حتى أتى بطن الوادى ، وهناك وقف يخطب فى الناس بصوت جهورى يُرَدِّدُهُ مِنْ خلفه « ربيعه بن أمية بن خلف » حتى يسمع جميع المسلمين الذين لم يجتمعوا فى يوم بمثل ما اجتمعوا فى هذا اليوم وكانت خطبة هى بحق دستورُ الإسلام الذى يجب أن يسير عليه المسلمون .

قال ابن اسحق : وحدثنى يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه عباد قال : كان الرجل الذى يصرخ فى الناس بقول رسول الله ﷺ وهو بعَرَفَةْ : « ربيعه بن أميه بن خلف » قال : يقول له رسول الله ﷺ قل : أيها الناس إن رسول الله ﷺ يقول : « هل تدرون أى شهر هذا » فيقوله لهم فيقولون : الشهر الحرام .. فيقول له : قل لهم : إن الله قد حرم عليكم

دماءكم وأموالكم إلى أن تلقوا ربكم كحرمة شهركم هذا .. إلى آخر الخطبة»

حديث صحيح وإسناده مرسل

﴿خطبة الرسول ﷺ يوم عرفة﴾

بعد أن حمد الله وأثنى عليه قال :

« أيها الناس .. إسمعوا قولي ، فإني لا أدري ، لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا بهذا الموقف أبداً ... أيها الناس ... إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام إلى أن تلقوا ربكم كحرمة يومكم هذا ، وأنكم ستلقون ربكم فيسألكم عن أعمالكم ، فمن كانت عنده أمانة فليؤدها إلى من إئتمنه عليها ، وأن كل ربا موضوع ولكن لكم رءوس أموالكم لا تظلمون ولا تُظلمون . .

قضى الله أنه لا ربا وأن ربا العباس بن عبد المطلب موضوع كله ، وأن كل دم كان في الجاهلية موضوع ، وإن أول دمائكم أضع دم ربيعه بن الحارث بن عبد المطلب - وكان مسترضعاً في بني ليث فقتلته هذيل - وكان مسترضعا في بني ليث فقتلته هذيل - فهو أول ما أبدأ به من دماء الجاهلية .

أما بعد أيها الناس إن الشيطان قد يئس أن يعبد بأرضكم هذه أبداً ، ولكنه إن يُطع فيما سوى ذلك فقد رضى به ، مما تحقرون من أعمالكم فاحذروه على دينكم .

أيها الناس ؟ إنما النسئ زيادة في الكفر يُضلُّ به الذين كفروا ، يحلونه عاما ويحرمونه عاما ليواطئوا عدة ما حرم الله فيحلوا ما حرم الله ويحرموا ما أحل الله » .

وإن الزمان قد استدار كهيئته يوم خلق الله السموات والأرض

وإن عدة الشهور عند الله اثنا عشر شهراً ، منها أربعة حرم ، ثلاثة متوالية، ورجب مضر الذي بين جمادى وشعبان .

أما بعد أيها الناس ، فإن لكم على نسائكم حقاً ، ولهن عليكم حقاً .. لكم عليهن ألا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه ، وعليهن أن لا يأتين بفاحشة مبينة ، فإن فعلن ، فإن الله قد أذن لكم أن تهجروهن في المضاجع ،

وتضربوهن ضربا غير مُبرِّح ، فإن انتهين ، فلهن رزقهن وكسوتهن بالمعروف، واستوصوا بالنساء خيراً ، فانهن عندكم عوان[*] لا يملكن لأنفسهن شيئاً ، وإنكم إنما أخذ تموهن بأمانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله فاعقلوا أيها الناس قولى فإنى قد بلَّغت .

وقد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبداً أمراً بيناً كتاب الله وسنة نبيه .

أيها الناس ، إسمعوا قولى واعقلوه ، تعلمن أن كل مسلم أخ للمسلم ، وإن المسلمين إخوة فلا يحل لإمرىء من أخيه إلا ما أعطاه عن طيب نفس منه ، فلا تظلمن أنفسكم .

اللهم هل بلغت ؟

قالوا : نعم فقال رسول الله ﷺ : اللهم اشهد (حديث صحيح واسناده مرسل)

وبعد أن أتم رسول الله ﷺ خطبته صلى الظهر والعصر قصراً ثم قرأ على الناس قول الله تعالى :

« اليوم أكملت لكم دينكم ، وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا »[١] .

فبكى أبو بكر ، فقيل له : ما يبكيك ؟ قال : إنه ليس بعد الكمال إلا النقصان ! وقد أحس من قراءة النبى ﷺ لهذه الآيه أن مهمة الرسول قد انتهت ، وعرف أن يوم وفاته قد بات قريبا .....!

وبمنى نحر النبى ﷺ من هديه ثلاثا وستين ناقة بعدد سنى حياته

قال ابن اسحق : وحدثنى عبد الله بن أبى نجيح ، أن رسول الله ﷺ- حين وقف بعرفه - قال : (هذا الموقف « للجبل الذى هو عليه » وكل عرفة موقف)

وقال حين وقف قزح صبيحة المزدلفة: (هذا الموقف وكل المزدلفة موقف)

----

(١) المائدة من الآيه :٣

(*) أسيرات .

ثم لما نحر بمنى قال : (هذا المنحر وكل منى منحر)
فقضى رسول الله ﷺ الحج ، وقد أراهم مناسكهم ، وأعلمهم ما فرض الله عليهم من حجهم من الموقف ورمى الجمار وطواف البيت ، وما أحل لهم من حجهم وما حرم عليهم .. فكانت « حجة البلاغ » «وحجة الوداع » .

(حديث صحيح)

وسماها بعضهم : حجة الإسلام أو حجة التمام : لأن الله أكمل للناس فيها دينهم وأتم عليهم فيها نعمته .

★★★

كان الرسول ﷺ يريد - بعد بلاء طويل فى إبلاغ الرسالة - أن يفرغ فى آذان الناس وقلوبهم آخر ما لديه من نصح .
كان يحس أن هذا الركب سينطلق فى بيداء الحياة وحده ...! فهو يصرخ به كما يصرخ الوالد بإبنه الذى انطلق به القطار ، يوصيه الرشد ، ويذكره بما ينفعه أبداً .

وكان هذا النبى الطيب ، كلما أوجس خيفة من مكر الشيطان بالناس ، عاود صيحات الإنذار واستثار أقصى ما فى الأعماق من انتباه ، ثم ساق الهدى والعلم وقطع المعاذير المنتحلة ، وانتزع - بعد ذلك - شهادة من الناس على أنفسهم وعليه أنهم قد سمعوا ، وأنه قد بلَّغ .

لقد ظلَّ ثلاثا وعشرين سنة يصل الأرض بالسماء ، ويتلو على القاصى والدانى آى الكتاب الذى نزل به الروح الأمين على قلبه ، ويغسل أدران الجاهلية !! التى إلتاث بها كل شئ ويربى من هؤلاء العرب الجيل الذى يفقه الحقائق ، ويُفَقِّه العالم فيها .

وهاهو ذا على ناقته العضباء ، يستنصت الجماهير المائجة ، ليؤكد المعانى التى بُعثَ بها ، والتى عرفهم عليها ، ويُخلى ذمته من عهد البلاغ والتبيان التى نيطت بعنقه .

★★★

لقد أجيبت دعوة أبى الأنبياء إبراهيم عليه الصلاة والسلام حين هتف وهو يبنى البيت العتيق « **ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ، ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم** »(١) .

إن العزيز الحكيم تجلى باسميه الجليلين على هذه الديار ، فوهب العزة والحكمة أو قل : القوة والسياسة - محمد بن عبد الله - فعالج بها الآثام الجاثمة على صدر الأرض ، فما استعصى على الأناة والحلم ، استكان للتأديب والحكم .

وبهذا المنهج الجامع بين العدل والرحمة ، أخذت رقعة الباطل تنكمش رويداً رويداً حتى اختفت الجاهلية ولوثاتها ، وثبت الإسلام ، ثم أصاخ العرب - بعد ما لان قيادهم - إلى صوت الحق الأخير فى حجة الوداع .

★★★

﴿ العودة إلى المدينة ﴾

فلما قضى رسول الله ﷺ مناسكه ، حث الركاب إلى المدينة المطهرة .. لا ليأخذ حَظّاً من الراحة ، بل ليستأنف حياة الكفاح والكدح لله .

إن المبطلين لا يدعون لأهل الحق مُهلة يستجمون فيها .

وأصحاب الرسالات أنفسهم لا يستعيدون نشاطهم فى القعود عن العمل ،بل يستمدون الطاقة على العمل من الشعور بالواجب .

وراحتهم الكاملة يوم يرون بواكير نجاحه دانية القطاف .

قفل النبى ﷺ إلى المدينة ليعبئ جيشاً آخر يقاتل به الروم ، فإن كبرياء هذه الدولة على الإسلام ، جعلها تأبى عليه حق الحياة ، وحملها على أن تقتل من أتباعها من يدخل فيه . كان « فروة بن عمر الجذامى » والياً من

---

(١) سورة البقرة آيه ١٢٩

قبل الروم على « معان » وما حولها من أرض الشام، فاعتنق الإسلام ، وبعث إلى النبى ﷺ يخبره بذلك وغضب الرومان ، فجردوا على « فروة » حملة جاءت به ، وأُلقِيَ فى السجن حتى صدر الحكم بقتله فَضُرِبَ عنقه على ماء لهم يقال له : « عفراء » بفلسطين ، وتُرِكَ مصلوباً ليرهب غيره أن يسلك مسلكه ، وقيل إنه لما قدم للقتل قال :

بلّغ سراة المسلمين بأننى ، سلمٌ لربى أعظمى ودمائى

فأعدّ رسول الله ﷺ جيشاً كبيراً ، وأمرَّ عليه « أسامة بن زيد بن حارثة » وأمره أن يوطئ الخيل (تخوم البلقاء) و (الداروم) من أرض فلسطين[1] يبغى بذلك إرهاب الروم وإعادة الثقة إلى قلوب العرب الضاربين على الحدود ، حتى لا يحسبن أحد أن بطش الكنيسة لا معقب له ، وأن الدخول فى الإسلام يجر على أصحابه الحتوف فحسب .

ولما كان أسامة شاباً لا يتجاوز الثمانية عشر ، فإن بعض الجهال ساءتهم هذه الإمارة ، واعترضوا أن يقود الرجال الكبار شاب حدث .

ولا شك أن النبى ﷺ لا يلتفت فى ولايته إلا إلى الجدارة فمن استحق منصبا بكفايته ، قدمه له ، غير مكترث بحداثه سن .

فإن كبر السن لا يهيب الأغبياء عقلاً ،ولا الصغر ينقص الأتقياء فضلاً .

فما الحداثة عن حلم بمانعة ، قد يوجد الحلم فى الشبان والشيب[2]

---

(١) وهذه البعثة تعتبر آخر ما بعث رسول الله ص من بعثات وهى تبلغ فى جملتها نحوا من سبع وأربعين وقبل بل نحوا من ستين وقد وضحنا معظمها بالأرقام .. والباقى نوهنا عنها بالتعريف .

(٢) عن الشيخ الجليل محمد الغزالى

ولذلك قال رسول الله ﷺ - رداً على اعتراض الناقدين :-

« لئن طعنتم فى تأميرى « أسامة » لقد طعنتم فى تأميرى أباه من قبل ، وأيم الله إن كان لخليقاً بالإمارة ، وإن إبنه من بعده لخليق بها ، وإن كان لمن أحب الناس إلى »[1] .

وانتدب الناس يلتفون حول « أسامة » وينتظمون فى جيشه

فخرج أسامة وخرج جيشه معه حتى نزلوا الجرف من المدينة على فرسخ، فضرب به عسكره ، وتتام إليه الناس ، بيد أن رسول الله ﷺ قد أصابته وعكة مرض مما استُكره أسامة وجيشه على التريث حتى يعرفوا ما يقضى به الله ويطمئنوا على رسولهم ﷺ .

قال ابن هشام : وهى آخر بعثة بعثها رسول الله ﷺ .

★★★

----

(١) صحيح اخرجه البخارى (١٢٤/٨)عن عبد الله بن عمر وصححه الترمذى (٣٥٠/٤).

﴿ أمهات المؤمنين ﴾

يقول الشيخ الجليل محمد الغزالى :

أثار بعض الكتاب غباراً حول مبدأ تعدد الزوجات ، وحاولوا تقييد ما أباحه الإسلام من ذلك أو منعه محتجين - تارة - بأن الإسلام لم تثبت فيه هذه الإباحة بصورة حاسمة ، وتارة أخرى بأن تطور الحياة ، وصالح الجماعة يقتضيان أن يكتفى الرجل بامرأة واحدة ، وحسبه أن يوفق فى رعايتها وكفالة أولاده منها .

ومع المبررات الكثيرة للتعدد ، فإن الإسلام الذى أباحه ، رفض رفضاً باتاً أن يجعله امتداداً لشهوات بعض الرجال ، وميلهم إلى المزيد من التمتع والتسلط .

فالغُرم على قدر الغُنْم .. والمتع الميسره تتبعها حقوق ثقيلة .

ومن ثم فلابد - عند التعدد - من تيقن العدالة التى تحرسه .

أما إذا ظلم الرجل نفسه أو أولاده أو زوجاته ، فلا تعدد هناك .

الذى يُعدد يجب أن يكون قادرا على النفقة اللازمة .

وإذا كان الشارع يعتبر العجز عن النفقة عذراً عن الإقتران بواحدة فهو - من باب أولى - مانع من الزواج بما فوقها .

إن الشارع يوصى الشباب الأعزب بالصيام ، مادام لا يستطيع الزواج ، ويأمر العاجز عن الواحدة بالاستعفاف .

« وليستعفف الذين لا يجدون نكاحا حتى يغنيهم الله من فضله »

سورة النور من الآيه ٣٣

فكيف الحال بمن عنده واحدة ؟ إنه بالصبر أحق ، وبالاستعفاف أولى ...
وكثرة الأولاد تتبع - عادة - كثرة الزوجات ، والإسلام يوجب رعاية العدل مع الأولاد فى التربية ، والتكريم ووسائل المعيشة ، مهما اختلفت أمهاتهم.
وفى الأثر : «لعن الله من استعق أولاده »[1] .
فعلى الأب المكثر أن يحذر عقبى الميل مع الهوى .
وكذلك يوجب الإسلام العدل مع الزوجات ولئن كان الميل القلبى أعصى من أن يتحكم فيه إنسان ، فإن هناك من الأعمال والأحوال ما يستطيع كل زوج فيه أن يرعى الحدود المشروعة وأن يزن تصرفه بالقسط ، وأن يخشى الله فيما استرعاه من أهل ومال .
قال رسول الله ﷺ : « إن الله سائل كل امرئ عما استرعاه ، حفظ ذلك أم ضيعه » ، وقال : « بحسب إمرئ من الإثم أن يضيع من يعول »[2] .
تلك حدود العدل الذى قرنه الله بالتعدد ، فمن استطاع النهوض بأعبائها فليتزوج مثنى وثلاث ورباع وإلا فليكتف بواحدة « **فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة** » سورة النساء من الآيه : ٣
على أنه من المؤسف حقاً أن يهدر العوام هذه الحدود ، وأن يتجهوا إلى التعدد دون وعى لمعنى العدل المفروض ... بل تلبية لنداء الشهوة ، ولو أدى إلى الافتيات والجور الصارخ .
فالرجل يعجز عن نفقة نفسه .. ثم هو يسعى إلى الزواج !
وقد يعجز عن رعاية واحدة ... ثم هو يبحث عن غيرها !

----

(١) لا أعرفه ، ونحوه مارواه الطبرانى عن أبى هريرة مرفوعا « أعينوا أولادكم على البر ، من شاء استخرج العقوق من ولده لكن فى سنده من لا يُعرفون .

(٢) عزاه فى الجامع الصغير للنسائى وابن حبان فى صحيحه عن أنس وقد فتشت عنه فى سنن النسائى الصغرى فى مظانه فلم أجده فلعله فى سننه الكبرى وأخرجه أبو داود فى « حلية الأولياء » (٩/٢٣٥) عن النسائى بسنده عن قتادة عن أنس .

وقديحيف على بعض أولاده في التعليم ، وفي توزيع الثروة تمشياً مع هواه .. وقد يتزوج الأخرى ليهجر الأولى ويذرها كالمعلقة ! وربما ترى الرجل يستطيع البناء بأربع ، والإنفاق على ما ينجبن من بنين وبنات ، ومع ذلك الإقتدار ، فهو يحيا على التسول الجنسي والتقلب في أحضان الساقطات فما دواء هذه الفوضى ؟!

هل منع التعدد يشفي الأمة من هذه الداءات ؟

كلا ... إن تقييد مباح ليس مما يعيى سياسة التشريع في الإسلام ، ولكن إقرار القاعدة شئ وسوء تطبيقها شئ آخر وعندما يجيئ دور التشريع في إصلاح مجتمعنا وإقامة عوجه - من هذه الناحية - فلتتجه همة الباحثين إلى ضبط وسائل العدل ومظاهره إن أرادوا .

أما الخبط في مبدأ التعدد نفسه ، ومحاولة النيل منه فهو عبث .

﴿ ذكر أزواجه ﷺ وأنسابهن ﴾

قال ابن هشام : وكن تسعاً : عائشه بنت أبى بكر ، وحفصه بنت عمر بن الخطاب ، وأم حبيبه بنت أبى سفيان بن حرب ، وأم سلمة بنت أمية بن المغيرة ، وسودة بنت زمعة بن قيس ، وزينب بنت جحش بن رئاب ، وميمونة بنت الحارث بن حزن ، وجويرية بنت الحارث بن أبى ضرار، وصفية بنت حيى بن أخطب ، (فيا حدثنى غير واحد من أهل العلم) .

وكان جميع من تزوج رسول الله ﷺ ثلاثة عشرة :

خديجة بنت خويلد : وهى أول من تزوج ، زوجه إياها أبوها خويلد بن أسد ، ويقال : أخوها عمرو بن خويلد ، وأصدقها رسول الله ﷺ عشرين ناقة ، فولدت لرسول الله ﷺ ولده كلهم إلا إبراهيم وكانت قبله زوجة لأبى هالة ابن مالك أحد بنى أسيد بن عمرو بن تميم ، فولدت له : هند بن أبى هالة، وزينب بنت أبى هالة ، وكانت قبل أبى هالة زوجة لعتيق بن عابد بن عبد الله بن عمر بن مخزوم ، فولدت له : عبد الله وجارية .

وتزوج ﷺ (عائشة بنت أبى بكر الصديق) بمكة وهى بنت سبع سنين، وبنى بها فى المدينة وهى بنت تسع سنين أو عشر ، ولم يتزوج رسول الله ﷺ بكرا غيرها ، زوجه إياها أبوها أبو بكر ، وأصدقها رسول الله ﷺ أربعمائه درهم .

وتزوج رسول الله ﷺ « سودة بنت زمعه بن قيس بن عبد شمس » وكانت قبله عند (السكران بن عمرو بن عبد شمس) وقد مات عنها زوجها بعد عودته من هجرة الحبشة .

وتزوج رسول الله ﷺ « زينب بنت جحش » وزوجه إياها أخوها « أبو

أحمد ابن جحش » وأصدقها رسول الله ﷺ أربعمائة درهم ، وكانت قبله عند « زيد بن حارثة » مولى رسول الله ﷺ ففيها أنزل الله تبارك وتعالى :

« فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها »

(سورة الأحزاب من الآيه ٣٧)

وتزوج رسول الله ﷺ « أم سلمة بنت أبى أمية » واسمها « هند » زوجه إياها سلمة بن أبى سلمة إبنها وأصدقها رسول الله فراشاً حشوه ليف ، وقدحا ، وصحفة ، ومجشة (رحى) وكانت قبله عند (أبى سلمة بن عبد الأسد) واسمه عبد الله ، فولدت له : سلمة وعمر وزينب ورقية .

وتزوج رسول الله ﷺ « حفصه بنت عمر بن الخطاب » زوجه إياها أبوها عمر بن الخطاب وأصدقها رسول الله ﷺ أربعمائة درهم ، وكانت قبله عند خنيش بن حذافة السهمى » .

وتزوج رسول الله ﷺ « أم حبيبة » واسمها «رملة» بنت أبى سفيان بن حرب زوجه إياها (خالد بن سعيد بن العاص) وهما بأرض الحبشة ، وأصدقها النجاشى عن رسول الله ﷺ أربعمائة دينار ، وهو الذى خطبها على رسول الله ﷺ ،وكانت قبله عند « عبيد الله بن جحش الأسدى » .

وتزوج رسول الله ﷺ « جويرية بنت الحارث بن أبى ضرار الخزاعية » وكانت فى سبايا « بنى المصطلق » (وقصتها ذكرناها فى غزوة بنى المصطلق) .

وتزوج رسول الله ﷺ « صفية بنت حيى بن أخطب » سباها من «خيبر» فاصطفاها لنفسه وأولم رسول الله وليمة ما فيها شحم ولا لحم ، وكان سويقا وتمرا - وكانت قبله عند (كنانه بن الربيع بن أبى الحقيق) .

---

(١) السويق : الناعم من دقيق الحنطة أو الشعير - ج أسوقة أنظر المنجد مادة (سوق) .

وتزوج رسول الله ﷺ « ميمونه بنت الحارث بن حزن بن بحير بن صعصعة » زوجه إياها « العباس بن عبد المطلب » وأصدقها العباس عن رسول الله ﷺ أربعمائة درهم ، وكانت قبله عند « أبى رهم بن عبد العزى » ويقال: أنها التى وهبت نفسها للنبى وذلك أن خطبة النبى ﷺ انتهت إليها وهى على بعيرها ، فقالت :

البعير وما عليه لله ولرسوله ، فأنزل الله تبارك وتعالى : « **وإمرأة مؤمنة إن وهبت نفسها للنبى إن أراد أن يستنكحها** »

(سورة الأحزاب من الآية ٥٠)

وتزوج رسول الله ﷺ « زينب بنت خزيمة بن الحارث بن عبد الله بن صعصعة » وكانت تسمى أم المساكين لرحمتها إياهم ، زوجه إياها « قبيصة بن عمرو الهلالى » وأصدقها رسول الله ﷺ أربعمائة درهم ، وكانت قبله عند « عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب بن عبد مناف » وكانت قبل عبيدة عند « جهم بن عمرو بن الحارث » وهو ابن عمها .

فهؤلاء اللاتى بنى بهن رسول الله ﷺ إحدى عشرة .

فمات قبله منهن إثنتان : خديجة خويلد ، وزينب بنت خزيمة

وتوفى عن تسع قد ذكرناهن فى أول الحديث .

وثنتان لم يدخل بهما : « أسماء بنت النعمان الكندية » تزوجها فوجد بها بياضا فمتّعها وردّها إلى أهلها و « عمرة بنت يزيد الكلابية » .

الزوجات القرشيات : ست : خديجة بنت خويلد بن أسيد بن عبد العزى بن قصى بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى .

وعائشة بنت أبى بكر بن أبى قحافة بن عامر بن عمرو بن كعب بن سعد بن تيم بن مرة بن كعب بن لؤى بن غالب .

وحفصة بنت عمر بن الخطاب بن نفيل بن عبدالعزى بن عبدالله بن قرط بن رياح بن رزاح بن عدى بن كعب بن لؤى .

وأم حبيبة بنت أبى سفيان بن حرب بن أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصي بن كلاب بن مرة بن كعب بن لؤى .

وسودة بنت زمعة بن قيس بن عبد شمس بن عبد ود بن نصر بن مالك بن حسل بن عامر بن لؤى .

وأم سلمة بنت أبى أمية بن المغيره بن عبد الله بن عمر بن مخزوم بن يقظة بن مرة بن كعب بن لؤى .

والعربيات وغيرهن : سبع : زينب بنت جحش - وميمونة بنت الحارث ، وزينب بنت خزيمة - وجويرية بنت الحارث - وأسماء بنت النعمان الكندية - وعمرة بنت يزيد الكلابية ومن غير العربيات : صفية بنت حيى .

وتزوج رسول الله ﷺ مارية التى بعث بها « المقوقس » إليه بعد أن أسلمت وحملت منه ، ثم وضعت له إبنا أسماه إبراهيم ، باسم جده أبى الأنبياء ، ولم يعمر طويلا ، بل مات وهو رضيع ، قال أنس : لقد رأيته وهو يجود بنفسه بين يدى رسول الله ﷺ ، فدمعت عليه عينا النبى ﷺ ثم قال : « تدمع العين ويحزن القلب ولا نقول إلا ما يرضى ربنا ، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون »[1] .

واتفق أن الشمس كسفت فى ذلك اليوم ، فتحدث الناس أن الشمس كسفت لموت ابن النبى فقام النبى ﷺ مصليا بالناس ثم قال : يا أيها الناس إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله عز وجل لا ينكسفان لموت بشر ، فإذا رأيتم شيئا من ذلك فصلوا حتى تنجلى »[2] .

★★★

---

(١)صحيح اخرجه البخارى عن أنس (٣/ ١٣٥) .

(٢) صحيح أخرجه الشيخان وغيرهما من حديث المغيرة بن شعبة وصح عن جماعة من الصحابة ذكرت ألفاظهم والطرق إليهم فى « صفة صلاة النبى ﷺ » للإمام محمد الغزالى لصلاة الكسوف وما رأى فيها من آيات .

﴿ تنوية عن زيجات الرسول ﷺ ﴾

المحفوظ من سيرة النبى ﷺ نبى الإسلام أنه تزوج بالسيدة « خديجة » وهو فى الخامسة والعشرين من عمره وكانت - هى - فى سن الأربعين ، وظل معها وحدها لا يضم إليها أخرى حتى تجاوزت السيدة الفضلى الخامسة والستين .

وماتت - وهو صلوات الله عليه - فوق الخمسين

ولم يجرؤ أحد من أشد خصومه لُدداً أن ينسب إليه دنساً أو يتهمه بريبة .

فى هذه الفترة الخصيبة الرحبة من عمر الإنسان كان رونق العفاف والشرف يتألق فى جبينه حيث سار ، ولو أنه أحب التزوج بأخرى ما عاقة مانع من شرع أو عقل أو عادة .

فإن التعدد كان مألوفا بين العرب ، معروفا فى ديانة أبى الأنبياء إبراهيم إلا أنه ﷺ ظلَّ مكتفيا بمن استراح إليها واطمأن بصحبتها ، ولو أنها طعنت فى السن ... وبقى هو فى كمال قوته، وتمام رجولته ولهذا المسلك دلالته القاطعة .

فلما انتقلت خديجة ، وأحب النبى ﷺ أن يتزوج .. لم يكن البحث عن الجمال فى مظانه هو الباعث له على تخير شريكته فى حياته ، ولو قد فعل ذلك ما تعرض للوم .

بيد أن الباعث الأول كان الإرتباط بالرجال الذين آزروه فى دعوته وعاونوه فى رسالته .

فاختار « عائشة » بنت أبى بكر - على صغر سنها - واختار حفصة بنت عمر على قلة وسامتها ...

ثم اختار « أم سلمة » أرملة قائده الذى استشهد فى سبيل الله ،

وعانت معه إمرأته ما عانت فى الهجرة إلى الحبشة ، وفى الهجرة إلى المدينة وكانت إمرأة مسنة وأم أيتام .

ومن قبل هؤلاء كانت معه « سودة » وهى إمرأة نزلت عن حظها من الرجال ، فقد كانت كبيرة السن ضامرة الجسد ليست ممن يطلبها الرجال أو يتمتع بها الأزواج ، ولكنها مؤمنه مجاهدة ، هاجرت فى أول هجرة للإسلام مع زوجها ومات وتركها وحيدة .

ولما كانت من عادة العرب إذا مات الرجل يتقدم صديقه إلى زوجته ليتزوجها إكراما لزوجها ، ورعاية لشأنها وشأن أولادها .. وقد مات فى الحروب رجال من المسلمين تحدث التاريخ عن جلائل أعمالهم فقد تزوج الرسول ﷺ بعض زوجات هؤلاء من الذين أبلوا بلاء حسناً ولم يجدوا من يتقدم للزواج منهن إما لكبر سنهن أو كثرة أولادهن . ولذلك تزوج «زينب» زوجة عبيدة ابن الحارث الذى قُتل فى وقعة بدر ، وكان على رأس أول سرية فى الإسلام وكانت تلقب بأم المساكين .

قد تقول : ولكن الرسول ﷺ مات عن تسع نسوة .. فكيف وقع هذا ؟ ولم نال مالم ينل غيره ؟ أليس هذا فتحا لباب التشهى ، وإجابة لدواعى الملذة؟

ونقول : أين مكان المتعة فى حياة رجل لم يسترح يوماً من عناء الجهاد الموصول والكفاح المضنى ؟!!

إن حَمَلَة الرسالات الإنسانية المحدودة تعييهم هموم العيش ومشكلات الشعوب ، فلا يحظون بساحة راحة إلا ليستجموا قليلا .. ثم ينهضون لإستئناف اللغوب .. فكيف بصاحب الرسالة العظمى وقد لقى من العرب ما رأيت ؟؟!!!

ونسأل أيضا : ما مكان المتعه فى حياة رجل عزف عنها وهو شاب ، فكيف يغرق فيها وهو شيخ ؟! إن الظروف التى أحاطت بالزوجات الخمس

الأخرى تجعل البناء بهن بعض ما كلف الرسول بتجشمه من سياسة الأفراد والجماعات ، وبعض ما كلف بتحقيقه من إقامة الخير ومحو الضر .

خذ مثلا زواجه بزينب بنت جحش ، كان هذا الزواج امتحانا قاسياً لرسول الله ﷺ ، أمره الله به لإبطال تقليد شائع عند العرب ، وأقدم عليه الرسول ﷺ وهو شديد التحرج والحياء والأذى .. وزينب هذه من قريبات الرسول ﷺ ، فهو يعرفها حق المعرفة من طفولتها ، وقد رغب فى أن يزوجها من زيد بن حارثة، فكرهت ذلك ورفض أخوها اعتزازاً بما لأسرة زينب من مكانه ، فهى من ذؤابة قريش ، وما زيد ؟....

إنه كان عبداً ، ولوأن الرسول أكرمه فيما بعد والحقه بنسبه فصار يدعى زيد بن محمد ....

إلا أن زينب لم تجد بدأ من الإنصياع لأمر النبى ﷺ ... فقد أراد أن يحطم الإعتزاز بالأنساب، وأن ينكح زيداً زينب ، ثم لا ننسى معزة زيد عند رسول الله ﷺ ، وأنه كان له بمثابة الإبن وأراد أن يكرمه ، فرضيت زينب (وفى نفسها غضاضة) وقبل أخوها وهو يؤدى حق السمع والطاعة فحسب ، بعد ما نزل قوله تعالى : « **وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ، ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبيناً** » (سورة الأحزاب الآيه ٣٦).

ودخل زيد بزينب ، فوجد إمرأة مصروفة الفؤاد عنه ، تسلمه جسدها ،وتحرمه العطف والتقدير فثارت رجولته وقرر ألا يبقى معها .. وتدخل النبى ﷺ بين الحين والحين لإصلاح ذات البين دون جدوى .

وفى هذه الحال ، أوْحَى الله لنبيه أن يدع زيداً يطلق زوجته ، وأن يتزوجها هو بعد انتهائها منه .

فاعترى الرسول ﷺ هَمٌ مقلق لهذا الأمر الغريب ، وساوره التوجس من الإقدام عليه بل أخفاه فى نفسه خوفا من مغبته ، فسيقول الناس : تزوج إمرأة إبنه ... وهى لا تحلُّ له !

ولكن هذا الذى سيقول الناس هو ما أراد الله هدمه ، ويجب على النبى أن ينفذه دون تهيب .

وقد تريث النبى ﷺ فى انفاذ أمر الله ، ولعله ارتقب من الله - لفرط تحرجه - أن يعفيه منه .. بل ذهب إلى أبعد من ذلك ، فعندما جاء زيد يشكو إمرأته ويعرض نيته فى تطليقها قال له النبى ﷺ : « أمسك عليك زوجك واتق الله »

عند ذلك نزل الوحى يلوم رسول الله ﷺ على توقفه ، ويعتب عليه تصرفه ، ويحضه على إمضاء رغبة زيد فى فراق إمرأته ويكلفه بتزوجها ، ولو قال الناس : تزوج إمرأة إبنه ، فإن ادعاء النبوة لون من التزوير ، تواضع عليه العرب مراغمة للحق ، وينبغى أن يقلعوا عنه وأن يهدروا نتائجه ، وليكن عمل الرسول بنفسه وبمن التصق به ، أول ما يهدم مآثر الجاهلية فى العرف الشائع .

وهذه هى القصة كما بدأ القرآن الكريم يرويها :

« وإذ تقول للذى أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفى فى نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطرا زوجناكها لكى لا يكون على المؤمنين حرج فى أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطرا ......»

(سورة الأحزاب من الآيه ٣٧)

ويقول الشيخ الجليل محمد الغزالى :

على أن الغريب فى هذه القصة ما أدخله المغفلون والمغرضون عليها من دسائس الشهوة ومظاهر الحب الرخيص... فقد زعموا أن الرسول ﷺ أحب زينب ، ثم كتم هذا الحب ثم ظهر ، فتزوجها بعد ما طلقت .

ثم زعموا أن صدر الآية السابقة جاء عتاباً له على هذه العاطفة المكبوتة

ونحن نتعجب أشد العجب لهذا الخبط الهائل ، ومحاولة تلبيس الحق بالباطل .

من كان يمنع محمداً ﷺ من الزواج بزينب وهى من أسرته ، وهو الذى ساقها إلى رجل لم تكن فيه راغبه ؟؟!! وَطيَّبَ خاطرها لترضى به ... أفبعد أن يقدمها لغيره يطمع فيها ؟؟!! ثم لننظر إلى الآية وما يزعمون أنها تضمنته من عتاب ....

إنهم يقولون : الذى كان يخفيه النبى ﷺ فى نفسه ، ويخشى فيه الناس دون الله هو ميله لزينب ، أى أن الله - بزعمهم - يعتب عليه عدم التصريح بهذا الميل ... ونقول : هل الأصل الخلقى أن الرجل إذا أحب إمرأة لغط بين الناس مُشَهِّراً بنفسه وبمن أحب ؟ وخصوصا إذا كان ذا عاطفة منحرفة ، جعلته يحب إمرأة رجل آخر ؟ هل يلوم الله رجلاً لأنه أحب إمرأة آخر ، فكتم هذا الحب فى نفسه ؟! أكان يرفع درجته ، لو أنه صاغ فيها قصائد غزل ؟! ... هذا والله هو السفه ..!

وهذا السفه هو ما يريد بعض المغفلين أن يفسروا به القرآن ..

إن الله لا يعاتب أحداً على كتمان حب طائش ،وإنما سياق الواقعة كما قصصنا عليك فالذى أخفاه النبى ﷺ فى نفسه تأذِّيه من هذا الزواج المفروض، وتراخيه فى إنفاذ أمر الله به ، وخوفه من لغط الناس عندما يجدون نظام التبنى - كما ألفوه - قد إنهار وقد أفهم الله نبيه أن أمره لا يجوز أن يَعُقَه توهم شئ ما ، وأنه - بإزاء التكليف الأعلى - لا مَفَرُّ له من السمع والطاعة شأن من سبقه من المرسلين .

وإذا عدت إلى الآيه التى تتضمن القصة وجدتها ختمت بقوله تعالى «**وكان أمر الله مفعولا** » أى من حقه أن يقع حتماً ، ثم أعقبها ما يؤكد هذا المعنى : « **ما كان على النبى من حرج فيما فرض الله له سُنَّةُ الله فى الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدراً مقدورا**

الذن يبلغون رسالات الله ويخشونه ولا يخشون أحداً إلا الله وكفى بالله حسيبا »

(سورة الاحزاب الآيه ٣٨ . ٣٩)

إنك عندما تُثَبِّت قلب رجل تقول له : لا تخشى إلا الله .

لا تقول له ذلك وهو بصدد ارتكاب معصية ، إنما تقول له ذلك وهو يبدأ القيام بعمل فاضل كبير يخالف التقاليد المتوارثة .

وظاهر فى هذه الآيات كلها أن الله لا يُجَرِّئ نبيه على التَدلُّه بحب إمرأة ، إنما يُجَرِّئه على إبطال عادة سيئة يتمسك بها الناس ، ويراد منه - كذلك - أن ينزل على حكمها ، ولذلك يقول الله - بعد ذلك مباشرة - وهو يهدم نظام التنبى : « **ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين وكان الله بكل شئ عليما** »

(الأحزاب آية ٤٠)

أما النساء الأخريات اللاتى بنى بهن رسول الله ﷺ ،فهن نساء تُنَمِّيهُن أصول عريقة حتى ليعتبرن بنات ملوك ، وقد أحاطت بهن - عند دخول الإسلام - ملابسات ، لا يليق أن يجهلها قائد دعوة .

فأم حبيبة بنت أبى سفيان بن حرب : سيد قريش وقائدها عشرين سنة فى حرب الإسلام أو يزيد ، أيذْ أسلمت وراغمت أباها وقومها فى ذات الله ، ثم هاجرت إلى الحبشة تاركة مكة حيث يسود أبوها وتعلو كلمته .. أترى مثل هذه السيدة إذا مات زوجها تُتْرَك لمن يخدش مكانها ؟؟ لقد ضمها النبى ﷺ إلى زوجاته ، إعزازاً لشأنها ، وتقديراً لصنيعها .

وصفية بنت حيى: كان أبوها ملك اليهود .

وفى الصراع بين بنى اسرائيل والإسلام هلك أبوها وأخوها وزوجها ، ووقعت فى سهم جندى لا يعرف إلا أنها أسيرة حرب من حقه - بملك اليمين - أن يسلك معها كيف يشاء .

فإذا رقّ لها النبى ﷺ ، ووهبها حريتها ، ثم جَبَر كسرها ، وقدّر ماضيها ، فتزوجها ليستطيع - بإحسانه وإكرامه - تطييب خاطرها .. فهل ذلك مما يلام عليه ؟

وجويرية بنت الحارث : إن أباها زعيم بنى المصطلق ، وقد انتهت حربه مع المسلمين بهزيمة نكراء وكادت قبيلته تهون وتُذَلّ عقب هذه الهزيمة ، فواسى النبى ﷺ القائد المهزوم ، ثم أصهر إليه حتى يُشعر المسلمين بما ينبغى لأتباعه من كرامة ومعونة ، وقد وقع ما أحبه النبى ﷺ ، فعادت الحرية إلى القبيلة رجالاً ونساءً .. إذ تحرَّج المسلمون أن يسيئوا إلى قوم تزوج النبى إبنتهم .

هذا هو زواج الرسول ﷺ ، فهل فيه ما يثير فى أى نفس الشك فى أنه تزوج لحبه فى النساء ؟ وهل تزوج واحدة لجمالها أو شبابها ؟ بل هل كان فى واحدة منهن مشتهى لرجل ؟ وكيف يمكن لعقل مُتَّزِن وفكر سليم أن يشتبه الأمر عليه بشأن رجل يحتفظ بزوجة واحدة مدة خمسة وعشرين عاما إلى أن يتخطى الخمسين من عمره ، فيقول إنه تزوج بعد ذلك لرغبته فى النساء ؟ وتزوح بتسع فى سبع سنوات ؟ ثم ما باله لا ينجب من كل هاته النسوة إلا من (مارية القبطية) ولداً واحداً ، وقد سبق له أن أنجب من زوجته الأولى ، وسبق لكل نسائه أن أنجبن من غيره ؟ .

★★★

﴿ عن تقشفه وزهده ﴾

وقد يسبق إلى أذهان البعداء عن السيرة ، أن حياة رسول الله ﷺ الخاصة ، قامت على التوسع فى المطاعم والمشارب والمتع الأخرى .

والصورة التى قد ترتسم بادئ الأمر لرجل عنده عدة نساء ، أنه مغمور بالسعادة المادية يقوم على الموائد الحافلة باللحوم والفاكهة ، ليرتوى من الأشربة التى تسرى فى أوصاله بالنشوة .. ثم يتقلب بين أحضان البيضاوات والشقراوات ، ويصبح يستقبل الدنيا بعد ذلك خالى البال .

وقد تكون هذه الصورة مساوية أو مقاربة لما يدور فى قصور الملوك ..

لكن حذار أن تُسَفِّه نفسك فتحسب شيئا من هذا العيش الرخى فى بيوت محمد بن عبد الله .

إنْتَقِلْ على عَجَلٍ إلى لون آخر من الحياة الخشنة .. لترى رجلاً تعلقت همته بالحق وحده ، فهو ينتعش بمعرفته ، ويجتهد لجمع الناس عليه ، وقُرَّةُ عينه فى خطوة تُقِرّ به من غايته شبراً .. أما أهواء الدنيا فهى تحت قدميه، وَدُبُرَ أذنيه .

إذا إستطاعت قذائف المدافع على ظهر الأرض أن تبلغ النجوم البعيدة ، إستطاعت مغريات الحياة أن تقترب من قلب محمد الزكى النقى صلى الله عليك يا محمد يا رسول الله .

ذاك إنسان اصطفته العناية الربانية .. فهو يُحَلِّق فى مدى آخر . يقول فيه : « مالى وللدنيا إنما أنا كرجل قَآلَ تحت ظل شجرة ثم راح وتركها »[1]. يربط همم البشر بالمُثُل العليا ، وما تصير إليه عند الله فيقول : « موضع

---

(١) صحيح أخرجه الترمذى (٢٧٨/٣ وصححه إبن ماجه (٢/٥٢٥-٢٥٦) والحاكم (٤/٣١٠) وأحمد رقم (٩-٣٧٠-٤٢٠٨)عن ابن مسعود وله شاهد عن ابن عباس رواه أحمد (٢٧٤٤) واسناده حسن .

سوط فى الجنة خير من الدنيا وما فيها ، ولَغُدْوَةٌ فى سبيل الله أو رَوْحَةٌ خير من الدنيا وما فيها »[1] .

وحياته مع زوجاته نهج من الشظف لا يطيقه أحد

روى البخارى عن أنس بن مالك قال : ما أعلم النبى رأى رغيفاً مُرَقَّقاً حتى لحق بالله ولا رأى شاة سميطاً بعينه قط .....

وعن عائشة قالت : إن كنا لننظر إلى الهلال ، ثلاثة أهلة فى شهرين ، وما أوقدت فى بيوت رسول الله ﷺ نار .

فقال لها عروة بن الزبير : ما كان يعيشكم ؟

قالت : الأسودان : التمر والماء .

وقالت عائشة أيضا : لقد توفى رسول الله ﷺ وما فى رَفِىّ من شىء يأكله ذو كبد إلا شطر شعير فى رَفّ لى !!

أما الفراش الذى يأوى إليه هذا النبى فهو من أدم (جلد) حشوه ليف[2] يثوى فيه قليلا فما إن يستدفىء حتى يسمع الصارخ (الديك) فينهض متأهباً لصلاة الفجر .

ولا نعنى بهذا الوصف أن الإسلام يعاف الطيبات ، أو أن نبيه صلوات الله وسلامه عليه يَسُنُّ للناس تركها .. كلا ، فشريعة الإسلام فى هذا بَيِّنَة نَيِّرة .. إنما نسرد الواقع من حياة رجل صدفت نفسه عما يقتتل الناس عليه، إن الرجل قد يترك لأولاده الصغار لعبة يفرحون بها ويختصمون عليها ، لأن طبيعة رجولته فى شغل عن عبث الصبية .

إن بعض المخترعين والمفكرين يذهلون عن الطعام المهيأ لهم ، لا إزدراء

---

(١) صحيح أخرجه البخارى (١١/١٩٤) بتمامه ومسلم (٦/٣٥) بالشطر الثانى عن سهل بن سعد .

(٢) صحيح أخرجه البخارى (١/٢٤٥) عن عائشة أيضا .

له ، ولكن إستغراقا فيما ملك عليهم مشاعرهم .

وكأني أتخيل هذا النبى عليه أفضل الصلاة والسلام ، وهو يرى سواد الناس يتفانون على الحطام الذاهب ، فيهز رأسه أسفاً ويقول : « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً »[1] ثم يضرع إلى الله : « اللهم إجعل رزق آل محمد قوتاً »[2] .

إن من الزراية بالعقل والجور الفاحش على التاريخ أن يجيىء رجل من عرض الطريق فيرى أو يقال له : إن محمداً كان لديه نسوة عديدات ، فيظن المسكين أن ذلك دلالة إستكثار من الشهوات وتشبع من الدنيا . ولا يَحْسَبَنَّ هذا التقشف فعل من لا يجد وأنه لو فتحت إلى بيوت هذا النبى ﷺ نافذة تطل على بحبوحة الحياة الرغدة ، لاستمتع وإكتنز ، واستمتع نسوته وابتهجن . لا ، كان قادراً أن يحجز من المال الذى يمر به ويحكم فيه ما يشاء .. لو يشاء .. لكن هذا النبى السمح ، كان فوق التطلع إلى اللذات الصغيرة لأن عينيه ترمقان هدفاً أسمى .. ولو سيقت إليه خزائن الأرض لفكّر - قبل كل شىء - فى إشباع نهمة الناس منها .

عن أبى ذر : « كنت أمشى مع النبى ﷺ فى حَرَّة المدينة فاستقبلنا «أحد»، فقال يا أبا ذر . قلت : لبيك يا رسول الله .

فقال : ما يسرنى أن عندى مثل « أحد » هذا ذهبا ، تمضى علىّ ثالثة وعندى منه دينار - إلا شيئاً أرصدة لدين - إلا أن أقول به فى عباد الله هكذا وهكذا وهكذا » عن يمينه وعن شماله ومن خلفه .

---

(١) صحيح أخرجه البخارى (٢٦٨/١١) من حديث أبى هريرة وأنس .

(٢) صحيح أخرجه البخارى (٢٤٦/١١) ومسلم (٢١٧/٨) واللفظ له من حديث أبى هريرة وليس هو تمام الحديث الذى قبله كما قد يتبادر من عبارة المؤلف بل كل من الحديثين مستقل عن الآخر ولا يدرى المتقدم منهما والمتأخر .

ثم مشى فقال : إن الأكثرين هم الأقلون يوم القيامة ، إلا من قال : هكذا وهكذا وهكذا ، عن يمينه وعن شماله ومن خلفه ، وقليل ما هم[1] » .

إن أشهى الطعام فى فم الرجل الشبعان المتلىء لا مذاق له ، وقد كان النبى ﷺ شبعان القلب ، فما يَخُفُّ إليه غيره من زينة الدنيا ، لا يحرك منه شعرة ، فلا غرو إذا بَعْثَر ما يصل إليه على المحتاجين والمترقبين .. أما فهو فغناه فى قلبه . ذاك أدب أخذه الله به من قديم منذ قال له :

« ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى ، وأمر أهلك بالصلاة واصطبر عليها لا نسألك رزقا نحن نرزقك والعاقبة للتقوى »[2] . غاية ما يبغيه هذا النبى ﷺ أن ينجو من مآسى الدنيا ومظالم البشر، فلا تستذله، أو يستذل أهله فاقه . إنه يعيش على قاعدة : « ما قل وكفى خير مما كثر وألهى »[3] ، وفى حدودهذا القليل الكافى ، يود أن يَخْلُص من عقابيل الخلق ، لا له ، ولا عليه ... ولذلك كان يدعو الله : « اللهم إنى أعوذ بك من الفقر والفاقة ، والقلة والذلة ، وأن أظلم أو أظلم ، أو أجهل أو يُجهل على »[4] .

---

(١)صحيح أخرجه البخارى (١١/ ٢٢٠-٢٢٢) ومسلم (٧٥) عن أبى ذر.

(٢) سورة طه : ١٣١ : ١٣٢ .

(٣) هذا حديث مرفوع إلى النبى ﷺ بسند صحيح فكان ينبغى التصريح بذلك أخرجه أحمد (١٩٧/٥) وكذا الطيالسى رقم (٩٧٩) فى حديث لأبى الدرداء وسنده صحيح على شرط مسلم وعزاه المنذرى (٣٩/٢) لابن حبان فى صحيحه والحاكم .

(٤) صحيح وهو مركب من حديثين . والأول عن أبى هريرة أن رسول الله كان يقول: فذكره دون قوله : « الفاقة » وقوله فى آخره « أو أجهل » فأخرجه هكذا أبو داود (١/ ٢٤١) والنسائى (٣١٥/٢) والحاكم (٥٤١/١) وأحمد (٣٠٥/٢-٣٢٥-٣٥٤) وصححه الحاكم على شرط مسلم ووافقه الذهبى وهو كما قالا . والثانى عن أم سلمة قالت : ما خرج النبى من بيتى قط إلا رفع طرفه إلى السماء فقال : « اللهم إنى أعوذ بك أن أضل أو أضل أو أزل أو أزل أو أظلم أو أظلم أو أجهل أو يُجهل على » رواه أبو داود (٣٢٨/٢-٣٣٩).

ويقـول : « اللهم إنى أسـألك الهـدى والتـقى والعـفـاف والغنى (الاستغناء)»[1].

★ ★ ★

وهذا المنهج الصارم فى المعيشة تقاضى نساءه أن يتحملن شدةً ماكُنَّ يعرفنها من قبل ، لقد جئن إليه من بيوتات كبيرة . وأكثرهن اعتادت فى صدر حياتها الزاد الطيب والنعمة الدافقة إما مع آبائهن وإما مع رجالهن السابقين .

فلا عجب إذا تململن من هذه الحياة الجديدة ، وطلبن الرغد والنعومة واجتمعن - على ما بينهن من خلاف - ليسألن الرسول ﷺ مزيداً من النفقة.

إنهن فى بيت أعظم رجل فى العرب ، فيجب أن تتكافأ معيشتهن مع مكانتهن .. وقد تَزَعَّمت هذه المطالب « عائشة بنت أبى بكر » و« حفصة بنت عمر » وتبعهن الباقيات !! .

وحزن رسول الله ﷺ لهذه المظاهرة ، إنه المسلم الأول على ظهر الأرض، وأبصار المؤمنين والمؤمنات ترنو إليه من كل ناحية ، وهو بصدد بناء أمة تشق طريقها وسط ألوف مؤلفة من الخصوم المتربصين .. فإذا لم يعش بيته عيشة المجاهد المحصور ، فكيف يواصل الكفاح ، ويكلف الرجال والنساء من أمته أن يذهلوا عن كل شيء إلا السير بدينهم حتى يبلغ مأمنه ؟ ....

لذلك رفض النبى ﷺ الاستجابة لرغبات نسائه فى توسيع النفقة .. وكره منهن هذا التطلع ، فقرر مقاطعتهن .. حتى شاع بين الناس أن النبى ﷺ طلق نساءه جملة وفزع أبو بكر وعمر لهذه الإشاعة .. فابنة كليهما عند رسول الله ، فذهبا يستئذنان ليدخلا عليه ، وليتعرفا جلية الخبر . فلما دخلا

---

(١) صحيح بلفظ (العفاف) بدل العافية كذلك أخرجه مسلم (٨/ ٨١) عن ابن مسعود .

وجدا النبى ﷺ صامتا ، وحوله نساؤه واجمات ..

وسأله عمر : أطلقت نساءك يا رسول الله ؟

قال : لا

إلا أن جو الحزن كان يخيم على المكان . فقال عمر : لأكلمن رسول الله لعله يضحك ، فقال : يا رسول الله رأيت إبنة زيد - يعنى زوجته - سألتنى النفقة آنفا فوجأت عنقها ..

فضحك النبى ﷺ حتى بدا ناجزه .. وقال : هن حولى يسألننى النفقة .

فقام أبو بكر إلى عائشة يؤدبها .. وقام عمر إلى حفصة كلاهما يقول : تسألن النبى ما ليس عنده ؟

فنهى النبى ﷺ الأبوين أن يصنعا ببنتيهما شيئاً .. وقالت نساؤه - نادمات - والله لا نسأل رسول الله ﷺ بعد هذا المجلس ما ليس عنده ..

وهجرهن النبى شهراً لا يتصل بهن .. حتى يشعرن بما فعلن .. ونزلت آيات التخيير من عند الله تطلب إليهن جميعاً ، إما التجرد للدار الآخرة مع رسول الله ﷺ وهذه طريقته فى حياته ، وإما اللحاق بأهلهن حيث الملابس الحسنة والمآكل الدسمة .

وكان هذا الدرس كافياً ليمحو آخر ما فى أنفسهن من رغبة لم تتجاوز المباحات المشتهاة فإخترن - جميعا - البقاء مع النبى ﷺ على قاعدته العتيدة « ما قل وكفى خير مما كثر وألهى » .. وعشن معه للجهاد والتهجد، والبذل والمواساة ، والتواضع والخدمة[1] .

« يا أيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلاً . وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة فإن الله أعد للمحسنات منكن أجراً عظيما »[2] .

---

(١) رواه مسلم (١٨٧/٧) من حديث جابر . وهو فى البخارى (٤٢٢/٨) عن عائشة مختصرا .

(٢) سورة الأحزاب آية ٢٨ ، ٢٩ .

فآثرن الله ورسوله والدار الآخرة .. وعشن مع النبى ﷺ معينات على الحق راغبات فى الثواب .

★ ★ ★

وبهذا التفانى فى خدمة الرسالة ، والإهمال لمطالب النفس رفع الله درجاتهن ، فلم يصبحن زوجات رجل يطلبن فى ظله المتاع ، بل صرن شريكات فى حياة فاضلة غالية ، واستحققن قول الله عز وجل :

«النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم وأزواجه أمهاتهم»[1].

وتوكيداً لهذه الأمومة الروحية ، شرع الحجاب الدقيق على أمهات المؤمنين ، فلا يجوز لأحد من الأجانب أن يلتقى بهن ولو مع محرم ، وسؤالهن فى شئون الدين والدنيا إنما يكون من وراء حجاب ، كما لا يجوز لأحد - بعد وفاة الرسول ﷺ - أن يتزوج بإحداهن .

وبهذا التشريع الصارم ، قُطع دابر الفضوليين ، والثقلاء الذين يُكثرون التردد على بيوت الزعماء ، كما قطع دابر المتربصين منهم ، والذين ينشدون الرفعة من وراء الاقتران بأولئك النساء ، ولا نستغرب مثل هذا التشريع . فقد تأدت الجرأة ببعض الناس أن يقول أحدهم : لو قبض النبى تزوجت عائشة .. ومن حق النبى ﷺ أن يُصان شعوره ، وأن يُصدُّ عنه وعن أهله أولئك الأعراب السفهاء .

★ ★ ★

---

(١) سورة الأحزاب من الآية ٦ .

﴿ أوصاف النبى ﷺ ﴾

شمائلة :

لا يستطيع أى قلم مهما أوتى الدقة والفصاحة أن يبين إلا بعض الحق عن رسول الله ﷺ إذا ما درس حياته قبل الرسالة ، فقد جمع من الأخلاق أفضلها على سبيل القطع ، وعرف عنه ما جعله موضع إحترام العرب وإجلال القبائل والعشائر .

ولا جدال بين المؤرخين فى ذلك كما يقول العلامة « البحرانى » فى كتابه الذى أصدره فى مطلع القرن الثالث عشر الهجرى باللغة الهندية فى « بمباى » ما ترجمته :

« إتفق أهل السير والتواريخ على أن النبى ﷺ نشأ فى قومه عاقلاً لبيباً وكاملاً أديباً ملازماً لحُسن السمت والوقار مصيباً ، وأنه لم يعثر أحد من أهله منه على طفولية ولا صبوة حتى بلغ مبلغ الرجال ، وبعد بلوغه ذلك الحد شاع بين قريش صدقه وأمانته ، واشتهر فما بينهم عدله واستقامته ، وتحققت عندهم عفته وصيانته ، وانتشر فى مكة وما حولها طهارته من النقص ونزاهته ، فعظم عند قومه قدره ، وظهر بينهم مجده وفخره حتى طفقوا يسمونه « الصادق الأمين » لما ثبت لديهم له من الصدق المستبين ، وتوطد له فيهم من الحلم الرزين ، فكانت قريش ومن يرد مكة من العرب يودعونه أموالهم وذخائرهم ثقة به واعتماداً على ما يرون من حسن سيرته وصحة مذهبه فى الوفاء ، وسلامة طريقته ، ومازالت هذه صفته عندهم إلى أن بعثه الله إليهم ، فكانوا يجادلونه فى الدين ، ويأتمنونه على المال الثمين » هذا ، ولم يكن أمينا على مال الناس ونفائسهم فحسب . لقد كان أميناً على نفسه فلم يسلمها إلى مهاوى الشرك أو الشهوة أو الرجس .

وكان أمينا على الناس فلم ينتهك عرضاً ، ولم يوقع بعض الناس فى

بعض بالنميمة ، ولم يغتب ، وكان أميناً على الحديث إذا تحدث : فلا كذب ولا مغالاة .

وكان أمينا على الأسرار : فلم يفشها ولم يذعها .. إنه الأمين ..

وكان طويل السكوت .. دائم الفكرة .. ليست له راحة ، ولا يتكلم فى غير حاجة .. يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه - لا بأطراف فمه - ويتكلم بجوامع الكلم ، فصلاً ، لا فضول فيه ولا تقصير .. دمثاً ليس بالجافى ولا المهين .. يعظم النعمة وإن دقت .. لا يذم شيئاً ، ولم يذم ذَوَاقاً - مَا يُطْعَمْ - ولا يمدحه ولا يُقام لغضبه ، إذا تُعُرض للحق بشيء ، حتى ينتصر له . لا يغضب لنفسه ، ولا ينتصر لها - سماحة - إذا أشار أشار بكفه كلها . . وإذا تعجب قلبها .. وإذا غضب أعرض وأشاح .. وإذا فرح غض طرفه .. جُلّ ضحكه التبسم .. ويفتر عن مثل حب الغمام .

وكان ﷺ لا يتكلم إلا فيما يعنيه ، يؤلف أصحابه ولا يفرقهم ، يكرم كريم كل قوم .. وكان يحذر الناس ، ويحترس منهم من غير أن يطوى عن أحد منهم بشره . يتفقد أصحابه ، ويسأل الناس عما فى الناس ، ويحسن الحسن ويصوبه .. ويُقبِّح القبيح ويوهنه ، معتدل الأمر غير مختلف ، لا يغفل مخافة أن يغفلوا أو يملوا . ولكل حال - عنده - عتاد - لا يقصر عن الحق ولا يجاوزه إلى غيره .. الذين يلونه من الناس خيارهم . وأفضلهم عنده أعمهم نصيحة . وأعظمهم عنده منزلة أحسنهم مؤاساة ومؤازرة . وكان ﷺ دائم البشر .. سهل الخلق .. لين الجانب ليس بفظ ولا غليظ ، ولاصخاب ولا فحاش ، ولا عياب ولا مداح ، يتغافل عما لا يشتهى ، ولا يقنط منه . قد ترك نفسه من ثلاث : الرياء ، والإكثار ، ومالا يعنيه .

وترك الناس من ثلاث : لا يذم أحداً ، ولا يعيره ، ولا يتكلم إلا فيما يرجو ثوابه . إذا تكلم أطرق جلساؤه كأنما على رءوسهم الطير . وإذا سكت تكلموا لا يتنازعون عنده الحديث . من تكلم عنده أنصتوا له حتى يفرغ .

هذه بعض من الصفات بالنسبة لشمائله ﷺ . .

اما عقيدته واخلاقه :

فقد شاء الله سبحانه وتعالى أن يحررها من الشرك ، ويطهرها من الدنس ، فلم يكتب على قلبه الزيغ ، ولم يصبه بفتنة ، فنشأ مخالفاً لقومه، لم يتمسح بصنم ، أو يتقرب بوثن كما يفعل الناس .. حتى غضب عليه الأقربون من أهله ، وخافوا عليه الشر يصيبه من ذلك ، فيقول لهم: «إني كلما دنوت من صنم منها تمثل لى رجل أبيض طويل يصيح بى : وراءك يا محمد لا تمسه !

ألم يكن الله سبحانه وتعالى يعده إعداداً خاصا بذلك ؟

وكان يعجب من قومه .. كيف يعتقدون فى حجر صوروه بأيديهم ، ثم يتقدمون إليه ويتمسحون به ؟ وهل لهذه الأصنام التى أقاموها أيد تعطى بها ؟ أو أرجل تسعى عليها ؟ أو عيون تبصر بها ؟ أليست إذا مالت سقطت؟ وإذا وقعت تحطمت ؟ .. فهى لذلك لا تملك نفعاً ولا ضراً .. فكيف يظنون أنها تملك لهم خيراً أو شراً ؟ يا لضلال قومه ! فقد عميت قلوبهم وحجبت أبصارهم ، وتعطل إحساسهم .. وكان ﷺ فى تأملاته فى الكون الفسيح حوله ينظر إلى السماء الصافية وما فيها من كواكب ونجوم ، وإلى الصحراء الشاسعة وما فيها من أودية وجبال .. وكيف رُفِعَت السماء ؟ وكيف بسطت الأرض .. وهذه الشمس تشرق كل يوم فى موعد لا تتعداه .. وهذا القمر فى مدار لا يتجاوزه ، والطير سابح فى الفضاء ، والإبل تضرب فى الصحراء ، والمطر ينهمر من السماء ، فينبت به الكلأ والنبات .. أمصادفة وجد كل هذا ؟ وهل يسير ذلك كيفما كان ؟ أم وفقاً لنظام وتدبير وإحكام[1] ؟؟ ويلتقى محمد ﷺ مرة أخرى بإبراهيم أبو الأنبياء ﷺ فى صورة واحدة ذات إتجاه واحد .. النظر فى هذا الكون والتماس الحقيقة .

---

(١)أنظر فترة تأملاته ﷺ فى غار حراء

لقد كانت حياته ﷺ شرحاً مستفيضاً ، وتوضيحاً كاملاً ، وتعبيراً تاماً لما ذكره ابن خلدون ، وما يتفق عليه العقلاء ، ويجمع عليه أصحاب البصائر المستنيرة من أن ذلك من علامات الأنبياء : « أنه يوجد لهم قبل الوحي ، خلق الخير والذكاء ، ومجانبة المذمومات والرجس أجمع .. وهذا هو معنى العصمة ، وكأنه مفطور على التنزه عن المذمومات والمنافرة لها وكأنها منافية لجبلته » .

ويضرب ابن خلدون بعض الأمثلة من حياة الرسول ﷺ مبينة لهذه القاعدة فيقول : « وفي الصحيح أنه حمل الحجارة وهو غلام مع عمه العباس لبناء الكعبة ، فجعلها في إزاره فانكشف ، فسقط مغشيا عليه حتى إستتر بإزاره . ودعي إلى مجتمع وليمة فيها عرس ولعب .. فأصابه غشي النوم إلى أن طلعت الشمس ولم يحضر شيئاً من شأنهم » .

استخرج جبريل عليه السلام حظ الشيطان من قلب رسول الله ﷺ في سن مبكرة فكان صلوات الله وسلامه عليه كما تقول آمنة : « والله ما للشيطان عليه من سبيل » .

وحقيقةً أنه لم يكن للشيطان عليه من سبيل فقد عصمه الله عصمة تامة عن الرجس طول حياته كلها .

لقد كانت مكة - حينما كان رسول الله ﷺ شاباً فتياً قوياً - تعج بمختلف الملاذ الشهوانية الدنسة ، لقد كانت حانات الخمر منتشرة فيها ، وكذلك البيوت المريبة ، وفي هذه وتلك المغنيات والراقصات والماجنات ، وكان الشباب يتهالك على كل ذلك . وفي ليلة زين له شاب من إخوانه الرعاة في أن يذهب معه ليسمع الأنغام حتى ولو من باب العلم بالشيء ! فذهب ليرى ، وفي طريقه سمع نغماً موسيقياً ينبعث من إحدى الدور ففضل أن يجلس ليسمعه فجلس ليستمع إليه فغلبه النوم فنام ، ولم يستيقظ حتى طلع النهار وأيقظته حرارة الشمس . فعاد إلى زميله فسأله : ما فعلت يا

محمد ؟ قال ﷺ : جلست أستمع إلى نغم موسيقى فغلبني النوم . فلما كانت الليلة التالية حثه زميله ألا يفوته ما فاته بالأمس ، وبينما محمد ﷺ في طريقه إمتلأت أذناه بموسيقى جميلة كأنما هي موسيقى السماء ، فجلس أيضا يستمع إليها فغلبه النوم فنام .

وهكذا عصم الله سبحانه وتعالى محمداً من الزلة التي أراد الشباب أن يدفعه إليها ، وحفظه من المغريات التي تغري سهرات مكة شبابها بها . ولم يفكر محمد ﷺ بعد ذلك في غير ما كان يفكر ، ولم تغوه غواية بعدها تخرج به عن الأمانة والعفة .

اما عن هيئته :

لقد كان رسول الله ﷺ فخما مفخماً يتلألأ وجهه كوجه القمر ليلة البدر. إذا سَرَّه شيء يمتلىء بشراً . ولرسول الله ﷺ نور يعلوه .. هالة من الضياء تشع من فوقه . واسع الفم ، سهل الخدين (أي لا يوجد في أحد خديه علو أو بثور أو ورم) مفلج الأسنان (أي أسنانه مستوية بينها مسافات قليلة دقيقة .. عريض الصدر .. عنقه في صفاء الفضه وفي ظهره خاتم النبوة الذي تحدثت عنه الكتب السماوية السابقة للقرآن . وكان رسول الله ﷺ أحسن الناس هيئة ، وإذا جلس يكون كتفه أعلى من جميع الجالسين . يمشي هونا . ذريع المشية (واسع الخطو) وإذا التفت التفت جميعاً ، خافض الطرف ، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء . جُلّ نظره الملاحظة ويبدأ من لقيه بالسلام .

قال علي بن أبي طالب : أن رسول الله ﷺ ليس بالقصير ولا بالطويل البائن أي أن الرسول ﷺ لم يكن يميل إلى القصر ، ولا زائد الطول بشكل لافت للنظر . ويضيف عليّ : رسول الله ﷺ ليس بالجعد ولا بالسبط الشعر أي أن شعره كان أسود اللون وسطا بين النعومة والتجعد .. ويقول عليّ رضي

الله عنه : رسـول الله ﷺ كـان ضـخم الرأس ، مـشـرب لونه حـمـرة ، أهدب الأشـفـار سلط الجبين أى أن وجـهـه فـي لون الزهر أبيض يميل إلى الإحمـرار ، رمـوش عـينيـه طويلة وجبـهـتـه واسـعة نـاعـمـة . ويقـول على رضى الله عنه : عظام رسـول الله ﷺ كانت ضخمة عند ملتقى العظام فى الجسم كالركبتين والمرفقين والمنكبين ، وهذا دليل على قوة البدن . وقدمـاه ﷺ وكفاه كانت ضخمة وأصابعه قوية . ويكمل على رضى الله عنه : أن الرسول عليه الصلاة والسلام كان عندما يسير يتكفأ كأنما ينزل من صبب لم أر قبله مثله ولم أر بعده مثله أى أن الرسول ﷺ عندما يسير كانت الأرض تنحدر أمامه خشوعاً فيميل للأمام فى سيره .

وكان عليـه أفضل الصلاة إذا صافحه أحد إمتلأت يد المصافح برائحة ذكيـة كأنها العطر فقد كانت رائحة رسول الله ﷺ أطيب من العطر ، وكان عرقه أزكى من العطر وكانت رائحته ﷺ تسبقه إلى أى مكان يذهب إليه . لذلك يقـول الصحابى الجليل (أنس بن مالك) رضى الله عنه : كنا نعرف رسول الله ﷺ إذا أقبل بطيب رائحته ... .

اما عن رجولته ﷺ :

قد كانت رجولة محمد ﷺ في القمة ، بيد أن قـواه الروحية وصـفاءه النفسى جعلا هذه الرجولة تزدان بمحامد الأدب والاستقامة والقنوع ، ثم إنه كان معافى من العقد الكريهة التى تزين للشباب تعشق العظمة عن طريق التظاهر والرياء . أو تطلب الرياسة عن طريق المداهنة واشتـراء العواطف ، أو حكيت عنه مغامرة لنيل جاه أو إصطيـاد ثروة .. بل على العكس بدأت سيرته تومض فى أنحاء مكة بما إمتاز به عن أقرانه - إن صحت الإضافة - من خلال عذبة ، وشمائل كريمة ، وفكر راجح ، ومنطق صادق ، ونهج أمين.

وليس شـرف النفس أن تنتـفى شـهـوة الإنسـان إلى الحـيـاة ، أو توجـد

الشهوة وتنتفى وسائل بلوغها ، بل الشرف أن تكون قوة العفاف أربى من نوازع الهوى ، فإذا ظلت النفس فى حالة سكون فلتعادل القوى السالبة والموجبة فيها .

وقد تجد رجلا تافها هزيلا لا يخفى له طمع، ولا تنحبس له شهوة ، لو قِستَ غرائزه المنفلته بغرائز غيره المضبوطة ما بلغت عشر قوتها ، لكن هذه وجدت زماماً من الرشد فكظم عليها ، وتلك لم تجد عقلا يردع ولا خلقا يعصم فثارت وتمردت .

هذه خطوط قصار لما يراه الناس من مظاهر الكمال فى سيرة النبى «المحمد» . أما حقيقة ما بنى عليه هذا الرسول الكريم من أمجاد وشمائل فأمر لا يدرك كنهه ، ومعرفة العظماء لا يطيقها كل أحد ، فكيف بعظيم خلائقه القرآن . . ؟

إن الأمة التى أخرجت للناس فى المدينة بلغت الأوج . . كانت تعمل وتجاهد لله وحده وتسعى إلى غايتها المرموقة فى جذل وثقة . اِلْتَفَتْ حول نبيها التفاف التلامذة بالمعلم ، والجند بالقائد ، والأبناء بالوالد الحنون .

وتساندت فيما بينها بالأخوة المتبادلة ، المتناصرة ، فهم نفس واحدة فى أجسام متعددة ولبنات مشدودة فى بناء منسق صلب . وأدارت علاقاتها بالآخرين على العدل والبر .

فليس يُظلم فى جوارهم برئ أو يحرم من ألطافهم عانٍ .

★ ★ ★

﴿ بيان أخلاقه وآدابه فى الطعام ﴾

كان ﷺ يأكل ما يجد وكان أحب الطعام إليه ما كان على ضفف (والضفف ما كثرت عليه الأيدى) وكان إذا وضعت المائدة قال [1] « بسم الله اللهم اجعلها نعمه مشكورة تصل بها نعمة الجنة »[2] وكان كثيرا إذا جلس يأكل ، يجمع بين ركبتيه وبين قدميه كما يجلس المصلى إلا أن الركبه تكون فوق الركبة ، والقدم فوق القدم ، ويقول : « إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد وأجلس كما يجلس العبد »[3] وكان لا يأكل الحار ويقول : «إنه غير ذى بركة وإن الله لم يطعمنا نارا فأبرده »[4] .(والحار هو الطعام الشديد السخونه) وكان يأكل مما يليه[5] ويأكل بأصابعه الثلاث وربما استعان بالرابعه ولم يأكل بإصبعين ويقول : « إن ذلك أَكْلَةُ الشيطان »[6] وجاء عثمان بن عفان رضى الله عنه بفالوذج فأكل منه وقال : ما هذا يا أبا عبد الله ؟ قال : بأبى أنت وأمى ، نجعل السمن والعسل فى البرمة ونضعها على النار ، ثم نغليه ، ثم نأخذ مخ الحنطه إذا طحنت فنقلبه على

---

(١)أبو يعلى والطبرانى فى الأوسط وابن عدى فى الكامل من حديث جابر بسند حسن .

(٢) أما التسميه فرواهان من روايه من خدم النبى ثمان سنين أنه سمع رسول الله يقول بسم الله الحديث ... واسناده صحيح وأما بقية الحديث فلم أجده .

(٣)عبد الرزاق فى المصنف من روايه أيوب معضلا ، وروى ابن الضحاك فى الشمائل من حديث أنس بسند ضعيف ، وروى أبو الشيخ فى اخلاق النبى بسند حسن من حديث أبىّ بن كعب وللبزار من حديث ابن عمر .

(٤) البيهقى من حديث ابى هريرة باسناد صحيح .

(٥) أبو الشيخ بن حبان من حديث عائشه

(٦) م من حديث كعب بن مالك والحديث ربما استعان بالرابعه من حديث عامر بن ربيعه وحديث لم يأكل بإصبعين الدار قطنى فى الأفراد .

السمن والعسل فى البرمة ثم نسوطه حتى ينضج فيأتى كما ترى ، فقال ﷺ: إن هذا طعام طيب » (رواه البيهقى فى الشعب) من حديث ليث بن أبى سليم) . وكان يأكل خبز الشعير غير منخول (البخارى من حديث سهل بن سعد) وكان يأكل القثاء بالرطب وبالملح (متفق عليه من حديث عبد الله بن جعفر) وبالملح (أبو الشيخ من حديث عائشة وفيه يحيى بن هشام كذبه ابن معين وغيره وروراه ابن عدى وفيه عباد بن كثير متروك) وكان أحب الفواكه الرطبة إليه البطيخ والعنب (أبو نعيم فى الطب النبوى من رواية أمية بن زيد العبسى وروى أبو الشيخ وابن عدى فى الكامل والطبرانى فى الأوسط والبيهقى فى الشعب من حديث أنس) وكان يأكل البطيخ بالخبز وبالسكر (رواه أبو عمر النوقانى فى كتاب البطيخ فى روايه محمد بن على بن الحسين ، وفيه موسى بن إبراهيم المروزى كذبه يحيى بن معين) وكان يجمع اللبن بالتمر ويسميهما الأطيبين (أحمد من رواية اسماعيل بن ابى خالد عن أبيه ورجاله ثقات) وكان أحب الطعام إليه اللحم وهو يقول : «هو يزيد فى السمع وهو سيد الطعام فى الدنيا والآخرة ولو سألت ربى أن يُطعمنيه كل يوم لفعل » (أبو الشيخ من رواية ابن سمعان قال سمعت من علمائنا يقولون هذا الحديث ، والحديث وت فى الشمائل من حديث جابر واسناده صحيح وهـ من حديث أبى الدرداء باسناد ضعيف) .

وكان يحب القرع ويقول « إنها شجرة أخى يونس عليه السلام ، قالت عائشه رضى الله عنها : وكان يقول : يا عائشه إذا طبختم قدْراً فأكثروا فيها من الدُّبَّاء فإنه يَشدُّ قلب الحزين » (ن هـ من حديث أنس ، وروى ابن مردويه فى تفسيره من حديث أبى هريرة فى قصة يونس) وكان إذا أكل

اللحم لم يطأطئ رأسه إليه ويرفعه إلى فيه رفعاً ثم ينتهشه انتهاشاً[١] وكان يأكل الخبز والسمن[٢] وكان يحب من الشاة الذراع والكتف[٣] ، ومن القدر الدُبأء ، ومن الصباغ الخل ، ومن التمر العجوة[٤] ودعا فى العجوة بالبركة وقال هى من الجنة وشفاء من السم والسحر وكان يحب من البقول الهندباء[٥] ، والبذاروج والبقلة الحمقاء التى يقال لها (الرجلة) (وعن الرجلة فقد روى أبو نعيم من رواية ثرير قال : مَرَّ رسول الله ﷺ بالرجلة وفى رجله قرحة فداواها بها فبرئت فقال رسول الله ﷺ : بارك الله فيك أنبتى حيث شئت فأنت شفاء من سبعين داء أدناه الصداع وهذا مرسل ضعيف) .

وكان يكره الكليتين لمكانهما من البول (من حديث ابى بكر بن محمد بن عبد الله بن الشخير من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف فيه أبو سعيد الحسن بن على العدوى)

---

(١) (من حديث صفوان ابن أميه وت من حديثه ، وللشيخين من حديث ابى هريرة.

(٢) متفق عليه من حديث أنس فى قصة طويلة وفى رواية هـ : فصنعت فيها شيئا من سمن - عن أم سليم أنها أتت بخبز ففتته وعصرت عليه عكة فآدمته ولا يصح وده من حديث ابن عمر .

(٣)وروى الشيخان من حديث ابى هريرة قال : وضعت بين يدى الرسول قصعة من ثريد ولحم فتناول الذراع وكان أحب الشاة إليه وروى أبو الشيخ من حديث ابن عباس .

(٤)البزار والطبرانى فى الكبير من حديث عبد الله بن الأسود وفى الصحيحين من حديث سعد بن ابى وقاص من تَصَبَّح سبع تمرات من عجوة لم يضر ذلك اليوم سم ولا سحر .

(٥) أبو نعيم فى الطب النبوى من حديث ابن عباس عليكم بالهندباء فإنه ما يوم إلا ويقطر عليه قطره من قطر الجنة وله من حديث الحسن بن على وانس بن مالك نحوه .

وكان لا يأكل من الشاة سبعا : الذكر . والأثنيين ، والمثانة ، والمرارة ، والغدد ، والحيا والدم ويكره ذلك (ابن عدى ومن طريقه البيهقى من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف ورواه البيهقى من رواية مجاهد مرسلا ، وكان لا يأكل الثوم ولا البصل ولا الكرات (مالك فى الموطأ عن الزهرى عن سليمان بن يسار مرسلا ووصله الدارقطنى فى غرائب مالك عن الزهرى عن أنس ، وفى الصحيحين من حديث جابر .

وكان عليه أفضل الصلاة والسلام فى بيته أشد حياء من العاتق ، لا يسألهم طعاما ولا يتشهاه عليهم ، إن أطعموه أكل ، وما أعطوه قبل ، وما سقوه شرب وكان ربما قام فأخذ ما يأكل بنفسه أو يشرب (الشيخان من حديث أبى سعيد)

★★★

﴿ بشرية الرسول ﷺ ﴾

نود أن نشير إلى بشرية الرسول ﷺ ......

جرت حياة الرسول ﷺ - الخاصة والعامة - على قوانين الكون المعتادة فلم تخرج - في جملتها ... عن هذه السنن الدائمة هو - من حيث أنه بشر - يجوع ويشبع ، ويصح ويمرض ،،ويتعب ويستريح ، ويحزن ويفرح ، ولكن الناس أنفسهم في هذه النواحي صنوف لا تجمعها قاعدة عامة ... منهم المتهالك على ضروراته ، فلو نقص حظه منها قليلاً طاش لبه ، وخارت قواه، ومنهم الجلد الصبور يرضيه النذر اليسير ويمضي لغايته رافع الرأس .. قوى العزيمة .

إن الآلات التي تُدار بالزيوت تتفاوت ، منها الردئ الذي يستهلك أثقال الوقود ولا يُجدي فتيلا .. ومنها الجيد الذي يروع إنتاجه على قلة إمداده ، والبشر كذلك مع أبدانهم وضروراتها ومرفهاتها .

والمطالع لسيرة محمد بن عبد الله ﷺ ، يرى من طبيعة حياته الخاصة صلابة المعدن الذي صيغ منه بدنه صياغة أعجزت العمالقة ، وأمكنت صاحبه من أن يحمل أعباء الحياة ومشاق الجهاد ، ولأواء العيش ، وهو منتصب مقدام .

نعم .. هناك من العباقرة[1] عُميٌ وصُمٌّ ومُمعودون ومرضى ، غير أن العبقرية شأن دون النبوة . ومن تمام نعمة الله على إمرئ ما أن يرزق العافية من هذه الأدواء كلها لتتم بهذه العافية السابغة العناصر التي تصحح نظرته إلى الحياة ومسلكه فيها ......

وقد كان محمد ﷺ - من هذه الناحية - بشرا كاملا ، وكانت حياته متسقه مع سنن الله الكونية في البطولات الممتازة .

----

(١) راجع كتاب (عقيدة المسلم) للشيخ محمد الغزالي

أمـا حـيـاته العـامـة : رسـولاً يبلغ عن الله ويربى المؤمنين ويقـاوم الكافرين، ويدأب على نشر دعوته حتى تؤتى ثمارها فى الآفاق - فلاشك أن القرآن الكريم هو مهادها وبناؤها .

وما كان محمد ﷺ رجل خيال يتيه فى مذاهبه ، ثم يبنى حياته ودعوته على الخرافه .. بل كان رجل حقائق واقعى ، يبصر بعيدها كما يبصر قريبها، فإذا أراد شيئا هيأ له أسبابه ، وبذل فى تهيئتها - على ضوء الواقع المر - أقـصى مـا فى طاقـتـه من حـذر وجـهـد، ومـا فكر قط ، ولا فكر أحـد من صحابته أن السمـاء تسعى له حيث يقعد .. أو تنشط له حيث يكسل ، أو تحـتـاط له حـيث يفـرط .. ولم تكن خـوارق العـادات ، ونواقض الأسـبـاب والمسببات أساساً ولا طلاءً فى بناء رجل عظيم أو أمة عظيمة .

إن مـحـمـداً وصـحـبـه تعلمـوا وعلمـوا ، وخاصـمـوا وسـالموا ،وانتـصـروا وانهـزموا ومدُّوا شعـاع دعـوتهم إلى الآفـاق ، وهم على كل شبـر من الأرض يكافـحـون .. لم ينخـرم لهم قـانون من قـوانين الأرض ، ولم تلن لهم سنة من سنن الحـيـاة، بل إنهم تعبـوا أكثـر مما تعب أعداؤهم ، وحملوا المغارم الباهظة فى سبيل ربهم ، فكانوا فى ميدان تنازع البقاء أولى بالرسوخ والتمكين .

وقد لقنهم الله تعالى هذه الدروس الحازمة حتى لا يتوقعوا محاباة من القدر فى أي صدام .. وإن كانوا أحصف رأياً من أن يتوقعوا هذا .

قـال الله تعـالى لرسـوله ﷺ : « **وإذا كنت فيهم فأقمت لهم الصلاة فلتقم طائفة منهم معك وليأخذوا أسلحتهم فإذا سجدوا فليكونوا من ورائكم ولتأت طائفة أخرى لم يصلوا فليصلوا معك وليأخذوا حذرهم وأسلحتهم ود الذين كفروا لو تغفلون عن أسلحتكم وأمتعتكم فيميلون عليكم ميلة واحدة ولا جناح عليكم إن كان بكم أذى من مطر أو كنتم مرضى أن تضعوا أسلحتكم وخذوا حذركم** » [(١)].

---

(١) النسـاء من الآيه : ١٠٢

فانظر كيف يُكَلَّفُون - وهم في الصلاة وبين يدى الله - بأشد الحذر والانتباه ؟

إن الله لم يدع أملا يخامر أنفسهم بأن الملائكة سوف تنزل لعونهم إن لم يخدموا أنفسهم فلن يخدمهم أحد ذلك هو خطاب الله لمحمد ﷺ وصحبه .

وعندما ذهل المسلمون عن هذا الدرس في غزوة « أحد » لُطموا لطمة موجعه جندلت من أبطالهم سبعين ، وأمضهم خزى الهزيمة ، فوقف زعيم الكفر يومئذ (أبو سفيان) يقول : أعل هبل ....!

وأبلى النبى بلاء شديداً لينقذ الموقف ، وقاتل ، وقَتَل ، وأُصيب في نفسه ...!

عن أبي هريرة قال : قال رسول الله ﷺ يوم « أُحد » « اشتد غضب الله على قوم فعلوا بنبيهم هكذا - ويشير إلي رباعيته - إشتد غضب الله على رجل يقتله رسول الله فى سبيل الله »[(١)] .

وعن أنس أن رسول الله ﷺ كسرت رباعيته يوم أحد وشج رأسه فجعل يسلت الدم عن وجهه ويقول : « كيف يفلح قوم شجوا نبيهم وكسروا رباعيته وهو يدعوهم إلى الله ؟[(٢)] فأنزل الله سبحانه وتعالى قوله « **ليس لك من الأمر شئ أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون** »[(٣)] .

أرأيت التفريط فى أسباب النصر جلب شيئا غير الهزيمة ؟ أوَ لو كان الذين انهزموا هم ممثلى التوحيد الحق ؟ أو لو كان الذين انتصروا هم سدنه الوثنية المحضة ؟

---

(١) حديث صحيح اخرجه البخارى (٢٩٨/٧) ومسلم (١٧٩/٥) فى صحيحيهما .
(٢) حديث صحيح اخرجه الشيخان كما تقدم ولقد وفينا شرح غزوة أحد فى حينها
(٣) آل عمران : آيه : ١٢٨ .

وكان الرسول ﷺ إذا أراد غزوة ورى بغيرها ويقول : الحرب خدعة[1] .

ومع قيامه بالأسباب على ما أوجب الله ، واحترامه للقوانين الطبيعية التى تنظم حياة البشر . مع ذلك فقد استطاعت بعض قبائل العرب أن تخدعه ، وأن تستدرج طائفة من القراء من أفضل أصحابه ليقتلوهم عن آخرهم فى بئر معونه[2] فما دلت على مصارعهم إلا الطيور تحلق فى الجو مرفرفة على أشلاء الشهداء !!

إن هؤلاء الرجال الذين ذهبوا ضحية الغدر من أحب خلق الله إلى الله .. ومع ذلك فما أذن لأحد منهم أن يطير بغير جناح !! أو يتحول عن هذا القدر المتاح كما يفكر متأخرة المسلمين اليوم !

ولئن كان الحذر والحيطة من سنن النبوة ، إن الإعداد واستنفاد الجهد فيه من آكد هذه السنن .. وبماذا تحسب محمدا ﷺ انتصر على الناس ؟ لقد أنضج رجاله بالإيمان كما ينضج الصيف بهليه أطايب ثماره فلما أرسلهم إلى أنحاء الدنيا طوفوا بها ، ولهم زئير كزئير العاصفة المكتسحة المهتاجة . بل إن الإسلام - من يوم بدئه - كان معركة يقودها الوحى ، ولذلك شبَّه الله بوادره الهامية بعاصفة ذات صواعق ورعود : « **أو كصيِّب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم فى آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين** »[3] .

أترى للتراخي والتواكل ثغرة فى هذه الصفوف المتزاحمة ؟

يا ويل مسلمى اليوم من إنتظارهم لخوارق العادات فى دنيا كشرت عن أنيابها لإستئصال شأفتهم !!

---

(١) حديث صحيح اخرجه أبو داود (٤١١/١) بسند صحيح من حديث كعب بن مالك وهو فى الصحيحين بنحوه .

(٢) سبق شرح هذا آنفا .

(٣) البقرة : آية : ١٩ .

ويقول الشيخ الجليل محمد متولي الشعراوي عن بشرية الرسول ﷺ :

إختار الحق سبحانه وتعالى رسول الله ﷺ بشراً ، وكان هذا الاختيار هو محل هجوم المنافقين والكفار إلى يوم القيامة ، فكل رسول جاء قبل رسول الله ﷺ كان من البشر ، وكل رسول هاجمه قومه بأنه بشر .. إقرأ قول الحق : **« فقال الملأ الذين كفروا من قوم ما نراك إلا بشراً مثلنا وما نراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا بادى الرأى »** (جزء من الآية ٢٧ من سورة هود) .

لقد نزلت هذه الآية الكريمة فى قوم نوح عليه السلام أول نبى أرسله الله بعد آدم .. وقول الحق سبحانه وتعالى : **« ألم يأتكم نبأ الذين من قبلكم قوم نوح وعاد وثمود والذين من بعدهم لا يعلمهم إلا الله »**[1] . ماذا قال أقوام نوح وعاد وثمود ومن بعدهم لرسلهم ؟ الحق سبحانه وتعالى يقول: **«قالوا إن أنتم إلا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا فأتونا بسلطان مبين »**[2] .

وعندما أرسل الله سبحانه وتعالى شعيباً إلى قومه حتى يوفوا الكيل والميزان قالوا : **«وما أنت إلا بشر مثلنا وإن نظنك لمن الكاذبين »** (الآية ١٨٦ من سورة الشعراء)

وقوم ثمود الذين قالوا لنبيهم صالح : **« فقالوا أبشراً منا واحداً نتبعه إنا إذن لفى ضلال وسعر »** (سورة القمر الآية ٢٤) .

وعن موسى عليه السلام عندما كذب به قوم فرعون ماذا قالوا : **«فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون »** (سورة المؤمنون الآية ٤٧) .

(١ ، ٢) سورة ابراهيم جزء من الآية ٩ ومن الآية ١٠ .

ثم جاء الحق سبحانه وتعالى بالقضية كلها مجملة فى قوله جل جلاله :

« ألم يأتكم نبأ الذين كفروا من قبل فذاقوا وبال أمرهم ولهم عذاب أليم ، ذلك بأنهم كانت تأتيهم رسلهم بالبينات فقالوا أبشر يهدوننا فكفروا وتولوا واستغنى الله والله غنى حميد » (الآيتان ٥ ، ٦ من سورة التغابن).

وعن رسول الله ﷺ ، كانت بشريته أساساً اتخذه الكفار للتشكيك فى رسالته .. إقرأ قول الحق سبحانه وتعالى : **« لاهية قلوبهم وأسروا النجوى الذين ظلموا هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون »** (الآية ٣ من سورة الأنبياء) .

إذن فقضية بشرية الرسول ﷺ أثارها المنافقون والكفار منذ بدء الرسالات السماوية ، وهى لا تزال مثارة حتى الآن .

بيد أن رسول الله ﷺ نبى ورسول فهو متصل بالله دائما .. إنه فى السماء على الدوام ، وهو متصل بالبشر ، يؤدى رسالة السماء كاملة غير منقوصة . إنه كان على حد تعبير القرآن ـ بشراً رسولا) فهو ببشريته مع الناس وهو بسرِّه مع الله ، إنه مع الناس بإرادة الله وتوجيهه وأمره ، إنه مع الناس بكلمة الله ورسالته ، إنه مع الناس رسول من قبل الله .

وبهذه المعانى كلها يمكننا أن نقول : أنه دائما مع الله ، ويمكننا أن نقول: إنه – منذ اللحظة الأولى للبعثة – لم ينزل إلى الأرض قط ، وإنما كان دائما مع الله سبحانه وتعالى ، فهو صلوات الله وسلامه عليه يبيت عند ربه يقول ﷺ : « لست كهيئتكم : أبيت عند ربى ... » .

« قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى » (سورة الكهف ١١٠) .

إنه صلى الله عليه وسلم « بشر » ولكنه صلوات الله وسلامه بشر يوحى إليه ، وما يتأتى قط أن يوحى الله إلى بشر إلا إذا أصبح وكأنه قطعة من النور : صفاء نفس ، وطهارة قلب ، وتزكية روح .

فمنتهى القول فيه أنه بشر   وأنه خير خلق الله كلهم

وبعض الناس حينما يقرأ القرآن الكريم فتمر عليه الآية الكريمة « **قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى** »

يقف عند كلمة « بشر » فيحاول التركيز عليها وتوجيه الإنتباه كله إليها، وتحويل الأنظار كلها نحوها ، فيتحدث عن خصائص البشرية العادية ويبرزها ، ويندفع فى هذا الاتجاه المنحرف إندفاعا لا يتناسب قط مع قوله تعالى : « يوحى إلى » بل إنه فى إندفاعته الهوجاء ينسى « يوحى إلى » ويهملها إهمالاً .

ويقول الدكتور عبد الحليم محمود :

إنه ليس بنادر فى العصر الحاضر أن يجرؤ بعض الناس فيتحدث عن الرسول ﷺ وعن خطئه - معاذ الله - فى الرأى وعن إصابته فيه .. ويسير هذا البعض فى حديثه أو فى كتابته مستنتجا ومستنبطاً وحاكماً ، وينسى فى كل ذلك : « **وما ينطق عن الهوى** » (سورة النجم ٣) .

وينسى فى كل ذلك : « يوحى إلى » وينسى « لست كهيئتكم » وينسى « **لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضا** » .. وينسى أن بعض المسائل يمكن أن تكون لها حلول مختلفة كلها صحيحة : بعضها رفيق رحيم ، وبعضها عادل حاسم ، وأن الله سبحانه وتعالى قد بين للأمة الإسلامية أن رسول الله - وهو على صواب دائما - إنما يتخذ الحل الذى يتناسب مع ما حلاه الله به من الرأفة ، وما فطره عليه سبحانه من الرحمة، وهو الحل الذى يتناسب مع طابع الرسالة الإسلامية العام : «**وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين**»[1]. والله سبحانه وتعالى ببيانه ذلك فى هذه المواضع التى كان من الممكن أن يقف فيها الرسول ﷺ مع العدالة الحاسمة، فعدل عن ذلك إلى الرأفة الرحيمة .. إن الله سبحانه وتعالى ببيانه

---

(١) سورة الأنبياء ١٠٧ .

ذلك ، إنما يمدح الرسول ﷺ ، ويبين أن منزع الرحمة إنما هو الغالب عليه ولم يلغ الله سبحانه وتعالى إتجاها عاما سار فيه الرسول ﷺ ، ولم ينقض قضية كلية أقرها صلوات الله وسلامه عليه ، ولم ينف مبدأ أثبته رسوله ، فما كان صلوات الله وسلامه عليه يسير إلا على هدى من ربه .. وعلى بصيرة من أمره ، وقد شهد الله له بذلك حيث قال :

« إنك لتهدى إلى صراط مستقيم ، صراط الله .... »

(سورة الشورى ٥٢)

وما فعل الله فى كل ما تمسك به المنحرفون ، وتمحك فيه المتمحكون إلا بيان رحمة الرسول ﷺ ورأفته أى أن الله سبحانه وتعالى كان يبين فى هذه المواطن فضله ﷺ ، وأنه كما وصفه سبحانه على خلق عظيم ، والبون شاسع بين هذه الوجهة الربانية وبين التحدث عن خطأ وصواب ، وأوضاع بشرية يركز عليها ولا يلتفت لسواها . ولنضرب لذلك مثلا : إن الذين ديدنهم الجدل يتحدثون كثيراً عن قوله تعالى : **« عفا الله عنك لم أذنت لهم »** (٤٣ سورة التوبة) ويقذفون مباشرة بقولهم : إن العفو لا يكون إلا عن خطأ ..

ولهؤلاء نقول : إن الأساليب العربية فيها من أمثال هذا الكثير ، ومنها قولهم مثلا : غفر الله لك لم تشق على نفسك كل هذه المشقة ؟ عفا الله عنك ، لم تعنى نفسك فى سبيل هؤلاء ؟ وكأن القائل يقول : رضى الله عنك ، لم ترهق نفسك كل هذا الإرهاق ؟

إن الآية القرآنية من هذا الوادى . وضم هذه الآية الكريمة إلى أختها من سورة النور : **« فإذا إستأذنوك لبعض شأنهم فأذن لمن شئت منهم »**[1] .

---

(١) سورة النور ٦٢ .

تجد المعنى واضحاً جلياً ، وهو أن الله جل شأنه فوض الأمر لنبيه ﷺ فى أن يأذن لهم أو لا يأذن .. ليس النبى معاتبا بهذه الآية - وحاشاه - بل كان ﷺ مخيراً ، فلما أذن لهم أعلمه الله أنه لو لم يأذن لهم لقعدوا وتخلفوا بسبب نفاقهم ، ، وأنه مع ذلك لا حرج عليه فى الإذن لهم . إنها آية مدح للرسول غاية فى الرقة .. ومن غير شك قد صدر الإذن لهم عن قلب رحيم ، وعن هذا القلب الرحيم ، وعن هذه الرحمة الفياضة ، كان الرسول ﷺ يصدر فى أحكامه ، وما كان فى ذلك إلا متبعاً لقوله تعالى : **«وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين»**[1] . وهكذا الأمر فى كل ما يمارى فيه الممارون .

ومع ذلك فإننا نريد أن نزيد الأمر وضوحاً فى الفرق بين من يركز على « بشر » ومن يركز على « يوحى إلىّ » لأهميته الكبرى ، فَنَقُصُّ القصة التالية ، ذات المغزى العميق ، والقصة يرويها ابن عطاء السكندرى رضى الله عنه فى شرحه لقصيدة ولى الله « أبو مدين » رضى الله عنه يقول : زار بعض السلاطين ضريح « أبى يزيد » رضى الله عنه وقال : هل هنا أحد ممن اجتمع بأبى يزيد ؟ فأشير إلى شيخ كبير فى السن كان حاضراً هناك . فقال له : هل سمعت شيئاً من كلام أبى يزيد ؟

فقال : نعم سمعته قال : « من زارنى لا تحرقه النار » . فاستغرب السلطان ذلك الكلام فقال : كيف يقول أبو يزيد ذلك ، وأبو جهل رأى النبى ﷺ وتحرقه النار ؟

فقال الشيخ للسلطان : أبو جهل لم يرَ النبى ﷺ ، إنما رأى « يتيم أبى طالب » ، ولو رآه ﷺ لم تحرقه النار . ففهم السلطان كلامه ، وأعجبه هذا الجواب منه أى أنه لم يره بالتعظيم والإكرام ، والأسوة ، واعتقاد أنه رسول

---

(١) الأنبياء ١٠٧ .

الله ، ولو رآه بهذا المعنى لم تحرقه النار لكنه رآه باحتقار ، واعتقاد أنه يتيم أبى طالب ، فلم تنفعه الرؤية .

ولسنا هنا بصدد الحديث عن أبى يزيد ، وإنما نريد أن نتحدث عن كلمة الشيخ للسلطان من أن أبا جهل لم ير النبى ﷺ إنما رأى « يتيم أبى طالب » . هذه النظرة لأبى جهل هى التى نريد أن يتنزه المؤمنون عنها ، والمؤمنون - بحمد الله - لا يقعون فى هذا الإثم متعمدين ، وإنما يتسلل هذا الإثم إلى بعض النفوس فى صورة لا شعورية عندما يركز بعضهم على بشرية الرسول ﷺ ، وكأنه لا شىء فيه غير البشرية .

ومن الغريب أنهم حينما يتحدثون عن البشرية ، ويركزون عليها يعتبرون أنفسهم تقدميين متطورين وفاتهم أن هذه النظرة لأبى جهل إنما هى النظرة التى يتبناها المستشرقون والمبشرون فى العصر الحاضر ليقللوا من شأن الرسول فى نظر مواطنيهم .

★★★

﴿ طاعة الرسول ﷺ ﴾

ونجد أحيانا من يتخذ من بشرية رسول الله ﷺ حجة لكى لا يتبع السنة ، أو لا يتبع ما أمر به رسول الله ﷺ .. وبعضهم يقول : إن السنة غير واجبة الإتباع ، ومن اتبعها أثيب ومن تركها لا يعاقب ، إلى غير ذلك مما نجده حتى يومنا هذا . ونسى هؤلاء الناس ما جاء فى القرآن الكريم من قوله تعالى :

« **أطيعوا الله وأطيعوا الرسول** »(١) . وقوله تعالى : « **وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا** »(٢) وقوله عز

---

(١) سورة النساء آية ٥٩ (٢) الحشر ٧ .

وجل « **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله** »[1] وقوله تعالى : « **من يطع الرسول فقد أطاع الله** »[2] . وهكذا نرى أن الله سبحانه وتعالى أمرنا بالطاعة له ولرسوله فى قوله : « **أطيعوا الله وأطيعوا الرسول** »

ومرة أمرنا بأن نطيع الله ورسوله (من الآية ١٣٢ آل عمران)

وفى قوله تعالى : (**أطيعوا الله والرسول**) ومرة أمرنا بطاعة رسوله فى قوله جل جلاله : « **من يطع الرسول فقد أطاع الله** » ومرة أعطى رسوله ﷺ حق التشريع فى قوله جل جلاله : « **وما أتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا** »

وهكذا نجد أن اتباع السنة أمر واجب بنص القرآن الكريم .. بل إن هناك أشياء كثيرة نزلت فى القرآن الكريم مجملة ، وبينها رسول الله ﷺ .

فالصلاة المفروضة ذكرت فى القرآن الكريم فى قوله تعالى : «**وأقيموا الصلاة**»

ولكن عدد الصلوات لم يذكر فى القرآن الكريم .. ولا أوقاتها ، ولا عدد ركعات كل صلاة ، ولا كيفية الصلاة ، كل هذا جاء فى السنة ، فكيف إذا تركنا السنة ولم نأخذ بها ؟ كيف نستطيع أن نصلى ؟

وكيف نستطيع أن نحج ؟ ومناسك الحج أخذناها عن رسول الله ﷺ .

إن الذين يحاولون أو ينادون بعدم الإلتزام بالسنة أو تركها إنما ينادون بترك الصلاة ، وترك الحج وترك أشياء كثيرة فى الدين ، لا يمكن أن نقوم بها إلا إذا اتبعنا سنة رسول الله ﷺ والأحاديث النبوية الشريفة تبين لنا أحكام هذا الدين ، وتوضحه لنا بحيث لا يمكن أن نفهم الدين ، وأن نعبد الله كما أراد إلا باتباع القرآن والسنة . ورسول الله ﷺ يقول : « أوتيت القرآن ومثله معه » .

---

(١) آل عمران ٣١ . (٢) النساء ٨٠ .

ويقول عليه الصلاة والسلام : « تركت فيكم ما لو إتبعتموه لن تضلوا أبداً كتاب الله وسنتى » إذن فالسنة النبوية الشريفة واجبة الإتباع ، ويكفى قول الحق سبحانه : « **من يطع الرسول فقد أطاع الله** » (النساء ٨٠)

★★★

﴿ الملائكة لا تصلح للرسالة ﴾

ويقول الإمام الجليل الشيخ محمد متولى الشعراوى متمما حديثه عن بشرية الرسول ﷺ : أن الله سبحانه وتعالى حين يختار من يبلغ رسالته .. فإنه يختار من نفس جنس القوم المرسل إليهم فإذا كان الرسول للبشر كان بشراً ... لماذا ؟ لأن الرسول مبلغ لمنهج الله ، أى أنه يبلغ الناس رسالة السماء فلابد أن يكون منهم ، ويتحدث لغتهم ، ويعرف طباعهم حتى يستطيع أن يبلغهم الرسالة . ولابد أن يكونوا قد عرفوه قبل الرسالة .. وعرفوا أمانته ، وصدق قوله ، وحسن خلقه فلا يشتهر بينهم بالكذب مثلاً ولا بسوء الخلق ، ولا بغير ذلك .... ثم يأتى ويقول أنه رسول لأنهم فى هذه الحالة قد تعودوا منه الكذب فلا يصدقه أحد .

إذن فالحق سبحانه وتعالى فى اختياره وحتى يؤدى الرسول مهمته كما أرادها الله ... فإن الله يبعثه فى قومه .. يتحدث بلسان القوم ، ويعرفونه معرفة جيدة وأكيدة قبل الرسالة .. ويحترمونه لأمانته وصدقه وخلقه ، وذلك حتى يتأكدوا أن هذا الرسول الذى لا يكذب على الناس لا يمكن أن يكذب على الله .. ثم إن الرسول بالإضافة إلى أنه يبلغ قومه المنهج .. فإنه يعلمهم كيف يطبقونه .. فإن منهج السماء نظرية لابد لها من تطبيق عملى حتى يرى الناس رسولهم ، وهو يصلى ، وهو يحج .. وهو يطبق المنهج أمام قومه حتى يتبعوه ، وليكون ذلك بطريقة عملية .

فإن بشرية الرسول حتمية .. لماذا ؟ لأنه لو أرسل الله سبحانه وتعالى ملكاً رسولاً .. فإن الناس لن يعرفوه لأنه ملك لا يعيش على الأرض .. فإذا فرضنا أن الحق سبحانه وتعالى عَرَّفَهُ لهم ، فإنهم سيقولون : إن هذا الرسول لا يصلح قُدوة لنا ، إن هذا ملك مخلوق من النور ، فهو يتحرك بخفة وسهولة .. ونحن بشر مخلوقون من طين ثقيل الحركة ، وهذا ملك خُلق لا يعصى الله ، ويفعل ما يؤمر به ؛ ونحن بشر نصيب ونخطىء .

إذن فالملك لا يصلح رسولاً للبشر .. لأن قدراته وطبيعة خلقه تختلف عن قدرات وطبيعة خلق البشر .. فأراد الحق سبحانه وتعالى أن الرسول يكون بشراً من جنس القوم الذين أُرسل إليهم حتى لا يأتى أحدهم يوم القيامة ويجادل .. ويقول : يارب حملتنا مالا نطيق ، وفرضت علينا مالا نقدر عليه .. لأن هذا مردود عليه بأن الرسول بشر مثلكم ، ومع ذلك استطاع أن يطبق المنهج دون أن يتحمل فوق ما يطيق البشر .

وزيادة على ذلك فإن الله أرسل إليكم من تعرفونه ، وكنتم تعجبون به وبخلقه قبل أن يُكلف بالرسالة .. فلا عذر لكم يوم القيامة .

والله سبحانه وتعالى جاء بهذه القضية ورد عليها فى القرآن الكريم فقال جل جلاله : « **وما منع الناس أن يؤمنوا إذ جاءهم الهدى إلا أن قالوا أبعث الله بشراً رسولا قل لو كان فى الأرض ملائكة يمشون مطمئنين لنزلنا عليهم من السماء ملكا رسولا** » (الاسراء ٩٤ ـ ٩٥) أى أن الملائكة لا يعيشون الحياة الأرضية التى يعيشها البشر ، ولذلك لا يمكن أن يكونوا رسلاً .. فإذا أضفنا إلى ذلك أننا ببشريتنا لا يمكن أن نرى الملائكة ، فإنهم فى هذه الحالة سيكونون غيباً عنا ، فكيف نأخذ القدوة ممن هم غيب عنا ؟ .. ثم يأتى قول الحق سبحانه وتعالى: « **ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون** » (الأنعام ٩) أى أن الحق سبحانه وتعالى ينبهنا أنه لو أرسل ملكا فلكى نراه

لابد أن يجعله رجلاً يلبس نفس ثيابنا وفى هذه الحالة فسيكون أمامنا كبشر.

إذن فبشرية الرسول حتمية .. حتى يمكن أن يكون معروفا من قومه ، وحتى يمكن أن يُطَبِّق المنهج أمامنا فنفعل مثل ما يفعل .. ونأخذ عنه التطبيق الصحيح لمنهج السماء .. ويكون قدوة قبل الرسالة .. وأن يكون معروفاً من القوم الذى أرسل إليهم .

كل هذه المواصفات من تمام إبلاغ الرسالة للبشر .. ولو إختلت لضاعت الرسالة فى التطبيق .

★ ★ ★

﴿ كان خلقه القرآن ﴾

يتحدث القرآن الكريم عن رسول الله صلوات الله وسلامه عليه فى كثير من سوره .. يقول سبحانه وتعالى « **يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً** »[1] . ويقول سبحانه وتعالى : « **من يطع الرسول فقد أطاع الله ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا** »[2] . ويقول سبحانه وتعالى : « **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله ويغفر لكم ذنوبكم** »[3] .

ومن أجل هذه الصلة الإلهية برسول الله ﷺ ، أرشدنا الله سبحانه وتعالى إلى إتخاذ الرسول ﷺ أسوة فقال سبحانه : « **لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجوا الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً** »[4] .

---

(١) سورة الأحزاب آية ٤٥ ، ٤٦ .
(٢) سورة النساء آية ٨٠ .
(٣) سورة آل عمران آية ٣١ .
(٤) سورة الأحزاب آية ٢١ .

بل أمرنا الله أن نأخذ ما آتانا ، وأن ننتهى عما نهانا عنه .. وهددنا إذا لم نلتزم ذلك فقال سبحانه : « **وما آتاكم الرسول فخذوه ، وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب** »[1].

أما السر فى ذلك فهو :

١ - أن الرسول ﷺ لا ينطق عن الهوى ، ولا ينحرف عن صراط الله المستقيم ، ولقد أقسم الله تعالى على ذلك فقال سبحانه : « **والنجم إذا هوى . ما ضل صاحبكم وما غوى وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى يوحى** »[2] .

٢ - كان رسول الله ﷺ فى جميع أحواله : حركة وسكونا .. إشارة ونطقاً .. قلباً وقالباً يمثل القرآن الكريم .. وقد كان ﷺ تطبيقاً للقرآن ، لقد لبس القرآن ظاهراً وباطنا .. لقد كان قرآنا ..

ولقد وصفته السيدة عائشة رضى الله عنها وصفاً دقيقاً حينما سُئلتْ عن خُلُقِه فقالت (كان خلقه القرآن) ومن كان خلقه القرآن كان أسوة ، وكان قدوة ، وكان على خلق عظيم . ومن هنا وصفه الله سبحانه وتعالى إذ يقول: « **وإنك لعلى خلق عظيم** »[3] : قال سعد بن هشام[*] : دخلت على عائشة رضى الله عنها وعن أبيها فسألتها عن أخلاق النبى ﷺ فقالت : أما تقرأ القرآن ؟ قلت : بلى ، قالت : كان خلق رسول الله ﷺ القرآن ، وإنما أدبه القرآن بمثل قوله تعالى (**خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين**) الأعراف ١٩٩ وقوله : « **إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر**

---

(١) سورة الحشر آية ٧ .

(٢) سورة النجم آية ١ ، ٢ ، ٣ ، ٤ .

(٣) سورة القلم آية ٤ .

(*) رواه مسلم ووهم الحاكم فى قوله أنهما لم يخرجاه (عن كتاب إحياء علوم الدين) .

والبغى » (النحل ٩٠) وقوله : (**واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور**) « لقمان ١٧ » . وقوله : « **ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور** » الشورى ٤٣ . وقوله : « **فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين** » المائدة ١٣. وقوله : « **وليعفوا وليصفحوا ألا تحبون أن يغفر الله لكم** » النور ٢٣ . وقوله : (**ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم** » فصلت ٣٤ . وقوله « **والكاظمين الغيظ والعافين عن الناس والله يحب المحسنين** » آل عمران ١٣٤ وقوله : « **اجتنبوا كثيراً من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضاً** » .

الحجرات ١٢ .

★★★

ويقول الدكتور عبد الحليم محمود :

والحق أننا حينما نريد أن نكون صورة واضحة عن رسول الله ﷺ فإن الطريق الوحيد لذلك : إنما هو الإحاطة بالقرآن إحاطة واضحة تامة .. والإحاطة بالقرآن على هذا النسق ليست من السهولة بمكان ، بل ليست بممكنة ..

فالقرآن فى كل يوم يتفتح عن معان جديدة للإنسانية ، ويتفتح عن معان جديدة للشخص المتدبر . وهذه المعانى الجديدة إنسانية عامة ، أو فردية شخصية ، إنما هى إيضاح وتفسير للصورة النبوية الكريمة . والعكس أيضا صحيح ، فإن المتدبر فى الصورة النبوية الكريمة عن طريق السيرة الصحيحة ، والأحاديث المعتمدة ، يفهم عن الرسول صلوات الله وسلامه عليه كل يوم جديداً ، وهذا الفهم إنما هو تفسير وإيضاح لجوانب من القرآن الكريم ، لقد امتزج الرسول ﷺ بالقرآن - كما قدمنا - روحاً وقلباً وجسماً، وامتزج به القرآن عقيدة وأخلاقاً وتشريعاً .. فكان صلوات الله وسلامه عليه

قرآنا يسير فى الناس .. وكان القرآن يتنقل .. وكان قلبا ينبض .. وكان لسانا ينطق بالهداية والإرشاد .

ولقد كان ﷺ حريصا كل الحرص على أن يكون خلق الأمة الإسلامية القرآن ، لقد عمل لذلك طيلة بعثته .

ويحدثنا القرآن الكريم عن موقف رسول الله ﷺ من الأمة فيقول سبحانه : « **لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم** »[1] صلوات الله وسلامه عليك يا رسول الله ..

ويتحدث ﷺ عن حرصه الشديد على هداية أمته فيقول : « مثلى ومثلكم : كمثل رجل أوقد ناراً ، فجعل الجنادب والفراش يقعن فيها ، وهو يذبُّهن عنها وأنا آخذ بحُجزكم عن النار ، وأنتم تَفَلَّتون من يدى » هذه هى صلة الرسول ﷺ بربه .. وهذه هى صلته بأمته .

لقد ارتفع ﷺ إلى السماء وتجاوزها إلى سدرة المنتهى .. ورأى من آيات ربه الكبرى .. لقد ارتفع إلى الأفق الأعلى .. وتجاوز بذلك النهايات الكونية .. لقد كان فعلاً : أدنى من قاب قوسين . فانغمس فى الأفق الأعلى ، وتلقى عن الله مباشرة كيفية الصلة به وهى الصلاة ثم .... ثم انبسط إلى الأرض سراجاً منيراً .. رءوفاً رحيماً هادياً يدعو إلى الله على بصيرة هو ومن اتبعه .

يقول أحد الصالحين : « صعد رسول الله ﷺ إلى السماء ، ثم عاد إلى الأرض ، أقسم بالله ، لو صعدت إلى السماء لما حاولت العودة إلى الأرض مرة أخرى . ومن هديه صلوات الله وسلامه عليه فى سبب بعثته :

« إنما بعثت لأتمم حسن الأخلاق » « إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق »

« إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق » « بعثت بالحنيفية السمحة » .أهـ

★ ★ ★

---

(١) التوبة آية ١٢٨ .

﴿ أمية الرسول ﷺ ﴾

الله سبحانه وتعالى قبل أن ينزل الوحى على رسول الله ﷺ أبعد عنه كل شبهة بشرية .. بأن ما سيتلقاه محمد ﷺ من وحى السماء ممكن أن يكون من العلم البشرى ، سواء كان ذلك من حضارات الأمم السابقة .. أو مما يمكن أن يقرأه من الكتب وغير ذلك .

ولذلك اختار الله سبحانه وتعالى لنبيه ﷺ الأمية .. ومعنى أمى .. أى كما ولدته أمه ، لم يتلق علما عن بشر . وكانت هذه الأمية شرفاً لرسول الله ﷺ ... لماذا ؟

لأن الله سبحانه وتعالى الذى إختاره خاتم المرسلين أراد أن يعلمه بنفسه .. وأراد ألا يتلقى رسوله عليه الصلاة والسلام إلا علم السماء . ولذلك اختاره أميا ، وذلك من حسن إعداد الحق سبحانه وتعالى لرسالة نبيه ﷺ . فلو أن رسول الله ﷺ كان يقرأ أو يكتب لقالوا : أخذ العلم مما قرأ ، أو أخذ العلم من كتب الأولين أو من حضارات الأمم المعاصرة . ولذلك اختار له الله سبحانه وتعالى أن ينشأ أمياً ، حتى يعرف الجميع أن كل علم رسول الله ﷺ جاء من السماء .

ورغم هذا الاختيار وهذه الحكمة ، فقد غفلت عقول الكفار عنها ، وادعو أن رسول الله ﷺ يعلمه بشر .. وادعوا أنه جاء بهذا العلم من أساطير الأولين . ويرد الله سبحانه وتعالى : « **وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون** » (العنكبوت ٤٨) .

ويقول الإمام الكبير الشيخ الفاضل محمد متولى الشعراوى :

إن الحق سبحانه وتعالى يلفت البشرية كلها إلى أنه إختار أن يكون

رسـول الله ﷺ أميا حتى يرد على ما يدَّعيـه أنصار البـاطل وأعداء الإيمان من أن رسول الله ﷺ أتى بالقرآن من عنده ، ولذلك فـالحق سبحانه وتعـالى يقول لنبيه ما معناه : « لو أنك كنت تقرأ أو تكتب قبل أن تأتيك النبوة فربما كان ذلك حجة لأنصار الباطل أن يقولوا إن هذا القرآن من عندك ، ولكنك لا تقرأ ولا تكتب .... ولم تقـرأ كلمـة واحدة فى حيـاتك قـبل الرسـالة ، ولا كتبت كلمة واحدة .. إذن فحجتهم باطلة لا سند لها من الحقيقة أو الحق .. إنما هى مكابرة لعدم الإيمان ، وحجة للكفر ، وحجتهم مردودة عليهم ، وفى ذلك يقـول الحق جل جـلاله لنبيـه ليرد على دعـاوى أهل البـاطل : « **قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمرا من قـبله أفـلا تعـقلون** » (١٦ يونس) وهكذا يطلب الحق سـبحـانه وتعالى من رسوله أن يرد عليهم أنه عاش معهم أربعين سنة أى عمرا كبيرا ، ولم يقل لهم أنه أوحى إليـــه ، ولم يأت بشىء من عنده ولو أنهم فكروا بعقولهم فى هذا العمر الذى قضاه الرسول بينهم قبل أن يوحى إليه وأنه لم يدَّعِ شيئاً لكان ذلك كافيا لأن يصدقوه ..

وإذا قـال قائل أنه نوع من العبقرية التى ربما تظهر على عبد من عباد الله رغم أنه لم يتعلم ولم يقرأ .. نقول : أى عبقرية هذه التى تظهر فجأة فى سن الأربعين .. إن العبـقرية والنبـوغ يظهـران عـادة فى سن مبكرة ، ولا ينتظران حتى هذه السن .. فـإذا قـيل ربما ظهرت العـبقرية والنبـوغ فى سن مبكرة . وكتـمهـا رسول الله ﷺ حـتى سن الأربعين .. نقـول : ومن أدرى محمد أنه سيعيش إلى هذه السـن ، وهو يرى أباه يموت قبل أن يولد ، وأمه تموت وهو لا يزال طفلا .. فينشأ يتيم الأم والأب ، فكل تـوقعات حيـاته أن الموت يخطف الناس فى سن مـبكرة كـمـا خطف أباه وأمـه . فـهل يكتم عبقريته حتى سن الأربعين ؟

وهكذا كانت الأمية شرفاً لرسول الله ﷺ ، وضرورة للرد على دعاوى

الباطل ويقينا للمؤمنين بأن كل ما أتى به رسول الله ﷺ إنما هو وحى من السماء .

وهكذا نشأ الرسول ﷺ مُعَداً إعداداً كاملا من ربه لتلقى الرسالة وتلقى الوحى ... جعله الله بشراً لأن بشرية الرسول حتمية حتى يتلقى عنه قومه المنهج ...

وبعثه فى قومه حتى يكون معروفاً منهم بالخلق الكريم والأمانة والصدق ..

وجعله يتيماً حتى لا يقال أنه إستفاد من نفوذ أبيه أو مكانته ..

وجعله أميا حتى لا يقال أنه أخذ شيئاً من حضارة البشر ..

★★★

﴿ معجزات الرسول ﷺ ﴾

المعجزة الكبرى:

كانت دعوة الرسل تجد من أقوامهم الإعراض والتكذيب لاسيما أنها تدعوهم إلى ترك معتقداتهم التى وجدوا عليها آباءهم ، وكانت الدعوة بذلك مهمة شاقة وأمراً غير يسير .

وحتى يمكن للرسل إقناع أقوامهم بأنهم مرسلون من الله سبحانه وتعالى قبل أن يدعوهم إلى ترك باطل عقائدهم ، وعودتهم إلى عبادة الله وحده كان لابد أن يقدموا لهم الدليل على أنهم بُعثوا من الله لهم ، فكانت هذه الأدلة معجزات إختصَّ الله سبحانه كل رسول بنوع منها .

وشاءت إرادة الله أن تكون معجزة كل رسول من جنس ما اشتهر به قومه ، حتى يمكن أن يعرضوا هذا الدليل على عقولهم ، ويقارنوا بين ما أتى به الرسول وما أتَوَاهُمْ بِهِ .

فقد إشتهر القوم الذين أُرسل لهم سيدنا موسى عليه السلام بالسحر ، وكان عصره يسمى عصر السحرة .. فهذا ساحر يفسد على الإنسان عمله .. وهذه عرافة تُفَرِّقُ بين الزوج وزوجته .. بل بلغ أنهم إجتمعوا بسيدنا موسى فألقوا أمامه حبالاً خُيِّل للناس من سحرهم أنها حيات تسعى .. فلما ألقى عصاه إهتزت وتحركت وابتلعت حبالهم ، فشهد له السحرة أنه لابد مُؤيَّد من الله ، فقد جاء بما لا يمكنهم عمله ، ولم يسبق لهم به معرفة ، فلما آمن به كبارهم ، صَدَّقه كل من سمع عنه أو شاهد بعضا من معجزته .

وفى ذلك يقول القرآن الكريم فى سورة الشعراء :

« فلما جاء السحرة قالوا لفرعون أئن لنا لأجراً إن كنا نحن الغالبين . قال نعم وإنكم إذا لم المقربين . قال لهم موسى

ألقوا ما أنتم ملقون . فألقوا حبالهم وعصيهم وقالوا بعزة فرعون إنا لنحن الغالبون . فألقىَ موسى عصاه فإذا هى تلقف ما يأفكون . فألقى السحرة ساجدين . قالوا آمنا برب العالمين رب موسى وهارون »[1] .

وأرسل الله سبحانه وتعالى سيدنا عيسى عليه السلام لقومه فى زمن كان الطب قد تقدم فيه ، فما من جماعة تجتمع إلا وحديثها عما فى الطب من جديد . أما الأفراد فهم مشغولون بالمرض والعلاج ، ولذلك كانت معجزته من نفس ما أتقنه قومه ، واشتهر به زمانه .

لم يُعالج مريضا كما عَالَج الناس ، ولكنه يُبْرِئُ الأكْمه ، والأبرص ، ويَرُدُّ البصر للأعمى بإذن الله بل أحيا الموتى عندما شاء الله بإرادة الله ، ولهذا آمن به الذين رأوه أو سمعوا عنه وصدقوه ، من هؤلاء الذين كانوا يجيدون الطب ويعرفون طريق العلاج .. كما أُوتِىَ أيضا معجزة الخلق للطير بإذن الله وذلك بنص الآيات الشريفة من سورة المائدة :

« إذ قال الله يا عيسى ابن مريم أذكر نعمتى عليك وعلى والدتك إذ أيدتك بروح القدس تكلم الناس فى المهد وكهلا وإذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذنى وتبرىء الأكمه والأبرص بإذنى وإذ تخرج الموتى بإذنى وإذ كففت بنى إسرائيل عنك إذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم إن هذا إلا سحر مبين »[2] .

ثم أرسل الله سبحانه وتعالى سيدنا محمداً ﷺ بآخر الأديان ليكون خاتم الرسل والنبيين، وليس فقط لقومه ، ولكن للبشر جميعاً بنص الآيات :

----

(١) سورة الشعراء آيات ٤١ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٤ ، ٤٥ ، ٤٦ ، ٤٧ ، ٤٨ .
(٢) سورة المائدة آية ١١٠ .

١ - « **وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً** »[1].

٢ - « **قل يا أيها الناس إنى رسول الله إليكم جميعاً** »[2]

بخلاف باقى الرسل الذين أرسلوا لأقوامهم .

٣ - « **لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم أعبدوا الله** »[3] .

٤ - « **ولقد أرسلنا موسى بآياتنا إلى فرعون وملئه** »[4] .

٥ - « **وإذ قال عيسى ابن مريم يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم** »[5] .

لذلك كان لابد أن تكون معجزته للناس جميعاً ، وأن تكون مستمرة لا لعصرها فقط ولكن إلى أبد الآبدين ، حتى يؤمن بها قومه ومَنْ بعدهم ، وتعجز الأقوام الآخرين أيا كان مقامهم ومهما كان وقتهم . والله سبحانه قد جعل معجزة رسول الله ﷺ هى منهجه ليبقى المنهج محروساً إلى يوم القيامة بالمعجزة .. فالكتب السابقة إئتمن الله عليها خلقه .. ماذا فعلوا بها ؟ نسوها ، وما لم ينسوه حرفوه ، ومالم يحرفوه أخفوه ، ومالم يخفوه بدلوه وغيروه ... وهكذا لم يكن البشر مأمونين على منهج السماء لأن هوى النفس تدخل ، وأطماع الدنيا غيرت وبدلت ، ولكن الحق سبحانه وتعالى حفظ القرآن الكريم من أى تغيير أو تبديل .

ويقول العالم عبد الرزاق نوفل : كانت معجزة سيدنا رسول الله ﷺ التى أيده الله بها قرآنا عربيا فى : ١١٤ سورة . تشتمل على ٦٢٣٦ آية وتحوى : ٧٧٨٤٥ كلمة وعدد حروف القرآن : ٣٣٠٧٣٣ حرف وهى معجزة كانت للعرب فى وقت الرسالة ومازالت للعرب حتى النهاية ،

---

(١) سورة سبأ من الآية ٢٨ - ٣٠ .
(٢) الأعراف من الآية ١٥٨ .
(٣) الأعراف من الآية ٥٩ .
(٤) الزخرف من الآية ٤٦ .
(٥) سورة الصف من الآية ٦ .

كما أنه معجزة لغير العرب من مختلف الأجناس والألوان واللغات ... إذ يحتوى على أوجه من الإعجاز تجعله حقاً وصدقاً .. معجزة كل زمان وأوان .. وكل قوم فى أى مكان .

ويقول الإمام الشيخ متولى الشعراوى :

وجعل الله سبحانه وتعالى منهج رسول الله ﷺ معجزة متجددة ، فالقرآن له عطاء لكل جيل .. وهناك أشياء بَيَّنَهَا رسول الله ﷺ وشرحها وفَسَّرها تفسيراً دقيقاً ، وهذه هى التى تتصل بالعبادات . فلم يترك رسول الله ﷺ تشريع عبادة إلا وبينه تفصيلاً .. ولكن هناك آيات من القرآن الكريم لم يكن عقل المعاصرين لرسول الله ﷺ يطيقها ، وهذه تركها رسول الله ﷺ لتبين إعجاز القرآن لكل جيل . كذلك ما يمضى زمن إلا وتظهر معجزة جديدة للقرآن لم نكن نلتفت إليها . فعندما اكتشفت كروية الأرض . تبينا أن القرآن كان أول من أشار إليها فى خلق الليل والنهار .. وقد أشار هذا الكتاب إلى كروية الأرض ودورانها حول نفسها فى آية واحدة فى قوله تعالى : « **وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا** » (الفرقان آية ٦٢) . والشىء يخلف الشىء ، أى يأتى بعده تماما كدوريات الحراسة ، دورية تخلف دورية . أو ورديات العمل فى المصانع كل منها تخلف الأخرى .. ولكن لابد من بداية فى كل هذا .. فتكون الدورية الأولى للحراسة لا تخلف من سبقها .. وتكون الدورية الأولى فى المصنع عندما يبدأ العمل لا تخلف وردية أخرى لأنها بداية العمل فى المصنع .. ولكن الحق سبحانه وتعالى قال : « **وهو الذى جعل الليل والنهار خلفة** » (الفرقان من الآية ٦٢)

إذن فلابد أن يخلف الليل النهار ساعة الخلق ، ولا يتم هذا إلا إذا خلق الليل والنهار معاً على سطح الأرض .. ولا يحدث ذلك إلا إذا كانت الأرض كروية .. ففى ساعة الخلق يوجد الليل والنهار على الأرض فى لحظة واحدة

فيكون كل منهما خلفة للآخر ، ولا يخلف الليل النهار إلا إذا كانت الأرض تدور حول نفسها .. فلو أن الأرض ثابتة لبقى الجزء المنير نهاراً دائماً وبقى الجزء المظلم ليلا دائماً .. إذن فلابد من حركة دوران الأرض .

ويتطور العلم ، ويستطيع أن يصور الجنين في بطن أمه ، فيجد أن القرآن قد صور أطوار الجنين في بطن أمه تصويرا علميا مذهلا ، ويكتشف الطب أن مركز الإحساس فى الإنسان هو الجلد لأن أطراف الأعصاب موجودة تحت الجلد مباشرة فيجد الآية الكريمة :

« كلما نضجت جلودهم بدلناهم جلوداً غيرها ليذوقوا العذاب » (النساء آية ٥٦)

والآية عن الخلود فى العذاب لأهل النار .

وهناك معجزات كثيرة فى القرآن كشف الله عنها .. ومعجزات كثيرة سيكشف عنها للأجيال القادمة . كل هذا يجعل معجزة القرآن متجددة دائما بحيث يكون له فى كل عصر معجزة .

وقد بلغ العرب فى عهد نزول القرآن مبلغاً من الفصاحة ودقة الأسلوب والتمكن فى اللغة يدل على قَدْرِه أنهم كانوا إذا احتفلوا تباروا فى الكلام . وأنشدوا القصائد ، وإذا اختصمت القبائل فإنها تظل مُدا طويلة قبل الحرب تتقارع بالشعر ، وتتنازع بالقول .. بل كانت لهم اجتماعات خاصة تُعقد دورياً تعرض القبائل فيها إنتاج بلغائها وقصائد شعرائها . فنزل القرآن وحياً على الرسول ﷺ حيث تلاه على هؤلاء القوم فأخرسهم وأدهشهم .. إنه يتكون من حروف عربيتهم ، ومن ألفاظ لغتهم ، ولكنه لا يشابه ما عرفوه، ولا يماثل ما عهدوه ، فكيف وهم سادة اللغة ، وأرباب القلم ، وأصحاب جوامع الكلم ؟؟

يعرف العرب فى كل مكان وزمان أحسن الشعر أكذبه ..

وآيات القرآن صادقة الصدق كله .. وبليغة البلاغة التى لم تعهد فى

غيرها ، وأى قصيدة مهما كان قائلها تتفاوت درجة فصاحتها إذ تجدها بليغة فى بعض أبياتها ، وأقل فى البعض الآخر ، ولايمكن أن تكون القصيدة كلها على درجة واحدة من الفصاحة لاسيما إن طالت القصيدة .

بينما القرآن الكريم به سور طويلة تضم قصصا ليست بالقصيرة ، وبالرغم من ذلك نجد أن كل آياتها فى درجة واحدة من البلاغة ، بل إن القرآن كله على مستوى واحد من الفصاحة ، والبلاغة وهو فوق ما عهد البشر .

ولقد أدهش أسلوب القرآن الكريم العرب منذ أول آية نزلت ، حتى الخصوم الألداء لم تمنعهم عدواتهم لأى دعوة لتغيير معتقداتهم من الاعتراف بما فى القرآن الكريم من إعجاز لغوى .

فها هو (الوليد بن المغيرة) تجتمع إليه قريش إذ كان شيخا من كبار دهاة العرب فقالوا : يا أبا عبد شمس ؛ ما هذا الذى يقول محمد ؟ أشعر هو ، أم كهانة ، أم خطب ؟

فقال : دعونى حتى أسمع كلامه : ودنا من رسول الله ﷺ فقال : يا محمد ، أنشدنى من شعرك . قال عليه الصلاة والسلام : « ما هو بشعر ولكنه كلام الله الذى ارتضاه لملائكته وأنبيائه ورسله » .

فقال أتل على منه شيئاً . فقرأ رسول الله ﷺ : « **إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون** »[1] .

فاقشعر الوليد وانتفض ، وذهب إلى داره حيث اعتكف ، فمشوا إلى أبى جهل وهو ابن أخيه فقالوا : يا أبا الحكم ، إن أبا عبد شمس صبأ إلى دين محمد ، فقد ذهب إليه ولم يرجع إلينا ، فذهب إليه أبو جهل وقال :

---

(١) النحل : ٩٠

يا عم ، نكست رءوسنا وفضحتنا وأشمتَّ بنا عدونا وصبوت إلى دين محمد. فقال الوليد : ما صبوت إلى دينه ، ولكن سمعت كلاما صعباً تَقْشَعِرُ منه الجلود .

وعاش ﷺ والبركة فى ركابه ، واليمن طالعه حتى أرسله الله رحمة للعالمين ، وهنا ظهرت معجزات كثيرة على يده ، هذه المعجزات كانت لنصرته فى وقت عسرة ، أو لإخراجه من محنة ، أو لدفع أذى عنه أو عن المسلمين .. أما دعوته فإنها لم تقم على الخوارق والمعجزات .. بل قامت بالمنطق والعقل والعلم ، ومعجزته التى أرسل بها العالمين هى : كلام الله الخبير العليم القرآن الكريم .

أما معجزاته القولية :

١ - إخباره عن وقائع مضت ، وعن حوادث تقع ، وفى هذه الفترة يعترف ﷺ أنه بذلك لا يعرف الغيب : « **قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إنى ملك** »[1] .

وإنما ذلك وحى من الله سبحانه وتعالى : « **تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا** »[2] .

٢ - ومن هذه المعجزات قول رسول الله ﷺ لأصحابه :

« سيشتد الأمر بإجتماع الأحزاب عليكم ، والعاقبة لكم عليهم ، وإن الأحزاب سائرون عليكم تسعاً أو عشراً » فجاءت الأحزاب ، وكانوا عشرة آلاف وحاصروا المسلمين وحاربوهم .. وأصيب المسلمون فيها بالضيق والعسر، ولكنهم ازدادوا إيمانا ، وفى ذلك يقول الله تعالى : « **ولما رأى**

---

(١) الأنعام : من الآية ٥٠ .　　(٢) هود من الآية : ٤٩ .

المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيمانا وتسليما »[1] .

٣ - وبإجماع الرأى فإن الرسول ﷺ أخبر الصحابة بفتح مكة وبيت المقدس واليمن والشام والعراق ، وأن الأمن يستتب حتى ترحل المرأة من الحيرة إلى مكة لا تخاف إلا الله .

٤ - وأن خيبر تفتح على يد علىّ رضى الله عنه .

٥ - وأنهم يقتسمون ملك فارس وملك الروم .

٦ - وأن الله زوى له الأرض فرأى مشارقها ومغاربها ، وسيبلغ ملك أمته ما زوى له منها ، وانتشر الإسلام فى الشرق والغرب قبل إنتشاره فى الشمال والجنوب .

٧ - وأن فاطمة ابنته أول أهله لحوقاً به ، فماتت رضى الله عنها بعد ستة أشهر من وفاته وكانت أول من مات من أهل بيته .

٨ - وأن الحسين بن على رضى الله عنه يقتل بـ (الطف) وهى ناحية بالكوفة تسمى الآن (كربلاء) .

٩ - وأن على بن أبى طالب يُقتل فى شهر رمضان بضربة سيف على رأسه فى سجوده وهو صائم ، فقُتل على فى رمضان بأن ضربه (عبد الرحمن بن ملجم) على رأسه بالسيف فى أول سجده من صلاة الصبح ليلة تسعة عشر من شهر رمضان ، وتوفى عنها ليلة إحدى وعشرين منه .

١٠ - وأن الحسن بن على سيصلح الله به بين فئتين عظيمتين ، وأنه سيموت مسموماً .

١١ - وأن أبا ذر يعيش وحيداً ويموت وحيداً .

١٢ - وكذلك ما قاله لأبى بكر عندما جاء يعلن إسلامه . فعن

---

(١) سورة الأحزاب آية ٢٢ .

(ابن مسعود) أن أبا بكر قال : « نزلت على شيخ فى اليمن قد قرأ الكتب، وعلم من علم الناس فقال : أحسبك حرميا ... قلت : نعم قال : واحسبك قرشياً قلت : نعم قال : وأحسبك تيميا قلت : نعم . قال : بقيت لى فيك واحدة ، تكشف لى عن بطنك . قلت لا أفعل أو تخبرنى ذاك .

قال : أجد فى العلم الصحيح أن نبيا يُبعث فى الحرم ، يعاونه على أمره فتى وكهل : أما الفتى فخواض غمرات ، ودفاع معضلات ؛ وأما الكهل فأبيض نحيف على بطنه شامة ، وعلى فخذه الأيسر علامة ، وما عليك أن ترينى ما سألتك . فكشفت له عن بطنى ، فرأى شامة سوداء فوق سرتى . فقال : أنت هو ورب الكعبة ، وأوصانى . قال أبو بكر : فقضيت باليمن أربى ثم أتيت الشيخ لأودعه ، فقال : أحامل منى أبياتا إلى ذلك النبى ؟ قلت : أفعل . وحملت الأبيات وقدمت مكة ، فإذا بصناديد قريش مقبلين علىّ يقولون : أوما علمت الخطب ؟

قلت : وما هو ؟

قالوا : يتيم أبى طالب يزعم أنه نبى ، ولولا أنت ما انتظرنا به والكفاية فيك ، فصرفتهم على أحسن وجه ، وقدمت على رسول الله ﷺ فقلت : يا محمد ، قدحت منازل أهلك وتركت دين آبائك . قال : إنى رسول الله إليك وإلى الناس كلهم . قلت : وما دليلك ؟ قال : الشيخ الذى لقيته باليمن. قلت : وكم لقيت من شيخ باليمن . قال : الذى أفادك بالأبيات ...

قلت : من أخبرك يا حبيبى ؟

قال : الملك المعظم الذى كان يأتى الأنبياء قبلى .

قلت : أمدد يدك ، فإنى أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله » .

ومعجزاته القولية لا تقف عند حد .. وما ذكرنا إلا جزءاً من كل ... أليس رسول الله ونبيه ؟ فلا حرج على فضل الله .

ومن معجزاته ﷺ الأخرى ، ما حدث عندما أمره الله بالهجرة من مكة، فخرج من داره ووجد الأعداء قد حاصروا داره ليطلبوه ، فقد إتفقوا على قتله .. فيأخذ حفنة من تراب ويلقيها فى وجوههم وهو يتلو آية الله : « **وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون** »[1] . ومرَّ أمامهم وهم لا يبصرونه[2] .

ومروره فى هجرته مع أبى بكر بـ (أم معبد الخزاعية)[3] .

ومن معجزاته التى أيد الله بها نصره ما حدث يوم (غزوة بدر) إذ أخذ قبضة من تراب ورمى بها فى وجوه المشركين وهو يقول : شاهت الوجوه، فأصاب الأعداء ما جعلهم يُهزمون شر هزيمة ، وفى ذلك يقول الله تعالى : «**وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى**»[4] .

وما حدث (يوم الخندق) إذ رأى الرسول ﷺ أن أصحابه قد نالهم الألم لطول الحصار ، فصعد ﷺ إلى الجبل الذى عليه (مسجد الفتح) اليوم فدعا الله وناجاه ، وكان فيما دعاه قوله : « اللهم اصرف عنا شر هؤلاء بقوتك وحولك وقدرتك »[5] .

فأرسل الله ريحا شديدة ليلاً على الأحزاب فاقتلعت خيامهم ، وانقلبت قدورهم ، واندلعت نيرانهم فى متاعهم ، ففروا من شدة ما أصابهم وفى ذلك يقول الله سبحانه : « **يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنوداً لم تروها** »[6] .

---

(١) سورة يس آية ٩

(٢) تحدثنا عن هذا بإسهاب ليلة الهجرة

(٣) سبق شرحه فى حينه .

(٤) الأنفال من الآية ١٧ .

(٥) حديث صحيح أخرجه البخارى ومسلم فى صحيحيهما .

(٦) الأحزاب آية ٩ .

ومن معجزاته التى شاهدها ألوف المسلمين ممن حضروها البركة التى أودعها الله فى الطعام يوم احتاج المسلمون إلى الطعام .. فيأكلون وهم مئات من طعام لا يكاد يكفى فرداً .

ويوم نبع الماء بقدرة الله من بين أصابعه فيرتون جميعاً وهم عطاش قال أبو هريرة :

أصاب الناس مخمصة ، فقال لى رسول الله ﷺ : هل من شىء ؟

فقلت : نعم ، شىء من التمر فى المزود . قال : فإتنى به . فأدخل يده فأخرج قبضة فبسطها ودعا بالبركة ثم قال : أُدْعُ عشرة ، فأكلوا حتى شبعوا. ثم عشرة كذلك ، حتى أطعم الجيش كله وشبعوا . ثم قال : خذ ما جئت به ، وادخل يدك واقبض منه ، ولا تسكبه ، فقبضت على أكثر ما جئت به .

وذهب عليه الصلاة والسلام للغذاء مع نفر من المسلمين إبان حفر الخندق ، وكان الداعى قد ذبح (جديا) ، فَمَدَّ رسول الله ﷺ يده وقال «بسم الله اللهم بارك فيها ، اطعموا » فأكلوا حتى شبعوا ، وكانوا عشرة ، ونادى على غيرهم حتى شبعوا ، ولم يأكلوا إلا ما يقرب من ثلث الأكل . وعن على بن أبى طالب رضى الله عنه ، أن فاطمة طبخت قدراً لغذائهما ، وَوَجَّهتْ علياً إلى النبى ﷺ ليتغذى معهما ، فأمرها فغرفت لجميع نسائه صحفة صحفة ثم له ﷺ ثم لعلى ثم لها ، ثم رفعت القدر وإنها لتفيض ، قالت : فأكلنا منها ما شاء الله

وعن جابر رضى الله عنه قال : عطش الناس يوم (الحديبية) والنبى عليه الصلاة والسلام بين يديه ركوه يتوضأ منها ، فأقبل الناس عليه فقال : مالكم ؟ قالوا : ليس عندنا ماء نتوضأ ولا نشرب .. فوضع يده فى الركوة

فشربنا جميعاً وتوضأنا . قيل : كم كنتم ؟ قال لو كنا مائة ألف لكفانا .. كنا خمس عشرة مائة[1] . وندرت عين بعض أصحابه فسقطت فردها عليه الصلاة والسلام ، فكانت أصح عينيه وأحسنهما . وتفل[2] في عين علي رضي الله عنه وهو أرمد يوم خيبر فصح من وقته وبعثه بالراية . وكانوا[3] يسمعون تسبيح الطعام بين يديه ﷺ . وأصيب[4] رجل من بعض أصحابه ﷺ فمسحها بيده فبرأت من حينها . وحكى[5] الحكم بن العاص بن وائل مشيته عليه الصلاة والسلام - مستهزئا - فقال ﷺ : كذلك فكن ، فلم يزل يرتعش حتى مات . وخطب[6] عليه الصلاة والسلام إمرأة ، فقال له أبوها : إن بها برصا امتناعا من خطبته واعتذارا ، ولم يكن بها برص ، فقال عليه الصلاة والسلام : فلتكن كذلك فبرصت ، وهي أم شبيب بن البرصاء الشاعر.

ومثل هذه المعجزات لا يمكن حصرها ، فإنه ﷺ في كل غزوة وقتال كان الله سبحانه وتعالى يبارك فيما عند رسول الله ﷺ من غذاء وماء فيكفي المسلمين ، وكثيراً ما أمطرت عليهم السماء إذا إشتد الجدب ، ولا تتعداهم إلى أعدائهم .

---

(١) أبو نعيم والبيهقي كلا في دلائل النبوة من حديث قتادة بن النعمان وهو الذي سقطت عينه ففي رواية للبيهقي أنه كان ببدر وفي رواية أبي نعيم أنه كان بأحد وفي إسناده اضطراب وكذا رواه البيهقي من حديث أبي سعيد الخدري .

(٢) متفق عليه من حديث علي ومن حديث سهيل بن سعد أيضا .

(٣) خ من حديث ابن مسعود .

(٤) خ في قصة قتل أبي رافع .

(٥) البيهقي في الدلائل من هند بن خديج ، صححه بإسناد جيد ، وللحاكم في المستدرك من حديث عبد الرحمن بن أبي بكر نحوه ولم يسم الحكم وقال صحيح الإسناد .

(٦) ذكرها ابن الجوزي في التلقيح وسماها جمرة بنت الحرث بن عوف المزني وتبعه على ذلك الدمياطي في جزء له في نساء النبي .

ومن معجزاته إجابة دعوته .. فعن أنس رضى الله عنه قال :

« أصاب أهل المدينة جدب وقحط ، فبينما رسول الله ﷺ يخطب يوم الجمعة إذ قام رجل فقال : يا رسول الله هكلت الكراع ، فادع الله يسقينا .. فمد رسول الله ﷺ يده ودعا الله . قال أنس : وإن السماء كمثل الزجاجة ، فهاجت ريح أنشأت سحابا ، اجتمع ، ثم أرسلت السماء عزاليها ، فخرجنا نخوض الماء حتى أتينا منازلنا فلم نزل نُمْطَر إلى الجمعة الأخرى ، فقام عين ذلك الرجل فقال : يا رسول الله : تهدمت البيوت فادع الله يحبسه ، فتبسم رسول الله ﷺ وقال : حوالينا ولا علينا يارب . فنظرت إلى السحاب وقد تصدع حول المدينة وكأنه إكليل .

ذهبت أم أنس بن مالك خادم رسول الله ﷺ وقالت له : يا رسول الله : إن أنساً غلام كيس فادع له . فقال عليه الصلاة والسلام : « اللهم أكثر ماله وولده وبارك فيه » .

قال ابن عساكر : مات لأنس فى (طاعون الجارف) ثمانون . وقال أنس : دفنت من صلبى مائة وخمسة وعشرين ذكورا إلا بنتين ، وإنّ أرْضِي لتثمر فى العام مرتين .

ومن معجزاته ﷺ ، أنه بعد الصلح الذى تم بين المسلمين وبين يهود خيبر أهدت له زينب بنت الحارث شاة مسمومة ، وأخبرته الشاة بأنها مسمومة[1] .

ومن ضمن معجزاته ﷺ (الاسراء والمعراج)[2] .

وهناك الكثير والكثير من الارهاصات والمعجزات ما يعجز القلم عن حصرها وتدوينها .

---

(١) تحدثنا عن هذه القصة آنفا .

(٢) لقد سردنا أحداثها فى حينها .

﴿ ليس للدعوة أغراض شخصية ﴾

« يا قوم لا أسألكم عليه أجراً إن أجرى إلا على الذى فطرنى أفلا تعقلون » (سورة هود آية ٥١)

يقول المفكر الدينى عبد الرزاق نوفل :

إذا لم تكن رسالة الإسلام وحياً من الله سبحانه وتعالى إلى سيدنا محمد ﷺ فإنها تكون دعوة شخصية قام بها ، ولا يمكن أن تكون غير واحد من هذين الأمرين ..

فإن كانت دعوة شخصية ، فإما أن يكون قصد بها تحقيق أهداف خاصة، كنفع مادى ، أو كسب لمركز أدبى ، أو للأمرين معاً .. أو نحو ذلك من عروض الدنيا ..

فهل سعى محمد ﷺ إلى ذلك ؟

كان سيدنا محمد ﷺ يشتغل برعى الغنم منذ حداثته ، وذلك بإتفاق السِّيَر والتواريخ ، وبصحيح حديثه الذى يقول فيه : « بُعث موسى عليه السلام وهو راعى غنم ، وبعث داود عليه السلام وهو راعى غنم ، وبُعثت أنا أرعى غنم أهلى بأجياد »[(١)] .

وظل يرعى الغنم مدداً طويلة . ولا بد أنه قد أصاب من وراء ذلك مكسباً مادياً .. فقد كان رعى الغنم من وسائل الإرتزاق المشهورة عند العرب ، فمعظم الثروات عندهم تتمثل فى الغنم ثم خرج وهو فى باكورة شبابه للتجارة ، ولم يكن يَتَّجِرْ لحسابه حتى يحتمل المكسب والخسارة ، ولكنه كان يخرج على تجارة غيره، الأمر الذى يضمن له عن طريقها ربحاً

----

(١) سبق تخريجه بهذا المعنى .

مادياً مؤكداً، ولما كان اشتهر بين قومه بالأمانة ، فقد أقبل عليه كبار تجار قريش يطلبونه للخروج على تجارتهم .. ثم خرج على تجارة خديجة التى كانت قيمتها تعادل قيمة تجارة قريش مجتمعة أى أنه كان يخرج على نصف تجارة قريش كلها ... وكان نصيبه فى الرحلة الواحدة ضعف ما كان يحصل عليه أكبر رجل خرج على أكبر تجارة ..

لقد أصاب محمد ﷺ ثروة لا شك فيها قبل الرسالة ، ومما يؤكد ذلك أنه عندما أصيبت قريش بأزمة مالية عنيفة ذهب إلى عمه العباس ، وكان من أكثر بنى هاشم يساراً ، وقال له : « إن أخاك أبا طالب كثير العيال ، وقد أصاب ما ترى من هذه الأزمة ، فانطلق بنا إليه فلنخفف من عياله ، آخذ من بنيه رجلاً ، وتأخذ أنت رجلاً فنكفلهما عنه »[١] وأخذ سيدنا محمد ﷺ على بن أبى طالب وأخذ العباس جعفراً .

ألا يدل هذا على أن النبى ﷺ كان فى يسر عمه العباس أو على الأقل أنه كان فى حالة من اليسر سمحت أن يكفل عن عمه أبى طالب ولده ؟؟

ثم ما دفعه صداقاً لزواجه من خديجة ، وقدره عشرون جملاً ، ألا يؤكد لنا أنه كان فى سعة من المال ؟ إذ لم يكن هذا القدر من الصداق شائعا إلا بين الكبار الموسرين .

إن هناك من الشواهد المؤكدة والأدلة القاطعة ما يثبت أن محمداً ﷺ كان على جانب من الثراء .... وأن المال لم يكن ليهتم به إطلاقاً ، فإنه لما أرسل مولاه (زيد بن حارثة » و (أبا رافع) إلى مكة بعد أن هاجر ، من المدينة ببعيرين ليحضرا زوجته (سودة) و (ابنتيه) وهبهما خمسمائة درهم .

---

(١) سبق الحديث عنه فى حينه .

ولقد ظل الرسول ﷺ طوال مدة رسالته تجتمع عنده الأموال من الغنائم والجزية ومن نصيبه المحدد منهما . فينفق ذلك على المسلمين ، وعلى المحتاجين حتى ولو كانوا من غير المسلمين ، بحيث لا تغرب الشمس وفي داره دينار أو درهم ، حتى أنه في مرضه الأخير ، نادى الأنصار وأعطاهم ما بقي لديه من مال ليوزعوه بينهم وقال قوله المعروف : « ما ظن محمد لو لقي الله وهذه عنده ؟ » .

ترى كم كانت ثروته التي أراد أن يوزعها قبل موته ؟ والتي بقيت بعد حياة دامت ثلاثة وستين عاما ؟ .. سبعة دنانير .. ولا أكثر من ذلك ...!

إننا لو تدبرنا آيات القرآن الكريم التي تلاها الرسول ﷺ على قومه ، وأحاديثه التي تحدث بها لصحابته .. نجده يدعو إلى الإنفاق وإلى الصدقات ويطالبهم بالتحرر من استعباد المال في مثل الآيات :

« والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم . يوم يُحمى عليها في نار جهنم فتكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم هذا ما كنزتم لأنفسكم فذوقوا ما كنتم تكنزون »[1] .

« الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سراً وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون »[2] .

«إنما أموالكم وأولادكم فتنة والله عنده أجر عظيم»[3] .

والآيات المشابهة كثيرة ، وتقرر الآية ٨٨ من سورة التوبة حقيقة مؤكدة وهي جهاد الرسول ﷺ بماله في سبيل الله إذ تقول :

« لكن الرسول والذين آمنوا معه جاهدوا بأموالهم وأنفسهم وأولئك لهم الخيرات وأولئك هم المفلحون »[4] .

---

(١) التوبة : من الآية ٣٤ .
(٢) البقرة : ٢٧٤ .
(٣) التغابن ١٥
(٤) سورة التوبة ٨٨ .

أما أحاديثه ﷺ فكثيرة منها ما دعا فيها إلى البذل والجود بالمال ، مثل ما روى عن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال :

« السخى قريب من الله قريب من الجنة قريب من الناس بعيد عن النار ، والبخيل بعيد من الله بعيد من الجنة بعيد من الناس قريب من النار، ولجاهل سخى أحب إلى الله عز وجل من عابد بخيل » .

ومنها ما حبب فى الزهد مثل : إذا أراد الله بعبد خيراً زَهَّدَهُ فى الدنيا وَرَغَّبَهُ فى الآخرة وَبصَّره بعيوب نفسه » وما قاله لحارثه إذ جاء للرسول ﷺ يوما وقال : « يا رسول الله ؛ أنا مؤمن حقا » قال الرسول ﷺ : « وما حقيقة إيمانك ؟ » .

أجاب : « عَزَفْتُ عن الدنيا ، فاستوى حجرها وذهبها ، وكأنى بالجنة والنار ، وكأنى بعرش ربى بارزا »

فقال عليه الصلاة والسلام : « عرفت فالزم .. عبد نَوَّرَ الله قلبه بالإيمان »

وكذلك مثل حديثه : إن أردت أن يحبك الله فازهد فى الدنيا »

ويقرر التاريخ أن النبى ﷺ قام بعمل لم يقم به غيره على وجه الإطلاق، فقد كان يقضى دين المسلم الذى يموت ولا يترك مالاً يقضى به الورثة الدين ، فروى عنه أنه قال ﷺ : « أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم ، فمن مات وعليه دين ، ولم يترك وفاءً فعلينا قضاؤه ، ومن ترك مالاً فلورثته ».

فهل كان النبى ﷺ ، وهذه أحاديثه ، وهذه بعض من وصاياه يبغى المال ؟ ..

وها هو ذا يبدأ الرسالة ، وهو على جانب من الثراء ، ثم يموت فلا يترك شيئاً ....

فكيف يكون هدفه جمع المال ؟

لقد كان يتلو على صحابته كلام الله يدعوهم فيه إلى البذل والجود وعدم جمع المال ، فهل كانوا يتبعونه لو عرفوا عنه أنه يدعوهم إلى مالا يكون هو القدوة لهم فيه ؟ .

إذا لم يكن النفع المادى من أهداف رسول الله ﷺ إذ قام يدعو إلى الإسلام ...

فهل هى الرغبة فى المركز الأدبى والسيادة على القوم ؟

لا يختلف إثنان فى أن رسول الله ﷺ ينحدر من أكرم سلالة وأعرق أصول .. وأن قريشاً كانوا سادة العرب ، فهم أهل الحرم ، ومحمد ﷺ هو سيد قريش قاطبة وابن سيدهم وحفيد كبيرهم ... أما زوجته خديجة فقد كانت موضع إجلال العرب واحترامهم لما امتازت به من خلق كريم ، وعقل راجح وأصل عريق ، علاوة على ثرائها وكثرة مالها ...

فكل إنسان يتمنى لو وصل إلى أقل مما كان الرسول ﷺ فيه .. فهو موضع تقدير العرب كافة ، وزوجته كذلك ، وداره محط أنظار كل طالب رأى ، وبُغية كل من أراد معونة ، أو من كان فى حاجة إلى إكتساب الخلق الكريم ... وهذا ما شاع عن الرسول ﷺ ، وعُرِفَ عنه وَسَطَرَهُ التاريخ ، وذلك قبل الرسالة .

أما بعد أن كُلف بالرسالة ، وجهر بالدعوة فنجده قد لاقى من الأذى مالا سبيل إلى بيانه ، حتى أن أقاربه كذبوه ، ومنهم من إتخذت عداوته له شكل الاعتداء . أما بقية قريش فإنها انقلبت تَسُبُّه وتحاربه وتعتزم قتله !

... فهل كانت دعوته دعوة يهدف بها سيادة أو مركز أدبى ؟؟ !!

إذ بعد أن كان الصادق الأمين ، أطلقوا عليه الأقاويل والأكاذيب ، وبعد أن كان مجلسه يضم القادة العظماء إذ به يقرب إليه المساكين والفقراء قبل الأثرياء والكبراء .

أكان هذا الرجل وهذه حاله قبل الرسالة وبعدها يبغى رفعة فى الدنيا ومركزاً فى قومه ؟

إن فيما عرضه قومه على عمه أبى طالب ورده عليهم الدليل الذى لا يحتاج إلى غيره لبيان ما كان عليه النبى ﷺ . إن الأدلة التى تثبت أن الدعوة لم يكن لها أغراض شخصية أكثر من أن تُحصى أو يتسع لها هذا المجال .

وكان الرسول ﷺ يُحَذِرّ أنصاره من أن يعتبروه أكثر من بشر مثلهم ، وما أجمل وصيته وأحق نصيحته التى يقول فيها لأتباعه :

« لا تطرونى كما أطرت النصارى المسيح ، إنما أنا عبد الله ورسوله ، فقولوا عبد الله ورسولـه » أفكان يبغى مركزاً بين قومه وسيادة على أتباعه ؟ ...

هذه هى دعوة محمد عليه أفضل الصلاة والسلام .. أكان يهدف من ورائها إلى نفع مادى أو كسب دنيوى أو مجد شخصى ؟ لقد تغير حاله بالرسالة من حياة كريمة مستقرة هادئة .. إلى هجرة وجهاد وبذل وتضحية بلا أغراض شخصية أو مطامع دنيوية أو منافع ذاتية .

★★★

﴿ النبى العابد ﴾

يقول الدكتور عبد الحليم محمود :

ألِفَ الرسول ﷺ النسك والعبادة والخلوة طفلاً .. وهكذا النجباء

وإذا حلت الهداية قلباً نشطت فى العبادة الأعضاء

إن أول آية نزلت فى القرآن الكريم إنما هى : « **إقرأ باسم ربك الذى خلق** » (العلق ١)

ولقد كانت هذه الآية الكريمة بوضعها ومفهومها وجوها شعاراً عاماً وتوجيها شاملاً ، فما كانت تعنى بروحها القراءة فحسب ، وإنما كانت تعنى أنه - منذ هذه اللحظة - يجب أن يكون كل أمر باسم الله : فعلاً كان هذا الأمر أو تركاً .

ولقد تأكد هذا الإتجاه وأصبح سافراً فيما بعد ، بل لقد أصبح من الأوامر المفروضة على المسلم ، يقول الله تعالى لرسول الله ﷺ :

« قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين » (الأنعام ١٦٢ - ١٦٣)

على أن المسألة أشمل من ذلك وأعم ، إذا كان يتأتى الشمول والعموم بعد هذا .

إن الله سبحانه وتعالى قد أخبر في قرآنه الكريم ، أنه ما خلق الجن والإنس إلا للعبادة ، يقول سبحانه وتعالى : **« وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون »** (الذاريات ٥٦) .

فغاية الخلق العبادة .. وسبب الخلق العبادة .. والثمرة التي يجب أن يعمل الإنسان على تحقيقها إذن إنما هي : العبادة . ومن هنا كانت التوجيهات المتوالية للعبادة :

« أقم الصلاة لدلوك الشمس إلى غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً . وقل رب ادخلني مُدخل صدق وأخرجني مُخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطانا نصيراً » (الاسراء ٧٨:٨٠) .

« واسجد واقترب » (العلق ١٩)

« واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا . وسبح بحمد ربك حين تقوم ومن الليل فسبحه وإدبار النجوم »[1]

وما من شك في أن الله سبحانه وتعالى لا تضره معصية ، ولا تنفعه طاعة .. إنه سبحانه الغني المطلق والمانح المطلق ، والمعطي المطلق .. إنه سبحانه الوهاب ، الرزاق ، المغني ، إنه القائم بنفسه ، وغيره هو المحتاج ..

---

(١) سورة الطور آية ٤٨ ، ٤٩ .

وما كانت العبادة إلا لأجل تكميل الإنسان ، فمن فضل الله على عباده أن فتح لهم باب الكمال على مصراعيه عن طريق العبادة .. ففائدة العبادة راجعة إلى العابد نفسه فضلا من الله ورحمة إنها راجعة إليه فى الدنيا ، وراجعة إليه فى الآخرة ويشمل الوجهين قوله تعالى :

« من عمل صالحاً من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون »[1] .

ومن عناية الله بالأمة الإسلامية ، وبرسوله الكريم ، أن أول كلمات من الوحى كانت توجيها للرسول وللمسلمين :

بأن تكون أعمالهم كلها عبادة ، ولو كان أكلاً أو شرباً مثلاً ؛ لأن ما كان باسم الله كان عبادة .

واستجاب الرسول ﷺ لهذا التوجيه السامى ، الذى توالى منذ الأيام الأولى للرسالة ، واستمر طيلة الوحى . إن الرسول ﷺ حينما فاجأه الوحى ، فعاد يرجف فؤاده إلى منزله الطاهر وقال : زملونى زملونى ، نزل عليه قوله تعالى : **« يا أيها المزمل قم الليل إلا قليلا نصفه أو انقص منه قليلا أو زد عليه ورتل القرآن ترتيلا »**[2] .

لم يقل الله سبحانه له : يا أيها المزمل لا تخشى بأساً ، أو يا أيها المزمل لا ترع فإن ذلك من عند الله ، وإنما كان الرد على رجفة الفؤاد أمراً بالعبادة . وكذلك الشأن فى كل ما يعترض المسلم من ضيق أو كرب أمر بالعبادة مثل : **« فاصبر على مايقولون ، وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى »**[3] .

---

(١) سورة النحل آية ٩٧ .
(٢) سورة المزمل ١ :٤ .
(٣) سورة طه آية ١٣٠ .

وهنا علق الله سبحانه وتعالى الرضى وطمأنينة النفس ، وسكينة الفؤاد : على التسبيح ، والذكر ، والعبادة ، ويشير الله إلى ذلك أيضا فيقول : « **فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل الغروب ومن الليل فسبحه وأدبار السجود** »[1] .

وإستجاب الرسول ﷺ إستجابة كاملة للتوجيه الإلهى : فجعل من كل أعمال الحياة عبادة ؛ إذ أنه كان يعملها باسم الله .. لقد جعل صلاته ونسكه، وجعل حياته بأكملها بل ومماته أيضا لله رب العالمين ، لقد جعل كلامه ، وصمته ، وجعل حركته وسكونه .. وجعل نومه ويقظته .. بل جعل أنفاسه عبادة لله سبحانه وتعالى .

فكان ذلك توجها به إلى الله فكان عبادة له .. وهذه الاستجابة الكاملة هى التى جعلت من رسول الله ﷺ أول المسلمين .. أولهم منذ خلق الله العالم إلى أن يطوى الله الأرض وما عليها باعتبار أن الدين عند الله - منذ الأزل إلى الأبد - إنما هو الإسلام .

لقد صَيَّر رسول الله ﷺ الحياة كلها عبادة لا تَفْتَر . وإذا ما استحالت إلى عبادة فقد استحالت إلى قوة ، أرأيت حينما تجعل من الجهاد عبادة ، ومن العمل عبادة ومن العلم عبادة ومن الكفاح عبادة ، ومن السعى على المعاش عبادة ، ومن ، ومن ، هل يضعف المجتمع أم يقوى ؟ وهل يأمن أهله أم يخافون ؟ وهل يسعدون أم يشقون ؟

ومهما يكن من شىء ، فقد إستجاب الرسول ﷺ إستجابة تامة لما أراد الله سبحانه وتعالى ، ولقد تحدث الله عن هذه الاستجابة ذاكراً لها فقال سبحانه : « **إن ربك يعلم أنك تقوم أدنى من ثلثى الليل ونصفه وثلثه** »[2] .

---

(١) سورة ق آية ٣٩ - ٤٠ . (٢) سورة المزمل آية ٢٠ .

ونذكر الآن بعض الأحاديث التى تصور هذا الجانب من حياة الرسول ﷺ ومن وراء إيضاح هذا الجانب من حياته ﷺ أهداف :

١ - تأسى المسلمين به قدر الإستطاعة .

٢ - رضاء النفوس وطمأنينة الأفئدة من الناحية النفسية ، فليس هناك من علاج للشك والحيرة والتردد يعادل فى نفاسته العبادة ، والنصيحة المجربة التى تسدى للشاك إنما هى « صَلِّ » .

فالصلاة خير علاج للإضطراب الدينى، بل للإضطراب النفسى أيا كان.

ومتى وجدت النفس المطمئنة - والنفس المطمئنة لا وسيلة لوجودها إلا بالعبادة فإن الكثير من الأمراض الجسيمة نفسها يزول بإقرار أطباء الأجسام أنفسهم ، ثم إنه بإقرار أطباء الأجسام أيضا - لا يكون الإنسان المطمئن عرضة لما يتعرض له غير المطمئن من أمراض جسيمة .

٣ - وهذه الأسوة بالرسول ﷺ التى نرجوها ستكون أيضا سببا فى تفريج الضيق المادى . « **ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض** »(١) .

« **من عمل صالحا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون** »(٢) .

وهذه الأحاديث التى نذكرها لا يوجد فيها حديث ضعيف .

﴿ الصــــلاة ﴾

عن السيدة عائشة رضى الله عنها أن النبى ﷺ كان يقوم من الليل حتى تتفطر قدماه ، فقلت له لماذا تصنع هذا يا رسول الله وقد غفر لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ قال : أفلا أكون عبداً شكوراً ؟ . .

---

(١) سورة الأعراف آية ٩٦ .　　(٢) سورة النحل آية ٩٧ .

أما عن ابن مسعود فقد قال : صليت مع النبى ﷺ ليلة ، فأطال القيام حتى هممت بأمر سوء . قيل : وما هممت ؟ قال : هممت أن أجلس وأَدَعَهُ .

ولعل لابن مسعود رضى الله عنه عذره ، فقد كان صلوات الله وسلامه عليه يقرأ فى الركعة الأولى مثلا سورة البقرة ، وفى الثانية آل عمران ، وكان يطيل القيام ويطيل الركوع ويطيل السجود .. كان يطيل كل ذلك حينما كان يفعله منفرداً فى جوف الليل . أما إذا كان مع الناس فإنه يخفف.

وقد ورد فى السنة الصحيحة : إطالة الرسول ﷺ القراءة فى الركعات التى يصليها فى الليل ، وبسبب هذه الإطالة كانت هذه الركعات لا تتجاوز إحدى عشرة ركعة .

عن عائشة رضى الله عنها : « كان النبى ﷺ يصلى من الليل إحدى عشرة ركعة ، فإذا طلع الفجر صلى ركعتين خفيفتين ثم اضطجع على شقه الأيمن حتى يجىء المؤذن فيؤذِّن » .

وكان الرسول ﷺ يستغرق فى صلاته الليلية ويبكى .

ويقص (مطرف بن عبد الله) عن أبيه قال : « أتيت النبى وهو يصلى ، ولجوفه أزيزٌ كأزيز المرجل (يعنى يبكى) .

وللصلاة أهمية كبرى يوضحها الرسول ﷺ يقول :

« إن بين الرجل وبين الشرك والكفر : ترك الصلاة » .

وكان ﷺ يتوضأ لكل صلاة .

عن أنس رضى الله عنه : كان رسول الله ﷺ يتوضأ لكل صلاة . قيل له : كيف كنتم تصنعون ؟

قال : « يَجْزى أحدَنا الوضوءَ مَالمْ يُحْدثْ »

والأحاديث التالية تبين بعض أحوال الرسول ﷺ فى الصلاة :

كان عند الإقامة يقول : « أقامها الله وأدامها »

« وكان ﷺ إذا قام إلى الصلاة طأطأ رأسه »

قالت عائشة رضى الله عنها : « لم يكن ﷺ على شيء من النوافل أشدَّ تَعاهُداً منه على ركعتى الفجر » .

عن (سماك بن حرب) قال : قلت لـ (جابر بن سمرة) : أكنت تجالس رسول ﷺ ؟

قال : نعم كثيراً ، كان لا يقوم من مُصلاه الذى يصلى فيه الصبح حتى تطلع الشمس فإذا طلعت قام » .

« وكان ﷺ يدخل فى الصلاة فيريد اطالتها ، فيسمع بكاء الصبى ، فيتجوَّز فى صلاته مخافة أن يَشُقَّ على أمه » .

« وكان ﷺ يقرأ بسورة « الجمعة » فى الركعة الأولى وبـ « إذا جاءك المنافقون » فى الثانية .

« وعن (جبير بن مطعم) قال : « سمعت رسول الله ﷺ يقرأ فى المغرب بـ « الطور » » .

« وكان ﷺ يقرأ فى المغرب بـ « المرسلات عُرْفا » وإنها لآخر ما سمعته من رسول الله ﷺ .

« وعن (أم هشام بنت حارثة بن النعمان) قالت : « ما أخذت « **ق والقرآن المجيد** » إلا عن لسان رسول الله ﷺ يقرؤها كل جمعة على المنبر إذا خطب الناس » .

« كان صلوات الله وسلامه عليه يقرأ فى صبح الجمعة « **الم تنزيل الكتاب** ... » (السجدة) « **وهل أتى على الإنسان حين من الدهر** » (سورة الإنسان) « رواه الشيخان من حديث أبى هريره » ، وإنما كان يقرؤهما كاملتين ، وقراءة بعضهما خلاف السنة .

« وكان ﷺ يقرأ فى العيدين وفى الجمعة : بسورة (الأعلى) و(الغاشية) .

وكان « يُكثر أن يقول فى ركوعه وسجوده : سبحانك ربنا وبحمدك ، اللهم اغفر لى »

« وكان ﷺ يقول بين التشهد والتسليم : « اللهم اغفر لى ما قدمت وما أخرت ، وما أسررت وما أعلنت ، وما أسرفت ، وما أنت أعلم به منى ، أنت المقدم وأ نت المؤخر ، لا إله إلا أنت » .

« وفى السجود يقول ﷺ : اللهم إنى أعوذ برضاك من سخطك ، وبمعافاتك من عقوبتك وأعوذ بك منك ، ولا أُحْصِى ثناءً عليك أنت كما أثنيت على نفسك » .

وعن (حذيفة) كان رسول الله ﷺ يقول فى ركوعه : « سبحان ربى العظيم ، وفى سجوده سبحان ربى الأعلى .

(وعن عائشة رضى الله عنها : كان رسول الله ﷺ يكثر أن يقول فى ركوعه وسجوده : « سبحانك اللهم وبحمدك ، اللهم اغفر لى يتأول القرآن » « رواه مسلم » ، ومعنى يَتَأَوَّل القرآن يعمل بما أمر به كما فى قوله تعالى : « **فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا** »[1] .

فكان ﷺ يقول هذا الكلام البديع فى الجزالة المستوفى ما أمر به فى الآية » .

﴿ الصيـــــام ﴾

أما إذا جئنا إلى رمضان ، وإلى الصيام على وجه العموم ، فالأحاديث التالية توضح بعض الأمر : كما أن أحاديث الصلاة التى رويناها إنما بينت إشارات ولمحات فقط ، فكذلك الأمر فى أحاديث الصيام .فرض رمضان فى السنة التالية من الهجرة ، فتوفى سيدنا رسول الله ﷺ وقد صام تسعة

----

(١) سورة النصر آية ٣ .

رمضانات . عن عائشة رضى الله عنها : « كان رسول الله ﷺ إذا دخل العشر الأواخر من رمضان ، أحيا الليل ، وأيقظ أهله وجدّ وشدّ المِئْزَر » .

وعنها قالت : « كان يجتهد فى رمضان مالا يجتهد فى غيره ، وفى العشر الأخير مالا يجتهد فى غيره »

« كان يعتكف العشر الأواخر من رمضان حتى توفاه الله » .

« كان النبى ﷺ يعتكف فى كل رمضان عشرة أيام ، فلما كان العام الذى قبض فيه اعتكف عشرين يوماً » .

إذا دخل العشر الأخير طوى فراشه ، واعتزل النساء ، واغتسل بين الأذانين ، وجعل العَشَاء سحُوراً » .

« روى البخارى عن ابن عمر رضى الله عنهما أنه صلوات الله وسلامه عليه واصل ، فواصل الناس ، فشق ذلك عليهم ، فنهاهم رسول الله ﷺ أن يواصلوا ، قالوا : إنك تواصل ، قال : لست كهيئتكم ، إنى أظل أُطعَمُ وأسقى » .

عن ابن عباس رضى الله عنهما قال : « كان رسول الله ﷺ لا يفطر الأيام البيض فى حضر ولا سفر ، وهى ثلاث عشرة وأربع عشرة ، وخمس عشرة »

وعن حفصة رضى الله عنها : أربع لم يكن النبى ﷺ يدعهن : ١ - صيام عاشوراء . ٢ - والعشر (أى تسع ذى الحجة) ٣ - والأيام البيض من كل شهر . ٤ - وركعتا الفجر .

«كان صلوات الله وسلامه عليه ، يتحرى صيام يوم الإثنين والخميس» .

« وكان النبى ﷺ ، يصوم ثلاثة أيام من غرة كل شهر » .

﴿ ومن العبادة الذكر ﴾

- لا يقعد قوم يذكرون الله إلا حفتهم الملائكة وغشيتهم الرحمة ، ونزلت

عليهم السكينة ، وذكرهم الله فيمن عنده[1] .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : « كان رسول الله ﷺ يذكر الله في كل أحيانه » .

« مثل الذى يذكر الله والذى لا يذكره مثل الحى والميت »

وأفضل الذكرقراءة القرآن[2]

« ومن قرأ حرفا من كتاب الله فله حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول : ألم حرف ، ولكن ألف حرف ولام حرف وميم حرف » .

« إن الذى ليس فى جوفه شىء من القرآن : كالبيت الخرب » .

« إقرءوا القرآن ، فإنه يأتى يوم القيامة شفيعاً لأصحابه »

وبينما جبريل عليه السلام قاعد عند النبى ﷺ سمع نقيضا من فوقه ، فرفع رأسه فقال : هذا باب من السماء فتح اليوم ولم يفتح قط إلا اليوم ، فنزل منه ملك ، فقال : هذا ملك نزل إلى الأرض ، ولم ينزل قط إلا اليوم ، فسلم وقال : « أبشر بنورين أوتيتهما ، لم يؤتهما نبى قبلك : فاتحة الكتاب، وخواتيم سورة البقرة ، لن تقرأ بحرف منها إلا أعطيته »

ولأن لا إله إلا الله : أساس التوحيد ، وتعبير عن التوحيد ، وقد ذكرت بلفظها وبمعناها فى القرآن على أنحاء شتى قال صلوات الله وسلامه عليه : « أفضل الذكر لا إله إلا الله » ،.

عن (أبى موسى) رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : ألا أدلك على كنز من كنوز الجنة ؟ » فقلت : بلى يا رسول الله . قال : « لا حول ولا قوة إلا بالله »

---

(١) راجع كتابنا « قطوف من رياض الجنة » باب « الأذكار والدعوات » ص ٤٣ .

(٢) راجع كتابنا « قطوف من رياض الجنة » باب « القرآن شفاء القلوب » ص ٨٢ .

وكان ﷺ يقول بأعلى صوته :

« لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد ، وهو على كل شيء قدير لا حول ولا قوة إلا بالله ، لا إله إلا الله ولا نعبد إلا إياه ، له النعمة وله الفضل ، وله الثناء الحسن الجميل ، لا إله إلا الله مخلصين له الدين ولو كره الكافرون »

وهذا قليل من أدعية كثيرة عن الحبيب المصطفى ﷺ لا تسعنا مجلدات لذكرها[1] .

« والطهور : شطر الإيمان .. والحمد لله تملأ الميزان

وسبحان الله والحمد لله تملآن ما بين السموات والأرض

والصلاة نور .. والصدقة برهان .. والصبر ضياء .. والقرآن حجة لك أو عليك

كل الناس يغدو ... فبائع نفسه فمعتقها أو موبقها ..

كلمتان خفيفتان على اللسان .. ثقيلتان فى الميزان .. حبيبتان إلى الرحمن سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم .. »

★★★

---

(١) راجع كتابنا « قطوف من رياض الجنة » باب « الأدعية المأثورة عن النبى ﷺ » ص١٨٥ .

﴿ إلام يدعو الإسلام ﴾

كانت رسالة الإسلام دعوة دينية وثورة إجتماعية ونهضة خلقية ، هدفها صلاح البشرية ، وإخراج الناس من الظلمات إلى النور .. هى رسالة كل العهود والأزمان .. أليست هى خاتمة الشرائع والأديان ؟ وكان أول ما دعا إليه القرآن الكريم ، وهو كتاب الرسالة :

الإيمان بالله الذى يرجع إليه كل أمر وأورد صفات الله سبحانه وتعالى فى كثير من الآيات ، لتأكيد الحقيقة الكبرى أنه ليس كمثله شيء، وأن كل ما فى الوجود قد صدر عن إرادته :

« هو الله الذى لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم . هو الله الذى لا إله إلا هو الملك القدوس السلام المؤمن المهمين العزيز الجبار المتكبر سبحان الله عما يشركون . هو الله الخالق البارئ المصور له الأسماء الحسنى يسبح له ما فى السموات والأرض وهو العزيز الحكيم »[١] .

وانه سبحانه لم يلد ، فيكون شأنه شأن البشر ، ولم يولد فيجرى عليه الموت :

« قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد »[٢] .

ولما كان الله هو الخالق ، فكل خلقه عباده فكيف يتخذ ولداً ؟

« وما ينبغى للرحمن أن يتخذ ولداً . إن كل من فى السموات والأرض إلا آتى الرحمن عبدا »[٣] .

---

(١) الحشر : ٢٤ (٢) الإخلاص آيات ١ : ٤ .

(٣) مريم : ٩٢ : ٩٣ .

أليست هذه دعوة التوحيد الخالصة ؟! أما هؤلاء الذين عبدوا غير الله، فقد أقام لهم القرآن الحجة على فساد ما هم فيه فى آيات كثيرة مثل: **« يا أيها الناس ضُربَ مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابا ولو إجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئاً لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب ما قدروا الله حق قدره إن الله لقوى عزيز »**[1] .

ولقد كان بعض العالم قبل رسالة الإسلام ، يعتقد أن البعث بالروح فقط ، أما أغلبه فيؤمن بأنه لا بعث ولا حساب ، فجاءت رسالة الإسلام بحقيقة كبرى هى **أن هناك وراء هذه الحياة حياة أخرى وقيامة وحسابا : «ثم إنكم بعد ذلك لميتون . ثم إنكم يوم القيامة تبعثون»**[2] ، وعندها : **« يومئذٍ يصدر الناس أشتاتاً ليُروا أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره »**[3] .

فهل يمكن للإنسان بعد أن يؤمن بهذا أن يعمل إلا خيراً ؟؟ لاسيما وأن كل عمله قد سجل فى كتاب سينشر يوم القيامة : **« وكل إنسان ألزمناه طائره فى عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا .. إقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا »**[4] .

ولن يغادر الكتاب صغيرة أو كبيرة إلا أوضحها : « ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون يا ويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضراً ولا يظلم ربك أحداً »[5] .

---

(١) الحج : ٧٣ - ٧٤ .

(٢) المؤمنون ١٥ : ١٦

(٣) الزلزلة ٦ ، ٧ ، ٨ .

(٤) الإسراء : ١٣ ، ١٤ .

(٥) الكهف من الآية ٤٩ .

ولم يعامل الإسلام الناس على أنهم ملائكة ، فيطالبهم بالإنزواء عن الحياة الدنيا والبعد عن طيباتها ، ولم يعاملهم كشياطين لا هَمَّ لهم إلا شهوات الدنيا ؛ إنما حث الإنسان على التمتع بالدنيا وخيراتها حلالاً بلا إسراف أو إعتداء مع مراقبة الله وتقواه بمثل الآيات :

« يا أيها الذين آمنوا لا تُحرِّموا طيبات ما أحلَّ الله لكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين . وكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيباً ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون »[1] .

« يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين . قُلْ من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة كذلك نفصل الآيات لقوم يعلمون »[2] .

وحرر الإسلام المجتمع من نظام الطبقات الذى كان سائداً فيه ، وجاء الإسلام ليعلن أن النوع الإنسانى كله إخوة من أب واحد وأم واحدة ، وأنه لا فارق بين أفراده إلا بالتقوى وذلك فى مثل الآية : **« يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم »**[3] .

وفى ضوء هذه الدعوة تحدث سيدنا رسول الله ﷺ فقال :

« يا أيها الناس إن الله تعالى أذهب عنكم نخوة الجاهلية وفخرها بالآباء فكلكم لآدم وآدم من تراب ليس لعربى على عجمي فضل إلا بالتقوى » .

---

(١) المائدة ٨٧ ، ٨٨ . (٢) الأعراف : ٣١ ، ٣٢ .

(٣) الحجرات من الآية ١٣ .

كما حرر الإسلام المرأة من عبوديتها : فقد اختلفت الآراء قبل الإسلام بشأن المرأة فى كل مكان من العالم فمن هذه الآراء من كان يقول : إن المرأة لا روح لها ولا خلود ، ومنها ما قيل عنها : أنها حيوان نجس يجب أن يكم فمها لأن الشيطان إنما يكمن فى لسانها ، وكانت المرأة تُشترى وتباع كأنها متاع ، وقد تُكره على البغاء أو الزواج ، وكانت تُورث ولا تَرث .

فقرر الإسلام للمرأة حقوقها ، وكان القرآن أول تشريع فى تاريخ المرأة ينص على أن لها حقوقاً . بل لأول مرة فى تاريخ البشرية يعلن أن المرأة تشارك الرجل فى بنيان الدولة وأن لها مثل الرجل فى الأجر : « **مَنْ عمل صالحا من ذكر وأنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون** »[1].

« **ومن يعمل من الصالحات من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فأولئك يدخلون الجنة ولا يُظلمون نقيرا** »[2] .

« **للرجال نصيب مما ترك الوالدان والأقربون وللنساء نصيب مما ترك الوالدان والأقربون مما قلّ منه أو كثر نصيباً مفروضاً** »[3] .

« **ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف** »[4] .

« **ولا تكرهوا فتياتكم على البغاء إن أردن تحصنا لتبتغوا عرض الحياة الدنيا** »[5] .

وهل تبلغ الرحمة فى وصية قدر ما يوصى الإسلام بالزوجة بأن تكون عشرتها بالمعروف ، وحتى إن كرهها الزوج ، فلعل فى هذه التى يكرهها

---

(١) النحل : ٩٧ (٢) النساء ١٢٤ .

(٣) النساء ٧: (٤) البقرة من الآية ٢٢٨ .

(٥) النور من الآية ٣٣ .

خيرا كثيرا وذلك بنص الآيه :

« يا أيها الذين آمنوا لا يحلُّ لكم أن ترثوا النساء كرها ولا تعضلوهن لتذهبوا ببعض ما آتيتموهن إلا أن يأتين بفاحشة مبينة وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئا ويجعل الله فيه خيرا كثيرا »[1] .

وإذا كان الزوج والزوجة هما دعامة الأسرة والزواج أول لبنات المجتمع الذى يتكون من مجموعة الأسر لذلك فقد حرص الإسلام على أن تشمل **المحبة والرحمة** أساس الأسرة فى مثل الآيه الشريفة : « **ومَنْ آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا إليها وجعل بينكم مَوَدَّة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون** »[2] .

ثم إن ثمرة الزواج إنجاب الأولاد ، ولما كانت الدراسات العلمية تقول إن الإنسان قد غرست فيه محبة أولاده، وذلك عن طريق الأب الأول آدم الذى أحسَّ بحب أولاده .. ولكن لم يكن له أب ، فيشعر بالحب له ، لذلك كان لابد أن يطالب الإبن بحب أبيه، فكرم الإسلام الوالدين تكريما يتجلى فى مطالبة الإنسان بالإحسان إليهما ، ولا ينهرهما ، ويتلطف فى قوله لهما مهما كان الأمر وذلك بنص الآيات : « **وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحسانا إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أف ولا تنهرهما وقل لهما قولا كريما واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا** »[3] .

----

(١) النساء : ١٩

(٢) الروم : ٢١

(٣) الإسراء ٢٣ ، ٢٤

بل تمتد الرحمة بالوالدين إلى أبعد من ذلك ، فيوصى الإسلام الإنسان بوالديه حتى ولو جاهداه على أن يشرك بالله فلا يقاتلهما ، ولا يقاطعهما ، إنما لا يطعهما ويصاحبهما بالرغم من ذلك فى الدنيا معروفا وذلك بنص الآيات : « **ووصينا الإنسان بوالديه حملته أمه وهنا على وهن، وفصاله فى عامين أن اشكر لى ولوالديك إلى المصير وإن جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما وصاحبهما فى الدنيا معروفا** »[1] .

ودعا الإسلام إلى أسمى ما تدعو إليه الأخلاق فطالب بعدم أكل الأموال بالباطل بنص الآية :

« **يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل**»[2].

ورغبة الأنسان فى أخذ أكثر من حقه هى أفة المجتمع أيا كان هذا المجتمع، ويعجز المصلحون فى كل عهد عن إصلاح هذه الناحية من الإنسان ... وخطورتها ترجع إلى أنها هى السبيل إلى الرشوة والسُحْت وهاهوذا الإسلام ينهانا عن ذلك فى الآية الشريفة :

« **ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون**»[3] .

أما العدالة : فلا تبلغ أى قوانين وضعية ، أو وصايا إنسانية قدر ما بلغه الإسلام ، إذ يطالبنا بالعدل المطلق حتى ولو كان الحق للعدو :

« **يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا إعدلوا هو أقرب للتقوى** »[4] .

---

(١) لقمان : ١٤ ، ١٥
(٢) النساء من الآيه : ٢٩
(٣) البقرة : ١٨٨
(٤) المائدة من الآية ٨

ولا يقتصر العدل على المعاملة ، إنما حتى فى القول ولو كان على قريب بنص الآية : « **وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون** »(١)

وشن الإسلام حملة كبيرة على الظلم فبلغت الآيات التى تنهى عن الظلم وتصور أشكاله أكثر من ثلاثمائة آية نذكر منها : « **إنما السبيل على الذين يظلمون الناس ويبغون فى الأرض بغير الحق أولئك لهم عذاب أليم** »(٢)

واوصى الإسلام بالأمانة : وجعل رَدَّها أمراً صريحاً من الله سبحانه وتعالى بنص الآية الشريفة :

« **إن الله يأمركم أن تؤدوا الأمانات إلى أهلها** »(٣) ، «**فإن أمن بعضكم بعضا فليؤدِّ الذى أؤتمن أمانته وليتق الله ربه** »(٤) .

ونبذ الخيانة نبذاً تاماً فى مثل الآيات : « **ولا تكن للخائنين خصيما** »(٥) ، « **وأن الله لا يهدى كيد الخائنين** »(٦) بل إن الإسلام أمر الإنسان إذا استشعر من قوم خيانة ، وعمل على دفعها ، فلابد أن يشعر الأعداء بذلك حتى يكونوا على بينة من أمرهم وذلك بنص الآية الشريفة .

« **وإما تَخَافَنَّ من قوم خيانة فانبِذْ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين** »(٧) .

---

(١) الأنعام من الآية ١٥٢ .
(٢) الشورى ٤٢
(٣) النساء من الآية ٥٨
(٤) البقرة من الآية ٢٨٣
(٥) النساء من الآية ١٠٥
(٦) يوسف من الآية ٥٢ .
(٧) الأنفال : ٥٨

فهل يبلغ السمو فى الأخلاق إلى مثل هذا الحد فى أى دعوة مهما كانت ومهما كان الداعى لها إلا دعوة الإسلام ؟ ولم يترك الإسلام أى جانب فى خلق الإنسان إلا أوصى به ، وأورد أصوله فالصبر ، والوفاء ، ودفع السيئة بالحسنة ، والمجادلة ، والمجادلة بالتى هى أحسن ، حتى البيع والشراء ، والاقتضاء والقضاء بل تحية المسلم للناس ، والاستئذان فى دخول مسكن ، وكل ما يمس حياة الإنسان بالنسبة لربه أو نفسه ، أو غيره ، أو مجتمعه الصغير الذى يتمثل فى أسرته ، أو الكبير الذى هو وطنه .. أو المجتمع العالمى العام .. ولا يتسع المجال لأن نورد أمثلة لآيات الأخلاق فى القرآن ، فيكفى أن يتدبر الإنسان أى آية من آيات القرآن ليجد أن فيها دعوة هادفة إلى الخلق الحسن والحياة الكريمة . فإن الآية الشريفة ١٧٧ من سورة البقرة التي نصها : « **ليس البرأن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون** » .

تجمع كل المقومات المثالية لخلق جماعة صالحة متراحمة .

ولم يكتف الإسلام بوضع الأسس الصالحة لبناء المجتمع المثالى من ناحيته الخلقية .. بل حدد النظام الإقتصادى لهذا المجتمع ، فإذا به يدعو إلى قيام مجتمع يعمل فى كل قطاعات العمل :

« **وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله** »[1] .

---

(١) التوبة من الآية ١٠٥ .

« **ولقد آتينا داود منا فضلا يا جبال أوبى معه والطير وألنا له الحديد . أن اعمل سابغات وقدر فى السرد واعملوا صالحا إنى بما تعملون بصير** »[1] ، « **فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون** »[2] .

وما أروع حديث سيدنا رسول الله ﷺ الذى قرر فيه أن من أحسن الظن بالله أتقن العمل إذ نص الحديث : « ليس الإيمان بالتمنى ولكن الإيمان ما وقر فى القلب وصدقه العمل . إن قوماً خرجوا من هذه الدنيا ولا حسنة لهم وقالوا : نحسن الظن بالله ... كذبوا ، لو أحسنوا الظن لأتقنوا العمل » .

وشجع الإسلام قيام الملكيات الفردية فى أى صورة كانت هذه الملكيات :

« **وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا** »[3]

« **فآتاهم الله ثواب الدنيا وحسن ثواب الآخرة والله يحب المحسنين** »[4]

ولم يحاول الإسلام أن يساوى بين الناس فى أملاكهم : « **والله فضل بعضكم على بعض فى الرزق فما الذين فُضّلوا برادى رزقهم على ما ملكت أيمانهم فهم فيه سواء** »[5] ، « **نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون** »[6] .

---

(١) سبأ : آية ١٠ ، ١١ .
(٢) الجمعة : ١٠
(٣) القصص : من ٧٧
(٤) آل عمران آية ١٤٨
(٥) سورة النحل : ٧١
(٦) الزخرف من ٣٢ .

ولكنه طالب التحرر من سيطرة المال وذلك بإنفاقه فى الزكاة وإخراجها من الأمور الواجبة ، فهى ركن من أركان الإسلام « **وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة** »[1] ، وكذلك الصدقات : « **إن تبدوا الصدقات فنعما هى وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم** »[2]

وآيات الإنفاق كثيرة مثل : « **يا أيها الذين آمنوا أنفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم لا بيع فيه ولا خلة ولا شفاعة والكافرون هم الظالمون**[3]

ويهدف الإسلام بذلك إلى قيام دولة اشتراكية فيها ملكيات فردية يعيش أفرادها جميعا وقد توافرت حاجاتهم ، على ألا تكون الملكيات كبيرة: « **ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فلله وللرسول ولذى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كى لا يكون دولة بين الأغنياء منكم** »[4]

وهكذا وضع الإسلام نظاماً إقتصادياً هو السبيل إلى قيام السلام فى المجتمع ، إذ أن التفاوت الشديد بين الأفراد يسبب الحقد والكره ، وما ثورات الجماعات إلا بإحساسها أن فقيرها تخلفت عنه كل وسائل المعيشة ، وأنه فى واد والمجتمع فى واد آخر .

والنظام السياسى للمجتمع الإسلامى إشتراكى كذلك : «**وأمرهم شورى بينهم** »[5] . **وتعاونى** : « **وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان** »[6]

---

(١) المزمل من الآية ٢١
(٢) البقرة من الآية ٢٧١
(٣) البقرة ٢٥٤
(٤) الحشر من الآية ٧ .
(٥) الشورى من الآية ٣٨
(٦) المائدة من الآية ٢ .

ويتميز أفراده علاوة على طاعتهم لله ورسوله **بطاعة أولى الأمر** الذين لابد أن يكونوا منهم : « **يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم** »[1]

وهكذا يأمرنا الإسلام **بعدم طاعة المستعمر . وعدم الاستسلام له أو الرضابه** . فكل من تولى علينا وليس منا **فلا طاعة له بل جهاده .**

وكذلك **طالبنا الإسلام بالجهاد فى سبيل تحرير المسلمين** من سيطرة غيرهم عليهم أيا كان وطنهم بنص الآية : « **وما لكم لا تقاتلون فى سبيل الله والمستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين يقولون ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها واجعل لنا من لدنك وليا واجعل لنا من لدنك نصيرا** »[2] .

★★★

---

(١) سورة النساء من الآية ٥٩

(٢) سورة النساء : ٧٥ .

﴿ الإسلام لم ينتشر بالسيف ﴾

مضى رسول الله ﷺ لينشر الدعوة .. وما دعا إلى الإسلام إلا بالحسنى بل أنه كان يأمر أصحابه بأنه إذا لزم الأمر فَجَادَلوا أهل الكتاب أن يكون ذلك بالتى هى أحسن عملاً بقوله تعالى : « **ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتى هى أحسن** »[1] .

« **أدع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين** »[2] .

لم يمتشق الرسول سيفه إلا إذا اضطر إليه دفاعاً لا عن نفسه بل عن دين الله ، وأهل دين الله إذ لا إكراه فى الدين بنص القرآن الكريم : « **لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى** »[3] .

فإذا أظهر المهاجمون الخصوم أى رغبة فى السلام سارع الرسول ﷺ إليها وذلك عملاً بآيات الله : « **وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم** »[4] .

وهكذا لم يطالب الإسلام أصحابه بنشر دينه بالسلاح ، ولم يدع إلى القتال إلا لرد عدوان على المسلمين بالنص الشريف : « **فمن إعتدى عليكم فاعتدوا عليه بمثل ما اعتدى عليكم** »[5] .

« **ولا تقاتلوهم عند المسجد الحرام حتى يقاتلوكم فيه فإن قاتلوكم فاقتلوهم كذلك جزاء الكافرين** »[6] .

---

(١) سورة العنكبوت : ٤٦

(٢) سورة النحل : ١٢٥ .

(٣) سورة البقرة من ٢٥٦ .

(٤) الأنفال : ٦١

(٥) سورة البقرة : من الآية ١٩٤

(٦) سورة البقرة من الآية ١٩١

أو لرد عـدوان على دين الله : «**وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين**»[1] .

وهكذا احتفظ الإسلام بالسلام ، وحافظ على عزة المسلمين وكرامتهم اللتين يجب ألا يعتدى عليها أحد وليس أدل على حرص الرسول ﷺ على نشر دين الله بالسلم من عهده الذى عاهد به قريشا بعد ثمانية عشر عاما من بعثه وهو « عهد الحديبية » .

ويوم فتح مكة ومقولته المشهورة ﷺ التى ارتفعت به فوق الإنسانية ، وبلغ بها درجة من النبل ما بلغها إنسان : « يا معشر قريش ، ما ترون أنى فاعل بكم ؟ » وإجابتهم عليه : خيراً أخ كريم وابن أخ كريم . ويقول لهم الرسول ﷺ : « فإنى أقول ما قال يوسف لإخوته : « **لا تثريب عليكم اليوم اذهبوا فأنتم الطلقاء** »[2] .

أبعد هذا دليل أو حجة على أن الإسلام لم ينتشر بالسيف ؟ وهل بلغ فى العالم تسامح قدر ما بلغ تسامح المسلمين مع غيرهم ؟

ولقد اعترف بذلك بعض المنصفين من غير المسلمين ، فهذا « جوستاف لوبون » يقول عن المسلمين فى كتابه (حضارة العرب)[3] « لم يفرضوا بالقوة دينهم الجديد الذى كانوا يريدون بثه فى أقطار العالم ، ولو عملوا ذلك لأهاجوا عليهم جميع الشعوب التى لم تخضع لهم ، لقد أدركوا أن الأوضاع والأديان لا تفرض على الناس بالقوة ، ورأيناهم حيث دخلوا فى الشام ومصر وأسبانيا يعاملون الشعوب بمنتهى الرفق تاركين لهم أنظمتهم ومعتقداتهم . وما عرفت الشعوب فاتحا بلغ هذا القدر من المسامحة ، ولا دينا حوى فى مطلويه هذه الرقة وهذا اللطف وكان أهم سبب دعا إلى قبول دينهم وأوضاعهم ولسانهم » .

---

(١) سورة البقرة : ١٩٣ . (٢) سبق تخريجه فى (فتح مكة)

(٣) عن كتاب عبد الرزاق نوفل (محمد رسولا نبيا)

ويقول « كارلايل» الفيلسوف في كتابه (الأبطال) : « ولقد قيل كثير في شأن نشر محمد دينه بالسيف ولشد ما أخطأوا وجاروا ، فهم يقولون : ما كان الدين ينتشر لولا السيف .. ولكن ما هو هذا السيف ؟ إنه قوة هذا الدين وإنه حق . إن الرأى الجديد أول ما ينشأ يكون فى رأس رجل واحد ، فالذى يعتقده هو فرد ، فرد ضد العالم أجمع ، فإذا تناول هذا الفرد سيفاً ، وقام فى وجه الدنيا فقلما والله يضيع إن كان ما يقوله حقاً . إن الحق ينشر نفسه بأى طريقة .

لندع الحقائق تكافح وتجاهد بأيديها وأرجلها وأظافرها فإنها لن تهزم إلا ما كان يستحق أن يُهْزَمْ وليس فى طاقتها قط أن تفنى ما هو خير منها ، بل ما هو أحط وأدنى ، فإنها حرب لا حَكَم فيها إلا الطبيعة ونعم الحَكَم ، ما أعدل وما أقسط وما كان أعمق جذوراً فى الحق وأبعد إعراقا فى الطبيعة فذلك هو الذى ترونه بعد الهرج والمرج والضوضاء والجلبة نامياً زاكياً وحده » .

ويقول « جيمس متشنر » : « اعتقد الغرب أن توسع الإسلام ما كان يمكن أن يتم لو لم يعمد المسلمون إلى السيف ، ولكن الباحثين لم يقبلوا هذا الرأى ، فالقرآن صريح فى تأييده لحرية العقيدة ، والدليل قوى على أن الإسلام رَحَّبَ بشعوب مختلفة الأديان مادام أهلها يحسنون المعاملة .

وقد حرص محمد على تلقين المسلمين التعاون مع أهل الكتاب أى اليهود والنصارى ، ولاشك أن حروبا نشبت بين المسلمين وغيرهم فى بعض الأحيان ، وكان سبب ذلك أن أهل الديانات الأخرى أصروا على القتال . وفى القرآن آيات تصور العنف الذى استخدم فى هذه الحروب ، ولكن الرهبان قطعوا بأن أهل الكتاب كانوا يعاملون معاملة طيبة ، وكانوا أحراراً فى عباداتهم . ولعل مما يقطع بصحة ذلك الكتاب الذى أرسله (البطريرك النسطورى إيشوياب الثالث (إلى البطريرك (سمعان) زميله فى المجمع

بعد الفتح الإسلامى وجاء فيه : « ها أن العرب الذين منحهم الرب سلطة العالم وقيادة الأرض أصبحوا عندنا ومع ذلك نراهم لا يعرضون للنصرانية بسوء فهم يساعدوننا ويشجعوننا ، ويعاونون بالمال الكنائس والأديرة » .

لقد انتشر الإسلام فى البلاد التى عرفت عقائده وأهدافه ولأسباب كثيرة ليس من بينها الحرب أو القتال وما أصدق ما يقوله المؤرخ العالمى (هـ . ج ويلز) فى كتابه (معالم تاريخ الإنسانية) وهو يحقق أسباب إنتشار الإسلام فيقول : « لقد تم فى خمس وعشرين ومائة من السنين أن نشر الإسلام لواءه من نهر السند إلى المحيط الأطلسى ، وأسبانيا ، ومن حدود الصين إلى مصر العليا » .

ولقد ساد الإسلام لأنه كان خير نظام إجتماعى وسياسى استطاعت الأيام تقديمه ، وهو قد انتشر لأنه كان يجد فى كل مكان شعوبا بليدة سياسيا ، تسلب وتظلم وتخوف ، ولا تعلم ولا تنظم ، كذلك وجد حكومات أنانية سقيمة لا إتصال بينها وبين أى شعب أصالة .

كان أوسع وأحدث وأنظف فكرة سياسية إتخذت سِمَةَ النشاط الفعلى فى العالم حتى ذلك اليوم ، وكان يهب بنى الإنسان نظاما أفضل من أى نظام آخر » .

لقد كان يكفى أن يصل إلى أى دولة فرد مسلم تاجر أو صانع فى تجارة أو عمارة ، فلا يلبث بعد أن يستمع إليه الناس ويلمسوا فيه خلق الإسلام أن ينطلقوا سراعاً إلى ما يحبيهم دنيا وآخرة .. إلى دين الإسلام .

فها هى ذى الفلبين يصل إليها فى عام ١٨٣٠ عالم مسلم هو المرحوم (كريم المخدومى) العربى الجنس ، فيدعو إلى الإسلام ، فيستجيب هناك الأهالى وتصبح الفلبين الآن وبها ثلاثة ملايين مسلم . وهذه غانا التى أصبح عدد المسلمين بها حوالى خمسة ملايين مسلم يمثلون ثلاثة أرباع السكان ، وهم متمسكون بالدين تمكسا يتمثل فى قول رئيسيهم فى إجتماع إسلامى :

« إن الفرد منا يعرف أن الإسلام هو الدين . وأن الدين هو الاسلام ، فليس هناك فرق بين الدين والاسلام » والصومال التى أصبحت دولة إسلامية ودخلت ضمن صحبة البلاد الإسلامية الطاهرة ، ولقد أسلم كل أهلها وعددهم ثمانية ملايين مسلم . وزامبيا التى يزداد تعداد المسلمين فيها فتكاد تصبح وكل أهلها مسلمون . وسيام التى بها ثلاثة ملايين مسلم ، والكنغو الذى يزيد عدد المسلمين فيه على مليون . وغنيا التى بها ثلاثة ملايين من المسلمين ، وتشاد التى تتوسط أفريقيا وبها أربعة ملايين مسلم يمثلون أغلبية ساحقة من عدد السكان .

والدولة الكبرى نيجريا التى بها ثلاثون مليون مسلم .. هذا إلى غير البلاد الإسلامية .

ولا يقتصر إنتشار الإسلام على أفريقيا كما قد يظن ، بل إنه إنتشر فى أوربا وآسيا وأمريكا .

وإنتشر فى العصر الحديث ، وأعتقد أنه لم يذكر إنسان أن المسلمين جردوا جيوشا إلى كل هذه الأمصار فى العصر الذى نعيش فيه .

فها هى ذى روسيا التى يبلغ عدد سكانها مائتى مليون منهم خمسة وأربعون من المسلمين وها هى ذى يوغوسلافيا بها مليونان من المسلمين ، والصين التى بها واحد وخمسون مليون مسلم ، والباكستان الدولة الاسلامية التى يزيد عدد المسلمين بها على ثمانين مليونا من المسلمين هم عددسكانها ، وأمريكا التى أصبح عدد الولايات التى سجل المسلمون فيها جماعاتهم أكثر من ثلاثين ولاية من الولايات الخمسين .. لم يعد هناك دولة أو بلد فى أى جهة من جهات العالم مادام فيه أحياء فإن فيه الاسلام .. وفيه من يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله .

★ ★ ★

﴿ رحمة الله بعباده كثرة الرسل ﴾

تتجلى رحمة الله سبحانة وتعالى بالعباد فى عدد ما أرسله من الرسل والأنبياء للهداية ، فقد قبل إنهم بضعة آلاف ، وقيل : إنهم ٢٤ ألفا ، ولكن الأمر المتفق عليه أنهم كثرة تؤكد رحمة الله الواسعه بعباده .

وهكذا تتابعت الرسالات والرسل كلما دعت الحاجة فى قوم إلى الهدايه، حتى إنتهت الرسالات بالرسالة الأخيرة التى أنزلها الله على خاتم رسله وأنبيائه سيدنا محمد ﷺ ، وما كان بدعا من الرسل ، وما اختلفت رسالته عن غيرها إلا فى أنها أكملت ما سبق ،وأتمت ما نزل فمصدرها كلها الواحد الأحد سبحانه وتعالى ، وهدفها الإيمان بالله والبعث والحساب ، وما يتبع ذلك من ترك الشر والإتجاه إلى الخير ، فلما أراد الله أن يتم على العباد نعمته ، ويكتمل للبشرية دينها أرسل نبى الإسلام بآخر الأديان ليكون دينا عاما للبشر جميعا ، وما أرسله لقومه كما أرسل باقى الرسل والنبيين ، ولكن للناس جميعاً إذ يقول عز وجل :

« **وما أرسلناك إلا كافة للناس بشيراً ونذيراً** »[1] «**قل يا أيها الناس إنى رسول الله اليكم جميعاً** »[2] لذلك وجب على المسلمين تبليغ هذه الدعوة إلى البلاد التى لم تبلغها ، أو بلَّغتها محرَّفه ... وما أيسر التبليغ إذ ما أكثر أوجه الإقناع بالإسلام .

----

(١) سورة سبأ من الآية : ٢٨

(٢) الأعراف من الآيه : ١٥٨

﴿ طبيعة الرسالة الخاتمة ﴾

قال الشيخ الفاضل محمد الغزالى :

تمتاز بعثة محمد ﷺ بأنها عامة ودائمة والله عز وجل كان يستطيع أن يبعث فى كل قرية نذيرا ، ولكل عصر مرشدا ، وإذا كانت القرى لا تستغنى عن النذر ، والأعصار لا تستغنى عن المرشدين ، فلم استعيض عن ذلك كله برجل فذ ؟

الحق أن هذا الإكتفاء أشبه بالإعجاز الذى يحصل المعنى الكثير فى اللفظ اليسير .

وبعثة محمد عليه الصلاة والسلام كانت عوضا كاملا عن إرسال جيش من النبيين يتوزع على الأعصار والأمصار، بل إنها سدت مسد إرسال ملك كريم إلى كل إنسان تدب على الأرض قدماه ، ما بقيت على الأرض حياة ، وما تطلعت عين إلى الهدى والنجاة ... ولكن كيف كان ذلك ؟

فى المزالق المتلفة قد يقول لك ناصح أمين : إغمض عينيك واتبعنى ، ولا تسلنى عن شئ يستثيرك ! وربما تكون السلامة فى طاعته .. فأنت تمشى وراءه حتى تبلغ مأمنك ... إنه فى هذه الحالة رائدك المعين .. الذى يفكر لك .. وينظر لك .. ويأخذ بيدك فلو هلك هلكت معه .

أما لو جاءك من أول الأمر رجل رشيد فرسم خط السير ، وحذَّرك مواطن الخطر ، وشرح لك فى إفاضة ما يطوى لك المراحل ويهون المتاعب .. وسار معك قليلا ليدربك على العمل بما علمت فأنت فى هذه الحالة رائد نفسك تستطيع الإستغناء بتفكيرك وبصرك عن غيرك .

إن الوضع الأول أليق بالأطفال والسُذَّج ، أما الوضع الأخير فهو المفروض عند معاملة الرجال وأولى الرأى من الناس .

والله عـز وجل عندما بعث محـمـداً ﷺ لهداية العالم ضمن رسالته الأصول التى تفتق للألباب منافذ المعرفة بما كان ويكون .

والقرآن الذى أنزله على قلبه هو كتاب من رب العالمين إلى كل حى ، ليوجهه إلى الخير ويلهمه الرشد .

لم يكن محمد ﷺ إماما لقبيل من الناس صلحوا بصلاحه ، فلما إنتهى ذهبوا معه فى خير كان ، بل كان قوة من قوى الخير ، لها فى عالم المعانى مالاكتشاف البخار والكهرباء فى عالم المادة وإن بعثته لتمثل مرحلة من مراحل التطور فى الوجود الإنسانى، كان البشر قبلها فى وصاية رعاتهم أشبه بطفل محجور عليه ، ثم شَبَّ الطفل عن الطوق، ورُشِّح لاحتمال الأعباء وحده .

وجاء الخطاب الإلهى إليه - عن طريق محمد ﷺ - يشرح له كيف يعيش فى الأرض وكيف يعود إلى السماء ، فإذا بقى محمد ﷺ أو ذهب ، فلن ينقص ذلك من جوهر رسالته .. إن رسالته تفتيح الأعين والآذان ، وتجلية البصائر والأذهان ، وذلك مُودَع فى تراثه الضخم من كتاب وسنة .

إنه لم يُبعث ليجمع حول إسمه أناسا قَلُّوا أو كثروا ، إنما بُعِثَ صلة بين الخلق والحق الذى به يصح وجودهم ، والنور الذى يبصرون به غايتهم .

فمن عرف فى حياته الحق ، وكان له نور يمشى به فى الناس فقد عرف محمداً ﷺ ، واستظل بلوائه وإن لم ير شبحه ويعش معه .

« يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل ويهديهم إليه صراطاً مستقيماً »[1] .

---

(١) النساء ١٧٤ ، ١٧٥ .

فإذا رأيت بعض الناس يتناسى دروس الأستاذ ، ويتشبث بثيابه وهو حي، أو يتعلق برفاته وهو ميت ، فاعلم أنه طفل غرير ليس أهلا لأن يخاطب بتعاليم الرسالة .

إن الذين يفقهون رسالته ويحيونها من وراء الرمال والبحار أعرف بحقيقه محمد ﷺ إن القرابة الروحية والعقلية هى الرباط الوحيد بين محمد ﷺ ومن يمتون إليه .

إنك لن تحب لله إلا إذا عرفت أولا الله الذى تحب من أجله فالترتيب الطبيعى أن تعرف قبل كل شئ :

من ربك ؟ وما دينك ؟ فإذا عرفت ذلك بعقل نظيف - وزنت - بقلب شاكر - جميل من بلَّغك عن الله ، وتَحَمَّل العنت من أجلك .. وذاك معنى الآثر :

« أحبوا الله لما يغذوكم به من نعمة ، وأحبونى بحب الله »[1] ومعنى الآيه :

« قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يُحْبِبْكُمُ الله ويغفر لكم ذنوبكم والله غفور رحيم »[2] .

ثم إن نبى الإسلام لم ينصب نفسه « بابا » يهب المغفرة للبشر ويمنح البركات ... إنه لم يفعل ذلك يوماً من الأيام ، لأنه لم يشتغل بالدجل قط.

---

(١)حديث ضعيف الإسناد أخرجه الترمذى (٤/٣٤٣-٣٤٤) بشرح التحفة والحاكم (٣/١٥٠) وأبو نعيم فى (حلية الأولياء) (٣/٢١١) والخطيب فى تاريخه (٤/ ١٦٠) من طريق هشام بن يوسف عن عبد الله بن سليمان النوفلى .

(٢) آل عمران : ٣١

إنه يقول لك : تعال معى ، أو إذهب مع غيرك من الناس لتقف جميعا في ساحة رب العالمين نناجيه : « **إهدنا الصراط المستقيم صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين** » (الفاتحة آيه ٥:٧) فإذا رضى عنك - هذا النبى - دعا الله لك ... وإذا رضيت أنت عنه ، ووقر في نفسك جلال عمله وكبير فضله فادع الله كذلك له ... فإنك تشارك بذلك الملائكة الذين يعرفون قدره ويستزيدون أجره « **إن الله وملائكته يصلون على النبى يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما** »[١] .

وليس عمل محمد ﷺ أن يَجُرُّك بحبل إلى الجنة ، إنما عمله أن يقذف في ضميرك البصر الذى ترى به الحق ، ووسيلته إلى ذلك كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، مُيسَّر للذكر محفوظ من الزيغ ، وذاك سرُّ الخلود في رسالته .



﴿ القرآن روح الإسلام ومادته ﴾

يقول العالم الفاضل عبد الرزاق نوفل :

تحدثنا عن هدف الدعوة أنه ينحصر في عبادة الله وحده .. وعن تصرفات الرسول ﷺ الفردية ، ومع غيره ، وعن عبادته ،ووجدنا إنها إنما تنبعث من القرآن الكريم الذى أنزله الله تعالى عليه ، وتلاه على قومه ليكون دستوراً للحياة .

لذلك فإنه لمعرفة ما كان عليه الرسول ﷺ يكفى أن نرجع إلى القرآن الكريم . أليس الرسول ﷺ أول من إستمع إلى القرآن وهو يوحى إليه ؟ .

---

(١) الأحزاب ٥٦ .

وأليس هو أول من يتبع ما يؤمر به ؟ فهل دعا القرآن الكريم إلى غيرالله ؟

لقد تردد لفظ الجلالة فى القرآن الكريم أكثر من ٢٦٤٠ مرة غير ما تكرر من صفاته كالغفور والحكيم ... وقد وردت أكثر من ٩٩ مرة ، والقدير حوالى ٦٢ مرة ، والرحمن ٥٧ مرة تقريباً والرحيم فيما يقرب من ١١٥ مرة وأنه الخالق فى حوالى ١٨٠ آية .

وقد طالبنا القرآن الكريم بعبادة الله حوالى ٢٧٩ مرة .. وكرر العبادة لله وحده ولا نشرك به شيئا ٢١ مرة ، كما قرر القرآن فى كثير من الآيات أن الله سبحانه وتعالى ليس إله أمّة بعينها ، ولا الناس وحدهم ، بل هو إله كل شئ « رب العالمين » وأنه هو سبحانه خالق كل شئ : « **الله الذى خلق السموات والأرض وما بينهما** »[1] .

وأنه جل شأنه قد أحاط بكل شئ علما ، فليس هناك صغيرة ولا كبيرة إلا يعلمها :

« **وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين** »[2] ، « **إن الله بكل شئ عليم** »[3]وكل ما حولنا وما نراه إنما صدر بأمره وحده :« **الله الذى سخر لكم البحر** »[4]، « **الله الذى رفع السموات بغير عمد ترونها** »[5]

---

(١) سورة السجده من الآيه : ٤

(٢) الأنعام : ٥٩

(٣) الأنفال من آيه : ٧٥

(٤) الجاثية من الآية ١٢.

(٥) الرعد من الآيه :٢

« **والله جعل لكم الأرض بساطا** »[1] ، « **وهو الذى يرسل الرياح بشرا بين يدى رحمته** »[2].

ولا يأخذ الأمر منه شيئاً : « **إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون**»[3] .

وأنه سبحانه وتعالى واحد لا شريك له : « **فاعلم أنه لا إله إلا الله**»[4]، « **وما من إله إلا إله واحد** »[5] ، وأنه لم يلد ولم يولد وليس له كفوا أحد : « **قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد** »[6] .

ويقرر القرآن الكريم أنه لاكهانه فى الإسلام ، ولا وساطة بين العبد وربه ، فأينما كان المرء لا يحتاج إلى أحد ليتصل بربه : « **وهو معكم أينما كنتم** »[7] ، « **ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله** »[8] .

أما الرسل فليس عليهم إلا البلاغ : « ما على الرسول إلا البلاغ »[9] . وليس لهم من الأمر شئ : « **ليس لك من الأمر شئ أو يتوب عليهم أو يعذبهم** »[10] ، « **ليس عليك هداهم ولكن الله يهدى من يشاء** »[11] .

----

(١) نوح : ١٩
(٢) الأعراف من الآية : ٥٧
(٣) يس : ٨٢
(٤) محمد : من الآية : ١٩
(٥) المائدة من الآية : ٧٣
(٦) سورة الإخلاص آية ١:٤
(٧) الحديد من الآية :٤
(٨) البقرة : ١١٥
(٩) المائدة : من الآية : ٩٩
(١٠) آل عمران من الآيه :١٢٨
(١١) البقرة : من الآية : ٢٧٢

وإذا تدبرنا عدد المرات التى تكرر فيها أسماء الأنبياء والرسل نجد أن الرسول محمدا ﷺ أقلهم تكراراً ... فقد ورد اسمه خمس مرات .. بينما ورد اسم اسماعيل ١٢ مرة ، وداود ١٦ مرة ، وإسحق ١٧ مرة ، وهارون ٢٠ مرة ، ولوط ٢٧ مرة ، ونوح ٣٣ مرة وعيسى ٣٨ مرة ، وابراهيم ٦٩ مرة، وموس ١٣٦ مرة .



﴿ القرآن يشرح حقيقه الدين ﴾

واتساق القرآن فى أغراضه ومعانيه - على طول المدة التى استغرقها فى تجمعه - يعتبر من وجوه إعجازه فإن خواتيمه - بعد ربع قرن - جاءت مساوقه لفواتحه يصدق بعضها بعضا ويكمله ، كأنما أرسلت فى نفس واحد...

وقد تساءل العرب : لم نزل القرآن كذلك ؟ وقالوا « **لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا ، ولا يأتونك بِمَثَلٍ إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا** »[1] .

إن القرآن يشرح حقيقة الدين عند الله ، وتاريخ هذه الحقيقة وهو - فى دعوته العامة - يبسط الشبهات العارضه ويفندها ، ويسوق أدلته وهو على بينة من آراء خصومه ، ويتبع أقصى ما يثار ضده ثم يكرُّ عليه بالحجة فيمحقه . وقد بدأ القرآن بين قوم تشعب الكفر فى نفوسهم ، ومرنت على الجدل ألسنتهم ، وكأن القدر تخيَّر هذه البيئة لتكون مجمعاً يمثل آخر

---

(١) الفرقان ٣٢ ، ٣٣ .

ما يحيك فى القلوب من ريبة وآخر ما يبذله الباطل من التحدى ، فإذا أفلح الإسلام فى تبديد هذه الريب ،وتذليل هذه العوائق فهو على مادونها أقدر .

والأسئلة التى توجه للنبى ﷺ ، أو التى ينتظر أن توجه إليه فى مختلف العقائد والأحكام وجدت إجابتها الشافية فى القرآن باعتبار أن السؤال لا يُمثل حاجة صاحبه وحدها . . بل حاجات الناس على مر الأيام .. وفى هذا الجو الملئ بالتساؤل إستفهاما أو إستنكارا كان الإلهام يلا حق الرسول ﷺ قل كذا .. وقل كذا ....

وما أكثر الآيات التى صدرت بهذا الأمر إجابة لسؤال وَرَدَ ، أو مفترض ..... وأنت تُحسُ - إذ تقرأ هذه الأجوبة المستفيضة - فيضاً من اليقين ينساب إلى قلبك كأنها حسمت وساوس عرضت لك أو فى الإمكان أن تُعرض .....

والرسالة الخالدة هى التى تصلها بضمائر الناس هذه الأواصر المتينه .

إن القرآن رسول حى تسائله فيجاوبك ، وتستمع إليه فيقنعك .

أنظر كيف يؤسس عقيدة البعث والجزاء ، وينوه بشمول الإرادة والقدرة فى ثنايا إجابة على سؤال موجه ... وكيف صيغت المعانى فى أخذ ورد واعتراض ودفع كأنها حوار سيال يتعدّى أصحابه حتى يجمع الناس إلى آخر الدهر .

« أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين وضرب لنا مثلا ونسى خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم قل يحييها الذى أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم . الذى جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً فإذا أنتم منه توقدون. أو ليس الذى خلق السموات والأرض بقادر على أن يخلق مثلهم بلى وهو الخلاق العليم إنما أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن

فيكون فسبحان الذى بيده ملكوت كل شىء وإليه ترجعون»(1).

إن هذا مثل للإستدلال القائم على النظر الصائب لا يختص به زمان دون زمان ولا مكان دون مكان ، فهو خطاب للعقل العام فى البشر أجمعين، وهو بيان لحكمة نزول القرآن منجماً إذ جاءت الآيات للرسول : قل كذا ، رداً على ما عرض له من أسئلة فى أثناء تطوافه هنا وهناك يدعو إلى الله ، ثم ثبت السؤال والجواب ليكون منهما علم ينفع الناس آخر الدهر .

وقد استوقف الأمر بـ (قل) نظر العلماء ، إنه تعليم من الله لرسوله، وتعليم من الرسول للناس وقد سيقت بعد هذا الأمر الأقوال التى تضمنت ما شاء الله من النصائح والعظات والأحكام .

فعندما أحب المشركون - على عادتهم - أن ينقلوا ميدان الجدل من حقيقة الدين إلى شخص الرسول ﷺ وأتباعه نزلت الآيات : « **قل أرأيتم إن أهلكنى الله ومن معى أو رحمنا فمن يجير الكافرين من عذاب أليم . قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا فستعلمون من هو فى ضلال مبين** »(2) .

فانظر كيف يستخلص اللباب وسط غبار الجدل ؟ ما يجديكم تنقص الرسول ومن معه ؟ فكروا فى أنفسكم كيف أهلكتها الخرافات وشردت بها عن الجادة ؟ إنه ليس للرسول ومن معه تفكير فى أنفسهم وحظوظها .. إنهم دعاة الرحمن آمنوا به وتوكلوا عليه ، فإن شئتم فالطريق إلى الرحمن مُيسرة.

وليس من الضرورى أن يقع سؤال ما لتأتى الإجابة عليه من لدن الله «قل» فربما يجيىء السياق على هذا النحو إبتداء عند عرض أصول الدعوة وآدابها ، وتكون الغاية منه التعريف بالإسلام ونبيه تعريفا مشبعاً مقنعاً

---

(1) سورة يس آيات ٧٧ : ٨٣ .

(2) سورة الملك آيات ٢٨ ، ٢٩ .

يستأصل الريب قبل أن تولد : « **قل إننى هدانى ربى إلى صراط مستقيم دينا قيماً ملة إبراهيم حنيفا وما كان من المشركين . قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين . قل أغير الله أبغى ربا وهو رب كل شىء ولا تكسب كل نفس إلا عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى** »[1] .

فالخطاب للرسول هنا يتضمن أمراً إلى كل حى وجد فى عهده ، أو يوجد من بعده أن يتدبر - بعقله - ما يلقى إليه وأن يحكم - بضميره - على مدى صحته وإخلاصه ، فإذا تعلق بقلبه إيمان فهو إيمان برب كل شىء ، وعمل الرسول ينتهى عند هذا الحد ، عند وَصْل العقول والقلوب ببارئها .. وإيضاح الصراط المستقيم لها ، وعلى كل إنسان أن يحمل تبعته فى فعل الخير أو الشر بعد ذلك .

فليس الرسول ﷺ وسيطاً يحمل لك خيراً قدمته .. ولا قرباناً يحمل عنك عقابا إستحققته لأنه لا تكسب كل نفس إلا عليها ، ولا تزر وازرة وزر أخرى .. وهنا يبدو بُعْد الشُقّة بين المسيحية والإسلام .

الإسلام يغالى بقدر الإنسان ويعطيه جزاءه الحق على الرفعة والضعة .

أما النصرانية فالمرء عندها أنزل قدراً من أن يتصل برب العالمين من تلقاء نفسه .. لابد من آخر يحمل قربته ويقبل توبته . ومَنْ ذلك الآخر ؟ شخص دَعِىّ . فإذا إقترف ذنبا فليس هو الذى يلقى قَصَاصَه ، إن القربان ذبح قديماً من أجل خطيئته تلك ، وعليه أن يصدق بذلك لينجو إن أراد النجاة .. هذا الخيط يحتاج إلى جرارات ثقيلة ليسير فى الحياة مراغماً المنطق والعدالة . أما الإسلام فإن الله يقول لنبيه عليه الصلاة والسلام قولاً

----

(١) سورة الأنعام من : ١٦١ إلى ١٦٤ .

تتفتح له الأعين والأفهام :

« قل من رب السموات والأرض قل الله قُلْ أفاتخذتم من دونه أولياء لا يملكون لأنفسهم نفعاً ولا ضراً قل هل يستوى الأعمى والبصير أم هل تستوى الظلمات والنور أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم قل الله خالق كل شىء وهو الواحد القهار »[1] .

إن هذه الإستفهامات المترادفة سياط تلدغ الباطل ، وتجعل العقل النائم يصحو من سباته ، وتُحفِّز الإنسان إلى إعتناق الحقيقة ، والتسامى بها ، وذلك ما يُعَلِّمُهُ ويعمل له رسول الإسلام عليه الصلاة والسلام . ولقد لقى الإسلام مقاومة عنيفة أشد العنف من الوثنيه السائدة ... فهى لم تلفظ أنفاسها فى معركة أو معركتين ، بل قاتلت ببأس شديد على كل شبر من الأرض .. وكان الظن أن قواها خارت وإنماعت عندما أدى الرسول ﷺ أمانته وذهب إلى الرفيق الأعلى ... بيد أن الجزيرة انتفضت فى عهد أبى بكر ، وانحصر المسلمون وسط طوفان من الردّة العمياء شرعوا يكافحونه مرة أخرى فما استطاعوا كسر شوكته إلا بعد أن تكبدوا من الخسائر أكثر مما فقدوا على عهد النبى ﷺ فى مقاتله أولئك المشركين !! ...

إن الرجال الذين ثبتوا على الحق بعد رحيل نبيهم عنهم هم المسلمون حقا ، فإن الإسلام رباط بمبادئ لا بأشخاص .. وقد علّم الله نبيه .. وعلّمَ المسلمين فى شخصه أن يلتزموا الحق الذى عرفوا ، وأن يتشبثوا به مهما غولبوا وحوربوا ....

---

(١) الرعد : ١٦ .

إن الدنيا طافحة بأسباب الزيغ، وهي تحاول أولاً ألا تبقى للإيمان مكانا بها .. فإذا ظفر بكسب بعد طول عناء حاولت أن تلاينه حتى ينزل عن شئ ويكتفى بشئ ، ولو أفلحت فى إستدراجه إلى هذه المنزلة لأمكنها الإجهاز عليه ، ولذلك جاءت أوامر الله فى كتابه حاسمة تقضى بأن الإيمان كل لا يتجزأ ، وأن مناجزة الكافرين على هذه الحقيقة لا يجوز أن تهدأ ، فلابد من الإستمساك بهذه التعاليم المترابطة والحب والبغض عليها ، والمسالمة والمحاربة دونها ، فإن نصيب العاطفة فى خدمة العقيدة لا يقل عن نصيب العقل ، والآيات الواردة فى ذلك هى أوامر للمسلمين تنزلت فى شكل خطاب للرسول ﷺ :

« يا أيها النبى إتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين إن الله كان عليما حكيما واتبع ما يوحى إليك من ربك إن الله كان بما تعملون خبيرا ، وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا »[1] .

فليس الرسول ﷺ مظنه أن يطيع الكافرين والمنافقين حتى يُنَبَّه إلى التحرز منهم ولكننا - نحن - المعنيون بهذا الإرشاد .

ومن ذلك : « **وأدع إلى ربك ، ولا تكونن من المشركين ولا تدع مع الله إلها آخر** »[2] .

لقد كان الرسول ﷺ من بدء دعوته حربا على الشرك ، وعلى الآلهة الأخرى ، ومنه تعلم الناس هذه الخصومه ، ويستحيل أن يتوقع منه غيرها .

----

(١) الأحزاب : ١ . ٢ . ٣

(٢) القصص من ٨٧ . ٨٨

ومن ذلك : « **لا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجا منهم ولا تحزن عليهم واخفض جناحك للمؤمنين** »[1] .

« **ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فُرُطا وقل الحق من ربكم** »[2] .

« **فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك لقد جاءك الحق من ربك فلا تكونن من الممترين ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله فتكون من الخاسرين** »[3].

ويقول الشيخ الفاضل محمد الغزالي : قال المفسرون : خوطبت الأمة فى شخص رسولها ﷺ .كما تصدر الأوامر إلى القائد مع أن الجندهم المُنَفِّذُون .

وقيل : بل الخطاب للرسول ﷺ على طريق الإهاجة واستثارة الهمة .. يقال للقوى البادى العزم : لا تهن، وللعاقل الصحيح الذهن : لا تغفل ، وليس يخاف عليهما وَهَن ولا غَفَلة ولكن الأمر تحريض على استدامة القوة والذكاء والشجاع يزداد على الموت إقبالا إذا قيل له : لا تجبن ... وسواء كان هذا أو ذاك فإن الرسول ﷺ مناط الأسوة الحسنة ومن سلوكه يأخذ الناس مثلهم الأعلى .. وقد أمرنا معه بالتوجس من الضالين ، والتنائى عن خُلقهم وعملهم ، وازدراء متاعهم وغرورهم .

وذلك لأن هناك أحيانا شتى يضعف فيها الحق ويعز التمسك به ، ويقوى فيها الباطل وتكثر المغريات على مصادقته أو مهادنته .

----

(١) الحجر : ٨٨ (٢) الكهف : ٢٨ ، ٢٩

(٣) يونس : ٩٤ ، ٩٥ .

ومن حق العقائد على أصحابها أن يتشددوا فى تدعيم جانبها ، وأن يتنكروا لما يمسها من بعيد ، والأوامر التى تنظم هذه المشاعر لن تنقصها الصرامة، وماذا بعد أن يقول الله لنبيه :

«لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين بل الله فاعبد وكن من الشاكرين »[1] .

إن هذا الخطاب يقرع آذاننا وله مغزاه ، كما قيل : (إياك أعنى واسمعى يا جارة) وقد كان لهذا الأسلوب أثره فى تأليب المسلمين على الفساد ، وترهيبهم من الركون إليه .

وأقوال المفسرين التي سردناها تنطبق أيضا على الآيه : « **فإن كنت فى شك مما أنزلنا إليك فاسأل الذين يقرءون الكتاب من قبلك** »[2] .

الخطاب للقارئ ، أو السامع ، أو للرسول ﷺ نفسه على جهة التهييج والتحريض كما علمت ، إذ أن الرسول ﷺ لن يقع منه شك فى أمر نبوته ، والكلام هنا فرض للمستحيل كما قيل فى سورة أخرى : « **قل إن كان للرحمن ولد فأنا أول العابدين** »[3] .

لكن ما معنى سؤال أهل الكتاب ؟

قالوا : المراد الثقات المنصفون منهم ، فهم لن يكتموا شهادة الحق إذا طُلبت منهم وعندى أن العدول الصادقين من أهل الكتاب قلة لا يعول على حكمها وما أظن الآية تعنى ذلك .

---

(١) الزمر من ٦٥ . ٦٧

(٢) يونس من الآيه : ٩٤

(٣) الزخرف : ٨١

ولكن المرء يزداد بصراً بنفاسة ما عنده من خير إذا رأى ما عند غيره من خلط ولو - لا قدر الله - ارتبت لحظة فى أن القرآن من عند الله ثم تصفحت العهدين القديم والجديد لَعُدْتَ - على عَجَلٍ - إلى كتابك تتشبث به وتحمد الله ألف مرة أن هُدِيتَ إليه ، وأحسب أن هذا ما تشير إليه الآيه• ، فإن تبين ما فى الإسلام من حق يزداد قوة عند اكتشاف ما طرأ على الأديان الأولى من تشويه وهذا يتفق مع قوله تعالى : « **ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذى جاءك من العلم مالك من الله من ولى ولا نصير** »[1] .

ويزكى فهمنا هذا فى الآيه الكريمة ما أخرجه البخارى عن ابن عباس قال :

« يا معشر المسلمين كيف تسألون أهل الكتاب ، وكتابكم الذى أنزل على نبيكم أحدث الكتب بالله ، تقرءونه محضا لم يشب ، وقد حدثكم الله أن أهل الكتاب بدلوا كُتب الله وغيروه وكتبوا بأيديهم وقالوا : هو من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا ألا ينهاكم ما جاءكم من العلم عن مسألتهم ؟ ولا ، والله ما رأينا منهم رجلاً قط يسألكم عن الذى أنزل عليكم .

إن الإسلام من الناحية العقلية معرفة للحقيقة ، ومن الناحية العاطفية حب لها واعزاز ، وكراهية الباطل وعداء صريح ، إن هناك أناسا فى مشاعرهم برودة يلقون بها الرأى وضده وقد يتصور هذا فى بعض المسائل التافهة ، أما أن يتعلق الأمر بالإيمان والإلحاد والفجور والعفاف فلا ....

----

(١) البقرة : ١٢٠

إن الله علم رسوله ﷺ الإيمان والكتاب ، فكان من عرفان الرسول ﷺ بهذا الفضل الإلهى أن غالى بإيمانه واعتز بقرآنه ... فعاش بهما وعاش لهما ، وخاصم وسالم فيهما وطالما تمنى أعداؤه أن يركن إليهم شيئا قليلا ولكن هيهات : « **ودوا لو تدهن فيدهنون** »[1] والأمة الجديرة بالانتماء إليه هى الأمة التى تناضل على الحق ، فلا تسمح بانتقاص له ولا حيف عليه ، ومن خصائصها أنها أمة فكْرة ومنهاج .. يقوم كيانها المادى والأدبى على ما تبذل فى ذلك من جهد ، وتثمر من نتاج .

★★★

﴿ القرآن مصدر علم الرسول ﷺ ﴾

إن القرآن الكريم روح الإسلام ومادته ، وفى آياته المحكمات شَرَّعَ دستوره وبسطت دعوته ، وقد تكفل الله بحفظه ، فصينت به حقيقة الدين،وكتب لها الخلود أبد الآبدين ، والرجل الذى اصطفاه الله لإبلاغ آياته وحمل رسالاته كان قرآناً حياً يسعى بين الناس ..كان مثالاً لما صوره القرآن من إيمان وإخبات .. وسَعْى وجهاد وحق ، وقوة ، وفقه وبيان ، فلا جرم أن قوله وفعله وتقريره وأخلاقه وأحكامه ونواحى حياته كلها تُعَدُّ ركناً فى الدين، وشريعة للمؤمنين .

إن الله سبحانه وتعالى اختاره ليتحدث باسمه ويبلغ عنه ، فمن أولى منه بفهم مراد الله فيما قال ؟ ومن أولى منه بتحديد المسلك الذى يتواءم مع دلالات القرآن القريبة والبعيدة ؟

إن تطبيق القانون لا يقل خطراً عن صياغته ، وللقانون نص وروح .. وعند علاج الأحداث المختلفة لتسير وفق القانون العتيد تجدُ فتاوى وتدون نصائح وتحفظ تجارب وعبر ، وتثبت أحكام بعضها أقرب إلى حرفية النص،

---

(١) القلم : ٩ .

وبعضها أدنى إلى روحه وهكذا .
والقرآن الكريم هو قانون الإسلام والسنة هى تطبيقه .

﴿منزله السنة من القرآن الكريم﴾

من حق المسلم أن يرتب المصادر التى يأخذ عنها دينه ، وأن يدرك الوضع الصحيح للمحفوظ من قول النبى ﷺ وفعله إلى جوار السجل الثابت للوحى الإلهى الذى خصت به الرسالة الخاتمة .

وبما أن السجل الثابت للوحى الإلهى وهو القرآن الكريم هو قانون الإسلام ، والسنة هى تطبيق هذا القانون .. فالمسلم مُكَلَّف باحترام هذا التطبيق تكليفه باحترام القانون نفسه ، وقد أعطى الله حق الاتباع فيما يأمر به وينهى عنه لأنه - فى ذلك - لا يصدر عن نفسه بل عن توجيه ربه، فطاعته هى طاعة الله وليست خضوعا أعمى لواحد من الناس .

قال الله عز وجل : « **من يطع الرسول فقد أطاع الله ، ومن تولى فما أرسلناك عليهم حفيظا** »[1] .

وقال : « **وأنزلنا إليك الذكر لتُبَيِّن للناس ما نُزِّل إليهم ولعلهم يتفكرون** »[2].

وقال : « **وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا** »[3] .

على أن الإلهام الأعلى لا يعطل مواهب الإنسان الراقى ، فمن الخطأ أن نتصور المرسلين أناساً مُسَخَّرين تنطقهم الملائكة أو تسكتهم ، أنهم لو لم

---

(١) النساء : ٨٠ (٢) النحل من الاية : ٤٤

(٣) الحشر : من الآيه : ٧

يكونوا أنبياء لكانوا رجالاً يرمقون باحترام ويقدمون عن جدارة . إن الوحى لا يصيب الناس إتفاقاً بل يرشح أكمل الناس رشداً ، وأسبغهم فضلاً .

وأنبلهم خُلقاً وأنضجهم رأيا ، وسيرة هؤلاء فى الحياة ليست مما يُنبذ ، وليست مما يُهمل ، فكيف إذا تأيدت هذه العراقة بالعصمة ، وهذا الذكاء بالتسديد ؟ .

ويقول الشيخ الفاضل محمد الغزالى :[١] .

إن السير فى ركاب المرسلين هو الخير كله .. ومن ثم كانت سنة محمد ﷺ مصدرا لشريعته مع الكتاب الذى شرفه الله به ، وجمهور المسلمين على هذا الفهم .

إلا أن السنن المأثورة عرض لها ما يوجب اليقظة فى تلقيها ، فليس كل ما ينسب إلى الرسول ﷺ سنة تُقبل ، ولا كل ما صحت نسبته صح فهمه ، أو وُضع موضعه ....

والمسلمون لم يُؤْذَوْا من الأحاديث الموضوعة قدر ما أُوذوا من الأحاديث التى أسئ فهمها ، حتى جاء أخيرا من ينظر إلى السنن جمعاء نظرة ريبة واتهام ، ويتمنى لو تخلص المسلمون منها .... وهذا خطأ من ناحيتين : إهمال الحقيقة التاريخية أولاً ، فإن الدنيا لم تعرف بشراً أُحصيت آثاره ، ونُقدت بحذر ، ومُحِّصَتْ بدقة ، كما حدث ذلك فى آثار محمد عليه الصلاة والسلام فكيف ترمى بعد ذلك فى مطارح الإهمال ؟ والناحية الأخرى أن فى السنة كنوزا من الحكمة العالية لو نسب بعضها إلى أحد من الناس لكان من عظماء المصلحين ، فلماذا تضيع على صاحبها ويحرم الناس خيرها ؟؟

وقال علماء الحديث : عندما درسنا تراث محمد ﷺ فى الأخلاق ، وذاكرنا أحاديثه التى تربو على الألوف فى شتى الفضائل خُيِّلَ إلينا : لو أن

---

(١) عن كتاب « فقه السيرة » للشيخ الجليل محمد الغزالى .

جيشاً من علماء النفس والتربية إجتمع ليسرق للعالم مثل هذا الأدب لَعَجَزَ، والأخلاق شعبه واحدة من رسالة محمد ﷺ الضخمة ، إلا أن الاشتغال بالسنة - مع هذا - يجب أن يحظر على من لم يستجمع الشروط التى تجعل مثل هذا الاشتغال مفيدا للإسلام والمسلمين .

١ - فلا يجوز أن يشتغل بالسنه من لم يدرس علوم القرآن ويضرب فيها بسهم ، فإن القرآن هو الدستور الأصيل للإسلام ، وهو الذى يُحَدِّد للمسلم بدقة تامة واجباته وحقوقه ويرتب التكاليف المنوطة به ، ويوزع العبادات على حياته ، فلا تطغى عبادة على أخرى ، ولا تطغى كلها على عمله للحياة ومكانه فيها.

والمرء الذى يعجز عن تحصيل هذه الحقائق من القرآن ، لن يعوضه عن فقدانها شئ آخر ، والصورة التى تستقر فى نفسه للإسلام - من غير القرآن - تضطرب فيها النسب والألوان وربما لحقها اختلاف كبير .

ولذلك حرص أئمه الصحابة على أن يخلو الطريق للقرآن الكريم ليحتل مكانته الأولى فى القلوب وحرصوا ألا يزاحمه فى موضع الصدارة شئ .

روى إبن عبد البر فى كتابه (جامع بيان العلم وفضله) بأسانيده التى ذكرها قال :

عن جابر بن عبد الله بن يسار قال[1] : سمعت علياً يقول : أعزم على كل من كان عنده كتاب إلا رجع فمحاه ، فإنما هلك الناس حيث اتبعوا

---

(١) كذا هو فى (جامع بيان العلم) (٦٢/١) وهو خطأ من الناسخ أو الطابع ومثله فيه كثير ، والصواب « عن جابر عن عبد الله ابن يسار » وجابر هذا هو الجعفى وهو ضعيف جدا وقد كذبه الجوزجانى وغيره .

أحاديث علمائهم وتركوا كتاب ربهم .

وعن الزهرى عن عروة[1] أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أراد أن يكتب السنن فاستفتى أصحاب النبى ﷺ فى ذلك ، فأشاروا عليه بأن يكتبها .

فطفق عمر ليستخير الله فيها شهراً ، ثم أصبح يوما وقد عزم الله له، فقال: إنى كنت أريد أن أكتب السنن ، وإنى ذكرت قوما كانوا قبلكم كتبوا كتبا فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله وإنى - والله - لا أشوب ، وفى رواية: لا أُلْبِسُ كتاب الله بشئ أبداً .

وعن إبن سيرين قال : إنما ضَلَّ بنو اسرائيل بكتب ورثوها عن آبائهم ، ودخل علقمة والأسود على عبد الله بن مسعود ومعهما صحيفة فيها حديث حسن ، فقال عبد الله بن مسعود : يا جارية هات بطست واسكبى فيه ماء، فجعل يمحوها بيده ويقول : نحن نقص عليك أحسن القصص ، فقالا له : أنظر فيها حديثاً عجيباً ، فجعل يمحوها ويقول : إن هذه القلوب أوعية فاشغلوها بالقرآن ولا تشغلوها بغيره - كانت الصحيفة تضم طرفاً من علوم أهل الكتاب .

وعن عامر الشعبى عن قرظة بن كعب قال : خرجنا نريد العراق ، فمشى معنا عمر إلى (صرار) ثم قال : أتدرون لم مشيت معكم ؟ قالوا : نعم نحن أصحاب رسول الله ﷺ ، مشيت معنا تريد أن تشيعنا وتكرمنا ، فقال : إنكم تأتون أهل قرية لهم دَوِيّ بالقرآن كَدَوِيّ النحل فلا تصدوهم

---

(١) عروة هو ابن الزبير لم يسمع من عمر بل لم يدركه ، فهذا الأثر منقطع وكذلك رواه الخطيب فى (تقييد العلم) (ص ٤٩ - ٥١) من طرق عن عروة ، اللهم إلا رواية راشد عن الزهرى فإنه وصله بذكر عبد الله بن عمر بين عروة وعمر وهى شاذة كما أشار إلى ذلك الخطيب نفسه .

بالأحاديث فتشغلوهم ، جَوِّدُوا القرآن وأقلوا الرواية عن رسول الله ﷺ إمضوا وأنا شريككم، فلما قدم « قرظة » قالوا :حدثنا ....

قال : نهانا عمر بن الخطاب .

وعمر وعلى وغيرهما من الأئمة لا يجحدون السنة ، ولكنهم يريدون إعطاء القرآن حظه الأوفر من الحفاوة والإقبال وذلك هو الترتيب الطبيعى ، فلابد من معرفة القانون كله معرفة سليمة قبل الخوض فى شروح وتفاصيل لبعض أجزائه .. إذ أن هذه التفاصيل والشروح لا يحتاج إليها كل أحد ، وربما شحنت الأذهان فلم تترك بها فراغا للأصول اللازمة والقواعد الهامة ، وخصوصا لأن الطريقة التى تروى بها الأحاديث تجمع فى صعيد واحد ما صدر عن الرسول ﷺ متناثرا فى أمكنه شتى وأزمنة شتى ، وملابسات شتى .

عن عروة بن الزبير عن عائشة قالت : ألا يعجبك أبو هريرة ؟ جاء يجلس إلى جانب حجرتى يحدث عن رسول الله ﷺ يُسمعنى ، وكنت أُسَبِحَ فقام قبل أن أقضى سبحتى (أنهى صلاتى) ولو أدركته لرددت عليه ، إن رسول الله ﷺ لم يكن يسرد الحديث كسردكم[1] !

٢ - ويجئ - بعد رسوخ القدم فى فهم القرآن - فهم ما يروى من السنن على وجهه الحق ، فخير لمن يقصر عن فهم السنن أن يحبس لسانه فى فمه فلا يقول : قال رسول الله ﷺ ، ثم يسوق حديثاً لا يعرف ما المقصود منه ، وإن كان يفهم عبارته الظاهرة وحدها .

----

(١) أخرجه الشيخان فى صحيحيهما ، وأبو داود (١١٥/٢) (طبع التازى) وابن عبد البر (١٢١/١٢) .

وقد بليت السنة من قديم بمن يحفظ منها الكثير ولا يعى إلا اليسير ، وَتَعَجُّب السيدة عائشة من أبى هريرة حين جلس يروى ليس لأنها تتهمه بالكذب ، بل لأن أسلوب تَحَدُّثه يهدرالملابسات التى قبلت فيها هذه الأحاديث بعد ما طويت طيا فى سرده الموصول .

وقد روى مسلم فى صحيحه أن عمر ضرب أبا هريرة لما سمعه يحدث عن رسول الله ﷺ « من قال لا إله إلا الله دخل الجنة » ولَعَلَّ عمر فعل ذلك لأنه وجد أبا هريرة يذكر الحديث لمن لا يعى منه إلا أن الإسلام كلمة تقال باللسان ولا عمل وراءها[1] ، ومنع الحديث ولو صح إذا أوحى بهذه الجهالة أفضل من إباحة روايته .

وروى ابن عبد البر عن أبى هريرة نفسه قال : لقد حدثتكم بأحاديث لو حدثت بها زمن عمر بن الخطاب لضربنى عمر بالدرة .....

وفقه عمر فى هذا المنع أنه يريد - كما علمت - بناء المجتمع على تعاليم القرآن ، وشغل الأفكار بتدبرها والاستنباط منها ، فإذا رويت السنن بعدئذ تلقفتها أذهان نَيِّره فلم تَعْدُ بها معناها الصحيح .

يستطيع أبو هريرة - لجودة حفظه - أن يسرد مائة حديث فى الصلاة مثلاً ، وعمر ربما لا يرى حرجا من سرد هذه السنن فى مدرسة خاصة ،

---

(١) يقول الشيخ محمد الغزالى : هذا الاحتمال بعيد بل باطل فإن فى الحديث نفسه عند مسلم (١ - ٤٤ - ٤٥) أن عمر رضى الله عنه كان من أول من لقيه أبو هريرة وأول من حدثه هذا الحديث فلعل الأستاذ المؤلف بعيد النظر فيه ، ويقول الشيخ : لقد آذى عمر أبا هريرة لا كذبه - معاذ الله - ولكن لما قد يقع من وضعه الكلم فى غير موضعه وما ذكرناه حق .

ولكنه يكره أن يشغل جمهور المسلمين بأمر يكفيهم منه القليل ثم ينصرفون بعده إلى أعمال أجدى على الإسلام وأهله ؛ وذلك سر مطاردته للرواة المكثرين.

لقد روى إبن حزم قرابة ألف صفحة من الأحاديث فى الوضوء ولمن شاء أن يتوفر على هذا اللون من العلم ، لكن شغل عامة المسلمين به حمق ، فماذا يبقى بعدئذٍ للقرآن نفسه ؟ بل أن شغل المسلمين بالقرآن على هذا النحو ليس من الدين ، قال رسول الله ﷺ : «إقرأوا القرآن ، ولا تغلوا فيه، ولا تجفوا عنه ، ولا تأكلوا به»[1] .

وإن يكن لهؤلاء الحُفَّاظ فضل فلأنهم حملوا العلم إلى من يُحسن الإفادة منه على نحو ما قال الرسول ﷺ : « رب حامل فقه ليس بفقيه ، رُبَّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه »[2] .

والترتيب الفنى للسنن - كما دونت وتلقيناها - يجعل ما ورد فى الإيمان بابا ، وما ورد فى القضاء بابا .. وهكذا ، ولما كان الإسلام جملة

---

(١) حديث صحيح أخرجه أحمد (٤٤٤/٤٢٨/٣) والطحاوى فى (شرح معانى الآثار) (١٠/٢) من حديث عبد الرحمن بن شبل مرفوعاً وسنده صحيح وقواه الحافظ فى الفتح (٨٢/٩) .

(٢) حديث صحيح رواه ابن عبد البر (٣٩/١) وكذا أصحاب السنن والدارمى وأحمد فى حديث لزيد بن ثابت وسنده صحيح ، وصححه ابن حبان وابن حجر وغيرهم ، وأخرجه الترمذى فى سننه (٢٦٥٨) وابو نعيم فى حلية الأولياء (٣٣١/٧) من حديث عبدالله بن مسعود بلفظ :
(نضَّر الله إمرأ سمع مقالتى فوعاها وحفظها وبلغها فرب حامل فقه إلى من هو أفقه منه)

هذه الحقائق ، فإن السنة أصبحت كمتجر كبير للملابس وزعت فيه أنواعها على مختلف الجوانب، هنا أغطيه الرأس.. وهنا سراويل ... وهنا قمصان .. وهنا .. الخ والطبيعى أن من يريد كسوة كاملة يمر بهذه الجوانب كلها ليأخذ ما يغطيه من رأسه إلى قدمه ، ولكن يحدث كثيراً أن ترى من يشترى قلنسوتين ويخرج حافيا .. أو من يشترى منديلاً ويخرج عارياً ...

إن هذا مثل طوائف إشتغلت بالسنة ، ثم - بعد طول تطواف - خرجت على الناس وفى يديها من السنن (سواك) و (عمامة مقطوعة الذنب ، و(جلباب قصير) إعتبروها شعار الإسلام وسرّ ذلك أنهم دخلوا المعرض الحافل ثم خرجوا منه بعد أن ظنوا الدين كله فى حديث أو سنة محدودة ، فأساءوا بذلك إلى القرآن والسنة جميعا ....

٣ - إن قصر الباع فى السنة - على كثرة الاشتغال بها - أَضَرَّ بتوجيه المسلمين ، وأشاع بينهم طائفه من الأحكام المبتسرة والتقاليد الضيقة ، تنبو عنها روح القرآن والسنة وإن اعتمدت على حديث لم يُفهم أو أثر لم يفقه .

وذلك أن الإسلام - فى الشئون الهامة - جاء بطائفة من الأحكام ذكرت فى الكتاب العزيز أو وردت على لسان النبى .. وهى جميعا متكاملة يُفَصِّلُ بعضها بعضا ويُوَثِّقُه فإذا ظهر فى دليل منها ما يعارض سائر الأدلة ، بُحِثَ فى تأويله حتى يتم الجمع بينها كلها ، أو قبل الأرجح سندا ورد الآخر ، ولذلك يرى المحققون أن سنن الآحاد تُرفض إذا خالفت ظواهر الآى وعموم النص ، أو خالفت قياسا يعتمد على أحكام القرآن نفسه، وهم يفرقون بين الأحاديث التى يرويها رجال فقهاء والتى يرويها رجال حُفَّاظ فحسب .....

ولنضرب لك مثلاً يكشف عما يصيب الأمم من عقم وضياع نتيجة فهمها الخاطئ لأثر وارد . في الطرق يرتدين خياما مغلقة طامسة ،بها خرقان من أعلى لإمكان الرؤية وقد تختفي هذه الخروق وراء قطع من الزجاج أو الباغة . وهذا التقليد السائد يعتمد على حديث أن رسول الله ﷺ كره لنسوته أن يرين عبد الله بن مكتوم ، فلما احتججن بأنه أعمى لا يراهما قال لهما: « أفعمياوان أنتما ؟ »[1] .

وإن علماء السنة تكلموا في معنى هذا الحديث ، ومن الجهل بالسنه التقرير عند بيان وظيفة المرأة وأسلوب حياتها ، وقواعد إتصالها بالمجتمع العام ، ولم لا تذكر السنن التي رواها البخاري في ذلك وهي أدق وأصح ؟

أثبت البخاري تحت عنوان « باب غزو النساء وقتالهن مع الرجال » عن أنس رضي الله عنه قال : لما كان يوم (أحد) انهزم الناس عن النبي ﷺ قال : ولقد رأيت عائشه بنت أبي بكر ، وأم سليم ،وأنهما لمشمرتان أرى خدم سوقهما تنقلان القرب على متونهما (ظهورهما) - ثم تفرغانه (الماء) في أفواه القوم ، ثم ترجعان فتملآنها ، ثم تجيئان فتفرغانها في أفواه القوم».

---

(١) أخرجه أبو داود (١٨٣/٢) والترمذي (١٥/٤) وابن سعد في (الطبقات الكبرى)(١٢٦/٨-١٢٨ والبيهقي (٩١/٧) من طريق الزهري قال : حدثني بنهان مولى أم سلمة عن أم سلمة قالت كنت عند رسول الله وعنده ميمونه فأقبل ابن أم مكتوم وذكرت ما حدث ، وقال الترمذي هذا حديث حسن صحيح وقوى الحافظ اسناده في (الفتح) وفيه نظر فإن بنهان هذا لم يوثقه غير ابن حبان وهو معروف بتساهله في التوثيق كما بينه الحافظ نفسه في مقدمة (لسان الميزان) ولهذا تراه في (التقريب) لم يوثق بنهان هذا بل قال فيه : مقبول وليس له متابع على هذا الحديث فكلامه يقتضي إن الحديث غير مقبول .

وذكر تحت عنوان « باب مداواة النساء الجرحى فى الغزو » عن الربيع بنت مُعوِّذ قالت : كنا مع النبى ﷺ نسقى ، ونداوى الجرحى ، ونرد القتلى إلى المدينة .. إلخ وذكر تحت عنوان « باب حمل النساء للقرب إلى الناس فى الغزو » أن عمر بن الخطاب قسَّم مروطا بين نساء المدينة فبقى مرط جيد فقال له بعض من عنده : يا أمير المؤمنين ، أعط هذا إبنة رسول الله ﷺ التى عندك (يريدون أم كلثوم بنت على) فقال عمر : أم سليط أحق - وأم سليط من نساء الأنصار ممن بايع رسول الله ﷺ - قال عمر : فإنها كانت تزفر لنا القرب يوم (أُحد) أى تخيطها .

ولنفرض أن البخارى لم يرو هذه الأحاديث الصحاح أفكان حديث العمياوين يسلط على المجتمع ، ويحجر به على النساء فى دورهن فلا يخرجن من هذا السجن أبدا ؟ إن حكما مثل هذا لا يعرف من القرآن ، بل ان القرآن يجعل هذا الحكم عقوبة للنسوة اللاتى يرتكبن الفواحش :

« واللاتى يأتين الفاحشة من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن فى البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا »[1].

لكن المسلمين لما استوعروا سبل التربية المهذبة للذكور والإناث - بسبب إنحرافهم عن القرآن - لجأوا إلى السجن والقصر فكان ما كان : هجر المسلمون القرآن إلى الأحاديث ، ثم هجروا الأحاديث إلى أقوال الأئمة .. ثم هجروا أقوال الأئمة إلى أسلوب المقلدين ثم هجروا المقلدين وتزمتهم إلى الجهال وتخبطهم ... وكان تطور الفكر الإسلامى على هذا النحو وبالاً على الإسلام وأهله .

---

(١) النساء : ١٥

روى إبن عبد البر الضحاك بن مزاحم : « يأتي على الناس زمان يعلق فيه المصحف حتى يعشش عليه العنكبوت لا ينتفع بما فيه وتكون أعمال الناس بالروايات والأحاديث) .

وسبيل الرشد في هذه العماية أن نعود إلى القرآن ، فنجعله دعامة حياتنا العقلية والروحية ، فإذا وصلنا إلى درجة التشبع منه ، نظرنا في السنة فانتفعنا بحكمة رسول الله ﷺ وسيرته وعبادته وخلقه وحكمه ، ولا يجوز أن يتكلم في السنة رجل قليل الخبرة في القرآن ، أو قليل الخبرة بالمرويات ، أو ضعيف البصر بمواقعها ومناسباتها .

★★★

﴿ الرفيق الأعلى ﴾

ابتداء شكوى الرسول ﷺ :

قال ابن اسحق : ابتدئ رسول الله ﷺ بشكواه الذى قبضه الله فيه إلى ما أراد به من كرامته ورحمته فى ليال بقين من صفر أو فى أول شهر ربيع الأول .. فكان أول ما ابتدئ به من ذلك - فيما ذكر لى - أنه خرج إلى (بقيع الفرقد) من جوف الليل فاستغفر لهم ، ثم رجع إلى أهله ، فلما أصبح ابتدئ بوجعه من يومه ذلك !

وقال ابن اسحق :

وحدثنى عبد الله بن عمر عن عبيد بن جبير مولى الحكم بن أبى العاص عن عبد الله بن عمرو بن العاص عن أبى مويهبة مولى رسول الله ﷺ قال :

بعثنى رسول الله ﷺ من جوف الليل فقال : « يا أبا مويهبه إنى قد أُمرت أن استغفر لأهل هذا البقيع فانطلق معى » فانطلقت معه فلما وقف بين أظهرهم قال : « السلام عليكم يا أهل المقابر ، وليهنئ لكم ما أصبحتم فيه مما أصبح الناس فيه ، أقبلت الفتن كقطع الليل المظلم يتبع آخرها أولها ، الآخرة شر من الأولى »

ثم أقبل علىّ فقال : « يا أبا مويهبه إنى قد أوتيت مفاتيح خزائن الدنيا والخلد فيها ، ثم الجنة ، فَخُيِّرت بين ذلك وبين لقاء ربى والجنة » .

قال : فقلت : بأبى أنت يا رسول الله وأمى ، فخذ مفاتيح خزائن الدنيا ، والخلد فيها ثم الجنة ، فقال : « لا والله يا أبا مويهبه لقد اخترت لقاء ربى والجنة » ثم استغفر لأهل البقيع ، ثم انصرف . فبدأ برسول الله ﷺ وجعه الذى قبضه الله فيه . (حديث صحيح واسناده حسن)

وقال ابن اسحق : وحدثني يعقوب بن عتبة ، عن محمد بن مسلم الزهرى عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود ، عن عائشه زوج النبى ﷺ قالت :

« رجع رسول الله ﷺ من البقيع فوجدنى وأنا أجد صداعا فى رأسى ، وأنا أقول : وارأساه .! فقال : « بل أنا والله يا عائشة وارأساه ! »
قالت : ثم قال : « وما ضرك لومت قبلى ؟ فقمت عليك وكفنتك وصليت عليك ودفنتك » قالت : قلت : والله لكأنى لوقد فعلت ذلك لقد رجعت إلى بيتى فأعرست فيه ببعض نسائك ، قالت : فتبسم رسول الله ﷺ ،وتتام به وجعه وهو يدور على نسائه ، حتى استعزّ به وهو فى بيت ميمونة ، فدعا نساءه فاستأذنهن فى أن يمرض فى بيتى فأذن له (إسناده صحيح)
ويقول الإمام محمد الغزالى :

أن رسول الله ﷺ شعر بوعكة المرض الذى نزل به أواخر صفر من السنة الحادية عشرة وبدأت آلامه صُداعا حاداً عاناه فى سكون ، حتى ثقل عليه الوجع وهو فى بيت زوجته ميمونة فلم يستطع الخروج . وأذن له نساؤه أن يمرض فى بيت عائشة لما رأين من ارتياحه إلى خدمتها له .. فخرج عليه أفضل الصلاة والسلام من عند ميمونة بين الفضل بن العباس ، وعلى بن أبى طالب ، وكان الألم قد أوهى قواه : فلم يستطع مسيرا .
فانتقل بينهما معصوب الرأس ، تخط قدماه على الأرض حتى إنتهى إلى بيتها[1] .

واشتدت وطأة المرض على رسول الله ﷺ واتّقدت حرارة العلّة فى بدنه فطلب أن يأتوة بماء يتبردبه .. ماء كثير وقال : « أهريقوا علىّ سبع قرب من آبار شتى حتى أخرج الى الناس فأعهد إليهم » .

---

(١) صحيح رواه ابن هشام (٣٦٦/٢-٣٦٨) عن ابن اسحق بسنده الصحيح عن عائشه ورواه الحاكم (٥٦/٣) من طريق أخرى وصححها .

فأقعدوه فى مخضب لحفصة بنت عمر ، ثم صبوا عليه الماء حتى طفق يقول : « حسبكم ... حسبكم[1] .. » وعندما أحس الرسول ﷺ بأن سورة الحر خفت عن بدنه استدعى الفضل ابن عمه العباس فقال له :

« خذ بيدى يا فضل » وهو موعوك معصوب الرأس . قال الفضل : فأخذت بيده حتى دخل المسجد ، وجلس على المنبر ، ثم قال : ناد فى الناس .. فاجتمعوا إليه ... وكانت ظهيرة تظللها الكآبة وتغمرها الرقة إشرأبت فيها الأعناق إلى الرجل الذى أحيا موات القلوب ، وأخرجهم وذرياتهم ونساءهم من الظلمات إلى النور .....

تطلعت إليه الأعين الحائرة فرأته متعباً ...!

إنهزمت العافية فى بدنه الجلد .. أمام سطوة المرض العاتى !!!

إلا أنه أخذ يحدثهم ويربيهم على عهدهم به دائما ... وانصتوا ، فإذا هم يسمعون منه عجبا .....

إنه ﷺ لما أحس بدنو أجله ، أحب أن يلقى الله وليس هناك بشر يطلبه بتبعة . إنه تحرُّى العدالة فى شئونه كلها .. لكن من يدرى ؟ ربما عرض له سهو مما يعرض لبنى آدم أو خطأ فَجَارَ ، وهو الذى يبرأ من الجور وذويه...

إذن ليخطب الناس فى هذا حتى يستريح ضميره .. قال عليه أفضل الصلاة والسلام « أما بعد أيها الناس .. فإنى أحمد إليكم الله الذى لا إله إلا هو ...

فمن كنت جلدت له ظهرا ، فهذا ظهرى فليستقد منه ..ومن كنت شتمت له عرضا فهذا عرضى فليستقد منه ...

ألا وإن الشحناء ليست من طبعى ، ولا من شأنى .. ألا وإن أحبكم إلىَّ من أخذ منى حقا إن كان له ، أو أحلنى منه فلقيت الله وأنا طيب النفس ...

---

(١) صحيح أخرجه ابن اسحق ، عن عائشة بسنده السابق وهو فى البخارى (١١٦/١١٥/٨) ومسلم (٢٢/٢١/٢) نحوه .

وقد أرى أن هذا غير مُغْنٍ عنى حتى أقوم فيكم مراراً ......»

قال الفضل : ثم نزل ﷺ فصلى الظهر ، ثم رجع فجلس على المنبر فعاد لمقالته الأولى فى الشحناء وغيرها .

فقام رجل فقال : يا رسول الله إن لى عندك ثلاثة دراهم ، فقال : أعطه يا فضل ثم قال النبى ﷺ :

أيها الناس من كان عنده شئ فليؤده ، ولا يقل : فضوح الدنيا ، ألا وإن فضوح الدنيا أيسر من فضوح الآخرة .

فقام رجل وقال : يا رسول الله ، عندى ثلاثة دراهم غللتها فى سبيل الله.

قال : ولم غللتها ؟ قال : كنت إليها محتاجاً .. قال : خذها منه يا فضل

ثم قال : أيها الناس ، من خشى من نفسه شيئا فيلقم أدْعُ له .

فقام رجل فقال : يا رسول الله ، إنى لكذاب .. إنى لفاحش .. إنى لنؤوم ..

فقال النبى ﷺ :

اللهم أرزقة صدقاً .. وإيماناً .. وأذهب عنه النوم .

ثم قال رجل آخر فقال : والله يا رسول الله ، إنى لكذاب ، وإنى لمنافق ، وما من شئ إلا قد جنيته .

فقام عمر بن الخطاب فقال : فضحت نفسك ...

فقال النبى ﷺ : يا ابن الخطاب ، فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة اللهم أرزقة صدقا وإيمانا وصَيِّر أمره إلى خير[1] .

---

(١) ضعيف جدا أخرجه العقيلى فى « الضعفاء » والبيهقى فى الدلائل من طريق القاسم بن يزيد بن عبد الله بن قسيط عن أبيه عن عطاء عن ابن عباس عن اخيه الفضل قال ابن المدينى : عطاء هذا هو عندى عطاء بن يسار وليس له أصل من حديث عطاء بن أبى رباح ، ولا عطاء بن يسار ، وأخاف أن يكون عطاء الخراسانى لأنه يرسل عن ابن عباس قال الذهبى : قلت : أخاف أن يكون كذبا مختلقا وقال الحافظ ابن كثير فى التاريخ (٥/ ٢٣١) وفى اسناده ومتنه غرابة شديدة .

وعاد النبى ﷺ إلى بيته اللاصق بالمسجد ، لينام فى فراش السّقام !! وهو الذى لم يتعود أن يركن إليه أو يهدأ فيه ...!

كانت هناك مهام كثيرة ترتقب صحوة لِيَبُتَّ فيها ولكن أعباء العِلّة حبسته فى قيودها ، فلم يستطع منها فكاكا !! وإذا استطاع أن يخرج فى فترات قليلة تخف فيها حدة المرض فإلى المسجد ليلقى نظرة أخيرة على الأمة التى صنعها ، والرجال الذين أحبهم ....!!!

عن أبى سعيد الخدرى :

أن رسول الله ﷺ جلس يوما على المنبر فقال :

« إن عبدا خَيَّره الله بين أن يؤتيه من زهرة الدنيا ما شاء وبين ما عند الله، فاختار ما عند الله » فبكى أبو بكر ثم قال : فديناك بآبائنا وأمهاتنا يا رسول الله !!!

قال أبو سعيد : فتعجبنا له ... وقال الناس : أنظروا إلى هذا الشيخ يخبر رسول الله ﷺ عن عبد يُخَيَّر ويقول : فديناك بآبائنا وأمهاتنا ....

قال : فكان رسول الله ﷺ هو المُخيَّر ، وكان أبو بكر أعلمنا به .....

فقال رسول الله ﷺ : « إن أمنَّ الناس على فى صُحبته وماله أبو بكر ، ولو كنتُ متخذاً خليلاً ، لا تخذت أبا بكر خليلا ، ولكن إخوة الإسلام »

وفى رواية : ولكن صحبة ، وإخاء إيمان ، حتى يجمع الله بيننا عنده(1) .

وحدث فى أثناء المرض أن مَرَّت أوقات هادئة خيلت لمحبى الرسول ﷺ أن أمانيهم فى عافيته نجحت ، وأنه يوشك أن يقوم ليستأنف كفاحه فى سبيل

---

(1) صحيح أخرجه البخارى (٧/٩-١٠ ، ١٨٣) والسياق له ومسلم (٧/ ١٠٨) عن أبى سعيد ، والرواية الأخرى عن ابن هشام (٢/٣٦٩) عن ابن اسحق بسنده عن بعض آل سعيد بن المعلى وهو ضعيف لجهالة هذا البعض : وقد رواه أحمد (٤/٢١١- ٢١٢) من طريق ابن أبى المعلى عن أبيه ورجاله ثقات غير الابن المذكور فلم أعرفه وقد قال ابن كثير (٥/ ٢٣٠) : وقالوا : « صوابه أبو سعيد بن المعلى » .

الله ، وليظل يحبوهم بعطفه وحرصه وإيناسه ورحمته فعن عبد الله بن كعب بن مالك ، أن ابن عباس أخبره أن على بن أبى طالب خرج من عند رسول الله ﷺ فى وجعه الذى توفى فيه فقال الناس : يا أبا الحسن ، كيف أصبح رسول الله ﷺ ؟ قال : أصبح بحمد الله بارئا ....

فأخذ بيده العباس بن عبد المطلب فقال : ألا ترى ؟ أنى أرى رسول الله ﷺ سيتوفى فى وجعه هذا ، وإنى لأعرف وجوه بنى عبد المطلب عند الموت !!!

فاذهب إلى رسول الله ﷺ ، فسله فيمن يكون هذا الأمر ؟ فإن كان فينا علمنا ذلك وإن كان فى غيرنا إستوصى بنا خيرا .

قال على : والله لئن سألناها رسول الله ﷺ فمنعناها لا يعطيناها الناس أبداً ، والله لا أسالها رسول الله أبدا[1] .

وظاهر أن العباس يعنى الخلافة .. فقد شعر الرجل بأن النبى ﷺ فى مرض الموت ، وخبرته بأقاربه حين يحتضرون جعلته صادق الحدس فى تبيُّن مصايرهم .

ولما كان عميد بنى هاشم ، فقد أهمه أن يعرف لمن ستكون سيادة الناس بعد وفاة الرسول ﷺ وقد إتجه إلى على يبثه مكنون نفسه لأن عليا - بسابقته وكفايته ومنزلته فى الناس وموضعه من الرسول - يُعَدُّ أول بنى هاشم ترشيحا لهذا الأمر .

بيد أن علياً كره أن يكلم النبى فى ذلك ، وآثر ترك الأمر لجمهور المسلمين .

وكان النبى ﷺ نفسه قد هَمَّ بكتابة عهد يمنع شغب الطامعين فى الحكم، ثم بداله ، فاختار أن يدع المسلمين وشأنهم ، ينتخبون لقيادتهم من يحبون[2] .

★ ★ ★

---

(١) صحيح أخرجه البخارى (٨/١١٦-١١٧) .

(٢) يشير إلى حديث ابن عباس مرفوعا : هلموا اكتب لكم كتابا .. أخرجه البخارى (٨/١١٠) .

وزادت وطأة المرض على رسول الله ﷺ !!! وعانى من بُرحَائه ألماً مضاعفاً..! حتى تأذت فاطمة إبنته من شدة ما يلقى فقالت : .... واكرب أبتاه ....!!

فقال ﷺ : لا كرب على أبيك بعد اليوم ، وأشار إليها بالدُنوُ منه ... فاقتربت منه .. فهمس فى أذنها همسة .. فبكت السيدة فاطمة رضى الله عنها .. وما لبث الرسول ﷺ أن همس إليها ثانية ، فضحكت فتعجبت زوجات الرسول ﷺ لبكاء فاطمة وضحكها فى جلسة واحدة .. فاقتربت منها عائشة أم المؤمنين تسألها عن سرّ بكائها ثم ضحكها ، واستفسرت عما همس به الرسول ﷺ فأجابت السيدة فاطمة رضى الله عنها : ما كان لى أن أذيع سراً إئتمننى عليه رسول الله .

وبعد انتقال النبى صلوات الله عليه إلى الرفيق الأعلى ، أعادت السيدة عائشه سؤال فاطمة عن سر بكائها وضحكها فقالت : لقد أسَرَّ إلى ﷺ ، أنه سوف يلحق بربه ، فبكيت ، ثم أخبرنى أننى سأكون أول من يلحق به من أهله ، فسررت وضحكت .

وترامت الأخبار إلى جيش أسامة الذى كان أرسله إلى فلسطين .. فشاع الحزن والاضطراب فى صفوفه .

عن محمد بن أسامة عن أبيه قال : لما ثقل المرض برسول الله ﷺ هبطت وهبط الناس معى إلى المدينة ، فدخلنا على رسول الله ﷺ ، وقد أصمت لا يتكلم فجعل يرفع يده إلى السماء ثم يضعها علىّ فعرفت أنه يدعو لى[1] .

قال ابن اسحق : قال الزهرى : وحدثنى عبد الله بن كعب بن مالك أ ن رسول الله ﷺ قال يوم صلى واستغفر لأصحاب « أحد » وذكر من أمرهم ما ذكر مع مقالته يومئذ : « يا معشر المهاجرين إستوصوا بالأنصار خيراً ، فإن الناس يزيدون وإن الأنصار على هيئتها لا تزيد ، وأنهم كانوا عيبتى

----

(١) صحيح رواه الترمذى (٤/ ٣٥٠) وحسنه ابن هشام (٢/ ٣٧٠)

التى أويت إليها ، فأحسنوا إلى مُحسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم » ثم نزل رسول الله ﷺ فدخل بيته وتتام به وجعه حتى غمر . (حديث صحيح)

وأغمى عليه مرة فاجتمع إليه نساء من نسائه ، أم سلمة ، وميمونه ، ونساء من نساء المسلمين منهن أسماء بنت عميس ، وعنده العباس عمه ، فأجمعوا على أن يلدوه[1] ، وقال العباس : لألدنه فلما أفاق رسول الله ﷺ كره ذلك منهم ، وقال : مَن صنع هذا بى ؟

قالوا : يا رسول الله ، عمى

قال العباس : هذا دواء أتى به نساء جئن من نحو هذه الأرض، وأشار نحو أرض الحبشة

قال ﷺ : « ولم فعلتم ذلك ؟

فقال عمه العباس : خشينا يا رسول الله أن يكون بك ذات الجنب .

فقال رسول الله ﷺ : «إن ذلك لداء ما كان الله ليقذفنى به ، لا يبق فى البيت أحد إلا لُدَّ إلا عمى » فقد لدت ميمونة وإنها لصائمه لقسم رسول الله ﷺ ، عقوبة لهم بما صنعوا به (حديث صحيح عن ابن اسحق عن الزهرى بسنده السابق)

وكان بجوار رسول الله ﷺ قدح فيه ماء .. يغمس فيه يده ثم يمسح بالماء وجهه ويقول « اللهم أعنى على سكرة الموت »[2].

وقال ابن اسحق : قال شهاب الزهرى : حدثنى عبيد الله بن عبد الله ابن عتبة عن عائشه قالت :كان رسول الله ﷺ كثيرا ما أسمعه يقول : « إن الله لا يقبض نبيا حتى يخبره » قالت : فلما حضر رسول الله ﷺ ،

---

(١) لدّ الرجل : سقاه اللدود وهو دواء ، واللدود دواء يصب بالمسعط فى أحد شقى الفم انظر المنجد مادة لدَّ .

(٢) اخرجه الترمذى (١٢٨/٢) وغيره من طريق موسى بن سرجس عن القاسم بن محمد عن عائشة .

كان آخر كلمة سمعتها منه وهو يقول : « بل الرفيق الأعلى من الجنة » قالت : قلت : إذا والله لا يختارنا ، وعرفت أنه الذى كان يقول لنا : « إن نبياً لم يقبض حتى يُخبر »   (إسناده صحيح)

وحين عجز النبى ﷺ عن الصلاة بالناس ، استقدم أبا بكر ليؤمهم فخشيت عائشة أن يكره الناس أباها ويتشاءموا من طلعته .. فقالت : إن أبا بكر رجل رقيق ، ضعيف الصوت كثير البكاء ، إذا قرأ القرآن ، وأنه متى يقم مقامك لا يطيق .

فقال ﷺ : مروا أبا بكر فليصل بالناس ...

فكررت عائشة إعتراضها .. فغضب رسول الله وقال :

إنكن صواحب يوسف .. مُروا أبا بكر فليصل بالناس ...[1].

قالت عائشه : فو الله ما أقول ذلك إلا أنى كنت أحب أن يصرف ذلك عن أبى بكر ، وعرفت أن الناس لا يحبون رجلاً قام مقام رسول الله ﷺ أبداً ، وأن الناس سيتشاءمون به فى كل حدث كان ، فكنت أريد أن يصرف ذلك عن أبى بكر .

وصلى أبو بكر بالناس سبع عشرة صلاة

وهذه الأيام التى تخلف فيها النبى ﷺ عن أن يؤم المسلمين ، كانت من أشد الأيام ثقلاً عليه ، وصَحَّ عنه أنه قال : « إنى أوعك كما يوعك الرجلان منكم »[2] .

ومع فيْح الحمى وحدة مَسِّها لبدنه ، فقد ظل يقظ الذهن .. مهموما بتعاليم الرسالة .. حريصا على تذكير الناس بها ، وكان يخشى أن ترتكس أمته ، فتتعلق بالأشخاص والأضرحة كما ارتكس أهل الكتاب الأولون .

---

(١) صحيح أخرجه البخارى (٢/ ١٣٠) ومسلم (٢/ ٢٠-٢٤) عن عائشه .

(٢) أخرجه الشيخان وغيرهما عن ابن مسعود .

وَشِدَّتُهُ فى إخلاص التوحيد لله هى التى جعلته - وهو يعالج سكرات الموت - يرهب المسلمين من هذه المزالق .

عن عائشه وابن عباس قالا : لما نُزِلَ برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه ، فإذا إغتم كشفها عن وجهه وقال - وهو كذلك - « لعنه الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد - يُحَذِّر ما صنعوا »[1].

وكان يخشى أن تغلب شهوات الغى والكبر على أمته ...

فإن الذين يتبعون شهوات الغى ينسون الصلاة .. والذين يتبعون شهوات الكبر يطغون على ما تحت أيديهم من خدم ومرءوسين ورقيق .

والأمة التى تستبد بها هذه الشهوات ، لا تصلح للحياة ، ولا تصلح بها حياة .. ومن اليسير أن يتركها الله تلقى جزاء ما تصنع، وهو خزى الدنيا وعذاب الآخرة .

هذه الخشية .. حملت النبى صلوات الله وسلامه عليه وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة أن ينبه المسلمين إلى معاقد الخير ليتمسكوا بها .

عن أنس بن مالك قال :

كانت عامة وصية رسول الله ﷺ - حين حضره الموت - الصلاة .. وما ملكت أيمانكم ، حتى جعل رسول الله ﷺ يغرغر بها صدره ، وما يكاد يفيض بها لسانه[1] .

---

(١) صحيح أخرجه ابن ماجة (٢/١٥٥) وأحمد (٣/١١٧) وغيرهما عن قتادة بن أنس وفيه خلاف على قتادة بينه الحافظ بن كثير فى (البداية) (٥/٢٣٨-٢٣٩) وذكر عن البيهقى أنه قال : « والصحيح ما رواه عفان عن همام عن قتادة عن أبى الخليل عن سفينة عن أم سلمة به » قلت : وهذا سند متصل صحيح وله شاهد من حديث على نحوه ، رواه ابن ماجه وأحمد رقم (٥٨٥) واسناده صحيح .

(٢)صحيح أخرجه ابن ماجه(٢/١٥٥)واحمد (٣/١١٧) وغيرهما عن قتادة عن أنس .

وربما غلبه الشوق لحضور الجماعة ورؤية الأصحاب فى أيامه الأخيرة .. فكان ﷺ يتحامل على جسمه المنهوك .. وينسل إلى المسجد من حجرة عائشة فصلى بالناس وهو قاعد .

قال ابن عباس : لما مرض النبى ﷺ ، أمر أبا بكر أن يصلى بالناس .. ثم وجد خفه فخرج ، فلما أحس أبو بكر أراد أن ينكص ، فأومأ إليه الرسول ﷺ ، فجلس إلى جنب أبى بكر عن يساره ، واستفتح من الآية التى إنتهى إليها أبو بكر ، فكان أبو بكر يأتم بالنبى والناس يأتمون بأبى بكر[1] .

على أن أبا بكر ظل يصلى بالناس هذه الأوقات التى مرض فيها رسول الله ﷺ - كما ذكرنا سابقا - حتى صبيحة اليوم الذى قُبض فيه .

وكان الرسول ﷺ معلق القلب بشئون أمته .

وكأن الله أراد أن يطمئنه على كمال إنقيادها وحسن اتباعها ، فأشهده آخر وقت حضره وهو فى الدنيا ، إذ أقبل المؤمنون من بيوتهم إلى المسجد فجر الإثنين الذى قُبض فيه ، واصطفوا لصلاتهم خُشّعاً مخبتين، وراء إمام رقيق التلاوة ، فياض الإخلاص ، ورفع النبى ﷺ الستر المضروب على منزل عائشة ، وفتح الباب وبرز للناس ، فكاد المسلمون يفتتنون فى صلاتهم ابتهاجاً برؤيته .. وتفرجوا يفسحون له مكاناً ، فأشار بيده ، أن أثبتوا على صلاتكم ، وتبسم فرحاً من هيئتهم فى صلاتهم .

---

(١) صحيح أخرجه ابن ماجه (٢/١٥٥) وأحمد (٣/١١٧) وغيرهما عن قتادة عن أنس

(٢) صحيح أخرجه أحمد (٢٠٥٥ ، ٣٣٣٠ ، ٣٣٥٥) وابن ماجه (١/٣٧٣) من طريق ابن اسحق عن الارقم بن شرحبيل عن ابن عباس .

قال أنس بن مالك : ما رأيت رسول الله أحسن هيئه منه فى تلك الساعه.....[1] ثم رجع وانصرف الناس ، وهم يظنون أن رسول الله ﷺ قد أفاق من وجعه واطمأن أبو بكر لهذا الظن ، فرجع إلى أهله بـ (السنح) فى ضواحى المدينة[2] .

قالت عائشه :

وعاد رسول الله ﷺ من المسجد فاضطجع فى حجرى .. ودخل علينا رجل من آل أبى بكر فى يده سواك أخضر ، فنظر رسول الله ﷺ إلى يده نظرة عرفت منها أنه يريده فأخذته فألنته له ، ثم أعطيته إياه .

فاستن به كأشد ما رأيته يستن بسواك قبله ثم وضعه .

وطلب رسول الله ﷺ من نسائه الخروج ... فقد جاء جبريل ...

قالت عائشه : وجاء جبريل فقال : « السلام عليك يا رسول الله ... هذا آخر ما أنزل فيه إلى الأرض أبدا .. طوى الوحى .. وطويت الدنيا .. وما كان بى فى الأرض حاجة غيرك ، ومالى فيها حاجة إلا حضورك » .

وبدأ الرسول الحبيب الغالى يدخل فى دور الغيبوبة .. فكان إذا أفاق يقول « لا إله إلا الله » .

فلما خرج من آخر اغماءه قال : « بل الرفيق الأعلى » ..

وتقول السيدة عائشه : وجدت رسول الله ﷺ يثقل فى حجرى .. فأخذت أنظر فى وجهه .. فإذا بصره قد شخص وهو يقول : بل الرفيق الأعلى من الجنة.......

---

(١) صحيح أخرجه البخارى (٢/ ١٣٠-١٣١ ، ٨/ ١١٧) ومسلم (٢/ ٢٤-٢٥) وغيرهما عن أنس ونحوه ، ورواه ابن هشام (٢/ ٢٧٠-٢٧١) عن ابن اسحق عن الزهرى عن أنس بلفظ الكتاب وفيه انقطاع .

(٢) هو من تمام حديث أنس عن ابن اسحق .

قالت : قلت : خُيِّرتَ فاخترت ، والذى بعثك بالحق .....

وقبض رسول الله ﷺ [1] وكانت وفاته فى يوم الإثنين لاثنتى عشرة ليلة خلت من ربيع الأول من السنة الحادية عشرة للهجرة (٨ يونية سنه ٦٣٢م).

وعن عائشه رضى الله عنها تقول[2] :

مات رسول الله ﷺ بين سحرى ونحرى وفى دولتى ، لم أظلم فيه أحداً ... فمن سفهى وحداثة سنى أن رسول الله ﷺ قُبض وهو فى حجرى ، ثم وضعت رأسه على وسادة ، وقمت التدم مع النساء وأضرب وجهى !!! .

وتسرب النبأ الفادح من البيت المحزون !!! وله طنين فى الآذان !! وثقل ترزح تحته النفوس وتدور به البصائر والأبصار ....!!

وشعر المؤمنون بأن آفاق المدينة أظلمت .. فتركتهم لوعة الثكل حيارى ... لا يدرون ما يفعلون ...!

ووقف عمر بن الخطاب - وقد أخرجه الخبر عن وعيه - يقول :

إن رجالا من المنافقين يزعمون أن رسول الله ﷺ توفى .. وإن رسول الله ما مات .. ولكن ذهب إلى ربه كما ذهب موسى بن عمران ، فغاب عن قومه أربعين ليلة .. ثم رجع بعد أن قيل قد مات ....

والله ليرجعن رسول الله ﷺ، فليقطعن أيدى رجال وأرجلهم يزعمون أنه مات

وأقبل أبو بكر حتى نزل على باب المسجد حين بلغه الخبر ، وعمر يكلم الناس .. فلم يلتفت إلى شئ حتى دخل على رسول الله ﷺ فى بيت عائشة رضى الله عنها ، ورسول الله ﷺ مسجى فى ناحية البيت ، عليه بُرْدٌ حَبَرَةٌ. فأقبل حتى كشف عن وجهه ﷺ ، ثم أقبل عليه ، فقبله ، ثم قال :

---

(١) صحيح رواه ابن هشام (٣٧١/٢) عن ابن اسحق بسنده الصحيح وهو فى البخارى (١٠٧/٨-١١١-١١٢-١١٣-١١٧-١١٨) نحوه مفرقا .

(٢) اسناده صحيح عن ابن اسحق عز يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير عن أبيه .

بأبى أنت وأمى ... أما الموتة التى كتب الله عليك فقد ذقتها ، ثم لن تصيبك بعدها موتة أبداً .. ثم ردَّ البرد على وجهه ﷺ .

ثم خرج وعمر يكلم الناس فقال :

على رسلك يا عمر ، أنصت ، فأبى إلا أن يتكلم ، فلما رآه أبو بكر لا ينصت ، أقبل على الناس فلما سمع الناس كلامه أقبلوا عليه وتركوا عمر .

فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

أيها الناس ، إنه من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات ....

ومن كان يعبد الله ، فإن الله حى لا يموت .. ثم تلا هذه الآيه :

« وما محمد إلا رسول قدخلت من قبله الرسل افإن مات أو قتل إنقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئا وسيجزى الله الشاكرين »[1] .

فوالله لكأن الناس لم يعلموا أن هذه الآية نزلت حتى تلاها أبو بكر يومئذٍ ، وأخذها الناس عن أبى بكر ، فإنما هى فى أفواههم .

قال عمر : والله ما هو إلا أن سمعت أبا بكر تلاها فعُقِرت (دهشت) حتى وقعت على الأرض وما تحملنى رجلاى .. وعرفت أن رسول الله ﷺ قد مات[2]...

ولما قبض رسول الله ﷺ ، إنحاز هذا الحى من الأنصار إلى (سعد بن عبادة) فى سقيفه بنى ساعدة ، واعتزل على بن أبى طالب ، والزبير بن العوام ، وطلحة بن عبيد الله فى بيت فاطمة ، وانحاز بقية المهاجرين إلى أبى بكر ، وانحاز معهم (أسيد بن حضير) فى بنى عبد الأشهل فأتى آت إلى أبى بكر وعمر فقال :

----

(١) سورة آل عمران آيه ١٤٤ .

(٢) عن ابن اسحق عن الزهرى عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة واسناده صحيح .

إن هذا الحى من الأنصار مع سعد بن عبادة فى سقيفة بنى ساعدة قد انحازوا إليه ، فإن كان لكم بأمر الناس حاجة ، فادركوا قبل أن يتفاقم أمرهم ، ورسول الله ﷺ فى بيته لم يفرغ من أمره ، قد أُغلق دونه الباب أهله .

قال عمر : فقلت لأبى بكر :

إنطلق بنا إلى إخواننا هؤلاء من الأنصار ، حتى ننظر ما هم عليه .

فلما بويع أبو بكر رضى الله عنه ، أقبل الناس على جهاز رسول الله ﷺ يوم الثلاثاء .

★★★

﴿ جهاز رسول الله ﷺ ودفنه ﴾

قال ابن اسحق : وحدثنى يحيى بن عباد عن عبد الله بن الزبير عن أبيه عباد عن عائشة قالت :

لما أرادوا غُسل رسول الله ﷺ إختلفوا فيه ، فقالوا : والله ما ندرى أنجرد رسول الله ﷺ من ثيابه كما نجرد موتانا من ثيابهم ، أو نغسله وعليه ثيابه؟؟!

قالت : فلما اختلفوا ألقى الله عليهم النوم حتى ما منهم رجل إلا ذقنه فى صدره ، ثم كلمهم مكلم من ناحية البيت لا يدرون من هو : أن غسلوا النبى ﷺ وعليه ثيابه ، قالت فقاموا إلى رسول الله ﷺ فغسلوه وعليه قميصه ، يصبون الماء فوق القميص ويدلكونه والقميص دون أيديهم .

(إسناده صحيح)

قال ابن اسحق : فلما فرغ من غسل رسول الله ﷺ كُفِن فى ثلاثة أثواب ، ثوبين صحاريين[1] وبرد حبرة أُدرج فيه إدراجا .

----

(١) نسبة إلى صحار : مدينة باليمن .

ولما أرادوا أن يحفروا لرسول الله ﷺ وكان أبو عبيدة بن الجراح يضرح كحفر أهل مكة ، وكان أبو طلحة زيد بن سهل هو الذى يحفر لأهل المدينة ، فكان يلحد ، فدعا العباس رجلين فقال لأحدهما : إذهب لأبى عبيدة بن الجراح .. وللآخر : إذهب إلى أبى طلحة ، اللهم خِرْ لرسول الله ﷺ فوجد صاحب أبى طلحة أبا طلحة ، فجاء به ، فلحد لرسول الله ﷺ .

فلما فرغ من جهاز رسول الله ﷺ يوم الثلاثاء ، وضع على سريره فى بيته ، وقد كان المسلمون إختلفوا فى دفنه .

فقال قائل : ندفنه فى مسجده

وقال قائل : بل ندفنه مع أصحابه ..

فقال أبو بكر : إنى سمعت رسول الله ﷺ يقول :

« ما قُبض نبى إلا دفن حيث يُقبض » .

فرفع فراش رسول الله ﷺ الذى توفى عليه فحفر له تحته ، ثم دخل الناس عليه ﷺ يصلون عليه أرسالا .. دخل الرجال حتى إذا فرغوا أدخل النساء ، حتى إذا فرغ النساء أدخل الصبيان ، ولم يؤم الناس على رسول الله ﷺ أحد.

ثم دفن رسول الله ﷺ من وسط الليل ليلة الأربعاء .

قال ابن إسحق :

وحدثنى عبد الله بن أبى بكر عن إمرأته فاطمة بنت عمارة ، عن عُمرة بنت عبد الرحمن بن سعد بن زرارة ، عن عائشه رضى الله عنها قالت : ما علمنا بدفن الرسول ﷺ حتى سمعنا صوت المساحى من جوف الليل من ليلة الأربعاء .

وكان الذين نزلوا فى قبر رسول الله ﷺ علىّ بن أبى طالب والفضل بن العباس وقثم بن عباس وشقران مولى رسول الله ﷺ ، وقد قال أوس بن خولى لعلى بن أبى طالب : يا على ، أنشدك الله وحظنا من رسول الله ﷺ

فقال له : إنزل فنزل مع القوم .

وقد كان مولاه شقران - حين وضع رسول الله ﷺ فى حفرته وبنى عليه - قد أخذ قطيفة قد كان رسول الله ﷺ يلبسها ويفترشها ، فدفنها فى القبر وقال: والله لا يلبسها أحد بعدك أبداً .. فدفننت مع رسول الله ﷺ وقد كان المغيرة بن شعبه يدعى أنه احدث الناس عهداً برسول الله ﷺ ويقول : أخذت خاتمى ، فألقيته فى القبر ، وقلت إن خاتمى سقط منى ، وإنما طرحته عمداً لأمس رسول الله ﷺ فأكون أحدث الناس عهدا به ﷺ .

بيد أن أحدث الناس عهداً برسول الله ﷺ هو (قثم بن عباس)[1] .

وقال ابن اسحق :

لما توفى رسول الله ﷺ عظمت به مصيبة المسلمين ، فكانت عائشه - فيما بلغنى تقول : لما توفى رسول الله ﷺ إرتدّت العرب واشرأبت اليهودية والنصرانية ونجم النفاق ، وصار المسلمون كالغنم المطيرة فى الليلة الشاتية لفقد نبيهم ﷺ حتى جمعهم الله على أبى بكر .

وقال حسان بن ثابت يبكى رسول الله ﷺ فيما حدثنا ابن هشام عن أبى زيد الأنصارى :

---

(١) عن أبى اسحق ، بن يسار عن مقسم أبى القاسم مولى عبد الله بن الحارث بن نوفل عن مولاه عب الله بن الحارث عن على بن أبى طالب اسناده صحيح .

بطيبة رسم للرسول ومعهد | منير وقد تعفو الرسوم وتهمد
ولا تمتحي الآيات من دار حرمة | بها منبر الهادى الذى كان يصعد
وواضع آثار وباقى معالم | وربع له فيه مصلى ومسجد
بها حجرات كان ينزل وسطها | من الله نور يستضاء ويوقد
معارف لم تطمس على العهد أيها | أتاها البلى فالآى منها تجدد
عرفت بها رسم الرسول وعهده | وقبراً بها واراه فى الترب ملحد
ظللت بها أبكى الرسول فأسعدت | عيون ومثلاها من الجفن تسعد
يذكرن آلاء الرسول وما أرى | لها محصيا نفسى فنفسى تبلد
مفجعة قد شفّها فَقْد أحمد | فظلت لألاء الرسول تعدد
أطالت وقوفا تذرف العين جهدها | على طلل القبر الذى فيه أحمد
فبوركت يا قبر الرسول وبوركت | بلاد ثوى فيها الرشيد المسدد
وبورك لحد منك ضمن طيبا | عليه بناء من صفيح منضد
تهيل عليه التراب أيد وأعين | عليه وقد غارت بذلك أسعد
لقد غيبوا حلما وعلما ورحمة | عشية علوه الثرى لا يوسد
وراحوا بحزن ليس فيهم نبيهم | وقد وهنت منهم ظهور وأعضد

﴿ الخاتمة ﴾

وبعد يا سيدى يا رسول الله ... عام كامل واصلت فيه الليل بالنهار أوكدْتُ .. عشت معك منذ مولدك .. تنسمت عبير أنفاسك وأنت رضيعا فى حضن أمك.. ثم فى رعاية مرضعتك .. ثم رأيتك تلهو مع أبنائها وتنمو سريعا .. رأيتك حين ضمتك أمك فى صدرها فرحة بعودتك إلى حضنها .. وأحسست بيتمك حين عدت من رحلتك معها الأولى والأخيرة بعد رحيل أمك فى الطريق .. ورأيت حُنو الجد ، وعطف العم ومؤازرته .. عشت معك ليالٍ نور بعيدا عن ظلمة كانت تغلف مكة تتأمل . تبحث عن الحقيقة .. كنتُ معك ليلة جاءك الوحى من السماء . . وساعة خففت عنك خديجة روعك كنت معك فى صمودك وصبرك وكفاحك وجهادك .. وهجرتك ... كنت معك فى كل غزوة غزوتها ، وكل معركة خضتها .. وكل خطوة .. وكل حركة .. شاهدت كل مشهد خضته ، وتألمت لألمك، وفرحت لإنتصاراتك المتواصلة ....

ويوم فتح مكة .. كنت هناك معك يوم زحفك نحو مسقط رأسك .. بلدك .. وتخيلتك تستعيد ذكريات ليلة خرجت منها متخفيا من قتله يتربصون بك ... وعودتك تحفك عناية الله وجنوده ... وجرذان هزيلة تختفي وراء الجدر رهبة منك وخوفا .. ودخولك ساجدا لله على ناقتك القصواء ... كنت معك ... عشت معك ... أحسست بك حتى أصبح ما بيننا عشرة .. والله عشرة .... وبالأمس ختمت كتابى عنك بذكر أحداث مرضك يا سيدى ... ووفاتك ... بكيت ... وانتحبت ومازلت !!! .

ولا أستطيع إلا أن أقول ... أنك كنت وستظل الأسوة التى نتأسى بها فى خضم حياتنا فكل صعب نلاقيه يذوب ويتلاشى أمام كفاحك وتعبك

وجهدك ومعاناتك وصمودك وصبرك ... كنت لنا - وستظل - قُدوة ... وكل صعب يهون أمام مالاقيته يا سيدى يا حبيبى يا رسول الله ، ولا يسعنى إلا أن أقف خاشعة أمام محرابك وأقول :

السلام عليك يا رســـول الله	السلام عليك يا نـــبى الله ..
السلام عليك يا أمـــين الله	السلام عليك يا حبيـــب الله
السلام عليك يا صفوة خلق الله	السلام عليك يا أحمد يا محمد
السلام عليك يا أبا القـــاسم	السلام عليك يا سيد المرسلـــين
السلام عليك يا خاتم النبـــين	السلام عليك وعلى أصحابك الطيبين

وعلى أزواجك الطاهرات أمهات المؤمنين وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأشهد أنك عبده ورسوله وأمينه وصفيه وخيرته من خلقه ... وأشهد أنك بلغت الرسالة .. وأديت الأمانة .. ونصحت الأمة وجاهدت عدوك وهديت أمتك وعبدت ربك حتى أتاك اليقين وصلى الله عليك وعلى أهل بيتك الطيبين وسلم وشرف وكرم وعظم .

وأطلب وأرجو من الله جل شأنه أن يتقبل ما حاولت تدوينه عن رسوله وحبيبه ﷺ .

تمت كتابته ولله الحمد والشكر في يوم الأحد ٢٥ من المحرم سنة ١٤١٨هـ ١ من يونيه سنه ١٩٩٧ .

محاسن محمد الإسكندرانى
حرم فتحى زمزم المحامى
١٢ شارع المديرية
طنطا غربية ت ٣٣٣٣٧٠٠

مراجع الكتاب

١ - صحيح السيرة النبوية لابن هشام

٢ - كتاب محمد رسول الله للإمام الفاضل محمد متولى الشعراوى - وكتاب معجزات الرسول

٣ - كتاب فقه السيرة للشيخ الجليل محمد الغزالى

٤ - كتاب مطلع النور للعالم الفاضل عباس محمود العقاد

٥ - كتاب الرسول ﷺ لمحات من حياته ونفحات من هديه للدكتور عبد الحليم محمود .

٦ - كتاب الإسراء والمعراج للدكتور عبد الحليم محمود

٧ - كتاب محمد رسولاً نبياً للكاتب الفاضل عبد الرزاق نوفل .

٨ - كتاب محمد بنى البر لابراهيم الابيارى

٩ - كتاب محمد وهؤلاء للدكتور طه حسين والدكتور محمد حسين هيكل وللفاضل عباس العقاد وللسيد الفاضل توفيق الحيكم وللسيد الفاضل عبد الرحمن الشرقاوى .

١٠- كتاب محمد الرسول الأعظم للشيخ الفاضل محمود شلتوت

١١ - كتاب محمد الإنسان والرسول للكتاب الأفاضل : مصطفى صادق الرافعى عباس محمود العقاد والدكتور طه حسين .

١٢ - مجموعة سيرة الرسول ﷺ إشراف محمد أحمد برانق .

١٣ - كتاب إحياء علوم الدين لأبى حامد الغزالى .

الفهـــــرس



